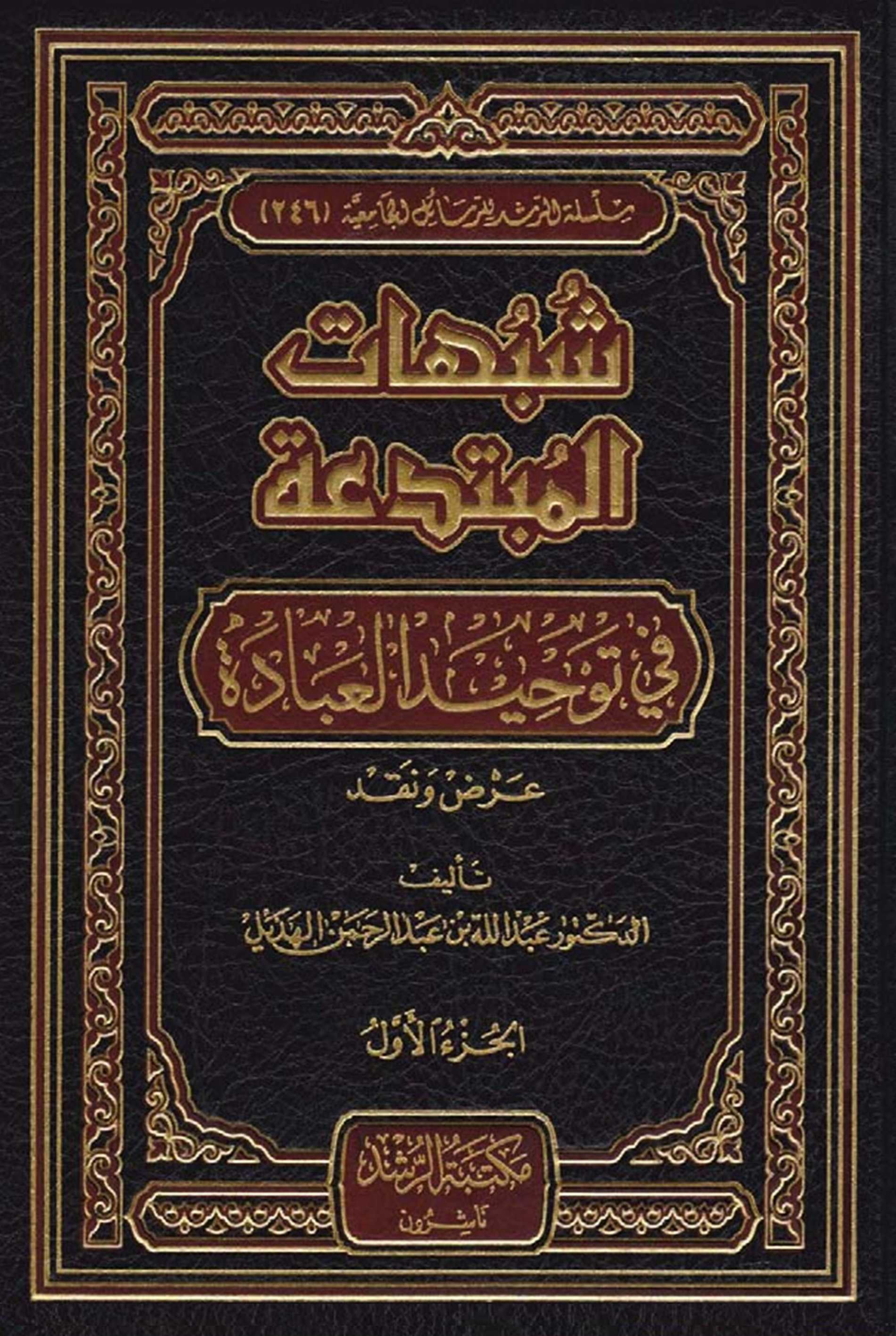

سلسلة الرشد للرسائل الجامعية (٢٤٦)
شبهات المبتدعة
في توحيد العبادة
عرض ونقد
تأليف
الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الهذيل
الجزء الأول
مكتبة الرشد
ناشرون

أصل هذا الكتاب رسالة علمية (دكتوراه) بكلية أصول الدين قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض

الطبعة الثانية

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م

مكتبة الرشد - ناشرون
المملكة العربية السعودية - الرياض
الإدارة: مركز البستان - طريق الملك فهد هاتف ٤٦٠٢٥٩٠
ص.ب. ١٧٥٢٢ الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٦٠٤٨١٨ - فاكس ٤٦٠٢٤٩٧

E-mail:rushd@rushd.com.sa
Website:www.rushd.com.sa

فروع المكتبة داخل المملكة

- الرياض: المركز الرئيسي: الدائري الغربي، بين مخرجي ٢٧ و ٢٨ هاتف ٤٣٢٩٣٣٢ فاكس ٤٣٢٩٣٧٥
- الرياض: فرع الشمال، طريق عثمان بن عفان، هاتف ٢٦٩٠٤٤٤ ٢٠٥١٥٠٠
- فرع مكة المكرمة: شارع الطائف هاتف: ٥٥٨٥٤٠١ فاكس: ٥٥٨٣٥٠٦
- فرع المدينة المنورة: شارع أبي ذر الغفاري هاتف: ٨٣٤٠٦٠٠ فاكس ٨٣٨٣٤٢٧
- فرع جدة: مقابل ميدان الطائرة هاتف: ٦٧٧٦٣٣١ فاكس ٦٧٧٦٣٥٤
- فرع القصيم: بريدة - طريق المدينة هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٢٤١٣٥٨
- فرع أبها: شارع الملك فيصل: هاتف ٢٣١٧٣٠٧ فاكس ٢٢٤٢٤٠٢
- فرع الدمام: شارع الخزان هاتف: ٨١٥٠٥٦٦ فاكس ٨٤١٨٤٧٣
- فرع حائل هاتف ٥٣٢٢٢٤٦ فاكس ٥٦٦٢٢٤٦
- فرع الإحساء: هاتف ٥٨١٣٠٢٨ فاكس ٥٨١٣١١٥
- فرع تبوك هاتف ٤٢٤١٦٤٠ فاكس ٤٢٣٨٩٢٧
- فرع القاهرة: شارع ابراهيم أبو النجا - مدينة نصر: هاتف: ٢٢٧٢٨٩١١ - فاكس: ٢٢٧١٢٦٢٥

مكاتبنا بالخارج

- القاهرة: مدينة نصر هاتف ٢٧٤٤٦٠٥ موبايل: ٠١٠١٦٢٢٢٦٥٣
- بيروت: موبايل: ٠٣/٢٠٧٤٨٨ تلفاكس: ٠١/٨٠٧٤٧٧

شبهات المبتدعة في توحيد العبادة

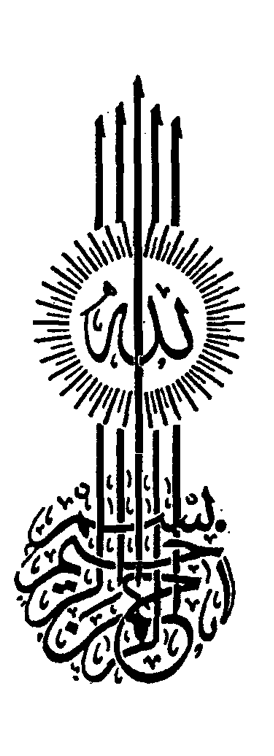
عرض ونقد

تأليف

الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الهذيل

الجزء الأول

مكتبة الرشد
ناشرون



المقدمـة

الحمد لله الذي (أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)، ومنّ على المؤمنين ؛ (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين).

نحمده سبحانه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة وتركنا على مثل البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد :

فما مرّ على البشرية جاهلية لفّت ظلماتها النفوس، وأعمت غشاوتها الأبصار، وملأ بها المقت أرجاء الأرض كجاهلية الشرك بالله تعالى، يوم أن عُبد غير الله وهو وحده الخالق، وشُكر غير الله وهو وحده الرازق، وتوجه المخلوق بالغاية التي خلق من أجلها إلى مخلوق مثله لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

سيرة من الجهل ضاقت بها الأرض، وعمت بها الظلمة، وصارت الحياة معنى أخلد إلى الأرض واتباع الهوى، بعيدا عن المعاني السامية التي ترقى بصاحبها إلى المنازل العالية.

ولكن سبقت رحمة الله تعالى، بأن أبان الطريق، وأقام الحجج، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

فكانت معالم الرسالات نورا يبدد ظُلَم الجاهلية، أحيا الله تعالى بها القلوب بعد الموات، وأنار بها الأعين بعد العمى، وأسمع بها الآذان بعد الصمم، فتحررت الروح والجسد من أغلال الوثنية، ونجت من حنادسها، وبقي من لم يرفع بها رأسا غارقا في لجج جاهليته.

وكان مسك الختام لتلك الرسالات المباركات رسالة نبينا محمد ﷺ، إذ جاء على فترة من الرسل، وغياب أكثر الناس عن معالم الرسالات، فبلغ بهم الجهل غايته، وصار الشرك فيهم كالمأكل والمشرب، حتى نال سيرتَهم أشد المقت، ولم ينج من ذلك إلا النزاع من الناس، يفرون بدينهم إلى أعالي الجبال، وبواطن الكهوف، والحال كما أخبر النبي ﷺ عنها بقوله: (**وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**)[(١)].

فكانت رسالته ﷺ في وقت أشد ما يكون الناس حاجة إليها، فكان رحمة للعالمين أجمعين، كما أخبر الله تعالى بذلك فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فدعا ﷺ إلى توحيد الله عز وجل، وبلغ غاية البلاغ، وجاهد في الله حق الجهاد، حتى ملأ التوحيد الآفاق، وانقلبت أحوال من تبعه

---

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة - رقم ٢٨٦٥.

بعد الجهل الذي قد لف نفوسهم إلى أن صاروا خير أمة أخرجت للناس، فما عادت أفئدتهم تتوجه إلى غير الله، ولا الجباه تسجد لغيره سبحانه وتعالى، حتى يئس الشيطان منهم أن يحظى بشيء من الشرك بعد أن كان له فيهم صولات أيام كانوا في عزلة عن نور الرسالة.

أولئك القرن خير القرون بتحقيقهم التوحيد لربهم تبارك وتعالى، وتمسكهم بسنة نبيهم ﷺ.

وعلى نهجهم سار التابعون لهم بإحسان، بتوحيد خالص ملء الأفئدة، مطهر من كدر الأهواء والآراء والأذواق.

هذا، والصراع لما يزل قائما بين الحق والباطل، والتوحيد والشرك، فالشيطان وجنوده يسوؤهم أبدا أن تقوم النفوس على التوحيد الخالص لله رب العالمين، فسعوا في الإفساد، ورموا حبائل التلبيس والتدليس، وزينوا للباطل العبارة، ولبسوا جبة الناصح المشفق، سنة رأس الشر الأول حين أقسم للأبوين: ﴿...إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١].

فهم أدركوا حقيقة ما في النفوس من نفرة من الشرك، وبغض لأقواله وأفعاله، فولجوا إليه من باب الشبهات التي تزخرف فيها الكلمات، وتلوى فيها أعناق المعاني، وتسمى فيها الأشياء بغير اسمها، لتحظى دعوتهم بالرواج، وتصغى إليها الأفئدة والأسماع.

وكم جنت تلك السبيل على كثير من النفوس حتى انخدعت بها، وصارت سببا لخداع غيرها، وكم زيّن الشرك الصريح بالأسماء البراقة جهلاً أو عدواناً، وما تلك الأسماء إلا شبيهة للأسماء الأولى التي

أخبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].

ولما كان الأمر كذلك، كان لزاما على أهل العلم وطلبته أن يكشفوا زيف تلك الشبه، ويبينوا عوارها، ليميزوا الخبيث من الطيب، وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، خاصة وأن الأمر متعلق بأشرف المسائل وأعظم الأصول، وهو توحيد الله تعالى.

وإن الناظر في آثار الأئمة الأعلام يرى الجهد الصادق، والنصح المحفوف بالمحبة والإشفاق لهذه الأُمة أن تصيبها الدعاوى المضللة الخادعة بزينة الأسماء، وبريق المظاهر، فحملوا العلم وبينوه ظاهرا صادقا بصفائه الذي تستنير به الأعين وتهتدي به القلوب، وكشفوا كل زيف أراده المبطلون مدخلا إلى الأهواء وسقيم الآراء، فكان النصح والبيان سنةً مِن سلف إلى خلف، أساسها الامتثال والتسليم لمصدر العزة والعصمة: كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ.

ومن هذا الباب، وتطفلا على تلك الموائد العامرة بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين أحببت المشاركة بهذا البحث في جمع ما يتمسك به المخالفون في توحيد العبادة من شبه، مستقصيا ذلك حسب الوسع، مستعينا بربي تبارك وتعالى، وسائله تعالى أن لا يكلني إلى نفسي طرفة عين، ثم مفيدا مما سطره سلف الأمة في هذا الباب، عسى أن يكون في ذلك مشاركة يحصل بها الثواب، ويتحقق بها النفع بإذن الله تعالى.

ولاختياري لهذا الموضوع أسباب ظاهرة من أهمها:

١- أنه في أشرف المسائل وأزكاها، وهو توحيد الله تعالى بالعبادة.

٢- أن الانحراف في توحيد العبادة عظيم الخطر ؛ إذ أنه هو محل المنازعة بين الأنبياء وأعدائهم.

٣- أن الشبه المتعلقة في هذا الباب قد لبست على كثير من الناس كثيرا من أمور الضلالة، وزينت لهم أقوال الشرك وأعماله، بل قد جعلته من أسباب الفوز والفلاح، فكان لزاما تبيين ذلك، ورد الأحكام إلى حقائقها.

٤- أن الرد على المخالفين - وخاصة في مهمات الأمور - من الأمور الشرعية، والمقاصد المرعية التي سار عليها سلف الأمة الأبرار، فكان الاقتداء بهم في ذلك من أسباب الخيرية.

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من مقدمة وتمهيد وخمسة أبواب وخاتمة، وتفصيل ذلك كالتالي :

المقدمة : وتشتمل على :

١- أهمية الموضوع.
٢- أسباب اختياره.
٣- منهجي في البحث.
٤- خطة البحث.

التمهيد : ويشمل :

١- معنى توحيد العبادة ومنهج السلف في تقريره.
٢- عوامل الانحراف فيه.
٣- معنى الشبهة، والمراد بها في هذا البحث.
٤- تعريف البدعة والمراد بالمبتدعة، والأدلة على ذم البدعة.
٥- منهج المبتدعة في عرض شبههم.

❑ الباب الأول ❑

شبهات المبتدعة في معنى العبادة وأول واجب على المكلف :

◆ **الفصل الأول :** شبهاتهم في أول واجب على المكلف.

وفيه مباحث :

المبحث الأول : أول واجب على المكلف عند أهل السُنة.

المبحث الثاني : أول واجب على المكلف عند المبتدعة.

المبحث الثالث : شبهات المبتدعة في هذه المسألة.

◆ **الفصل الثاني :** شبهاتهم في تعريف العبادة.

وفيه مباحث

المبحث الأول : تعريف العبادة ومعنى لا إله إلا الله عند أهل السُنة.

المبحث الثاني : تعريف العبادة ومعنى لا إله إلا الله عند المبتدعة.

المبحث الثالث : شبهات المبتدعة في تعريف العبادة ومعنى لا إله إلا الله.

◆ **الفصل الثالث :** شبهاتهم في الخلط بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية.

وفيه مباحث

المبحث الأول : تقرير أهل السُنة للتفريق بين توحيد العبادة

❑ الباب الثاني ❑

شبهاتهم في معنى الشرك.

❑ الباب الثالث ❑

شبهاتهم في أنواع من الشرك الأكبر

❑ الباب الرابع ❑

شبهاتهم في أنواع من الشرك الأصغر

◆ **الفصل الأول:** الرقى والتمائم.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: تعريف الرقى والتمائم.

المبحث الثاني: الرقى الشرعية وأدلتها.

المبحث الثالث: الرقى البدعية وشبهات أصحابها.

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول:** النشرة بالسحر.
- **المطلب الثاني:** الاستشفاء بآثار الصالحين.
- **المبحث الرابع:** مذهب أهل السنة في تعليق التمائم.

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول:** إذا كانت من القرآن.
- **المطلب الثاني:** إذا كانت من غير القرآن.

المبحث الخامس: شبهات المبتدعة في تجويز تعليق التمائم.

◆ **الفصل الثاني:** الطيرة والتشاؤم

وفيه مباحث:

المبحث الأول: تعريف الطيرة والتشاؤم.

المبحث الرابع : شبهاتهم في تقرير غلوهم.

◆ **الفصل الخامس :** البناء على القبور والعكوف عندها.

وفيه مباحث

المبحث الأول : الأدلة على النهي عن رفع القبور والبناء عليها.

المبحث الثاني : زيارة القبور الشرعية.

المبحث الثالث : زيارة القبور البدعية.

المبحث الرابع : شبهات المبتدعة في البناء على القبور والعكوف عندها وشد الرحل إليها.

◆ **الخاتمة ثم الفهارس العامة.**

أما منهجي في هذا البحث فكان كالتالي :

١- الحرص - قدر الإمكان - على تركيز المادة العلمية وسهولة العرض.

٢- استقرأت الشبه المتعلقة بتوحيد العبادة دون تقيد بمرحلة زمنية لها ، فالمقصد هو الشبهة بذاتها ، ولذلك لم يكن من مقصد البحث ما يتعلق بالشبه من حيث مراحلها الزمنية ، أو أول القائلين بها أو مذهب من قال بها ونحو ذلك ، ولذلك أيضا لم ألتزم العزو إلى كل قائل بالشبهة ، ولكن المقصد هو إبراز كونها شبهة يستدل بها المبتدعة عموما ثم الجواب عنها.

٣- قمت بعرض كل شبهة على حدة في المبحث الخاص بها ثم أعقبت ذلك بالجواب عليها مباشرة ، ليكون ذلك أقرب للربط

بين المسائل.

٤- قمت بعزو الآيات إلى سورها، وذكرت رقم الآية.

٥- قمت بتخريج الأحاديث الواردة في البحث، فما كان منها في الصحيحين فإني أكتفي بهما.

٦- جعلت الترجمة الخاصة بالأعلام في آخر البحث، وجعلتها مرتبة على المعجم ليسهل الوصول إلى المراد.

٧- وضعت فهارس في آخر البحث، وهي :

- فهرس الآيات.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس المراجع والمصادر.
- فهرس الموضوعات.
- إضافة إلى معجم التراجم الذي نوهت إليه.

وبعد، فهاهو البحث بين يديك - أخي القارئ ـ، بذلت فيه جهد المقل، وأفرغت فيه وسع المقصر، فما كان فيه من صواب فمن الله تعالى ؛ فهو أهل الفضل والامتنان، وما كان في من خطأ وقصور فمن نفسي فهي محل تقصير، ومن الشيطان فهو عدو لكل كمال يصبوا إليه ابن آدم، فأستغفر الله عن ذلك كله، وأسأله سبحانه التوفيق والسداد في القول والعمل.

ثم إني بعد حمد الله تعالى أرسل الشكر موصولا إلى كل من كان سببا مباركا في إعانتي على إعداد هذا البحث، وأخص بالشكر والدتي التي لم ينقطع منها دعاء لي بالتوفيق والسداد، فجزاها الله تعالى عني

خير الجزاء، وأسبغ الله على والدي واسع الرحمة والغفران.

ثم إني أشكر شيخي وأستاذي فضيلة الدكتور / راشد بن حمد الطيار، المشرف على هذه الرسالة، والذي وجدت منه النصح الصادق، والتوجيه السديد، فجزاه الله تعالى عني خير الجزاء.

وأرسل الشكر إلى جامعة الإمام ممثلة في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة الذي هو خير معين وموجه ودافع إلى كل ما فيه الخير والنفع للبحث والباحث، فجزى الله تعالى القائمين عليه خير الجزاء، وأجزل لهم المثوبة والعطاء.

وكل من أعانني في هذا البحث بصغير أو كبير فله مني وافر الشكر والتقدير، وأسأل الله تعالى أن يجعله مباركا أينما كان.

والحمد لله أولاً وآخرا، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

عبد الله بن عبد الرحمن الهذيل

تمهيد

- معنى توحيد العبادة ومنهج السلف في تقريره
- عوامل الانحراف في توحيد العبادة
- معنى الشبهة والمراد بها في هذا البحث
- تعريف البدعة والمراد بالمبتدعة والأدلة على ذم البدع
- منهج المبتدعة في عرض شبههم

معنى توحيد العبادة ومنهج السلف في تقريره

التوحيد : مصدر وحّد يوحّد توحيداً، وهو جعل الشيء واحداً[١].

والواحد دال على معنى الانفراد[٢].

فالتوحيد هو تحقيق معنى الوحدانية في الموحَّد.

والعبادة : أصلها في اللغة بمعنى التذلل والخضوع، وهي بالغة الغاية من ذلك.

وسيأتي تفصيل معناها في الفصل الثاني من الباب الأول إن شاء الله تعالى.

فيكون معنى توحيد العبادة : إفراد الله تعالى بذلك التذلل والخضوع والانقياد.

وذلك يكون بتحقيق هذا المعنى في القلب واللسان والجوارح ؛ ذلك أن تحقيق التوحيد لله تعالى هو أصل الإيمان الذي أمر الله تعالى به عباده، وأثنى عليهم به، والإيمان منقسم على هذه الثلاثة بحسب ما يترتب على كلٍّ منها من وظائف.

وتوحيد العبادة هو الأصل الذي بنيت عليه دعوات المرسلين، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

---

(١) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤١٤.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور ٣/ ٧٠، ٣/ ٤٥٠، الصحاح للجوهري ٢/ ٥٤٧، القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤١٤.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

منهج السلف في تقرير توحيد العبادة:

لما كان هذا النوع من التوحيد هو أصل دعوة المرسلين، وهو الذي كانت فيه المنازعة بين الأنبياء وأعدائهم، كان تقريره وبيانه وحماية جنابه من كل دخيل ينقضه أو ينقصه هو أوجب الواجبات، وأهم المهمات.

ولذلك دأب سلف الأُمة على تقريره وبيانه غاية البيان، ورد الشبه والتلبيسات التي يوردها أهل الجهل والهوى.

إن مسألة التوحيد والإيمان هي أهم ما يناله التبيين والإيضاح عند أهل السنة والجماعة، ولذلك كلما ظهرت مخالفات في هذا الباب تصدى لها أهل السنة بالرد عليها، والإيضاح التام للحق فيها.

ومن تأمل تاريخ الأُمة يرى ذلك من الظهور بمكان لا يخفى و لا يغيب.

فعندما ظهر من الفرق من خالف في التوحيد المتعلق بأسماء الله تعالى وصفاته، كان لأهل السنة اليد الطولى في الإيضاح والبيان، ورد الشبه التي يرمي بها من أُشرب قلبه الهوى، وأعمت عينيه الجهالة.

ولما كانت المخالفات المتعلقة بتوحيد العبادة قد تزينت وزُيِّنت للنفوس الضعيفة تصدى لها أهل السنة بالرد والبيان، وإزالة كل غشاوة من التلبيسات التي فرح بها أصحابها، ويحسبون أنهم بها على شيء.

والسابق قبل هذا كله أنه لم يقصر منهم بيان، ولم يغفلوا عن إيضاح أي أمر من أمور الدين، بله الأمور المتعلقة بأصول الدين وأساس دعوة المرسلين.

وتوحيد العبادة هو أصل دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو الغاية التي خلق الله تعالى الجن والإنس من أجلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولذلك كان بيانه والدفاع عنه ودرء كل شبهة تتعلق به أهم المهمات عند سلف الأمة؛ إذ هو أصل ما يقرره القرآن، وأول ما دعا إليه المرسلون.

ولكن قد يتفاوت ظهور المخالفات من زمن إلى زمن.

ولا شك أنه كلما كانت المخالفة أشد ظهورا وأكثر انتشارا كان الداعي للبيان والإيضاح ورد الشبة أقوى وأشد.

ولذلك نجد أن أكثر كلام المتقدمين متعلق بتوحيد الأسماء والصفات، لظهور المخالفة فيه أكثر من غيره.

ولما كان في الأزمان المتأخرة ظهورٌ أكبر للمخالفات المتعلقة بتوحيد العبادة كدعاء الأموات وصرف أنواع من العبادة لهم كان الكلام في ذلك أكثر من غيره.

وليس في هذا ولا ذاك إهمال شيء من أمور التوحيد أن تُبيَّن وتوضح، بل كل ذلك محل تعلم وتعليم وبلاغ وحماية، ولكن الحكمة في مراعاة واقع الحال، كما تقتضيه النصوص الشرعية من كتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ من قوله وفعله.

ولما نتأمل منهج السلف رضوان الله تعالى عليهم في تقرير توحيد العبادة نراه المنهج المتكامل، والطريقة المستقيمة الصادرة عن المعين الصافي، والمستنيرة بالنور الذي ليس له في الآفاق حد.

ويمكن عرض ملامح ذلك المنهج كما يلي:

أولا: الاعتماد على الكتاب والسنة:

وهذا أهم ما يميز أهل السنة في جميع ما يقررونه من أمور الدين، فعمدتهم في ذلك هو الوحي المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولذلك تميز منهجهم بعدم التناقض والاضطراب، وعدم الغموض والخفاء، فلم يحتاجوا معه إلى تكلفٍ تُزَين به العبارات لتكون هي محل الاستدلال ولفت الأنظار، ولا إلى تأويل تلوى به أعناق النصوص لتصرف عنها ما هو ظاهر من دلالتها.

بل السهولة في تقريراتهم، والوضوح في استدلالاتهم نابع من ذلك الاتباع الصادق للكتاب والسنة، واعتبار الفهم الثاقب الذي كان عليه صحابة النبي ﷺ؛ إذ أنهم أعلم الناس بنصوص الشرع، وأصدقهم في اتباعه.

ثانيا: الجمع بين النصوص والأخذ بها جميعها:

وهذا هو الذي أكسبهم الوسطية بين الفرق، فهم يأخذون الكتاب بقوة ولا يهملون منه شيئا، خلافا لما عليه المبتدعة مِن تمسكٍ بما يوافق آراءهم من النصوص، وغض الطرف عما لا يوافق أهواءهم.

وفي تقرير توحيد العبادة وبيان ما يخالفه فإن هذا الأمر ظاهر في

طريقة أهل السنة، فيجمعون بين المعاني المتعلقة ببيان أنواع التوحيد جميعها، والمعاني المتعلقة بالشرك وأنواعه، فيقررون كل معنى من معاني التوحيد، ولا يقتصرون على معنى دون آخر.

وكذلك في التحذير من الشرك يبينون كل المعاني التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة في ذلك، فيجتنبونها ويحذرون منها، فيسلم بذلك التوحيد ويحمى جنابه.

وهذا بخلاف المبتدعة الذين يأخذون بعض المعنى، ويدور كلامهم حوله، ويحسبون أنهم حققوا تمامه، وحذروا من جميع الوجوه المخلة به، أو الناقضة له.

وهذا هو الذي أوقعهم في كثير من المخالفات المتعلقة بتوحيد العبادة، حين صارت تقريراتهم في التوحيد متعلقة بتوحيد الربوبية، جاعلين تحقيقه تحقيقا للتوحيد بتمامه دون النظر إلى طبيعة الأقوال والأفعال الصادرة من المخالف، والتي هي في حقيقتها صرف للعبادة لغير الله تعالى، كالدعاء والذبح والنذر والركوع والسجود ونحو ذلك.

ثالثا: بيان أن توحيد العبادة هو الأصل في دعوة الرسل:

ففي كلامهم على التوحيد لا يهملون شيئا من معانيه، ولكنهم يراعون البدء والتفصيل فيما هو حقيقة دعوة الرسل، وما كانت المخالفة واقعة فيه.

والذي خالف فيه المشركون في التوحيد هو صرفهم العبادة لغير الله تعالى، أما الإقرار لله تعالى بوحدانيته في الخلق والإيجاد فلم تكن فيه كبير مخالفة بين الأنبياء وأعدائهم.

ولذلك لم يكن الكلام متوجهاً إليه في الجملة، بل كان الاستدلال به لا عليه في تقرير لازمه ومقتضاه، وهو أن يوحد الله تعالى في العبادة.

وليس في ذلك إهمال شيء من معاني التوحيد، وإنما هو توجيه البيان إلى ما تقتضيه الحاجة، وهذه هي الحكمة في البيان والاستدلال.

رابعا : الرد على المخالف وتفنيد شبهاته :

وهذا داخل في إطار الخيرية التي جعلها الله تعالى للأُمة حيث قال سبحانه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فرد المنكر والرد على صاحبه يعد من الأصول التي يجب أن تتمسك بها الأُمة، وخاصة من حمله الله تعالى مسؤولية العلم والحكم والبلاغ.

وفي رد المخالفات المتعلقة بتوحيد العبادة، وتفنيد الشبهات التي يوردها المبتدعة في ذلك فإن تصدي أهل السنة لذلك ظاهر أشد الظهور ؛ إذ أن ذلك متعلق بأصل الأصول، وغاية الخلق.

ولهم في ذلك تنوع يستوعب جميع أوجه البيان والإعذار، فهو ظاهر في مجال التصنيف ومجال التدريس ومجال الخطب ومجال المناظرات ونحو ذلك من مجالات الدعوة والبيان، وذلك حتى يكون الرد على أهل الضلالة بالغ السبيل إلى القلوب والأسماع على اختلاف مشاربها.

خامسا: التفريق بين المعاني المختلفة:

وذلك لتفصيل البيان للتوحيد، والتحذير مما يقدح فيه مهما صغر ذلك القادح.

فمثلا: هم يفرقون بين معاني الربوبية والألوهية لا على اعتبار الاكتفاء بأحدهما دون الآخر، ولكن لأجل بيان أن تحقيق التوحيد لا يكون إلا بتحقيقهما جميعا، وتفنيد الخلط الذي يصور به المبتدعة معنى التوحيد على أحدهما دون الآخر، ويبنون عليه تحقيق التوحيد بكماله على ذلك التوحيد.

وهذا هو المنهج الحق في استقراء النصوص، واتباع جميع مدلولاتها.

سادسا: حماية جناب التوحيد، وسد كل ذريعة تنقصه أو تنافيه:

وهذا مقصد نبوي في تقرير التوحيد والمحافظة عليه.

فنبينا ﷺ قد أبان التوحيد غاية البيان، وسد كل ذريعة مفضية إلى الشرك، ولو كان شركاً أصغر.

ولذلك كان أهل السنة على ذلك المقصد النبوي في التحذير الشديد من كل الذرائع المفضية إلى مناقضة التوحيد أو نقصانه.

ولذلك هم يبحثون في باب التوحيد وبيان الشرك أمورا هي ليست شركا في ذاتها كالتوسل غير المشروع والتبرك غير المشروع ونحو ذلك؛ لأن هذه أمور أفضت بكثير من الناس إلى الوقوع بأنواع من الشرك شعروا أم لم يشعروا.

فبحُجة التبرك صاروا يأتون إلى القبور ويتمسحون بها ويسجدون لأصحابها ويسألونهم العون والمدد ونحو ذلك مما هو صريح الدعاء لغير الله تعالى.

وبحُجة التوسل جعلوا الأموات واسطة بينهم وبين الله تعالى في قضاء حوائجهم، فصاروا يسألونهم جلب المنافع ودفع المضار زاعمين أن هذا السؤال ما هو إلا من باب جعل هؤلاء الأموات وسيلة يشفعون لهم عند الله تعالى، ثم ينزلون الأدلة الدالة على التوسل المشروع على هذا المعنى.

وهكذا صارت هذه الأمور وسائل ظاهرة إلى مخالفات صريحة في توحيد العبادة الذي هو أصل دعوة الرسالة.

ولذلك كان من منهج أهل السنة في تقرير هذا التوحيد التحذير من كل سبب قد يؤدي إلى القدح فيه.

سابعا: بيان ما يضاد هذا التوحيد أو ينقصه:

وهذا من بيان الشر للتوقي والحذر، وهو طريقة شرعية جاء القرآن ببيانها، فقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: ٥٥].

ولذلك كان من طريقة أهل السنة في بيان التوحيد: التفصيل في بيان الشرك وأنواعه، وذلك للحذر من صغيره وكبيره.

وكذلك ليكون الحكم على أفراد الشرك مبنيا على التنوع المستقرأ من نصوص الكتاب والسنة، فلا يحكم على ما ليس بشرك بأنه شرك، ولا يخرج عنه ما كان من معناه.

وكذلك لبيان ما هو مخرج من الملة منه وما ليس بمخرج منها.

ومن تعرف على معنى الشرك وأنواعه وأسبابه فإنه حري - بإذن الله تعالى - أن يسلم من الوقوع في شيء منه.

ومن تأمل ما وقع فيه كثير من الناس من أمور الشرك، فإن الجهل بمعاني الشرك سبب رئيس في ذلك.

ثامنا: سهولة الأسلوب، ويسر الاستدلال، وعدم التكلف:

ومرجع هذا إلى اعتمادهم على الكتاب والسنة في تقرير هذا الأمر، بل وفي تقريراتهم لأمور الدين عموما.



عوامل الانحراف في توحيد العبادة

إن أشد ما يكون الانحراف حين يتعلق بأصل من أصول الدين، والتوحيد هو أصل الأصول في دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام، فالانحراف فيه انحراف في أساس ما دعوا إليه وبينوه.

وما من خفاء ولا التباس في دعوة الرسل لهذا الأصل، وخاصة دعوة نبينا ﷺ، فقد بين هذا الأمر غاية البيان، وأقام الحجج الظاهرة على كل منحرف فيه، فلم يبق لمضل ما يتشبث به إلا ما يرتضيه لنفسه من سراب يلهث وراءه، يحسبه عذباً زلالاً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

فالتمسك بمعالم الرسالة صمام أمان - بإذن الله تعالى - عن أي انحراف وضلالة.

والبعد عن تلك المعالم، وغياب مفاهيمها عن القلب والعقل هو سبب رئيس في وقوع الانحراف مطلقا، وفي التوحيد على وجه الخصوص؛ إذ أن الانحراف فيه غايةٌ مقصودةٌ للشيطان وجنوده في إضلال بني آدم.

وثمة عوامل كثيرة داعية إلى الانحراف في هذا الباب ما كان لها أن تكون لولا ذلك البعد عن سنة النبي ﷺ ومعالم رسالته.

ولعل من أبرز تلك العوامل ما يلي:

أولاً: الجهل:

وهذا عامل أساس في جملة الانحرافات الواقعة في الناس.

فالجهل بمسائل التوحيد والأسباب والوسائل الآخذة إلى مضادته أو نقصانه من أهم العوامل الداعية إلى وقوع الانحرافات المتنوعة فيه، بل تراه يأخذ صاحبه إلى المسارعة في ذلك الانحراف خوف الفوات حين رآه أحسن العمل.

وهذا من أعظم الضلال؛ إذ يرى فيه المرءُ حسناً ما ليس بالحسن، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

وهذا الجهل هو الذي جعل أصحاب موسى بعد إذ نجاهم الله تعالى يطلبون من موسى أن يجعل لهم إلهاً كما للمشركين آلهة.

وقد ذكر الله تعالى ذلك عنهم حيث قال: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فالجهل سبب لكثير من مصائب الناس في دينهم، يسرعون به إلى أنواع من الضلالة.

وما وجد الشيطان طريقا إلى قلوب العباد بمثل ذلك الجهل الذي وجده أبوابا مشرعة إليها، لا يتحصن منه شيء فيها.

ثانيا: الخلل في مصادر التلقي:

وهذا أيضا من أهم عوامل الانحراف عن التوحيد.

ذلك حين يكون صدور المرء عن غير كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه ﷺ، فإنه لن يخرج إلا بالآراء الفاسدة، والأهواء المضلة.

وإن الأمان من الضلالة - بإذن الله تعالى - هو في التمسك الحق بالمصادر المتينة التي لا يعتريها نقص ولا نسيان، وهي كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

قال تعالى : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

وقال النبي ﷺ : **(وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله)**(١).

ولما ظهر في الأُمة طوائف ارتضت لأنفسها مصادر في التلقي قدمتها على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ظهر الافتراق في الأُمة، وتنوعت سبل البدعة فيها واتسعت، فكل يوم تقذف العقول العارية من الحصن دون الضلالة بأنواع من الآراء والأهواء.

وحين نتأمل الانحراف الواقع في توحيد العبادة فإن هذا العامل ظاهر التأثير في ذلك، حين صارت تقرر تلك الانحرافات بالعبارات المزخرفة، والجمل المتكلفة من محض الآراء والاجتهادات، والإعراض عن الدلائل الصريحة التي لا غموض فيها من الكتاب والسنة.

---

(١) رواه مسلم في الحج - باب حجة النبي ﷺ - رقم ١٢١٨، وأبو داود في الحج - باب صفة حجة النبي ﷺ - رقم ١٩٠٥، والترمذي في المناقب - باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ - رقم ٣٧٨٦.

ثالثا: التقليد الأعمى:

وهذا الداء العضال سبب رئيس في ظهور الانحراف وتوسعه.

وهو مرض جاهلي قد أخبر الله تعالى به عن أهل الجاهلية فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠].

فتقليد الآباء والشيوخ من غير هدى وبصيرة يصبغ الانحراف الذي كانوا عليه في المقلد، ويزيده التعصب المقيت شدة وصلابة، ويُعمي عنه دلائل الحق، ودعوات الحق.

ومن تأمل كثيرا من المخالفات المتعلقة بتوحيد العبادة يجدها موروثات تتعاقبها الأجيال دون تمحيص ولا عرض على الميزان الحق، فما يزيدها ذلك مع مرور الأيام وتتابع ذلك التعاقب إلا زيادة في الانحراف، وبعدا في الغواية.

ومتى ما تخلص المرء من ذلك التقليد الأعمى، وصار يزن الموروثات بميزان الشرع، وجعله حاكما عليها، فإنه يسلم له توحيده، وأمور دينه جميعها.

رابعا: الاغترار بكثرة المخالفين:

ليس العبرة في تقرير المسائل الشرعية هو الكثرة أو القلة، وإنما هو موافقة الدليل الذي أنزله الله تعالى على رسوله.

فمتى ما وافق المرء ما دل عليه الدليل فهو على الحق، ولا يضره عند ذلك قلة السالكين، وكثرة المخالفين.

ولما صارت الكثرة في نظر كثير من الناس هي المحكم في الضلالة والهدى، والخطأ والصواب، صارت هي الفارق عندهم بين الأمرين، وصاروا يركنون في تأييد ما هم عليه من مخالفات بالكثرة التي هم عليها.

وكلما جاءهم البيان، وصدع لهم بالحق من أشفق على حالهم، ما كان حُجتهم إلا رمي الأبصار إلى ما يملأ الأرض ممن هم على شاكلتهم، فيرونه الدليل الظاهر والحُجة القاهرة على صحة الطريق وسلامة المنهج.

نعم، لا يُنكَر ما للكثرة من أثر على تأييد الحق وتثبيته، ولكن ليست هي المحكمة في ذلك على كل حال، فإن وافقت الحق الذي هو قائم بالدليل فهو اجتماع لأسباب التأييد والتثبيت.

وإن كانت مخالفة فلا اعتبار بها، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦].

خامسا: ضعف الإيمان واليقين والتوكل على الله تعالى:

وهذا يورث القلب التفاتا إلى غير الله تعالى، فيتشبث المرء بالأسباب الوهمية، ويستمسك بعرى واهية رجاء تحقق مطلوب أو دفع الكروب.

فيطرق في طلب ما تصبو إليه نفسه أو دفع ما عالجته نفسه سنين طوال من بلاء ونصب أبوابا ليست في السماء، فيبث الشكوى وينزل

المسألة عند مخلوق مثله لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

فاستبدل بالتوكل على الله تعالى الركونَ إلى ما أنزله عند ذلك المخلوق، واستبدل باليقين بوعد ربه تعالى ما أخلد إليه من ظنٍّ عدم الخيبة عند من بث إليه شكواه.

وبذلك صار القلب معلقاً بذلك المخلوق، كلما نزلت به نازلة، أو ضاقت به شدة لهث باسمه طالبا المدد وحسن العطاء.

وما تلك إلا سيرة الجاهلية الأولى بل أشد.

أما من تعلق قلبه بربه تبارك وتعالى، وصدق يقينه به، وكمل توكله عليه فإنه صفي القلب من دخائل الشرك، فلا يسأل إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يستعين إلا بالله. ؛ فهو سبحانه أحق من عبد، وأحق من ذُكر، وأجود من سُئل، وأوسع من أعطى، وأنصر من ابتُغي، وأرأف من ملك، عز جاهه وجل ثناؤه.

سادسا: تأثير البيئة المنحرفة التي يعيش المرء بينها:

إن من أسباب ظهور الانحراف في توحيد العبادة وتَوَسُّعُه البيئةَ المنحرفة نفسها، والعيش في وسطها.

فلا يكاد المرء يتخلص من تأثير تلك البيئة إلا ما شاء الله تعالى.

فالإبقاء على الانخراط في أوساط المخالفين دون أن يكون هناك تحركٌ للإصلاح والتغيير يؤثر على النفس، ويورثها تشبها بأحوالهم، أو السكوت عليها في أمثل الأحوال.

سابعا: التأثر بالوارد من العلوم والأفكار المنحرفة كالفلسفة وعلم الكلام:

وهذا من أضر الأمور على الأُمة، حيث صار مدخلا لكثير من المبطلين الذين أرادوا النيل من سلامة مناهجها، وصفاء مصادرها.

فأغروا ضعاف النفوس بالحاجة في تقرير مسائل الشرع إلى الموروثات الفكرية التي تركها الإغريقيون واليونانيون وغيرهم.

فصارت أهم مسائل الشرع وهي المتعلقة بالإيمان والتوحيد توزن بميزان تلك الأصول الموروثة من تلك الحضارات البائدة.

حتى أضحى الكلام في ذلك لا يحمل روح حياة، ولا نور هدى، ولا ثماراً يغتذي القلب طيبها وحلوها.

وصارت مسائل التوحيد جدلاً عقيماً، وشبهات تحرق القلوب، فلا يرى القلب راحته إلا بالبعد عنها.

وبذلك صارت العبادة لا تحمل معنى الثبات الراسي في القلوب، فسرعان ما تدب إليها طرائق الجاهلية، فتأخذها إلى أن يصرف شيء منها للمخلوق، دون أن يحدث منها لذلك نكارة.

ثامنا: التعرض للشبهات دون التحصن وابتغاءِ الرد عليها:

وهذا من أضر الأمور على توحيد العبادة، حين يكون المرء مصغي السمع وماذّ البصر إلى الشبهات المتعلقة في هذا الباب، دون أن يكون منه تحصن بالعلم ضدها، ودون إرادة الرد والبيان لبطلان تلك الشبهات ومخالفتها للحق.

فترى من هذه حاله سرعان ما يستسلم لتلك الشبهات، ويرى أن الأمر دون ما كان يتصوره بمراحل كثيرة، حتى يُزين في قلبه صحة كثير

من الأقوال والأفعال الشركية، وإن لم يكن قد خاض في شيء منها، فإن هذا في حده يعتبر انحرافا خطيرا، إذا غلب فإنه تُقر به تلك الانحرافات، وقد تنساق النفس إليها شيئا فشيئا.

فليس التعرض للشبهات ممدوحا لذاته، وإنما يمدح ويحمد إذا كان سبيلا لتعريتها، وبيان وجهها الحقيقي الذي لا تشتبه به؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

تاسعا: ضعف تبيين التوحيد، وضعف الرد على المخالفين:

إن من أعظم أسباب الانحراف في هذا الباب حين يضعف في الناس بيانه والدعوة إليه، ويكون أهل البدع يخوضون في بدعهم تقريرا وتصنيفا دون أن يتصدى لهم من يرد باطلهم، ويعري شبهاتهم.

وإن المتأمل لتاريخ الأُمة يرى هذا الأمر ظاهرا لا يخفى منه شيء.

ففي الأزمان التي يغلب فيها الضعف على الأُمة، وتكثر البدعة والخرافة دون رادع فإن تلك البدع تسرع في الأمة سرعة النار في الهشيم، تتجاوز حدود الأرض والجنس واللون.

أما في الأزمنة التي يهيئ الله تعالى للأُمة من يظهر دلائل التوحيد، ويرد على أهل البدع، فإن أثر ذلك يظهر في الأُمة، فتخمد البدعة، وتكون السنة محل ظهور وانتشار.

نسأل الله تعالى أن يستعملنا في طاعته، وأن يجعلنا أسبابا في نشر التوحيد ورد كل ما ينقضه أو ينقصه .

معنى الشبهة والمراد بها في هذا البحث

الشبهة : مأخوذة من الشَبَه وهو المماثلة، تقول : أشبه الشيء الشيء : ماثله[١].

والمراد بها الأمور المشكلة التي قد لا تُميز.

قال في اللسان : (والمشتبهات من الأمور : المشكلات)[٢].

وفيه - أيضا - : (قال الليث : المشتبهات من الأمور المشكلات وتقول شبهت علي يا فلان إذا خلط عليك و اشتبه الأمر إذا اختلط، واشتبه علي الشيء)[٣].

وفي مختار الصحاح : (الشبهة الالتباس و المشتبهات من الأمور المشكلات)[٤].

قلت : وارتباط المشكلات بالتشابه ظاهر ؛ إذ أن الشبه في حقيقتها تشبيه الباطل بالحق، فيعرض على أنه منه، ويستدل له بدليله، حتى يشكل على من ضعفت نفسه دون إدراك ذلك، فيظنهما متشابهين.

ولذلك قال حذيفة رضي الله عنه في الفتن : (إياك والفتن، لا يشخص لها أحد، فوالله ما شخص منها أحد إلا نسفته كما ينسف السيل الدمن، إنها مشبهة مقبلة، حتى يقول الجاهل : هذه. تشبه مقبلة، وتتبين مدبرة،

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور ١٣/ ٥٠٣.
(٢) المرجع السابق ١٣/ ٥٠٣.
(٣) المرجع السابق ١٣/ ٥٠٥.
(٤) مختار الصحاح للرازي ١٣٨.

فإذا رأيتموها فاجتمعوا في بيوتكم، واكسروا سيوفكم، وقطعوا أوتاركم، وغطوا وجوهكم)[١].

جاء في لسان العرب - توضيحا لمعنى الأثر - : (قال شمر : معناه : أن الفتنة إذا أقبلت شبهت على القوم، وأرتهم أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها، ويركبوا منها ما لا يحل، فإذا أدبرت وانقضت بان أمرها، فعلم من دخل فيها أنه كان على الخطأ)[٢].

فالشبهة إذاً : هي ما يلتبس فيه وجه الحق بالباطل، فيُظن الباطل بها حقاً.

وليس الاشتباه والالتباس في نفس الأمر، ولكنه نسبي إضافي، لا يكون إلا على من لم يتبين وجه الحق في ذلك.

والمراد بالشبهة في هذا البحث : ما يجعله المبتدعة دليلا لهم في تقرير مخالفاتهم المتعلقة بتوحيد العبادة، يلبسون فيه الحق بالباطل، سواء كان استدلالا نقليا أو عقلياً أو ما يجعلونه شاهدا على صحة ما هم عليه وليس هو كذلك كالقصص التي يتناقلونها تأييدا لما هم عليه.

والكلام في ذلك على المباحث المقررة في خطة البحث، والتي سبق بيانها.

والله تعالى المستعان.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٤٩٥، وصححه ووافقه لذهبي.
(٢) لسان العرب ١٣/ ٥٠٤.

تعريف البدعة والمراد بالمبتدعة والأدلة على ذم البدعة

تعريف البدعة:

التعريف اللغوي:

البدعة مصدر "بدع "، وهو جامع لأصلين :

أحدهما : الإحداث والاختراع.

والثاني : الانقطاع والكلال.

قال ابن فارس : ("الباء والدال والعين" أصلان لشيئين : أحدهما : ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال سابق ..

والثاني : الانقطاع والكلال، كقولهم : أبدعت الراحلة إذا كلت وعطبت)[١].

ولعل المعنى الثاني راجع إلى الأول باعتبار الخروج عن الاطراد الذي كانت عليه الحال، فالناقة مثلا يعتبر الكلال والانقطاع طارئا عليها خارجا عن الاطراد التي هي عليه وهو السير والاحتمال.

وفي توضيح ذلك قال ابن الأثير رحمه الله: (يقال : أبدعت الناقة إذا انقطعت عن السير بكلال أو ظلع، كأنه جعل انقطاعها عما كانت مستمرة عليه من عادة السير إبداعا، أي إنشاء أمر خارج عما اعتيد منها)[٢].

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١/ ٢٠٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ١٠٧.

وعلى ذلك فالجامع لمعنى البدعة هو : الحدوث والطروء.

جاء في كتاب العين : (البَدْع : إحداث شيء لم يكن له من قبل خلق و ذكر ولا معرفة، والله بديع السموات والأرض، ابتدعهما ولم يكونا قبل ذلك شيئا يتوهمهما متوهم)(١).

وفي الصحاح : (أبدعت الشيء : اخترعته لا على مثال)(٢).

وفي لسان العرب : (بدع الشيء يُبدعه بِدعا وابتدعه : أنشأه وبدأه. وبدع الركية : استنبطها وأحدثها. وركي بديع : حديثة الحفر. والبديع و البدع : الشيء الذي يكون أولا. وفي التنزيل ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

أي : ما كنت أول من أرسل، قد أرسل قبلي رسل كثير. والبدعة : الحدث، وما ابتدع من الدين بعد الإكمال)(٣).

التعريف الشرعي :

يتفق التعريف الشرعي مع التعريف اللغوي باعتبار أن البدعة هي الشيء الحادث لا على مثال.

ولكن يختلفان باعتبار العموم والخصوص، فالتعريف اللغوي عام في الأمور الدينية والدنيوية.

أما التعريف الشرعي فمختص بما هو متعلق بالأمور الشرعية.

---

(١) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٢/ ٥٤.

(٢) الصحاح للجوهري ٣/ ١١٨٣.

(٣) لسان العرب لابن منظور ٨/ ٦.

فالبدعة في الشرع هي إحداث شيء في أمر الدين.

ولقد تعددت أقوال أهل العلم في تعريف البدعة، إلا أنها في الجملة راجعة إلى هذا المعنى، وناصة على هذا القيد.

ولعل من أدق تعريفاتها ما ذكره الشاطبي رحمه الله في "الاعتصام".

فقد عرف البدعة بأنها: (طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه)[1].

وحول هذا المعنى تدور تعريفات أهل العلم:

فقد عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بأنها: (ما لم يشرعه الله ورسوله، وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب)[2].

وعرفها الحافظ ابن رجب رحمه الله بأنها: (ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، أما ما كان له أصل يدل عليه فليس ببدعة شرعا)[3].

فالحاصل أن البدعة هي كل ما أحدث في الدين، وهو شامل للأقوال والأعمال والاعتقادات[4].

---

(١) الاعتصام ١/٧.
(٢) مجموع الفتاوى ٤/١٠٧.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٢٥٦.
(٤) انظر في تعريف البدعة وأقوال أهل العلم في ذلك: حقيقة البدعة وأحكامها، لسعيد بن ناصر الغامدي ١/٢٥٢ - ٢٦٧، موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع، لإبراهيم الرحيلي ١/٨٩ - ٩٣.

المراد بالمبتدعة :

بعد التعرف على معنى البدعة، فإن المراد بالمبتدعة يكون واضحا، إلا أنه لا بد من مراعاة حال من تلبس بشيء من البدع، هل الغالب عليه الابتداع فيحكم عليه أنه من المبتدعة ؟ أو أن الغالب عليه اتباع السنة والوقوف عندها، لكنه وافق المبتدعة في قول من الأقوال خطأً ؟ عند ذلك فلا يلحق بالمبتدعة لغلبة اتباعه للسنة.

وكذلك لا بد من التفريق بين أنواع البدع وأحكامها، فمن كان على بدع مغلظة ليس كمن هو دون ذلك، فأهل البدع يتفاوتون في بدعهم، بل إن أهل البدعة الواحدة يتفاوتون فيها، فمن كان عالما منظرا لها ليس كمن هو مقلد ليس له من النظر حظ ولا يد.

ولكن لا يعني هذا أن يقر شيء من البدع، بل من وقع ببدعة فهي مردودة كان من كان.

وبناء على ما سبق فالمبتدعة هم من غلب عليهم الابتداع، وصاروا يعرفون به، حتى صار أمارة من أماراتهم، كبدعة الخوارج والصوفية والمرجئة ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (والبدعة التي يعد بها الرجل من أهل الأهواء ما اشتهر عند أهل العلم بالسنة مخالفتها للكتاب والسنة، كبدعة الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة)[١].

وقال الشاطبي رحمه الله : (إن لفظ "أهل الأهواء" وعبارة "أهل

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/ ٤١٤.

البدع" إنما تطلق حقيقة على الذين ابتدعوها، وقدموا فيها شريعة الهوى بالاستنباط، والنصر لها، والاستدلال على صحتها في زعمهم، حتى عُد خلافهم خلافا، وشبههم منظوراً فيها، ومحتاجاً إلى ردها والجواب عنها)[١].

وقد يشترك المبتدعة على اختلاف بدعهم ببعض المخالفات البدعية تقل وتكثر بحسب طبيعة تلك المخالفات، وبحسب الشبه والاختلاف في الأصول التي يقررها كلٌّ منهم.

ولذلك يكون الرد على تلك المخالفات رداً على أولئك مجتمعين بغض النظر عن الاختلاف الحاصل بينهم في كثير من الأمور.

وهذا واقع هنا في هذا البحث، فإن المخالفات البدعية المتعلقة بتوحيد العبادة قد خاض فيها من المبتدعة مَن بينهم من التفاوت والردود الكثير، فالجواب على ما تلتقي عليه أقوالهم واستدلالاتهم في هذا الباب هو دحض لحججهم جميعا، ولا يعني هذا حشرهم في معنى من الابتداع واحد، بل إن جملة الأقوال والأعمال والاعتقادات محكم أساس في الفصل والتمييز.

وأمر آخر لا بد من إيضاحه: وهو أن من تلبس بشيء من المخالفات المتعلقة بتوحيد العبادة، وكانت تلك المخالفات ليست بالكبيرة، وهو ليس المخالفة من شأنه في الجملة، فدخوله في جملة الرد على تلك المخالفة لا يعني إلحاقه بجملة المبتدعة، بل ذلك يجب أن يراعى فيه الغالب من حاله؛ والله تعالى يحب العدل والقسط.

---

(١) الاعتصام ١/ ١٦٢.

والحاصل أن المبتدعة هم من غلبت عليهم البدعة وصاروا معروفين بها.

الأدلة على ذم البدع:

لما كانت البدعة سوء ظن بكمال الشريعة جاء في الشرع ذمها والنهي عنها، بل والتشديد في ذلك.

ولذلك كان السلف من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان أشد الناس اجتنابا للبدع والتحذير منها، لقيام الأدلة الصريحة في ذلك، ولما هم عليه من الاتباع الصادق لسنة النبي ﷺ.

ولقد تنوعت الأدلة من الكتاب والسنة في النهي عن كل بدعة، ويمكن عرض ذلك التنوع كما يلي:

أولاً: بيان كمال الشريعة:

ومفهوم ذلك أن كل زيادة عليها فليس منها، كما قال تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي خطبته ﷺ يوم عرفة قد أشهد الناس على بلاغه للدين فشهدوا له بذلك.

ففي الصحيح من حديث جابر رضي الله عنه في ذكر حجة الوداع، ذكر خطبة النبي ﷺ يوم عرفة، وفيها أنه قال: (**وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟**) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال - بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس -: (**اللهم اشهد اللهم**

اشهد) ثلاث مرات[١].

فالمبتدع قد خالف هذه القاعدة البالغة في الظهور الغاية.

ثانيا: التصريح بأن كل بدعة ضلالة:

ومن أدلة ذلك ما كان يقوله ﷺ في خطبته: (**أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**)[٢].

وهذا يفيد العموم، ولا مخصص له، فهو رد على من يقول بانقسام البدع على الحمد والذم.

بل الدلالة في الحديث ظاهرة في أن كل بدعة ضلالة، فليس هناك بدعة حسنة، بل ليس هناك بدعة ليست بضلالة.

ثالثا: التصريح بأن من رغب عن سنة النبي ﷺ فليس منه:

والبدعة في حقيقتها رغبة عن السنة إلى غيرها.

ومن أدلة ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما

---

(١) رواه مسلم في الحج - باب حجة النبي ﷺ - رقم ١٢١٨، وأبو داود في الحج - باب صفة حجة النبي ﷺ - رقم ١٩٠٥، وابن ماجه في المناسك - باب حجة النبي ﷺ - رقم ٣٠٧٤.

(٢) رواه مسلم في الجمعة - باب تخفيف الصلاة والخطبة - رقم ٨٦٧، والنسائي في صلاة العيدين - باب كيف الخطبة - رقم ١٥٧٨، وابن ماجه في المقدمة - باب اجتناب البدع والجدل - رقم ٤٥.

تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا. وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ﷺ فقال : (**أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**)(١).

رابعا : بيان أن الصراط المستقيم واحد، فمن تنكب عنه فقد سلك السبل المضلة :

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد جاء في تفسيرها ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال : (**هذا سبيل الله مستقيما**) قال : ثم خط عن يمينه وشماله، ثم قال : (**هذه السبل وليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه**) ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾(٢).

وجاء عن مجاهد رحمه الله في تفسير هذه الآية، قال : البدع والشبهات(٣).

خامسا : التحذير من محدثات الأمور :

كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله

---

(١) رواه البخاري في النكاح - باب الترغيب في النكاح - رقم ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح - باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه.. - رقم ١٤٠١.

(٢) رواه أحمد في المسند ١/ ٤٦٥، وابن ماجه في المقدمة - باب اتباع سنة النبي ﷺ - رقم ١١، والدارمي في المقدمة - باب في كراهية أخذ الرأي - رقم ٢٠٢، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٤٨ وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٤٢٢، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٩٣.

ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : (**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**)[١].

سادسا: عدم قبول العمل إذا لم يكن على السنة :

ودليل ذلك قوله ﷺ : (**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**)[٢].

سابعاً : التحذير من الافتراق، وأن سببه الخروج عن السنة، وهو الابتداع :

ودليل ذلك حديث الافتراق المروي من طرق عن عدد من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

ومن ذلك ما رواه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال : (**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على**

---

(١) رواه أبو داود في السنة - باب لزوم السنة - رقم ٤٦٠٧، والترمذي في العلم - باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة - رقم ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة - باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين - رقم ٤٢، وأحمد في المسند ٤/ ١٢٦.

(٢) رواه البخاري في الصلح - باب إذا اصطلحوا على صلح جور فهو مردود - رقم ٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور - رقم ١٧١٨.

ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة وهي الجماعة)[١].

وفي رواية لعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: قالوا: ومن هي يا رسول الله.؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي)[٢].

فمما سبق من النصوص يتضح أن البدع كلها مذمومة منهي عنها.

ولذلك فقد تضافرت النقول عن السلف رحمهم الله تعالى في اجتنابها والتحذير منها، ومن ذلك:

١- قول معاذ بن جبل رضي الله عنه: (إن من ورائكم فتنا، يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل والمرأة، والصغير والكبير، والعبد والحر، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟ ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره. فإياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم؛ فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق)[٣]

٢- قول حذيفة رضي الله عنه: (يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقا بعيدا، ولئن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا)[٤].

---

(١) رواه أبو داود في السنة - باب شرح السنة - رقم ٤٥٩٧، وأحمد في المسند ٤/ ١٠٢، والدارمي في السير - باب في افتراق هذه الأمة - رقم ٢٥١٨.

(٢) رواه الترمذي في الإيمان - باب ما جاء في افتراق هذه الأمة - رقم ٢٦٤١.

(٣) رواه أبو داود في السنة - باب لزوم السنة - رقم ٤٦١١.

(٤) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها ص ١٠ - ١١.

٣- قول أبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهما : (اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة)[١].

٤- قول أبيّ بن كعب رضي الله عنه : (وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في غير سبيل وسنة، فانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادا أو اقتصادا أن يكون على منهاج الأنبياء وسنتهم)[٢].

٥- قول ابن عباس رضي الله عنهما : (عليكم بالاستقامة والأثر، وإياكم والتبدع)[٣].

٦- قول عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لما كتب إليه رجل يسأله عن القدر، فكتب إليه : (أما بعد، أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة ؛ فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم ؛ فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه

---

(١) انظر: شرح أصول أهل السنة للالكائي ١/ ٩٩ - رقم ١١٤، ١١٥، والإبانة لابن بطة - تحقيق رضا بن نعسان معطي ١/ ٣٢٠.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد ٢/ ٢١ - ٢٢، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ٦٠ - رقم ١٠، وابن بطة في الإبانة - تحقيق رضا بن نعسان معطي ١/ ٢٧، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥٢.

(٣) رواه ابن وضاح في البدع والنهي عنها ص ٢٥.

أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم: إنما حدث بعدهم. ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مَقْصَر، وما فوقهم من مَحْسَر، وقد قصَّر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم ..)[١].

والمنقول عن السلف في ذلك لا يكاد يحصى كثرة، وكله واضح الدلالة في النهي عن البدعة، والتحذير من أهلها .

---

(١) رواه أبو داود في السنة - باب لزوم السنة - رقم ٤٦١٢.

منهج المبتدعة في عرض شبههم

لما كانت الشبه التي يلقيها المبتدعة في تقرير بدعهم عاملاً أساساً في غرس ذلك التقرير، وجانباً مهماً في الحفاظ على تلك البدع أمام ما يكون به كشف لعوارها، حرص المبتدعة على تعدد الطرق في عرض تلك الشبهات، لتسوغ عند أنواع المشارب، وتوافق مختلف التوجهات، ويكون ذلك سبباً للإبقاء عليها في النفوس التي أقعدها جهلها، أو غلب عليها هواها.

وليس من السهولة بمكان استعراض منهج في هذا الأمر تتفاوت السهام المضروبة فيه، بين مقل ومكثر، وبين متجاوز في الغلو ومن هو دون ذلك؛ إذ أن الدقة في عرض المنهج إنما يكون في حال اطراده على حال واحدة، لا يتخلف عنها إلا شواذ ليس لها في الحكم نصيب.

والله تعالى يحب العدل في القول والحكم، ولذلك فلابد من القول قبل عرض منهج المبتدعة في عرض شبههم: إن الكلامَ فيه كلامٌ جملي ليس بالضرورة أن يندرج في تفصيلاته كل من تلبس بابتداع في هذا الباب، بل يراعى في ذلك التفاوت في هذا الباب من حالة القرب والبعد.

ولكن لما كان الكلام هنا على العموم، فإنه لا يتضمن أن يوصف أحد بما ليس فيه، أو يحكم عليه بما لم يتصور منه.

ومن خلال الاستقراء لما يعرضه المبتدعة من شبه في تقرير المخالفات المتعلقة بتوحيد العبادة، يمكن الخروج بالملامح التالية:

● **ترك المحكم واتباع المتشابه :**

فتراهم يأتون إلى أدلة مشتبهة يقررون بها مخالفة ظاهرة، قد جاءت النصوص الصريحة في النهي عنها.

فمثلاً : مسألة دعاء غير الله تعالى من الأموات وغيرهم قد جاءت النصوص الواضحة بأن هذا شرك بالله تعالى، وبيان أن هذه هي حال المشركين أعداء الرسل، وأن هذا الأمر هو الذي كانت فيه المنازعة بين الرسل وأقوامهم.

فيعرضون عن كل ذلك الوضوح في تلك الأدلة، ويلجئون إلى أدلة مشتبهة، يحملونها على معنى تقرير دعاء الأموات، كتمسكهم بمسألة سماع الأموات، بأن من يأتيهم ويخاطبهم فإنهم يسمعونه، فإذا سألهم شيئاً كانوا سبباً في أن يشفعوا له عند الله تعالى.

وغير ذلك من المستمسكات والتي ستأتي مفصلة - بإذن الله تعالى - في هذا البحث.

ولذلك فلابد من التنبه لهذا الأمر فيما يعرضه المبتدعة من شبه ؛ إذا أنهم يصورون أن الدليل الذي يعرضونه - وهو من المتشابه - هو الذي فيه الدلالة على المسألة موضوع البحث، أما غيره من أدلة - وهي من الوضوح والإحكام بمكان عليّ - فلا دلالة لها على المسألة، فيغلب على من يضعف تصوره للأدلة ذلك التحييد الذي يرسمونه، فيصغي للمتشابه، ويكون عن المحكم في صمم وعمى.

ولذلك كان من أنفع ما يرد تلك الشبه الاستحضار التام للمحكم من النصوص، ورد ذلك المتشابه إليها.

ولقد دل القرآن على أن ترك المحكم واتباع المتشابه هو من طريق أهل الزيغ والضلال.

فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

ولقد نبه الشيخ محمد عبد الوهاب رحمه الله إلى هذا الأمر في كتابه القيم "كشف الشبهات" فقال: (جواب أهل الباطل من طريقين: مجمل، ومفصل.

أما المجمل: فهو الأمر العظيم، والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] الآية

ثم قال: مثال ذلك: إذا قال لك بعض المشركين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، وأن الشفاعة حق، وأن الأنبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلاما للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره، فجاوبه بقولك: إن الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه، وما ذكرته لك من أن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية، وأن كفرهم بتعلقهم بالملائكة والأولياء مع قولهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، هذا أمر محكم بيّن لا يقدر أحد أن يغير معناه .

وما ذكرت لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله.

وهذا جواب سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا تستهن به)[١].

● التفريق بين المتماثلات والجمع بين المختلفات:

وذلك بأن يأتوا إلى الحال الواحدة التي تجتمع فيها الأوصاف، وتتفق فيها الأقوال والأعمال، فيجعلونها أحوالاً مختلفة عن بعضها، لاعتبارات ليست محل تأثير ونظر، فيبنون على ذلك اختلاف الحكم في حال عن حالٍ مماثلة لها.

فعندما يقررون ما يفعله كثير من عباد القبور من دعاء لغير الله تعالى وذبح ونذر وأنواع من العبادات، وهذه حال مشابهة لحال من حكم الله تعالى عليهم بالشرك، فإنهم يأتون بالتفريق بين الحالين بأن يقرروا أن المشركين السابقين كانوا لا ينطقون بالشهادتين، ويعتقدون الخالقية في غير الله تعالى، أما هؤلاء المستغيثون بالأموات فهم مسلمون يصلون ويصومون، وينطقون بالشهادتين مراراً وتكراراً.

وبذلك يفرقون بين الحالين، وعليه فلا ينطبق حكم أحدهما على الآخر.

أما جمعهم بين المختلفات فإنهم يأتون إلى المعاني التي ليست من

---

(١) كشف الشبهات (مع شرح الشيخ محمد بن عثيمين) ص ٧٩.

أقوال الشرك ولا أعماله فيقيسونها بالمعاني الشركية، وهم بذلك يريدون إلزام خصمهم بأن حكمه على المعاني الشركية ينسحب على تلك المعاني الواضحة في عدم دلالتها على شيء من الشرك، وعليه فإما يقرّ بالأمرين شركاً ظاهراً، وإما يُسلّم أن الأمرين ليسا من الشرك في شيء.

مثال ذلك: الحكم على الاستغاثة بالأموات ودعائهم بأنه شرك بالله تعالى، ومن أعمال أهل الجاهلية، فإنهم يلحقون ذلك بمعنى استغاثة الأحياء بعضهم ببعض فيما مكنهم الله تعالى منه، ويستدلون لذلك بمثل قول تعالى - عن موسى عليه الصلاة والسلام - ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، وكذلك يلحقونه بمعنى طلب الشفاعة من الأنبياء يوم القيامة.

وهكذا يجعلون المعنيين المختلفين معنىً واحداً ليصلوا بذلك إلى أن تلك الاستغاثات بالأموات ما هي إلى من معاني الطلب الذي أباحه الله تعالى بين المخلوقين، فمن حكم عليه بالشرك، فقد حكم على كل طلب يكون من مخلوق إلى مخلوق بأنه شرك.

وهذه طريقة في تقرير الباطل ليست وليدة اللحظة، وفريدة هذه الأزمان، بل قد حكى الله تعالى عن أهل الجاهلية السابقين حين حرّم الله تعالى الربا أنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وما ذلك منهم إلا للإبقاء على ما هم فيه من ضلالة، واستمالة النفوس الضعيفة إلى ما هم فيه.

وقد تستجيب النفس لمثل هذا التلبيس حين لا يكون عندها تدبر

للنصوص، ولا فرقان بين الأحوال، ولا ميزان واضح تضع به المعاني في مواضعها، فتلحق المثيل بمثيله، وتخرج ما ليس منه أن يدخل فيه.

• **الخلط بين الفروقات التي يجمعها معنى عام:**

وذلك بعدم التمييز بين الفروقات الجزئية في المعاني التي يجمعها معنى عام كلي، فيجعلون تحقيق جزء ذلك المعنى العام تحقيقاً لتمامه، هذا في جانب التقرير والإثبات.

أما في جانب النفي والاعتراض فيخلطون تلك المعاني للإلزام بالحكم الواحد على المعاني المفترقة وإن كانت مشتركة في أصل المعنى.

فمثلاً: في تقرير التوحيد لا يفرقون بين المعاني المتعلقة به، والتي لا يكون تحقيقه إلا باجتماعها، فيقررون معنىً من معانيه وهو إفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، ويجعلون تحقيق هذا المعنى من التوحيد محققاً لتمامه، وبذلك أخرجوا أن يكون دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك أن يكون مناقضاً للتوحيد ما دام أن صاحبه محقق لمعنى إفراد الله تعالى بالخالقية.

وكذلك في الكلام على الشرك وأنواعه ووسائله، يداخلون بين المعاني المتعلقة بذلك، ويجعلون الحكم على شيء منها حكماً عاماً يشمل كل تلك المعاني.

وذلك منهم لإلزام الخصم أنه يجعل شركاً ما ليس بشرك، أو أنه يجب أن يسلم بانتفاء ما حكم به.

فيجعلون الكلام على الوسائل كلاماً على الشرك نفسه، فيشنعون

على من يحذر من وسائل الشرك، ويزيل مظاهرها بأنه يحكم على تلك الوسائل بأنها شرك بالله تعالى لا حظ لصاحبها في الإسلام.

وأيضاً يحملون الكلام على الوسائل - وخاصة حين يكون لبعض أهل العلم كلام في تقريرها - على معانٍ هي من الشرك الصريح.

وهذا يظهر في الكلام على التوسّل والتبرك والغلو ونحو ذلك، كما سيظهر جلياً في هذا البحث - إن شاء الله تعالى ـ، بغية ذلك الإلزام الباطل.

• **الأخذ ببعض النصوص وترك بعض:**

وهذه نتيجة حتمية لغلبة الهوى، ورغبة الانتصار للرأي دون تجرد للحق.

فإذا كان من النصوص ما يجدون فيه دلالة على تقرير معنىً مما يريدون فإنهم يبرزونه ويحشدون ما يماثله.

وأما النصوص التي فيها الدلالة الصريحة على نقض دعواهم فإنهم يعرضون عنها صفحاً، ولا يكون لها في صفحات ما يسطرونه نصيب.

ولذلك تراهم يأخذون المنسوخ ويتركون الناسخ، ويستدلون بالعام ويتركون الخاص، وهكذا.

• **إلزام المخالف لهم بما ليس بلازم، ورميه بسيء الأوصاف:**

وهذه طريقة للمبطلين قديما وحديثاً، لا يقرعون الحُجة بالحُجة، ولكن بالإلزامات الباطلة، والتشنيع المجحف.

فالمبتدعة حين يقررون شبههم فإنهم يرمون من خالفهم بالعظائم

لتسلم تلك الشبهات في نفوس الآخذين عنهم.

فمثلاً: حين يقررون دعاء الأموات، وصرف أنواع من العبادة لهم، ويأتي من ينكر عليهم بالأدلة الواضحة أن هذا من أعمال الجاهلية، فإنهم يرمونه ببغض الأنبياء والأولياء، وأنه لا يقدرهم قدرهم، وأنه لم يحمله على هذا الإنكار إلا حقد وغل يحمله في قلبه على أولياء الله تعالى.

وهكذا يستخفون العقول الضعيفة، وينفرونها عمن يحمل لها النصح الصادق، والصوت المشفق.

- **جعل الكثرة محكماً في الصواب والخطأ:**

وذلك بأن يحشروا من لا يكاد يحصى كثرة ممن هو على طريقتهم في جملة ما يستدلون به على باطلهم، فيجعلون تلك الكثرة الكاثرة من أظهر الأدلة على صدق المنهج، وصحة الطريق.

وإن من المعلوم أن صحة الطريق لا تقاس بكثرة الأتباع؛ إذ أن أهل الضلالة يملأون الأرض طولاً وعرضاً، ومع ذلك فلا تدل كثرتهم طرفة عين على صحة ما هم عليه، وموافقته للفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها.

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿...وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

وأخبر النبي ﷺ أنه لا تزال طائفة من أُمته على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم[١].

نعم، يُفرح بالكثرة حين تكون متبعة للحق، سائرة في طريقه، جاعلة مقياس الصواب في ذلك السير هو الحق نفسه، إذ هو دليل الفوز والفلاح والنجاة، ومن تخلف عن ذلك الدليل فلا عبرة فيه، قلّ أو كثُر.

● **تقديم المقدمات الباطلة والتسليم لنتائجها:**

وذلك بأن يقرروا أموراً هي في حقيقتها مقدمات تبنى عليها نتائجها، فتكون تلك المقدمات مقدمات باطلة، فيبنون الكلام على نتائجها بناء على ذلك التقرير لها.

فيكون الكلام على تلك النتائج بالتسليم مبنياً على ذلك التأصيل الباطل، والتصور غير الصحيح.

فمثلاً: يقررون بأدلة لم يجمعوا أطرافها أن هذه الأُمة محفوظة من الشرك، فلا يقع فيها شيء منه، ويبنون على ذلك الحكم على جميع الأقوال والأفعال التي تصدر ممن يدعو غير الله، ويذبح وينذر لغير الله تعالى، ويصرف أنواعاً من العبادات لغير الله تعالى أن ذلك ليس من الشرك في شيء، ويجب حمله على غير الشرك حتى لا تنخرم المقدمة التي قدموها في هذا الباب.

---

(١) رواه البخاري في العلم - باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين - رقم ٧١، ومسلم في الإمارة - باب لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم - رقم ١٠٣٧ عن معاوية رضي الله عنه.

وكذلك في تعريفهم للعبادة حين حصروا معناها على اعتقاد الخالقية في المعبود، بنوا على ذلك أن ما يفعله الغلاة في القبور، وما يصدر منهم من أقوال وأفعال ليست عبادة مصروفة لغير الله تعالى؛ لأنها لم تصدر عن قلبٍ معتقد أن غير الله تعالى خالق مدبّر مستقلٌّ بالفعل.

وبمثل هذه الطريقة يجعلون الشبه مركبة يبنون بعضها على بعض ظانين بذلك أن الأدلة مجتمعة على ما يقررون.

● **تسمية الشيء بغير اسمه، وتزيين العبارة وتنميقها في عرض الشبه لتكون أكثر قبولاً:**

وهذه سنة متوارثة بين المبطلين، فكلٌّ لا يجرؤ على عرض باطله بصورته التي هو عليها، ولكنهم يزينون العبارات، ويعطون من طرف اللسان حلاوة لتكون تلك الشبهة التي يعرضونها في تقرير باطلهم أقرب للنفوس والأسماع.

فتراهم يسمون تلك الشركيات التي تكون عند القبور محبة للأولياء، واحتراماً لهم، وإنزال أهل الفضل منازلهم اللائقة بهم، فيدعون ويستغيثون ويركعون ويسجدون ويعملون من أمثال ذلك ما يشاؤون، ثم يخلعون عليه لباس التقدير والاحترام لعباد الله الصالحين.

ومن أنكر ذلك أو عابه كان - عندهم - مخلاً بالأدب، مقصراً في أداء الحقوق المستحقة لأولياء الله تعالى.

وبمثل ذلك يُزين لهم سوء عملهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ولقد أخبر الله تعالى عن حال المشركين السابقين أنهم يجمّلون

العبارات في تقرير ما هم فيه من شرك.

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقال تعالى عن حال المنافقين: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢].

فالعبرة في الحكم على الأشياء هي الحقائق والمعاني، لا الأسماء والألقاب.

- **تأويل النصوص عن ظاهرها الدالة عليه لتوافق ما يقررونه:**

إن التأويل باب وجد فيه المبتدعة مدخلاً واسعاً في تقرير بدعهم، وصرف كل ما يعترضها من الأدلة التي تبين بطلانها.

فبالتأويل حاول كل مبتدع أن يحمي جانب بدعة ويوجد التبريرات المتعددة والمتنوعة لتلك البدعة التي يريدها ملء قلوب العباد.

وفيما يتعلق بتوحيد العبادة فإن المبتدعة يصرفون النصوص الدالة على بطلان ما يقررونه في هذا الباب عن معنى تلك الدلالة إلى معانٍ مختلفة، أو يحملونها على جزء في المعنى دون تمامه لتسليمهم بحكم ذلك الجزء دون غيره.

فمثلاً: يؤولون النصوص الدالة على النهي عن دعاء غير الله تعالى إلى معنى اعتقاد الربوبية في المدعوّ، ويقصرون المعنى عليه، وبذلك يصلون إلى صرف دلائل تلك النصوص أن تكون دالة على دعاء الأموات والاستغاثة بهم ونحو ذلك.

فباب التأويل من أهم ما يدخل منه المبتدعة في تقرير بدعهم، وصرف كل ما يدل على بطلانها عن الدلالة على ذلك.

● الاستدلال بالأحاديث الضعيفة والموضوعة:

فحين يكون شيء من ذلك دالاً على بدعتهم، أو فيه شبهة الدلالة عليها فإنهم يتشبثون به، ويظهرونه ويبرزونه، ويتكلفون النقول والتحليل في التصحيح والتحسين.

في الوقت الذي يتغافلون فيه عن النصوص الصحيحة الصريحة في ذم بدعتهم وبيان بطلانها.

بل إن منهم من يستدل بما هو ظاهر الوضع، واضح الكذب، كالاستدلال بحديث (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه)، وحديث (إذا أعيتكم الأمور فاستعينوا بأصحاب القبور)، ونحو ذلك.

وما هذه إلا بضاعة من أفلس من الدلائل الصحيحة الصريحة في تقرير ما يريد، فأخذه هواه إلى حيث مالا تقوم به حجة ولا يصح به استدلال.

أما أهل الحق والاتباع فتضيء طريقهم نصوص الوحيين يهتدون بهديها، ويهتئون بنورها.

● الاعتماد على القصص والمنامات وكثرة إيرادها:

وهذا كثير في تقرير ما هم فيه من ابتداع، فيوردون القصص، ويتناقلون الرؤى في سلامة منهجهم، وصحة طريقتهم، وصدق ما هم فيه من قول أو عمل، وإن كان قد دلت الدلائل من الكتاب والسنة على

عدم شرعية ما هم عليه.

فمثلا : في مسألة الاستغاثة بالأموات يعتمدون كثيرا على ما يتناقلونه من قصص من أن فلانا دعا صاحب القبر الفلاني فتحصل له مطلوبه، واندفعت عنه كروبه.

ويعتمدون - أيضا - على الرؤى التي يتناقلونها، فيرى فلانٌ من الناس شيخه في المنام يحمد طريقته، ويصوب قوله وفعله، ويفيده بحصول الثواب الأخروي، وتحقق المطلوب الدنيوي بالسبيل التي يسلكها، كاستغاثته بالأموات، وطلب الرزق والمدد منهم، وصرف أنواع من العبادة لهم.

فيجعلون ذلك كله دليلا على سلامة الطريق وصحة المنهج.

وما ذاك بالذي تعارض به الدلائل الشرعية الواضحة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، ولكن لما غلب الهوى، وعميت البصيرة، واختلت الموازين، واستبدل بالمعين الصافي كدرٌ لا يروي غليلا، ولا يشفي عليلا، فصارت تصدر القلوب والعقول عن غير الوحيين، أنتج ذلك تلك المفارقات في الاستدلال حين يُجعل ما ليس بدليل دليلا، بل ويُجعل حاكما على أصرح الأدلة وأقواها.

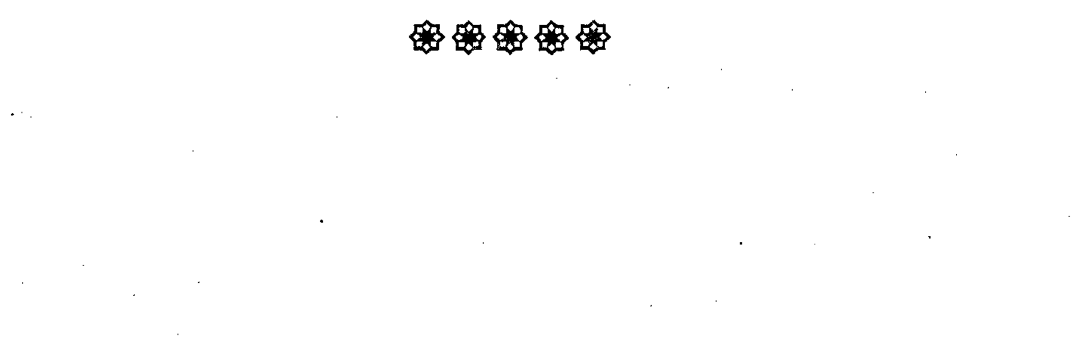
نعم، لا يُنكر ما للقصص والرؤى من تثبيت للنفس وبشارة، وما يكون في القلب من استئناس بها.

ولكن يجب أن يوزن ذلك كله بميزان الشرع، ليُعلم بعد هذا أن ما كان منها مخالفا للنصوص الشرعية فليس من البشارة في شيء، وأن استئناس النفس بها ما هو إلا متاع ساعة سرعان ما تزول، ثم يُدرَك

يقيناً أن دعاء المضلين ما كان إلا في تباب.

وبعد، فهذه جملة ما وقع الاستقراء عليه من ملامح تبين منهج المبتدعة في عرض شبههم وتقريرها.

نسأل الله تعالى الهدى والتقى، وحسن القول والعمل .





الباب الأول

شبهات المبتدعة في معنى العبادة
وأول واجب على المكلف

- **الفصل الأول :** شبهاتهم في أول واجب على المكلف.
- **الفصل الثاني :** شبهاتهم في تعريف العبادة.
- **الفصل الثالث :** شبهاتهم في الخلط بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية.

الفصل الأول

شبهاتهم في أول واجب على لمكلف

- **المبحث الأول :** أول واجب على المكلف عند أهل السنة.
- **المبحث الثاني :** أول واجب على المكلف عند المبتدعة.
- **المبحث الثالث :** شبهات المبتدعة في أول واجب على المكلف عندهم.



توطئة

إن مسألة أول واجب على المكلف بينة واضحة في دلالات نصوص الكتاب والسنة وسيرة الرسل وأتباعهم في دعوتهم الناس. إلا أن طوائف أهل الكلام قد خاضوا فيها بأمور بدعية أحدثوها لم ينزل بها كتاب ولا سنة، أطالوا البحث فيها للوصول إلى أمور ضرورية في النفوس، وأثمرت موقفاً ضيقاً تجاه الداخلين في هذا الدين أفواجاً،كما سيتضح عند عرض منهجهم ومناقشته إن شاء الله.

ومن هنا كان لزاماً على أهل السنة توضيح المنهج الحق والرد على كل من خالفه.

وفي هذا الفصل سأبين مذهب أهل السنة في هذه المسألة، ثم يكون الكلام على مذهب المتكلمين فيها مع عرض شبهاتهم والرد عليها.



المبحث الأول

أول واجب على المكلف عند أهل السنة والجماعة

لقد أرسل الله تعالى رسله وأنزل معهم الكتاب والميزان، فكان مبدأ دعوتهم ومفتاح رسالتهم الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، كما قص الله تعالى عنهم أن مبدأ قولهم لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فأول واجب على المكلف هو عبادة الله تعالى وحده، وعلى هذا اتفق علماء السلف كما قال شيخ الإسلام ابن تيميه: (إن السلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقب البلوغ)[١].

والأدلة على هذا الأمر كثيرة منها:-

أولاً: أن الله تعالى قد بين الغاية من خلق الجن والإنس وهي عبادته سبحانه وحده، فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وفطر العباد على الإقرار به، فكان بدء الخطاب بلازم تلك الفطرة وهو العبادة، كما قال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

ثانياً: أن الله تعالى قد قص في كتابه أنباء جمع من الرسل عليهم

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ١١.

الصلاة والسلام، وبيّن أصل دعوتهم للناس ومبدأها، وباستقراء تلك القصص نجد التوافق في مبدأ تلك الدعوات وهو الأمر بعبادة الله تعالى وحده، فنجده يأتي ملازماً لذكر الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهكذا الشأن في الرسل من بعده عليهم الصلاة والسلام.

ثالثاً: أن الناظر في سيرة النبي ﷺ يرى أنه كان يفتتح دعوته للناس بالأمر بالشهادتين، ودلائل هذا كثيرة جداً، ومن ذلك:-

قوله ﷺ: (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ...**)[١] الحديث.

لما جاءه وفد عبد قيس وقالوا: مرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة، فأمرهم بالإيمان بالله وحده وقال: (**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟**) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (**شهادة أن لا إله إلا الله، وان محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس**)[٢].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان - باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ - رقم ٢٥، ومسلم في كتاب الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله - رقم ٢٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان - باب أداء الخمس من الإيمان - رقم ٥٣، ومسلم في كتاب الإيمان - باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ... - رقم ١٧.

لما بعث ﷺ معاذاً إلى اليمن، قال له: (**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا أخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم وترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوقّ كرائم أموال الناس**)(١).

فالحديث صريح في مبدأ الدعوة وأول الواجبات، ولذلك جعل الإمام البخاري رحمه الله هذا الحديث في أول كتاب التوحيد إشارة إلى هذا المعنى، والله أعلم.

أنه ﷺ لما أعطى الراية لعلي رضي الله عنه في غزوة خيبر أمره فقال: (**انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**)(٢).

رسائله ﷺ إلى أهل الأمصار تبدأ بالأمر بدخول الإسلام، كما في رسالته إلى هرقل وفيها: (**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبدالله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك**

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد - باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ - رقم ٧٣٧٢، ومسلم في كتاب الإيمان - باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام - رقم ١٩.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير - باب فضل من أسلم على يديه رجل - رقم ٣٠٠٩، ومسلم في فضائل الصحابة - باب فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه - رقم ٢٤٠٦.

مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤][1]

وعموماً، فسيرته ﷺ دالة دلالة صريحة على بدء الدعوة بالأمر بعبادة الله تعالى وحده.

رابعاً: إجماع السلف على أن ما يدخل به المرء إلى الإسلام هو الشهادتان.

قال ابن المنذر رحمه الله: (أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم أن الكافر إذا قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن كل ما جاء به محمد ﷺ حق وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف دين الإسلام، وهو بالغ صحيح يعقل، أنه مسلم)[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إن السلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد الشهادتان)[3].

ولا يقدح في هذا الإجماع ما يذكره بعض أصحاب المذاهب الأربعة ممن تأثر بعلم الكلام في نسبة القول بأن أول واجب على المكلف هو المعرفة والنظر إلى الأصحاب، ويعني به أصحاب

---

(١) رواه البخاري في بدء الوحي - باب بدء الوحي - رقم ٧، ومسلم في الجهاد والسير - باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام - رقم ١٧٧٣.

(٢) الإجماع ص ١٥٤.

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ١١).

المذهب، وهو في الحقيقة قول من تأثر به من أصحاب الكلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ :- (ولما كان الكلام في هذه الأبواب المبتدعة مأخوذاً في الأصل عن المعتزلة والجهمية ونحوهم، وقد تكلم هؤلاء في أول الواجبات : هل هو النظر، أو القصد، أو الشك، أو المعرفة؟ صار كثير من المنتسبين إلى السنة، المخالفين للمعتزلة في جمل أصولهم، يوافقونهم على ذلك، ثم الواحد من هؤلاء إذا انتسب إلى إمام من أئمة العلم كمالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، وصنف كتاباً في هذا الباب يقول فيه : (قال أصحابنا) و (اختلف أصحابنا)، فإنما يعني بذلك أصحابه الخائضين في هذا الكلام، وليسوا من هذا الوجه من أصحاب ذلك الإمام ..)[١].

خامساً : أن تقرير أولية الشهادتين في الوجوب لا يعني إهمال مسألة المعرفة التي يجعلها أهل الكلام هي مبدأ الواجبات، بل إن من المسلمات الشرعية والعقلية أن معرفة الله والإقرار بوجوده أمر فطري مستقرّ في النفوس لا يخالف فيه إلا شواذ الناس عن كبر وعناد، فلذلك لم يتوجه الأمر به ابتداءً لأنه من مسلمات ما تقرّ به الفطر والعقول.

فتوجه الأمر ابتداءً إلى لازمه ومقتضاه وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

إذاً، فمما تقدم يتضح جلياً مذهب أهل السنة والجماعة في أن أول

(١) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٣.

ما يجب على المكلف هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فالكافر أول ما يدخل الإسلام بذلك.

هذا بالنظر إلى ذات الواجب المراد تحقيقه وهو توحيد الله تعالى.

أما بالنظر إلى من يتعلق بهم الوجوب فهذا يختلف باختلاف أحوالهم.

فالكافر أول ما يجب عليه الشهادتان، والصبي إذا بلغ وقد نشأ مسلماً موحداً فيجب عليه عند التكليف ما لم يكن حققه قبله، فمن لم يحقق الطهارة فتكون أول الواجبات في حقه، وهكذا من لم يحقق الصلاة وقراءة الفاتحة ونحو ذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه - موضحا ذلك - : (وأول الواجبات الشرعية يختلف باختلاف أحوال الناس، فقد يجب على هذا ابتداءً ما لا يجب على هذا ابتداءً، فيخاطب الكافر عند بلوغه بالشهادتين وذلك أول الواجبات الشرعية التي يؤمر بها، وأما المسلم فيخاطب بالطهارة إذا لم يكن متطهراً، وبالصلاة وغير ذلك من الواجبات الشرعية التي لم يفعلها.

وفي الجملة فينبغي أن يعلم أن ترتيب الواجبات في الشرع واحداً بعد واحد، ليس هو أمراً يستوي فيه جميع الناس، بل هم متنوعون في ذلك، فكما أنه قد يجب على هذا مالا يجب على هذا، فكذلك قد يؤمر هذا ابتداءً بما لا يؤمر به هذا، فكما أن الزكاة يؤمر بها بعض الناس دون بعض، وكلهم يؤمر بالصلاة، فهم مختلفون فيما يؤمرون به ابتداءً من واجبات الصلاة، فمن كان يحسن الوضوء وقراءة الفاتحة،

ونحو ذلك من واجباتها، أمر بفعل ذلك، ومن لم يحسن ذلك أمر بتعلمه ابتداءً، ولا يكون أول ما يؤمر به هذا من أمور الصلاة هو أول ما يؤمر به هذا)[١].

❁❁❁❁❁

(١) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ١٦.

المبحث الثاني

أول واجب على المكلف عند المبتدعة

لقد سبق الكلام على منهج أهل السنة في هذه المسألة وأنه طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي أوضحها القرآن والسنة غاية الإيضاح والبيان.

ولقد خالف في ذلك أهل الكلام من المعتزلة(١) والأشاعرة(٢) ومن وافقهم، فقالوا: إن أول واجب على المكلف هو المعرفة - أي معرفة الله والإقرار بوجوده وأنه خالق العالم -.

---

(١) المعتزلة سموا بذلك لاعتزال واصل بن عطاء وهو رأس المعتزلة مجلس الحسن البصري ﷺ، وذلك لقول واصل بأن صاحب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر. ويجمع المعتزلة القول بخلق القرآن ونفي الصفات وإنكار الرؤية في الآخرة وأن العباد يخلقون أفعالهم، ولهذه الأخيرة يسمون العدلية؛ حيث يجعلون ذلك الاعتقاد هو مقتضى العدل.

انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري ١/ ٢٣٥، الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٠-٢١، ١١٤-١١٦، الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٤٣-٤٦، المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق.

(٢) نسبة إلى أبي الحسن الأشعري ولكن في مذهبه الثاني الذي رجع إليه عن الاعتزال، ومن جملة أقوالهم إثبات الصفات السبع التي يسمونها العقلية، وينفون غيرها وخاصة الصفات الفعلية، وينفون علو الذات، وهم مرجئة في الإيمان. وهذا المذهب التزمه من اتبع أبا الحسن في أقواله في المرحلة الثانية، ولكن أبا الحسن نفسه ترك هذا المذهب وصرح بانتهاجه مذهب السلف.

انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ٥٢-٥٥، مذاهب الإسلاميين لبدوي ١/ ٤٨٧، موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود ٣٢٩ وما بعدها.

ومنهم من قال : إن أول واجب هو النظر المفضي إلى تلك المعرفة.

ومنهم من قال : إن أول واجب هو إرادة ذلك النظر وهو أول جزء منه.

وذهب أبو هاشم الجبائي إلى أن أول واجب هو الشك في الله تعالى إذ أنه متقدم على النظر، وهو الدافع إليه(١).

هذه مجمل أقوال المتكلمين في هذه المسألة، وإن كان الأخير مردودا عندهم لفظاً ومعنى، كما قال الجويني عند ذكره لتلك الأقوال :(واعلموا أن الكلام في هذا الفصل يؤول إلى العبارات، وفيها التنازع ولا يتأكد في المعاني إلّا الذي قاله أبو هاشم فهو مردود لفظاً ومعنى)(٢).

وقد يكون الخلاف بين هذه الأقوال خلافا لفظيا، إذ المقصود الأساس لتلك الأقوال جميعها هو إيجاب معرفة الله تعالى على المكلف، فمن جعل أول الواجبات المعرفة أراد به وجوب المقاصد،

---

(١) في أقوال المتكلمين في مسألة أول واجب انظر - مثلاً -: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به الباقلاني ص ٢٢، الشامل في أصول الدين للجويني ص ١٢٠-١٢١، أصول الدين للبغدادي ص ٢١٠-٢١١، أبكار الأفكار للآمدي ١/ ١٧٠-١٧٢، المواقف للإيجي ص ٢٨، تحفة المريد على جوهرة التوحيد للباجوري ص ١٦-١٧، درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٣٥٣-٤١٩، ٨/ ٣، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٠/ ٢٠٢،فتح الباري ١٣/ ٣٦١، المدخل إلى دراسة علم الكلام لحسن بن محمود الشافعي ص ١٤٠، موقف ابن تيمية من الأشاعرة لـ د. عبدالرحمن المحمود ٣/ ٩٣٤.

(٢) الشامل في أصول الدين ص ١٢١-١٢٢.

ومن قال بالنظر أو قصد النظر فمراده وجوب الوسائل.

يقول شيح الإسلام ابن تيميه : (وهؤلاء يقولون في أول واجب على العبد هل هو النظر والاستدلال المؤدي إلى معرفة الله أو المعرفة ؟

وقد تنازعوا في ذلك على قولين ذكرهما هؤلاء الطوائف من أصحاب أحمد وغيرهم، والنزاع لفظي، فإن النظر واجب وجوب الوسيلة من باب مالا يتم الواجب إلا به، والمعرفة واجبة وجوب المقاصد، فأول واجب وجوب الوسائل هو النظر، وأول واجب وجوب المقاصد هو المعرفة.

ومن هؤلاء من يقول: أول واجب هو القصد إلى النظر، وهو أيضا نزاع لفظي، فإن العمل الاختياري مطلقا مشروط بالإرادة)[1].

إذاً فالأصل في هذه الأقوال أن أول الواجبات هو معرفة وجود الله تعالى وخلقه للعالم، ثم صار الكلام إلى الطريق الموصل إلى تلك المعرفة: هل هو متوقف على النظر فيكون أول واجب أو قد يكون بغيره.

وما من شك أن معرفة الله تعالى من الأصول التي لا ينازع فيها مسلم، وهي سابقة لكل أصل عقدي، إذ لا يتأتى إيمان مع عدم الإقرار بوجود الله تعالى.

ولكن هذه المعرفة مما استقر وجوده في الفطر، فقد فطر الله تعالى العباد عليها كما قال سبحانه : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٣٥٣.

﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [الرُّوم: ٣٠].

وكما جاء في الحديث القدسي: **(وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)**[١].

فتلك المعرفة المقتضية لعبادة الله وحده مستقرة في الفطر، والخروج عنها هو الطارئ على الناس كما قال ﷺ: **(ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)**[٢].

ومن هنا يتضح منهج أهل السنة في قولهم: إن أول واجب على المكلف هو عبادة الله تعالى. مع أن العبادة لابد أن تبنى على معرفة، فتلك المعرفة مستقرة في النفوس، والخروج عنها طارئ شاذ في أحوال الناس، فبنوا حكمهم في أول الواجبات على الأصل الذي عليه غالب الناس.

أما من تبدلت فطرته فأنكر وجود الله تعالى وخلقه لهذا الكون، فهذا يخاطب ابتداء بتلك المعرفة بالطرق الشرعية التي تذكره وتعيده إلى أصله الذي فطر عليه، ومع هذا يقرر بمقتضى ذلك ولازمه وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

أما المتكلمون فبنوا كلامهم في أول الواجبات على عدم حصول

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة ونعيمها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة - رقم ٢٨٦٥.

(٢) رواه البخاري في الجنائز - باب إذا أسلم الصبي ومات هل يصلى عليه؟ - رقم ١٣٥٨، ومسلم في القدر - باب عنى كل مولود يولد على الفطرة - رقم ٢٦٥٨.

تلك المعرفة ابتداء، فسعوا في تحصيلها وهي حاصلة، وتحصيل الحاصل ممتنع، ثم إنهم مع هذا يقفون غالبا عند حدود تلك المعرفة دون تقرير الغاية العظمى منها وهي عبادة الله تعالى وحده، وهذا من أعظم المآخذ عليهم، إذ مجرد المعرفة ليس مما يتمدح به، فأعدى أعداء الله - وهو إبليس - حاصلة هذه المعرفة عنده، فلم تكسبه إيمانا ينجيه من عذاب الله تعالى، بل ما ازداد من الله إلا بعدا.

إذاً : فأهل السنة لم ينكروا على أهل الكلام القول بأن أول واجب هو المعرفة تقليلاً لشأن تلك المعرفة، بل لأن هذه المعرفة حاصلة مستقرة في النفوس، والخروج عنها طارئ شاذ، وأن المقصد الأعظم هو مقتضاها الذي تدل عليه، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له الذي هو أول دعوة الرسل ومفتاحها، وعليه فهو أول الواجبات على المكلفين.



المبحث الثالث

شبهات المبتدعة في أول واجب على المكلف

سبق الكلام على تعدد أقوال المتكلمين في أول واجب على المكلفين بين المعرفة والنظر المؤدي إليها والشك.

وسبق بيان موقف أهل السنة تجاه تلك المعرفة وأنهم لا ينكرون كونها أصلاً سابقاً لكل اعتقاد صحيح، وإنما يقررون وقوعها مستقرة في نفوس العباد، وتشهد بها فطرهم، وأن الخروج عليها هو الشاذ الطارئ، وأن مع تلك المعرفة أصلاً عظيماً وغاية كبرى خلق الخلق من أجلها وهي كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

أما قول أكثر المتكلمين إن أول واجب هو النظر أو القصد إلى النظر المؤدي إلى تلك المعرفة، فهذا الذي فيه أكبر الخلاف حيث جمع بين أمرين:

الأمر الأول: أن أول واجب هو المعرفة.

الأمر الثاني: أنه لا طريق إلى تلك المعرفة إلا النظر والاستدلال.

وهذا الثاني حشدوا له الاستدلالات والحجج - التي هي في حقيقتها شبه لا تقوم لهم بها حجة -.

ولذا سيكون أكثر الكلام في هذا المبحث على هذا الأمر الثاني

وردّ شبههم فيه، أما الأمر الأول فيكفي فيه البيان العام الذي أشرت إليه، وسأشير أيضاً إلى استدلال تمسكوا به له مع الإجابة عليه.

شبهاتهم في أن أول واجب على المكلف هو المعرفة :-

يمكن حصر ما استدلوا به - فيما وقفت عليه - في هذه المسألة في ثلاثة أدلة :-

أولاً :- أن معرفة الله تعالى هي أصل المعارف الدينية، وعليها يتفرع وجوب كل واجب.

ثانياً :- إجماع العقلاء على وجوب معرفة الله تعالى.

ثالثاً :- استدلالهم بحديث بعث النبي ﷺ معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن وفي بعض ألفاظه (**فإذا عرفوا الله**)[1].

وهذا ذكره عنهم الحافظ ابن حجر في الفتح حيث قال : (وقد تمسك به من قال أول واجب المعرفة كإمام الحرمين واستدل بأنه لا يتأتى الإتيان بشئ من المأمورات على قصد الامتثال، ولا الانكفاف عن شئ من المنهيات على قصد الانزجار إلا بعد معرفة الآمر والناهي)[2].

الجواب عن استدلالاتهم :

أما الأول والثاني فقد سبق البيان فيهما، وهو أن أهل السنة لا

---

(١) رواه بهذا اللفظ البخاري في الزكاة - باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة - رقم ١٤٥٨، ومسلم في الإيمان - باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام - رقم ١٩.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٦١.

يخالفون في كون معرفة الله تعالى _ ولكن على غير أصول أهل الكلام _ أصلاً لا ينازع فيه، إلا أنه أصل مستقر في الفطر، ولم يخالف فيها إلا شواذّ الناس ؛ لذلك كانت دعوة الرسل مستندة إلى تلك المعرفة الواقعة، فافتتح الخطاب فيها بلازم تلك المعرفة ومقتضاها : ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ولما كان أكثر الناس خالفوا في غاية ما خلقوا من أجله خوطبوا به ابتداءً، ومع هذا فالمكلفون تختلف أحوالهم، فالصغير إذا نشأ على الإسلام، لم يطالب بعد بلوغه بتجديد الشهادتين فضلاً عن المعرفة والاستدلال، بل يؤمر بما لم يحقق من الواجبات . . . . وهكذا

إذاً فالمعرفة حاصلة ابتداء ؛ وإذا قدر عدمها فإنه لا يؤمر بها منفردة مجردة عن الشهادتين، بل يؤمر بذلك كله ابتداءً، إذ لو أقر بوجود الله تعالى بعد إنكاره له لم يكن ذلك منجياً له حتى يقر بالشهادتين.

أما استدلالهم بلفظ «فإذا عرفوا الله . . . . .» على ما ذهبوا إليه فمردود لوجوه :-

الوجه الأول:

وورود الحديث بألفاظ أخرى غير هذا اللفظ، فقد رواه الأكثر بلفظ : (**فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمد رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك . . . .**)[1].

(١) البخاري في الزكاة - باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد على لفقراء - رقم ١٤٩٦.

ومنهم من رواه بلفظ : (**فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك . . .**)[١].

فالرواية الأكثر : (**فإن هم أطاعوا . . .**)[٢] تبين المراد، وهو حجة لأهل السنة في أن التوحيد هو أول الواجبات.

الوجه الثاني:

أن تمام المعنى في اللفظ الذي استدلوا به هو عليهم لا لهم، فلفظ الحديث : (**فادعهم إلى عبادة الله، فإذا عرفوا الله . . .**) فالنبي ﷺ أمر معاذاً رضي الله عنه أن يدعوهم ابتداءً إلى عبادة الله تعالى، وعليها يحمل معنى معرفة الله هنا، وهي عبادته وحده لا شريك له، وليس المعنى ما يقرره هؤلاء المتكلمون من إثبات الصانع والاستدلال على ذلك بما أصلوه بعقولهم و آرائهم.

الوجه الثالث:

أن هؤلاء الذين أرسل إليهم معاذ رضي الله عنه هم أهل كتاب، مقرّون بوجود الله تعالى وربوبيته، بل وعلى علم بشريعة من أرسله إليهم، فكيف يكون مبدأ دعوتهم مسلمات لا ارتياب عندهم فيها؟!

---

(١) البخاري في التوحيد - باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ - رقم ٧٣٧٢.

(٢) وقد جاء بهذا اللفظ عند البخاري في الزكاة - رقم ١٣٩٥ و ١٤٩٦، وفي المغازي - ٤٣٤٧، ومسلم في الإيمان - رقم ١٩، وأبي داود في الزكاة - رقم ١٥٨٤، والترمذي في الزكاة - رقم ٦٢٥، والنسائي في الزكاة - رقم ٢٤٣٥، وابن ماجه في الزكاة - رقم ١٧٨٣، وأحمد في المسند ١/ ٢٣٣، والدارمي في الزكاة - رقم ١٦١٤.

الوجه الرابع:

إذا كان المعنى على ما أرادوا، فكيف يعقبه بالأمر بالصلاة والزكاة؟ مع أن الشهادتين سابقة لذلك. فهل يقال إنهما أغفلتا في هذا الحديث؟!

الوجه الخامس:

إذا كان استدلالهم بهذا اللفظ صحيحاً، فهل يذكرون لنا كيف كانت دعوة معاذ رضي الله عنه لأولئك القوم لإثبات وجود الله وحدوث العالم؟ هل هو بدليل التمانع، أو الأعراض أو نحو ذلك؟!.

إذاً، فمع أن استدلالهم بالحديث لا تقوم به حُجة لهم، فالحديث حجة قاطعة عليهم؛ إذ أنه صريح الدلالة في أمر النبي ﷺ معاذاً ابتداء الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن ذلك هو أول الواجبات الشرعية.

القائلون إن أول واجب على المكلف هو النظر والاستدلال:-

وهذا مذهب أكثر أهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية[1] ومن وافقهم من أصحاب المذاهب الأربعة.

فهؤلاء قد قصروا حصول المعرفة الألهية على الاستدلال والنظر العقلي، على خلاف بينهم في موجب ذلك النظر هل هو العقل أو

(١) الماتريدية: نسبة إلى أبي منصور الماتريدي، وهو محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، من أشهر مذهبهم الاعتقادي إثبات ثمان صفات لدلالة العقل عليها، والإرجاء في الإيمان، وبينهم وبين الأشاعرة قرب شديد. (انظر: الماتريدية دراسة وتقويما، لأحمد بن عوض الله الحربي).

الشرع، وفي حكم المقلد التارك للنظر بين مكفر له وبين مصحح لإيمانه مفسق له بتركه النظر، وبين من هو أخف في ذلك حكماً على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وأصل القول في هذه المسألة - أي قصر المعرفة على النظر - مأخوذ عن المعتزلة ثم وافقهم عليه أكثر الأشاعرة والماتريدية ؛ لذلك قال أبو جعفر السمناني - وهو من أئمة الأشاعرة - : (هذه المسألة بقية بقيت في المذهب من الاعتزال لمن اعتقدها)(١)

وقول المعتزلة في إيجاب النظر العقلي لمعرفة الله تعالى ونفي إمكان أن تكون ضرورية متفرع عن قولهم في القدر، من جهة أن العبد عندهم مستقل بفعله، وأنه لا يثاب إلا على فعله، فلو كانت المعرفة ضرورة للزم أن يثاب العبد على غير فعله، لأن المعارف الضرورية ليست من كسب العبد، وإنما هي لازمة للنفس لزوماً ضرورياً بحيث لا يمكن الانفكاك عنها(٢).

ونتيجة ذلك أن لا طريق إلى تلك المعرفة - بناء على أصلهم في القدر - إلا نظر العبد واستدلاله، إذ هو فعله الذي يكون به جزاؤه من ثواب أو عقاب.

وفي ذلك يقول القاضي عبد الجبار - فيما يتعلق بالنظر والمعرفة - : (إنما يكونان لطفاً إذا كانا من فعل المكلف، فلا يجوز أن يضطر الله تعالى أحداً من المكلفين إلى المعارف)(٣).

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٤٦١، فتح الباري ١٣/ ٣٦١.
(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٤٦٠.
(٣) المغني للقاضي عبدالجبار ١٢/ ٥١٢-٥١٣.

وفي تقرير هذا المذهب الاعتزالي يقول أبو الهذيل العلاف - في حق المكلف - : (إنه يجب عليه أن يعرف الله تعالى بالدليل من غير خاطر، وإن قصر في المعرفة استوجب العقوبة أبداً)[١] .

ويقول النظام : (إذا كان - أي المكلف - عاقلاً متمكناً من النظر يجب عليه تحصيل معرفة الباري تعالى بالنظر والاستدلال)[٢]

وبناءً على هذا الأصل فإن الزمخشري - وهو من أئمة المعتزلة - في تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢]، حمل المعنى على ما يوافق مذهبه في معرفة الله تعالى، وتجاهل ما دلت عليه الآية من فطرية معرفة الله تعالى في النفوس فقال : (وقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢] من باب التمثيل والتخييل، ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ... وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله ﷺ)[٣]

ويقول القاضي عبد الجبار : (ومعرفة الله لا تنال إلا بحجة العقل)[٤].

ويقول أيضاً : (إن سأل سائل فقال : ما أول ما أوجب الله عليك ؟

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/٦٦.
(٢) المرجع السابق ١/٧٢.
(٣) الكشاف ٢/١٢٩.
(٤) شرح الأصول الخمسة ص ٨٨.

فقل : النظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى، لأنه تعالى لا يعرف ضرورة ولا بالمشاهدة، فيجب أن نعرفه بالتفكير والنظر)[١].

وقد وافق المعتزلة على هذا القول جمهور المتكلمين من الأشاعرة والماتريدية، رغم مناقضة الأشاعرة للمعتزلة في أصل هذه المسألة وهو مسألة القدر، فالأشاعرة يقررون أن أفعال العباد مجرد كسب حقيقته أن العبد هو محل لفعل الله تعالى، وأنه ليس له فعل على الحقيقة.

وفي بيان مذهب الأشاعرة في هذه المسألة يقول القاضي أبو بكر الباقلاني : (أول ما فرض الله عز وجل على جميع العباد النظر في آياته، والاعتبار بمقدوراته، والاستدلال عليه بآثار قدرته وشواهد ربوبيته، لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار، ولا مشاهد بالحواس، وإنما يعلم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالأدلة الظاهرة، والبراهين الباهرة)[٢].

ويقول أبو المعالي الجويني : (إن قال قائل : فما الدليل على وجوب النظر من جهة الشرع؟ قلنا : الدليل عليه إجماع المسلمين على وجوب معرفة الله تعالى مع اتفاقهم على أنها من أعظم القرب، وأعلى موجبات الثواب . . . فإذا ثبت الإجماع فيما قلناه، وثبت بدلالات العقول أن العلوم مكتسبة يتوقف حصولها على النظر الصحيح، وما ثبت وجوبه قطعاً فمن ضرورة ثبوته وجوب مالا يتوصل إلا به)[٣]

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩.
(٢) الإنصاف فيا يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للباقلاني ص ٣٣.
(٣) الشامل في أصول الدين ص ٣١.

ويقول أيضاً : (أول ما يجب على العاقل البالغ استكمال سن البلوغ أو الحلم شرعاً : القصد إلى النظر الصحيح)[١].

ويقول الآمدي - ناقلا قول الأصحاب - : (أجمعت الأُمة من المسلمين على وجوب معرفة الله تعالى، ووجوب معرفة الله لا يتم إلا بالنظر، إذ هو غير بديهي، وكل مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فالنظر واجب)[٢].

وقد نسب ابن حزم رحمه الله هذا القول إلى الأشاعرة كلهم، ولم يستثن إلا أبا جعفر السمناني[٣].

والحق أن هذا ليس قول الأشاعرة كلهم، بل هم متنازعون في ذلك، وقد نقل عن بعض أئمتهم ما يدل على خلاف مذهب المعتزلة.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وليس إيجاب النظر على الناس هو قول الأشعرية كلهم، بل هم متنازعون في ذلك)[٤].

وقال : (وقد تنازع أصحابه - أي الأشعري - وغيرهم في النظر في قواعد الدين : هل هو من فروض الأعيان، أو من فروض الكفايات ؟)[٥].

ومما يدل على ذلك ردّ الغزالي - وهو من أئمة الأشاعرة - هذا

---

(١) الإرشاد ص ٢٥.
(٢) أبكار الأفكار ١/ ١٥٦.
(٣) الفصل لابن حزم ٤/ ٦٧.
(٤) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٤٠٨.
(٥) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٤٠٨.

المذهب، وإنكار لازمه القاضي بتكفير عوام الناس، فقد قال : (من أشد الناس غلواً وإسرافاً طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لم يعرف الكلام معرفتنا، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتها التي حررناها كافر.

فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولاً، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين، ثم جهلوا ما تواتر من السنة ثانياً، إذ ظهر من عصر رسول الله ﷺ وعصر الصحابة حكمهم بإسلام طوائف من أجلاف العرب كانوا مشتغلين بعبادة الوثن، ولم يشتغلوا بتعلم الدليل، ولو اشتغلوا به لم يفهموه، ومن ظن أن مدرك الإيمان بالكلام والأدلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد ابتدع)[١] .

ويقول الشهرستاني - في نهاية الأقدام - : (وأنا أقول : ما شهد به الحدوث أو دل عليه دليل الإمكان بعد تقديم المقدمات دون ما شهدت به الفطرة الإنسانية من احتياج ذاته إلى مدبر هو منتهى الحاجات فيرغب إليه ولا يرغب عنه، ويستغنى به ولا يستغنى عنه، ويتوجه إليه ولا يعرض عنه، ويفزع إليه في الشدائد والمهمات فإن احتياج نفسه أوضح له من احتياج الممكن الخارج إلى الواجب، والحادث إلى المحدث)[٢].

ورغم النقل السابق عن الآمدي، فقد قرر صحة إمكانية حصول المعرفة من غير النظر[٣].

---

(١) فيصل التفرقة بين الكفر والزندقة ص ٢٠٢.
(٢) نهاية الأقدام ص ١٢٥.
(٣) أبكار الأفكار ١/١٥٨-١٦٤.

وعموماً فالأشاعرة متنازعون في أول واجب، فقد يكون النزاع لفظياً بالنظر إلى غاية المراد وهو المعرفة الإلهية، وقد يكون معنوياً في قصر تلك المعرفة على النظر والاستدلال.

لكن جمهورهم على إيجاب النظر المؤدي إلى المعرفة، وبيان ذلك ما ذكره الآمدي في الأبكار حيث قال: (أجمع أكابر أصحابنا والمعتزلة وكثير من أهل الحق من المسلمين على أن النظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى واجب)(١).

ويبقى بعد ذلك: هل تلك المعرفة تحصل بغير ذلك النظر أم لا؟ محل نزاع بينهم كما سبق.

أما الماتريدية فقد وافقوا المعتزلة في هذه المسألة.

وفي ذلك يقول أبو منصور الماتريدي: (إن العلم بالله وبأمره عرض لا يدرك إلا بالاستدلال)(٢).

ويقول أبو المعين النسفي: (كل عاقل بالغ يجب عليه بالعقل أن يستدل بأن للعالم صانعاً كما استدل عليه إبراهيم صلوات الله عليه، وأصحاب الكهف، ومن لم يبلغه الوحي لا يكون معذوراً، بخلاف ما قالت المتقشفة والأشعرية)(٣).

وقد قابل هؤلاء جميعاً طوائف قالوا بأن المعرفة تقع ضرورةً دون

---

(١) المرجع السابق ١/ ١٥٥.
(٢) كتاب التوحيد ص ١٣٧.
(٣) بحر الكلام ص ٥-٦، وانظر في مذهب الماتريدية في ذلك: إشارات المرام لكمال الدين البياضي ص ١٨٤.

بحث ونظر.

وإلى هذا ذهب جمع من أهل المعارف من المعتزلة وغيرهم.

فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية نسبة هذا القول إلى صالح قبة وفضل الرقاشي والجاحظ، و ثمامة بن أشرس، وهم من أئمة الاعتزال[١].

ونقل أيضاً أن الجهم بن صفوان قال: معرفة الله واقعة باختيار الله لا باختيار العبد، لأن العبد لا يفعل شيئاً. وهذا مبني على قوله بالجبر[٢].

والوسط بين هذه الأقوال هو الحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه جمهور طوائف المسلمين: أن معرفة الله تعالى يمكن أن تقع ضرورة ويمكن أن تقع بالنظر، وهي وإن كانت ضرورة قائمة في النفوس إلا إنه قد يحصل لبعض النفوس ما يفسد فطرتها فتحتاج معه إلى نظر يدفع ذلك المفسد.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (أن الإقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في النفوس، وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة، وهذا قول جمهور الناس، وعليه حذاق النظار: أن المعرفة تارة تحصل بالضرورة وتارة تحصل بالنظر)[٣] .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٣٥٣-٣٥٤.

(٢) الدرء ٧/ ٣٥٤.

(٣) مجموع الفتاوى ١٦/ ٣٢٨.

وليس معنى ذلك إيجاب النظر لمن توقفت المعرفة في حقه عليه بالأدلة التي قررها المتكلمون، كالأعراض وحدوث الأجسام ونحو ذلك، بل بما دلت عليه النصوص الشرعية من النظر في آيات الآفاق والأنفس، مع عدم وقوف الأمر عند تلك المعرفة ؛ إذ هي ليست غاية الأمر، بل لابد من استصحاب غاية ذلك وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

شبهات القائلين بأن النظر أو القصد إليه هو أول الواجبات :-

ويمكن أن أجمل ما وقفت عليه من شبههم في ذلك - سواء ما ذكروه هم، أو نقله عنهم غيرهم - فيما يلي :-

الشبهة الأولى :

دعوى الإجماع على ذلك.

قال الإيجي : (أن معرفة الله تعالى واجبة إجماعاً، وهي لا تتم إلا بالنظر، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب)[١].

وقد سبق نقل كلام أبي المعالي والآمدي في حكاية هذا الإجماع.

وفي الحقيقة إننا حين نتأمل كلامهم فلا نجد دعوى الإجماع منصرفة إلى وقوف المعرفة على النظر صراحة، إلا أنها نتيجة حتمية له بما قرروه.

فحكاية الإجماع منهم منصرفة إلى وجوب معرفة الله تعالى، ولما قصروا تلك المعرفة على النظر، كان معنى ذلك الإجماع على

---

(١) المواقف ص ٢٨.

وجوب النظر.

الجواب عليهم من وجوه:

الوجه الأول:

كما سبق في الجواب على استدلال من قال إن أول واجب هو المعرفة بالإجماع، فلا نزاع بأن معرفة الله تعالى سابقة لكل أصل عقدي، لكنها حقيقة فطرية معلومة بالضرورة، يستدل بها، وإذا فرض خفاؤها على بعض النفوس، فغاية ما يكون من الاستدلال عليها هو كشف أوجه تلك الضرورة، وبيان المقدمات الضرورية التي تستند إليها(١).

الوجه الثاني:

أن الإجماع على وجوب النظر والاستدلال وأن ذلك أول الواجبات دعوى لا تستند إلى دليل.

بل قد حكى الإجماع غير واحد من السلف أن أول واجب على المكلف هو الشهادتان.

قال ابن المنذر: (أجمع كل من أحفظ عنه العلم على أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد ﷺ حق، وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف دين الإسلام - وهو بالغ صحيح العقل - أنه مسلم، فإن رجع بعد ذلك

---

(١) انظر: المعرفة في الإسلام لـ د. عبدالله القرني ص ٥٠٥.

فأظهر الكفر كان مرتداً يجب عليه ما يجب على المرتد)[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين وعلماء المسلمين، فإنهم مجمعون على ما علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ : أن كل كافر فإنه يدعى إلى الشهادتين، سواء كان معطلاً أو مشركاً أو كتابياً، وبذلك يصير الكافر مسلماً، ولا يصير مسلماً بدون ذلك)[٢].

ونقل القرطبي عن الباجي الإجماع على ذلك في تفسيره، فقال : (وقد استدل الباجي - على من قال : إن النظر والاستدلال أول الواجبات - بإجماع المسلمين في جميع الأعصار على تسمية العامة والمقلد مؤمنين ..)[٣].

الوجه الثالث :

أن هذه الدعوى مخالفة لواقع دعوة النبي ﷺ وأصحابه الناس، فقد دعا النبي ﷺ طبقات كثيرة من الناس، فلم ينقل عنه أنه أمر بعدم اتباعه إلا بعد الاستدلال، ولم يقل لمن ليس له حظ من النظر من عوام المسلمين أنه لا ينفعه إيمانه إلا باستدلال.

فلم يدع أحداً إلى النظر ابتداءً، ولا إلى مجرد وجود الصانع، بل أول ما دعاهم إليه هو عبادة الله تعالى وحده، كما في حديث بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن، ووصيتة لعلي رضي الله عنه يوم أعطاه الراية في خيبر،

---

(١) الإجماع لابن المنذر ص ١٥٤.
(٢) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٧.
(٣) تفسير القرطبي ٧/ ٢١٠.

ورسائله التي أرسلها إلى أهل الأمصار.

وقد تقدم في الفصل الأول جملة من تلك الآثار، مما يبين الدلالة الصريحة على ضعف قول المتكلمين في أول الواجبات.

الشبهة الثانية:

استدلالهم بالنصوص الآمرة بالتفكر والنظر والتدبر، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وغير ذلك من الأدلة على هذا المعنى.

الجواب على ذلك:

أن هذه النصوص ليست في محل النزاع، فالنصوص دالة على الأمر بالتفكر والتدبر والحض عليه، وهذا مما لا ينازع فيه أهل السنة، بل هم على مقتضى تلك النصوص.

ولكن أن تحمل معانيها على أن لا يقبل إسلام أحد إلا بالنظر فهذا مالا تدل عليه.

يقول ابن حزم رحمه الله: (ونحن لا ننكر الاستدلال، بل هو فعل حسن مندوب إليه، محضوض عليه كل من أطاقه؛ لأنه تزود من الخير، وهو فرض على كل مسلم لم تسكن نفسه إلى التصديق - نعوذ بالله من البلاء، وإنما ننكر كونه فرضاً على كل أحد لا يصح إسلام أحد دونه، هذا هو الباطل المحض)[١].

بل الأدلة صريحة في فطرية معرفة الله تعالى، كما قال سبحانه:

---

(١) الفصل ٤/ ٧٣.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الرُّوم: ٣٠].

فالأمر بالاستدلال والحث عليه شئ، وقصر المعرفة الالهية على النظر والاستدلال شئ آخر.

(فطرق المعارف متنوعة في نفسها، والمعرفة بالله تعالى أعظم المعارف، وطرقها أوسع وأعظم من غيرها، فمن حصرها في طريق معين بغير دليل يوجب نفياً عاماً لما سوى تلك الطريق لم يقبل منه)[1].

فالأدلة التي ذكروها دلت على طريق في ترسيخ تلك المعرفة، وليس فيها دلالة على نفي ما سواها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والقرآن العزيز ليس فيه أن النظر أول الواجبات، ولا فيه إيجاب النظر على كل أحد، وإنما فيه الأمر بالنظر لبعض الناس، وهذا موافق لقول من يقول: إنه واجب على من لم يحصل له الإيمان إلا به، بل هو واجب على كل من لا يؤدي واجباً إلا به. وهذا أصح الأقوال)[2].

ثم ضرب أمثلة توضح ما قال، ومن ذلك أن قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرُّوم: ٨]، وقد جاء بعد قوله تعالى: ﴿...وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٤٦.
(٢) المرجع السابق ٨/ ٨.

هذا، وإن هذه الأدلة لا تدل أبداً على الاستدلال البدعي على طريق المتكلمين كطريق الأعراض وحدوث الأجسام.

بل فيها النظر والتفكر في آيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، وليس في التصورات التي رتبها المتكلمون، والتي صرحوا في نهاية المطاف أنهم لم يزدادوا بها إلا حيرة.

الشبهة الثالثة:

استدلالهم بالنصوص الدالة على ذم التقليد، وأنه طريق أهل الجاهلية، وأن المرء مطالب بالدليل والبرهان على قوله وفعله كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠]، وقال سبحانه ﴿...قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]، فهذا يدل على أن الدين بالحُجة والبرهان دون التقليد.

الجواب على ذلك:-

أن التقليد المذموم هو أخذ القول من غير حجة ولا برهان، وهذا ليس منه تقليد الرسول ﷺ، فالأخذ عنه ﷺ لا يفتقر إلى نظر واستدلال، ولذلك سماه الله تعالى تصديقاً وإيماناً.

يقول الإمام أبو المظفر السمعاني رحمه الله: (وقد قالوا: إن التقليد قبول قول لغير من غير حُجة. وأهل السنة إنما اتبعوا قول الرسول ﷺ، وقوله نفس الحُجة، فكيف يكون هذا قبول قول الغير من غير حُجة،

فإن المسلمين قد قامت لهم الدلائل السمعية على نبوة رسول الله ﷺ لما نقل إلينا أهل الإتقان والثقات من الرواة ما لا يعد كثرة من المعجزات والبراهين والدلالات التي ظهرت عليها، وقد نقلها أصحاب الحديث في كتبهم ودونوها)[١].

ثم إن التقليد الذي جاء ذمه في القرآن والسنة هو في طرق الضلال والغي كمتابعة الآباء في الشرك، واتباع غير سبيل المؤمنين، فهذا وأمثاله مذموم بصريح النصوص.

أما المتابعة في الخير والهدى فهذا ممدوح بالإطلاق، ولا يضره تشنيع من يسميه تقليداً.

ثم العجب من هؤلاء المتكلمين حين يبالغون في ذم التقليد وإيجاب النظر، ثم هم أول داع إلى تقليدهم والأخذ بأقوالهم، وأن من خرج عنها فهو دائر بين الكفر والضلال.

بل في هذه المسألة - أول واجب على الكلف - يقصرون الهدى فيها على قولهم، حتى غلا بعضهم وكفر من لم يعرف الله تعالى على طريقتهم، حتى أورد على بعضهم أن قولكم يلزم منه تكفير أبيك وأسلافك وجيرانك ! فقال :لا تشنع عليّ بكثرة أهل النار[٢].

وقد عجب الحافظ ابن حجر رحمه الله من حالهم هذه فقال : (والعجب أن من اشترط ذلك من أهل الكلام ينكرون التقليد وهم أول داع إليه حتى استقر في الأذهان أن من أنكر قاعدة من القواعد التي أصلوها

---

(١) الانتصار لأصحاب الحديث - ضمن «صون المنطق» ص ١٧١.

(٢) انظر: فتح الباري ١٣/ ٣٦٣.

فهو مبتدع ولو لم يفهمها ولم يعرف مأخذها، وهذا هو محض التقليد، فآل أمرهم إلى تكفير من قلد الرسول ﷺ في معرفة الله تعالى، والقول بإيمان من قلدهم، وكفى بهذا ضلالاً)[١].

الشبهة الرابعة:

قالوا: إنه لا يعرف أي الأمرين أهدى إلا بدليل، وأن كل ما لم يصح بدليل فهو دعوى، ولا فرق بين الصادق والكاذب في القول نفسه[٢].

والجواب:-

أن في هذه الشبهة إلزاماً لمن خالفهم بما ليس بلازم عنده.

فمن قال إن معرفة الله تعالى لا دليل عليها حتى تشتبه بإنكار وجوده تعالى؟!

بل معرفته أمر مستقر في الفطرة وهي الدليل الذي يستدل به على كل مطالبها، فالنفوس لا تحتاج إلى الاستدلال عليها بل هي الدليل نفسه. ثم إن كان من نفوس افتقرت إلى الاستدلال عليها، فهذه قلة في سواد الناس، فلا تأخذ حكم الأغلب فضلا أن تكون عامة لكل أحد.

وقد أجاب الإمام ابن حزم رحمه الله على هذه الشبهة بما حاصله:

أن الناس في الاستدلال على قسمين:-

١- من تنازعه نفسه إلى البرهان ولا تستقر نفسه إلى تصديق ما

---

(١) المرجع السابق ١٣/٣٦٦.

(٢) ذكر هذه الشبهة ابن حزم في الفصل ٤/٦٨.

جاء به الرسول ﷺ حتى يسمع الدلائل فهذا فرض عليه طلب الدلائل. وهؤلاء قسم وهم الأقل في الناس.

٢- من استقرت نفسه إلى تصديق ما جاء به الرسول ﷺ وسكن قلبه إلى الإيمان، ولم تنازعه نفسه إلى طلب دليل توفيقاً من الله عز وجل له، وهؤلاء جمهور الناس[(١)].

الشبهة الخامسة:

ما ذكره القاضي عبد الجبار من أن النظر من فعل العبد فيجب أن تكون المعرفة أيضا من فعله، لأن فاعل السبب ينبغي أن يكون فاعل المسبب فإذا كان من فعلنا لم يجز أن يكون ضرورياً، لأن الضروري ما يحصل فينا لا من قبلنا[(٢)].

والجواب على ذلك:

أن هذا مبني على مذهب المعتزلة في خلق أفعال العباد حيث اعتبروا العبد هو الخالق لفعل نفسه، ولذا امتنع عندهم وقوع المعرفة ضرورة دون أن تكون من فعل العبد.

ومذهب المعتزلة في أفعال العباد ترده النصوص الصريحة في دخول تلك الأفعال تحت مشيئة الله تعالى وإرادته وخلقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

إذاً فما قرروه هو نتيجة لمقدمة باطلة، فلا حُجة لهم به.

---

(١) انظر الفصل لابن حزم ٤/ ٧٠.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ٥٥.

الشبهة السادسة:

أن العلم بالله تعالى لو كان ضرورياً لوجب أن لا يختلف العقلاء فيه كما في سائر الضروريات من سواد الليل وبياض النهار، ومعلوم أنهم مختلفون فيه، فمنهم من نفاه، ومنهم من أثبته[١].

والجواب:

أن هذه المخالفة ليست محل اعتبار بحيث تسقط بها فطرية معرفة الخالق عز وجل، إذ أن باعثها فساد تلك الفطرة في النفوس، وهذا الفساد يستلزم حكماً خاصاً بمن تعلقت به لايعم كل من لم يتلبس به، فيبقى من كان على حال الضرورة دون فساد غير محتاج إلى نظر واستدلال.

وهذا هو ما سبق تقريره في اختلاف أحوال الناس في إيجاب النظر، وأن من تنازعه نفسه إليه، وتتوقف معرفته عليه فذاك يجب عليه من باب مالا يتم الواجب إلا به.

ثم إن المخالفة في معرفة الله تعالى ليست مما تتكافؤ فيها الأدلة، وتتفق الأقوال قوة، بل إن جمهور العقلاء مطمئنون إلى الإقرار بالله تعالى، وهم مفطورون عليه، والذين خالفوا في ذلك هم شواذ الناس على تذبذب واضطراب، كما قال الله تعالى عن كبيرهم فرعون الذي تظاهر بإنكار الصانع، مع أن نفسه تنازعه في ذلك: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فلذلك لا تعتبر مخالفة هذه الفئة القليلة في هذا دليلاً يوجب نفي

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٥٥.

الضرورة، وحصر المعرفة بالنظر والاستدلال.

هذا وقد سبق ذكر الدلائل الشرعية على تلك الضرورة الفطرية.

الشبهة السابعة:

استدلالهم بمحاجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه حين نظر إلى الكوكب والقمر والشمس واستدل على نفي ربوبيتها بالأفول، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥](١).

والجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول:

أن الاستدلال والنظر طريق من طرق المعرفة، فحاجة أقوام إليها لا يعني حصرها على سائر الناس، فالكلام هنا لا على نفي النظر والاستدلال مطلقاً، بل على حصر المعرفة عليه.

الوجه الثاني:

أن محاجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ليست في تقرير وجود الله تعالى، فهذا لم ينازعه فيه قومه، بل كانت في استحقاق العبودية المتضمنة كمال الربوبية في المعبود، فالسياق دال على ذلك حيث كان الإنكار عليهم أولاً في اتخاذ الآلهة مع الله تعالى، فقد قال لأبيه آزر: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] مع ما هو متقرر في

---

(١) نقلاً عن (الدلائل العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية) لـ د. عبدالكريم عبيدات ص ١٥٦. وانظر: الكشاف للزمخشري ٢/ ٣١.

قصته مع أبيه وقومه من عدم منازعتهم في وجود الله تعالى وربوبيته، فقد قال سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

بل إن قومه كان لهم عبادات يصرفونها لله تعالى، وهذه حال يستحيل معها إنكار وجود الله تعالى، كما قال تعالى عنه ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

هذا جملة ما وقفت عليه من شبه القائلين بأن النظر المؤدي إلى معرفة الله تعالى والإقرار بوجوده هو أول الواجبات.

ويبقى بعد ذلك الكلام في أمور تدل على بطلان هذا القول، وأُجمل ذلك فيما يلي :-

أولاً:

عدم وجود دليل من الكتاب أو السنة ولا من فعل الصحابة رضي الله عنهم لما ذهب إليه المبتدعة في هذه المسألة، بل الأدلة على خلاف قولهم، فالثابت أن النبي ﷺ كان يدعو الكفار إلى الشهادتين ابتداءً، كما سبق تقرير ذلك وبيان أدلته.

وما تمسكوا به من أدلة فيها الأمر بالنظر، فلا حجة لهم بها لعدم دلالتها على صريح قولهم وهو أولية الوجوب، وكذلك عدم دلالتها

للطرق المقررة عند المتكلمين في النظر، وقد سبق بيان ذلك.

وقد بيّن الإمام أبو المظفر السمعاني رحمه الله أن هذا النظر الذي يذكره المتكلمون نظر مبتدع لم يسبقهم إليه أحد من سلف الأُمة الأبرار، وقال: (ولو أنك تدبرت جميع أقوالهم وكتبهم لم تجد هذا في شيء منها منقولاً عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين ومن بعدهم.

وكيف يجوز أن يخفى عليهم أول الفرائض وهم صدر هذه الأُمة والسفراء بيننا وبين رسول الله ﷺ؟ ولئن جاز أن يخفى الفرض الأول على الصحابة والتابعين حتى لم يبينوه لأحد من هذه الأمة مع شدة اهتمامهم بأمر الدين وكمال عنايتهم حتى استخرجه هؤلاء بلطيف فطنهم في زعمهم؛ فلعله خفيت عليهم فرائض أخرى، ولئن كان هذا جائزاً فقد ذهب الدين واندرس؛ لأنا إنما نبني أقوالنا على أقوالهم، فإذا ذهب الأصل فكيف يمكن البناء عليه؟!

نعوذ بالله من قول يؤدي إلى هذه المقالة الفاحشة القبيحة التي تؤدي إلى الانسلاخ من الدين، وتضليل الأئمة الماضين)[١].

ثانياً:

أن القول بأن النظر هو أول الواجبات لا يتفق مع قول من يقول: لا واجب إلا بشرع، كما هو قول الأشاعرة[٢].

ولذلك وقعوا في تناقض في هذه المسألة، فكيف يمكن على

---

(١) الانتصار لأهل الحديث - ضمن صون المنطق - ص ١٧١.

(٢) انظر: الشامل للجويني ص ١١٥.

أصلهم أنه لا واجب إلا بشرع، وعلى هذا فمعرفة الله تعالى واجبة بالشرع، ثم يوقفون حصول هذه المعرفة على العقل !!.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (ثم القول بأن أول الواجبات هو المعرفة أو النظر لا يمشي على قول من يقول : لا واجب إلا بالشرع كما هو قول الأشعرية وكثير من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، فإنه على هذا التقدير لا وجوب إلا بعد البلوغ على المشهور، وعلى قول من يوجب الصلاة على ابن عشر سنين أو سبع، لا وجوب على من لم يبلغ ذلك، وإذا بلغ هذا السن فإنما يخاطبه الشرع بالشهادتين، إن كان لم يتكلم بها، وإن كان تكلم بها خاطبه بالصلاة. . .

وأما من قال بالوجوب العقلي، كما هو قول المعتزلة والكرامية، ومن وافقهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم، فهؤلاء هم الذين قالوا ابتداء:

أول ما يجب المعرفة أو النظر المؤدي إليها. لكن أخذ كلامهم من أراد أن يبنيه على أصوله من الأشعريه ونحوهم، فتناقض كلامهم)[١] .

ثالثاً :

أن قولهم بأن النظر هو أول واجب على المكلف شامل لجميع المكلفين، وعليه فالناظر مقيم على طاعة ولو كان على غير ملة الإسلام، فإن مات في مدة النظر فموته على طاعة !!

(١) درء تعارض العقل والنقل ٨/ ١٢-١٦ بتصرف.

ولهذا ألزمهم أبو المظفر السمعاني بقوله : (وينبغي على قولهم إذا مات في مدة النظر والمهلة قبل قبول الإسلام أنه مات مطيعاً لله مقيماً على أمره، لا بد من إدخاله الجنة كما يدخل المسلمون، وقد جعلوا غير المسلم مطيعاً لله مؤتمراً بأمره في باب الدين، وأوجبوا إدخاله الجنة، وقد قال الله تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥] [١].

رابعا :

أن إيجاب النظر على من حصل له قبل التكليف حاصله أن يقال : اكفرْ ثم آمنْ، واجهل ثم اعرف. وهذا كما أنه محرم شرعاً فهو ممتنع عقلاً، فإن تكليف العالم الجهل من باب تكليف مالا يقدر عليه.

فمن شرح الله صدره للإسلام قبل بلوغه، فحصل له الإيمان المتضمن للمعرفة، لم يمكن أن يؤمر بما يناقض المعرفة من نظر أو شك ونحو ذلك[٢].

خامساً :

أن هذا القول ترتب عليه خلاف كبيرٌ بين المتكلمين في إيمان المقلد هل يصح أم لا ؟ وإن صح هل يفسق بترك النظر أم لا ؟.

وقد حكى شارح الجوهرة أقوالاً ستة في هذه المسألة :ـ

الأول : عدم صحته فيكون كافراً.

(١) الانتصار لأهل الحديث لأبي مظفر السمعاني - ضمن «صون المنطق» للسيوطي ص ١٧٣.

(٢) درء التعارض ٨/ ١٠.

الثاني : صحته مع كونه عاصياً، سواء كان أهلاً للنظر أو لا.

الثالث : الحكم بعصيان من كان أهلاً للنظر وتركه.

الرابع : صحة إيمان من قلد القرآن والسنة القطعية.

الخامس : صحة إيمانه مطلقاً، والنظر شرط كمال.

السادس : صحة إيمانه مع تحريم النظر، وحملوه على المخلوط بالفلسفة.

ورجح القول الثالث[١].

فالقول بإيجاب النظر وإيقاف المعرفة عليه وترتيبه بالطريقة التي يذكرها المتكلمون كدليل الجواهر والأعراض ونحو ذلك يجعل الإيمان محصوراً في طائفة من الناس ترى أنها أهل المعرفة، وما سواهم من عامة الناس في ظلمة الكفر أو الجهل.

قال الإمام السجزي - في نقده مذهب الأشاعرة وذكر ما يتضمنه من طوام - : (ومنها أن عوام المسلمين الذين لا يعرفون الله تعالى بالأدلة العقلية ليسوا بالمؤمنين في الحقيقة، وإنما تجري عليهم أحكام الشريعة. وهو من أفظع الأقاويل، وهو قول الجهم)[٢].

وقد التزم طائفة من المتكلمين ذلك فكفروا عوام المسلمين كما نقل عن أبي هاشم تكفيره لمن لايعرف الله بالدليل[٣].

---

(١) شرح جوهرة التوحيد ص ٢٥.

(٢) رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١٩٨.

(٣) انظر: فتح الباري ٣٦٣/١٣.

وقد سبقت الإشارة إلى قول بعضهم لما ألزم بتكفير كثير من المسلمين على طريقته فقال : لا تشنع علي بكثرة أهل النار.

وقد التزم بعض متأخريهم أن الضال أقرب إلى الرحمة ممن آمن إيماناً صحيحاً بطريق التقليد ؛ إذ أن البحث بالعقل مع عدم الاهتداء إلى الحق خير ممن أهمل عقله وعوّل على غيره وقلده في إيمانه[١].

وفي إلزامهم تكفير أكثر المسلمين يقول الإمام ابن حزم رحمه الله : (ويلزم أهل هذه المقالة أن جميع أهل الأرض كفار إلا الأقل، وقد قال بعضهم : إنهم مستدلون.

قال أبو محمد : وهذه مجاهرة هو يدري أنه فيها كاذب، وكل من سمعه يدري أنه فيها كاذب، لأن أكثر العامة من حاضرة وبادية لا يدري معنى الاستدلال أن يستعمله.

قال أبو محمد : ويلزم من قال بهذه المقالة أن لا يأكل من اللحم إلا ما ذبحه هو أو من يدري أنه مستدل، وأن لا يطأ إلا زوجة يدري أنها مستدلة، ويلزمه أن يشهد على نفسه بالكفر ضرورة قبل استدلاله، وأن يفارق امرأته التي تزوج في تلك المدة، وأن لا يرث أخاه ولا أباه ولا أمه إلا أن يكونوا مستدلين . . .)[٢].

وهذه اللوازم هي نتيجة حتمية لمن يوقف الإيمان على النظر على طريقة دلائل المتكلمين، وإن كان كثير من المتكلمين لا يوجبون أن يتحصل ذلك بعبارة المتكلمين وطريقتهم، ولكن بما يدل على استدلال

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام – سليمان دنيا ص ٢٢٦.
(٢) الفصل ٤/ ٧٧.

في نفس المكلف بأي عبارة كانت،كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عنهم أنهم مختلفون في نظر العوام :

فمنهم من يقول إن أكثر العامة تاركوه، وهؤلاء على قولين : -

١- فغلاتهم يرون كفر العوام بترك النظر.

٢- وأكثرهم على صحة إيمانهم مع الإثم بترك النظر.

أما جمهورهم فيرى أن النظر متيسر على العوام وإن لم يعبروا عنه بعبارات المتكلمين[١].

سادساً:

أن القول بأن النظر أول الواجبات يلزم منه إبقاء الكافر على كفره مدة الاستدلال ولا يحكم عليه بشيء، وإذا كان من أهل الحرب لجاز له الاحتجاج في مهلة النظر فراراً من القتل، وليس للنظر مدة يشترك الناس في الاكتفاء بها، وتحديد مدة معينة تحكم بلا دليل.

وهذا لازم لهذا القول، وقد التزمه بعض المتكلمين فأوجبوا إمهال الكافر إذا طلب الإمهال للنظر[٢].

وقد ذكر الإمام أبو المظفر السمعاني أن على قول المتكلمين هذا ينبغي أن يقال للكافر أولاً عليك النظر والاستدلال لتعرف الصانع بهذا الطريق، ثم تعرف الصفات بدلائلها، وطرقها، ثم مسائل كثيرة إلى أن يصل إلى أمر النبوات، ولا يجوز على طريقتهم الإقدام على هذا الكافر

---

(١) درء التعارض ٧/ ٤٤١-٤٤٢.

(٢) انظر: درء التعارض ٨/ ١٥.

بالقتل والسبي إلا بعد أن يذكر له هذا ويمهل، لأن النظر لا يكون إلا بالمهلة، خصوصاً إذا طلب الكافر ذلك، وربما لا يتفق النظر والاستدلال في مدة يسيرة فيحتاج إلى إمهال الكفار مدة طويلة تأتي على سنين ليتمكنوا من النظر على التمام والكمال، وهو خلاف إجماع المسلمين[١].

ويقول الإمام ابن حزم: (نقول لهم أخبرونا عن هذا الذي أوجبتم عليه الشك في الله فرضاً أو في صحة النبوة، كم تكون هذه المدة التي يبقى فيها شاكاً مستدلاً طالباً للدلائل؟

وكيف إن لم يجد في قريته أو مدينته ولا في إقليمه محسناً للدلائل فرحل طالباً لها فاعترضته أهوال ومخاوف، وتعذر بحر أو برد أو مرض، فاتصل له ذلك ساعات وأياماً وجمعاً وشهوراً وسنين؟ فإن حدوا بيوم أو يومين أو ثلاثاً أو أكثر فهذا تحكم بلا دليل.

فإن قالوا: لا نجد في ذلك حداً، قلنا لهم: فإن امتد كذلك حتى يموت، أيموت مؤمناً أم كافراً؟ فإن قالوا: يموت مؤمناً فقد جعلوا الشاك في الله مؤمناً. وإن قالوا: بل يموت كافراً، قلنا لهم لقد أمرتموه بما فيه هلاكه..)[٢].

سابعاً:

أن فطرية معرفة الله تعالى يجعلها في غاية الوضوح والجلاء،

---

(١) الانتصار لأهل الحديث لأبي مظفر السمعاني - ضمن «صون المنطق» للسيوطي ص ١٧١-١٧٢.

(٢) الفصل ٤/ ٧٤-٧٥ بتصرف، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٣٣١.

والطريق إليها هو أقرب طريق وأبينه، إلا أن المتكلمين خاضوا في الطريق إلى تلك المعرفة سبلاً هي في غاية الوعورة والصعوبة، فما زادتهم دلائلهم التي نصبوها إليها إلا شكا وحيرة، وتخبطاً في ظلمات الشبهات.

يقول العلامة أبو الوفاء ابن عقيل - كما نقله عنه أبو العباس القرطبي في شرح مختصره لصحيح مسلم - : (وقد أفضى هذا الكلام بأهله إلى الشكوك، وبكثير منهم إلى الإلحاد)[١].

ولذلك فقد اشتهر عن أئمة كبار من أهل الكلام الرجوع عنه في آخر أزمانهم بسبب تلك المزالق التي يهدي إليها.

ومن ذلك ما قاله إمام الحرمين أبو المعالي الجويني : (قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهى عنه أهل الإسلام، كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت إلى كلمة الحق : «عليكم بدين العجائز»، فإن لم يدركني الحق بلطف بره، فأموت على دين العجائز، ويختم عاقبة أمري عند الرحيل على كلمة الإخلاص : لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني)[٢].

ونقل ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» ما ذكره عن الوليد بن أبان

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٦٩١، وانظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٠٥.
(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٧١.

الكرابيسي أنه لما حضرته الوفاة، قال لبنيه: تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا. قال: فتتهموني؟ قالوا: لا. قال: فإني أوصيكم، أتقبلون؟ قالوا نعم. قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث، فإني رأيت الحق معهم(١).

وقال أبو الوفاء بن عقيل لأصحابه: أنا أقطع أن الصحابة ماتوا، وما عرفوا الجوهر ولا العرض، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن، وإن رأيت طريق المتكلمين أولى من طريق أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت(٢).

وقد نقل عن كبار من أئمة المتكلمين إنكار هذا القول ـ أي أولية إيجاب النظر لقصر المعرفة عليه - كقول الشهرستاني: (ما عدت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان، فإن الفطرة السليمة الإنسانية شهدت فطرتها وبديهة فكرتها على صانع حكيم قادر عليم، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩]، إن هم غفلوا عن هذه الفطرة في حال السراء فلا شك أنهم يلوذون إليها في حال الضراء ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشرك: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٢٠٤.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» ص ١٠٥.

وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ [محمد: ١٩]، ولهذا جعل محل النزاع بين الرسل وبين الخلق في التوحيد ونفي الشرك)[١].

وقال أيضاً - بعد ذكره لدليل المتكلمين في إثبات الصانع - : (وأنا أقول ما شهد به الحدوث أو دل عليه الإمكان بعد تقديم المقدمات دون ما شهدت به الفطرة الإنسانية من احتياج ذاته إلى مدبّر، هو منتهى مطلب الحاجات، فيرغب إليه ولا يرغب عنه، ويستغنى به ولا يستغنى عنه، ويتوجه إليه ولا يعرض عنه، ويفزع إليه في الشدائد والمهمات، فإن احتياج نفسه أوضح له من احتياج الممكن الخارج إلى الواجب، والحادث إلى المحدث، وعن هذا المعنى كانت تعريفات الحق سبحانه في التنزيل على هذا المنهاج)[٢].

وبذلك يتبين جلياً ما عليه المبتدعة من مخالفة في مسألة أول واجب على المكلف، وأن الحق في ذلك هو ما تقدم بيانه في تقرير مذهب أهل السنة في ذلك.



---

(١) نهاية الأقدام ص ١٢٣-١٢٤.
(٢) المرجع السابق ص ١٢٥.

الفصل الثاني

شبهات المبتدعة في تعريف العبادة

◆ المبحث الأول: تعريف العبادة، ومعنى "لا إله إلا الله" عند أهل السُّنة

◆ المبحث الثاني: تعريف العبادة، ومعنى "لا إله إلا الله" عند المبتدعة

◆ المبحث الثالث: شبهات المبتدعة في تعريف العبادة، ومعنى "لا إله إلا الله"



المبحث الأول

تعريف العبادة ومعنى (لا إله إلا الله) عند أهل السنة

تمهيد:

إن غياب المفاهيم الصحيحة للدلائل الشرعية هو الذي يجعل كثيراً من الناس يتخبطون في ظلمات من الجهل، ويخوضون في أنواع من الضلالات، ظانين أنهم على بينة من الأمر، وجادة من الطريق، فيدخلون في الدين ما ليس منه، ويُخرجون منه ما هو واضح الدلالة فيه.

ولعل مسألة العبودية والألوهية من أظهر المسائل في هذا الباب، رغم الدلالات الواضحة التي لا اشتباه فيها في نفس الأمر، إلا أن طوائف من الأمة ضلت في مفهومهما، وجهلت معناهما، فكان الولوغ في أبواب من الشرك، وأنواع من الانحرافات نتيجة لازمة لذلك الجهل والضلال، حتى أصبحت أنواع من الشرك الأكبر ليست محل سكوت وعدم إنكار فحسب، بل عُدت من أنواع القرب التي يرجى بها الثواب والزلفى عند الله تعالى.

قال الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي رحمه الله: (فإني تدبرت الخلاف المستطير بين الأُمة في القرون المتأخرة في شأن الاستغاثة بالصالحين الموتى، وتعظيم قبورهم ومشاهدهم، وتعظيم بعض المشايخ الأحياء، وزعم بعض الأُمة في كثير من ذلك أنه شرك،

وبعضها أنه بدعة، وبعضها أنه من الحق، ورأيت كثيراً من الناس قد وقعوا في تعظيم الكواكب والروحانيين والجن ما يطول شرحه، وبعضه موجود في كتب التنجيم والتعزيم كشمس المعارف وغيره، وعلمت أن مسلماً من المسلمين لا يقدم على ما يعلم أنه شرك، ولا على تكفير من يعلم أنه غير كافر، ولكنه وقع الاختلاف في حقيقة الشرك، فنظرت في حقيقة الشرك، فإذا هو بالاتفاق اتخاذ غير الله عز وجل إلهاً من دونه، أو عبادة غير الله عز وجل، فاتجه النظر إلى معنى الإله والعبادة، فإذا فيه اشتباه شديد .. فعلمت أن ذلك الاشتباه هو سبب الخلاف)[١].

ومن هنا كان لزاماً أن يُبدأ عند الكلام في تقريرات توحيد الألوهية وبيان ما يناقضه بتحرير هذه المعاني، لتبين حقائق الدلائل ومآخذ الأحكام، ويرد الفرع إلى الأصل الذي بني عليه.

أولاً: تعريف العبادة:

التعريف اللغوي:

أصل العبادة في اللغة راجع إلى معنى الذل والخضوع، إلا إنه أخص منه إذ هو يبلغ الغاية في ذلك، فليس كل ذل أو خضوع يكون عبادة، إلا أن العبادة لا بد فيها من الذل والخضوع. وبتأمل أقوال العلماء من أهل اللغة وغيرهم فإن مرجع ما يذكرونه هو هذا المعنى.

يقول الراغب الأصفهاني في «مفردات ألفاظ القرآن»: (العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال. ألا تعبدوا إلا

---

(١) رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله ص ٣١.

إياه)[١].

وجاء في لسان العرب: (وأصل العبودية الخضوع والتذلل)[٢].

وقال الزجاج: (ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، ومنه طريق معبد إذا كان مذللاً بكثرة الوطء)[٣].

وقال ابن الأنباري: (فلان عابد: وهو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره)[٤].

وقال الزمخشري: (وطريق وبعير معبّد: مذلل، وتقول: لا تجعلني كالبعير المعبد والأسير المعبّد)[٥].

وقال: (العبادة: غاية الخضوع والتذلل)[٦].

وقال الرازي: (وأصل العبودية: الخضوع والذل، والتعبيد التذليل. يقال: طريق معبّد)[٧].

وقال الفيروزابادي: (وأصل العبودية: الخضوع والذل. وقوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩﴾ [الفجر: ٢٩]، أي حزبي. والتعبيد: التذليل. وطريق معبّد: مذلل، وأعبده اتخذه عبداً، وأعبدني فلان

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٥٤٢.
(٢) لسان العرب ٣/ ٢٧١.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٨
(٤) نقلاً عن لسان العرب ٣/ ٢٧٣-٢٧٤.
(٥) أساس البلاغة ص ٢٩١.
(٦) الكشاف ١/ ٦٢.
(٧) مختار الصحاح ص ١٧٢.

فلاناً : ملكني إياه. والتعبيد : الاستعباد، وهو أن تتخذه عبداً، وكذلك الإعباد. وتعبدني : اتخذني عبداً، والعبادة : الطاعة، وهي أبلغ العبودية ؛ لأنها غاية التذلل، لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى)[١].

وجاء إطلاق (العبد) على الإنسان لأنه مربوب لربه سبحانه وتعالى وتحت تصرفه.

وأطلق على المملوك (عبد) لخضوعه لمالكه.

وقيل للطريق معبّد ؛ لتذليله بكثرة الوطء.

وسمي البعير الأجرب : معبّد ؛ لأن الجرب ذلّله.

وهكذا نجد أن مرجع التعريف هو معنى الخضوع والذل، فمن فسره بمطلق الذل والخضوع فذلك باعتبار أصل المعنى لا تمامه، إذ ليس من لسان العرب إطلاق اسم العبودية على كل تذلل وخضوع، بل حقيقته ما كان بالغاً في ذلك المنتهى والغاية كما مرّ في بعض ما سبق ؛ ومن فسره بالطاعة والانقياد ونحو ذلك فهو باللازم الذي لا ينفك عنه، إذا أن مقتضى الذل والخضوع - فضلاً عن غاية ذلك ومنتهاه - هو الطاعة والانقياد والامتثال.

التعريف الشرعي :

لقد جاء في الشرع إطلاق العبودية على التنوع الواقع في العرف اللغوي بجامع الخضوع والتذلل، بحسب ما يدل عليه سياق النص

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٤/ ٩.

الشرعي.

فقد جاء إطلاقها على كل من سوى الله تعالى باعتبار أنه مربوب مملوك له سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

وجاء إطلاقها على المملوك باعتبار خضوعه لسيده، كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥].

وسمى الحرص الشديد على الدنيا باعتبار الخضوع لها خضوعاً يظهر في حال الانشغال بها عن كل حق: عبادة لها. كما في قول النبي ﷺ: (**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض**)[١].

إلا أن أصل إطلاق العبادة في الشرع منصرف إلى الحق الذي اختص الله تعالى به، ولا ينبغي أن يصرف لغيره وهو: كمال الذل والخضوع والانقياد.

وهذا المعنى هو الذي خاطب به المرسلون أقوامهم، ففهموه من عبارته الأولى، دون أن يكون مصطلحاً جديداً تخفى عليهم معالمه.

فالمعنى الشرعي للعبادة موافق في أصله للمعنى اللغوي، ويكون بعد المعنى ما يختص به من شروط وصور ونحو ذلك مما هو متعلق به.

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير - باب الحراسة في الغزو في سبيل الله - رقم ٢٨٨٧، وفي الرقاق - باب ما يتقى من فتنة المال - رقم ٦٤٣٥.

وعلى هذا النحو من المعنى الشرعي جاءت تعريفات بعض الأئمة للعبادة.

قال الإمام ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريف العبادة بأنها : (الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له)[٢].

ويقول الإمام ابن القيم في نونيته :

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان[٣]

ويقول الحافظ ابن كثير : (العبادة في اللغة : من الذلة، يقال : طريق معبد أي مذلل، وفي الشرع : عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف)[٤].

ويقول الشيخ أبو الثناء الألوسي : (العبادة : هي أعلى مراتب الخضوع)[٥].

وهذه التعاريف هي باعتبار الوصف القائم بالعبد ظاهراً أو باطناً.

---

(١) جامع البيان «تفسير الطبري» ١/ ١٦٠.
(٢) العبودية ص ٢٦.
(٣) النونية بشرح ابن عيسى ١/ ٢٥٣.
(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٢٨.
(٥) روح المعاني ١/ ٣٩.

وقد تعرف العبادة باعتبار ما يتعبد به، ولعل أشمل تعريف بهذا الاعتبار ما ذكره شيخ الإسلام بقوله: (العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)[1].

وقد يكون هناك اختلاف في عبارات أهل العلم في تعريف العبادة، ولكن هذا لا يعني التضارب في فهم معناها، وإنما هو النظر إلى اعتبارات معينة في التعريف.

فمن نظر إلى معناها من حيث هي دون إضافة إلى أحد فعبارته أشمل ممن عرفها باعتبارها مضافة إلى الله تعالى مقبولة عنده.

ومن نظر إلى حال المتعبِّد اختلفت عبارته عمن نظر إلى أفراد المتعبّد به.

ومن أجل هذا، وليكون تصور العبادة في الإطلاق الشرعي أكثر وضوحاً، فإني أرى لزاماً توضيح الأمور التالية:

الأمر الأول:

أن عبودية الخلق لربهم سبحانه وتعالى على قسمين: عامة وخاصة.

فالعبودية العامة: هي عبودية أهل السماوات والأرض، فكل من سوى الله تعالى عبيد له سبحانه، باعتبارهم مربوبين له، يتصرف فيهم كيف يشاء، لا يخرجون عن ملكه وتدبيره.

وهذه العبودية عامة للخلق أجمع، وفيهم البر والفاجر، والمؤمن

---

(١) العبودية ص ١٧.

والكافر، فكل من سوى الله تعالى داخل في هذه العبودية، لا تنفك عنه في حال ولا حين.

وهذه العبودية هي المرادة بقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿...وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: ٣١]، وقوله سبحانه: ﴿...وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ [النساء: ١١٧-١١٨]، وفي الحديث القدسي: (**خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين**)[١].

فهذه النصوص وأمثالها كلها في العبودية العامة التي يشترك فيها المؤمن والكافر، فهي ليست محل تفريق وتمييز بين أهل الجنة والنار والمؤمنين والكفار، وليست هي خطاب الرسل إلى قومهم في أمرهم بعبادة الله تعالى وحده، إذ هي عبودية قسرية لا انفكاك لهم عنها طرفة عين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه العبودية: (العبْد يراد به المعبَّد الذي عبَّده الله، فذلله، ودبّره، وصرفه، وبهذا الاعتبار فالمخلوقون كلهم عباد الله، الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التي لا يتجاوزهن بر ولا فاجر . . . فهو سبحانه رب العالمين، وخالقهم ورازقهم ومحييهم

---

(١) سبق تخريجه ص ٨٤ الحاشية (١).

ومميتهم، ومقلب القلوب، ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق لكل شيء ومدبره ومسخره إلا هو. سواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه . . .)[١].

أما **العبودية الخاصة** فموصوف بها من حقق لازم تلك العبودية العامة، بأن يصرف كمال الخضوع والمحبة والانقياد لله سبحانه وتعالى وحده دون سواه.

وهذه العبودية هي دعوة الرسل إلى أقوامهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهي فارق ما بين المؤمن والكافر، وأهل الجنة وأهل النار.

وهذه العبودية فيها من الاختيار عند العبد ما جعله الله تعالى محل الابتلاء ومناط التكليف، فمن حققها فهو العابد لله حقاً، ومن لم يحققها وصرفها لغير الله تعالى فهو ليس عبداً لله تعالى بهذا الاعتبار، بل هو عبد للشيطان والهوى، وإن كان عبداً له بالمعنى العام الذي سبق تقريره.

ولذلك جاء في نصوص الشرع تخصيص المؤمنين بعبوديتهم لله تعالى دون الكافرين باعتبار تحقيقهم لهذه العبودية، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله تعالى ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٩-٣٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، إذ الاستثناء

(١) العبودية ص ٣٠-٣١.

هنا منقطع[1]، وقوله تعالى : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٦]، ونحو ذلك من الآيات.

وهذه العبودية الخاصة هي أصل المنازعة بين الرسل وأعدائهم، وهي التي جاءت أكثر النصوص في تقريرها ؛ إذ بها وقع الشرك وزلت الأقدام، وزاغت الأفهام، فعُبد غير الله تعالى ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولاحياة ولا نشوراً.

فالنصوص الآمرة بعبادة الله تعالى والناهية عن الإشراك به هي في هذه العبودية الخاصة، إذ هي محل اختيار وتكليف.

وعليه فإن غالب كلام العلماء على العبادة من حيث التعريف والتقرير هو في هذا المعنى من العبودية.

وهو ما يدور عليه البحث في هذه الرسالة.

الأمر الثاني :

لابد من التفريق بين تعريف العبادة من حيث هي مطلقة دون الإضافة إلى أحد، وبين تعريفها باعتبارها العبادة الحقة المأمور بها شرعاً، وهي المضافة إلى الله عز وجل.

فهي من حيث الإطلاق يدخل فيها ما صرف منها لغير الله تعالى، فتسمى عبادة لكنها عبادة باطلة، لا يحظى معها صاحبها باسم إسلام ولا إيمان.

أما تعريفها باعتبارها المأمور بها شرعاً فالمعنى منصرف إلى كونها

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٦٠٧.

خالصة لوجه الله تعالى، متَّبَعاً بها طريق المرسلين، وهو المعنى المراد بقوله تعالى: ﴿...فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وباستصحاب هذا التفريق يتضح التنوع في كلام أهل العلم في تعريفهم للعبادة.

فمن عرفها بأنها غاية المحبة والخضوع، فهذا باعتبار معناها المطلق.

ومن عرفها بأنها الخضوع لله بالطاعة، أو بأنها محبة الله، أو بأنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله، أو بأنها إظهار التذلل لله تعالى ونحو ذلك، فهذا باعتبارها المأمور بها شرعاً، ومن ذلك ما ذكر ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في تعريف العبادة بأنها التوحيد[1]؛ إذ العبادة المقبولة عند الله تعالى لا تكون إلا بالتوحيد.

الأمر الثالث:

وهناك تفريق آخر لا بد من استصحابه في تعريف العبادة، وقد سبقت الإشارة إليه: وهو أن العبادة تطلق ويراد بها التعبّد: وهو فعل العبد.

وتطلق ويراد بها المتعبّد به: وهو صور العبادة التي يقوم بها العبد من صلاة وصيام ونحوهما.

وبهذا التفريق يتضح أن لا تعارض بين تعريف العبادة بأنها غاية الخضوع والتذلل والانقياد والمحبة، وتعريفها بأنها: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

---

(١) جامع البيان «تفسير الطبري» ١/ ٦٩، ١٦٠.

فالأول باعتبار الحال التي يكون عليها العبد. والثاني باعتبار أفراد العبادة التي يقوم بها العبد ظاهراً أو باطناً.

وعلى هذا فتعريف العبادة بأنها : (ما أمر به شرعاً من غير اطّراد عرفي ولا اقتضاء عقلي)[١] هو باعتبار الأمر الثاني.

الأمر الرابع :

أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله موضحاً ذلك : (وبنى : "إياك نعبد" على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب "إياك نعبد" حقاً هم أصحابها، فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أمره.

وعمل القلب : كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه . . . . وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

---

(١) انظر كتاب «الفروع» لابن مفلح ١/ ١١١، وكشاف القناع للبهوتي ١/ ٨٥.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك)[١].

وعبادة القلب هي أعظمها وأهمها، إذ هي الباعث على ما سواها، فمتى ما كان القلب مستكمل العبودية كانت جوارحه تبعاً له في ذلك، وكلما كان القلب مستكبراً عن عبادة ربه عز وجل ظهر ذلك جلياً في إعراض اللسان والجوارح.

وكذلك الحال حين يكون القلب منصرفاً بالعبودية لغير الله تعالى. فإنه يسخر كل جوارحه لذلك المعبود ذلاً وخضوعاً وحاجة واستغراقاً في حال رغبه أو رهبه.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: (فإن تحقق القلب بمعنى لا إله إلا الله، وصدقه فيها، وإخلاصه بها، يقتضي أن يرسخ فيه تأله الله وحده، إجلالاً وهيبة ومخافة ومحبة، ورجاء وتعظيماً وتوكلاً، ويمتلئ بذلك، وينفي عنه تأله من سواه من المخلوقين، ومتى كان كذلك، لم يبق فيه محبة ولا إرادة، ولا طلب لغير ما يريده الله ويحبه ويطلبه، وينتفي بذلك من القلب جميع أهواء النفوس وإرادتها ووساوس الشيطان، فمن أحب شيئاً وأطاعه وأحب عليه وأبغض عليه فهو إلهه، فمن كان لا يحب ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي ولا يعادي إلا له، فالله إلهه حقاً، ومن أحب لهواه، ووالى عليه وعادى عليه، فإلهه هواه)[٢].

وبعد هذا الإيضاح لهذه الأمور المتعلقة بالعبادة، أرى أنه قد تميز

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٢٠-١٢١.

(٢) جامع العلوم الحكم ص ٢١٠ - الحديث ٢٢.

المعنى المراد للعبادة في تعريفات أهل السنة لها، وكذلك تبينت ماهية اختلاف وتنوع عباراتهم في تعريفها، وأن مرجع ذلك إلى الاعتبار المراعى في التعريف، فلا تضاد بينهم في ذلك، كما قال الشيخ عبد الله ابن عبد الرحمن أبا بطين في رسالته في معنى العبادة: (وأما تعريفها في الشرع، فقد اختلفت عباراتهم في تعريفها والمعنى واحد)[١].

ثانياً: معنى (لا إله إلا الله):

يتركز الحديث في معنى (لا إله إلا الله) على تحديد مفهوم كلمة (إله)، إذ هي التي وقع فيها الاشتباه عند من خالف في مدلول هذه الكلمة.

وهناك توافق بين المعنيين اللغوي والشرعي في مفهوم الألوهية؛ إذ أن مدار معناها على العبادة.

فالإله هو المعبود، قال ابن منظور: (الإله: الله عز وجل، وكل ما اتخذ من دونه معبوداً إله عند متخذه)[٢].

وقال الزجاجي: (فإله "فعال" بمعنى "مفعول" كأنه مألوه أي معبود مستحق للعبادة، يعبده الخلق ويؤلهونه)[٣].

وقال الزجاج في «تفسير أسماء الله الحسنى»: (ومعنى قولنا "إلاه" إنما هو الذي يستحق العبادة، وهو الله تعالى المستحق لها دون

(١) معنى العبادة والإخلاص - ضمن «مجموعة التوحيد» ١/ ١٦٢.
(٢) لسان العرب ١٣/ ٤٦٧.
(٣) اشتقاق أسماء الله ص ٢٤.

من سواه)[١].

وهذا الذي ذكره الزجاج هو باعتبار ما عليه الشيء في نفسه ؛ إذ لا أحد مستحق للعبادة إلا الله تعالى، فهو الإله الحق وحده، وهو المستحق الاسم وحده، ولكن لما عبد غيره سبحانه سمي ذلك المعبود إلهاً باعتبار الاعتقادات والأقوال والأفعال القائمة في عابده.

يقول الجوهري موضحاً ذلك : (والآلهة : الأصنام، سموها بذلك لاعتقادهم أن العبادة تحق لها، وأسماؤهم تتبع اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه)[٢].

ويقول الزمخشري : (الإله من أسماء الأجناس، كالرجل والفرس، يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم على المعبود بحق)[٣].

والإلهة هي العبادة، قال الفيروزآبادي : (أله إلاهة و أُلُوهة وألوهية : عبد عبادة)[٤].

ونقل ابن منظور عن ابن سيده : (والإلهة والألوهة والألوهية : العبادة)[٥].

ومن هذا قراءة ابن عباس رضي الله عنهما : "ويذرك وإلهتك" .

فقد روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ : «ويذرك

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٢٦.
(٢) الصحاح - مادة «أله» ٦/ ٢٢٢٣.
(٣) الكشاف ١/٦.
(٤) القاموس المحيط ص ١٦٠٣.
(٥) لسان العرب ١٣/ ٤٦٨.

وإلـهتك» قال: وعبادتك. ويقول: إنه كان يُعبد ولا يَعبد[١].

وكذلك ذكر بسنده القراءة والتفسير بذلك عن مجاهد بن جبر[٢].

والتأله: التنسك والتعبد، ومنه قول رؤبه بن العجاج:

لله در الـغـانـيـات الـمـدّه سبحن واسترجعن من تألـهي

أي: من تعبدي[٣].

وسميت الشمس إلاهة لما عبدت من دون الله تعالى.

قال ابن منظور: (وقد سمت العرب الشمس لما عبدوها: الهة .... ثم ذكر بيت مية بنت عتبة ابن الحارث في ذلك حيث تقول:

تروحنا من اللعباء عصراً فأعجلْنا الإلهة أن تؤوبا[٤]

ولفظ الجلالة: (الله) مشتق من الإله، فهو ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين[٥].

وقد ذكر الزركشي أن القول بأن لفظ الجلالة (الله) مشتق من الألوهية هو المذهب الذي عليه الأكثرون[٦].

وقال ابن منظور في اللسان: (قال أبو الهيثم: فالله.: أصله «إله»

---

(١) جامع البيان «تفسير الطبري» ١/ ٥٤، وانظر: جلد ٦/ ٩/ ٢٥.
(٢) المرجع السابق - ١/ ٥٤، وانظر: جلد ٦/ ٩/ ٢٦.
(٣) انظر: لسان العرب ١٣/ ٤٦٩.
(٤) لسان العرب ١٣/ ٤٦٨.
(٥) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ٤٥.
(٦) معنى «لا إله إلا الله» لبدر الدين الزركشي ص ١٠٩-١١٠.

قال الله عز وجل ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] قال: ولا يكون إلهاً حتى يكون معبوداً، وحتى يكون لعابده خالقاً ورازقاً ومدبراً، وعليه مقتدراً، فمن لم يكن كذلك فليس بإله، وإن عبد ظلماً، بل هو مخلوق ومتعبَّد)(١).

قلت: وهذا الذي نقله ابن منظور عن أبي الهيثم هو باعتبار ما عليه الشيء في نفسه كما سبقت الإشارة إلى ذلك قريباً.

فالحاصل: أن مدار معنى الإله في اللغة منصرف إلى العبودية، وهذا مطابق لدلالات النصوص الشرعية.

وقد تضافرت النقول عن أهل السُنة في تفسير الألوهية بهذا المعنى.

وقد تقدم من ذلك التفسير المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد لقراءة "ويذرك وإلاهتك" أن المراد: وعبادتك.

وقال الإمام ابن جرير في تفسيره: (وأما تأويل قول الله.: "الله" فإنه على معنى ما روي لنا عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: هو الذي يألهه كل شيء، ويعبده كل خلق ...) ثم ذكر بسنده عن الضحاك عن عبدالله ابن عباس قال: الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين)(٢).

وقال أيضاً: (فإن قال - أيْ قائلٌ - : وما دل على أن الألوهية هي العبادة، وأن الإله هو المعبود، وأن له أصلاً في فعل ويفعل؟ قيل: لا تمانع بين العرب في الحكم، لقول القائل - يصف رجلاً

---

(١) لسان العرب ١٣/ ٤٦٨.
(٢) جامع البيان ١/ ٥٤.

بعبادة، ويطلب مما عند الله جل ذكره : تأله فلان. بالصحة ولا خلاف)(١).

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٨٤]، قال : يعبد في السماء ويعبد في الأرض(٢).

وفسّر مجاهد والسدي وقتادة قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٨]، بأنها شهادة أن لا إله إلا الله(٣).

ووجه تأويل الألهية بالعبودية هنا، أن الآية نصت على العبودية في قوله سبحانه عن إبراهيم ﷺ : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، وهذا المعنى هو مدلول الكلمة التي جعلها باقية في عقبه، وفسرها السلف بأنها شهادة أن لا إله إلا الله. وواضح من ذلك أن هذا التفسير مبني على أن (الإله) بمعنى المعبود.

وقال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله : «(لا إله إلا الله» معناه : لا معبود إلا الله)(٤).

---

(١) جامع البيان ١/ ٥٤.
(٢) جامع البيان جلد ١٣/ ٢٥/ ١٠٤.
(٣) جامع البيان جلد ١٣/ ٢٥/ ٦٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٧٥.

قلت : وهذا يجب حمله على اعتبار استحقاق العبودية، فلا معبود بهذا الاعتبار إلا الله تبارك وتعالى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير ذلك : (والإله هو بمعنى المألوه المعبود، الذي يستحق العبادة، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق. فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد - كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية، وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه - لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ..)[١].

وقال أيضاً : (الإله، هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع، والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل)[٢].

وقال الإمام ابن القيم : (واسم "الله" دال على كونه مألوها معبوداً، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، والمتضمنين لكمال الملك والحمد)[٣].

وقال العلامة المقريزي رحمه الله : (والإلهية : كون العباد يتخذونه

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٢٦-٢٢٧.
(٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٤٩.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٦.

سبحانه محبوباً مألوها، ويفردونه بالحب والخوف والرجاء والإخبات والتوبة، والنذر والطاعة، والطلب والتوكل. ونحو هذه الأشياء)[١].

وقال العلامة الشوكاني رحمه الله: (لفظ «إله» إنما هو لبيان استحقاق الله للألوهية التي هي حقيقة العبودية، ولهذا جاء في كتاب الله.: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي: مألوه معبود فيهما، قال قتادة: يعبد في السماء والأرض)[٢].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: (والإله: هو الذي تألهه القلوب بأي نوع من أنواع العبادة كما تقدم، فمن صرف من العبادة شيئاً لغير الله، كالدعاء ونحوه فقد ألهه بالعبادة، واتخذه إلهاً من دون الله، ولا يختلف كلام أهل اللغة وأهل السنة سلفاً وخلفاً عن هذا المعنى)[٣].

ويؤكد الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين رحمه الله هذا الأمر، وهو اجتماع العلماء على هذا المعنى، فقد قال في رسالته في تعريف العبادة: (وجميع العلماء من المفسرين وشراح الحديث والفقه وغيرهم يفسرون الإله بأنه المعبود، وإنما غلط في ذلك بعض أئمة المتكلمين، فظن أن الإله هو القادر على الاختراع، وهذه زلة عظيمة وغلط فاحش)[٤].

---

(١) تجريد التوحيد ص ٤٤.
(٢) فتح القدير ٤/٥٦٧.
(٣) كشف ما ألقاه إبليس ص ١٨٥.
(٤) رسالة «معنى العبادة والإخلاص» ضمن مجموعة التوحيد ١/١٦٩.

فهذه النقولات وغيرها مما هو في معناها ولم أذكره اختصاراً، تبين بجلاء مذهب أهل السنة واتفاقهم على معنى (الإله) بأنه المعبود.

وبنظرة - ولو عجلى - إلى كتب التفسير، نجد ظهور هذا الأمر بجلاء لا يخفى إلا على غارق في ظلمات جهله، أو مغلوب بهواه على أمره.

ثم إن هذا المعنى هو الذي تشهد له دلائل النصوص الشرعية من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وبيان ذلك بالوجوه التالية:

أولاً: أن الله تعالى أرسل رسله لتحقيق عبوديته في الناس، فدعوتهم قامت على هذا الأصل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وقص سبحانه دعوة من شاء من رسله، فكان مفتاح دعوة كل رسول هو عبادة الله سبحانه، كما قال سبحانه في بيان دعوتهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت: ١٣-١٤].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ثم إنه قد جاء بيان هذه الدعوة بأنها تكون بتحقيق كلمة (لا إله إلا الله)، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ

﴿إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وكذلك الاقتران الغالب بين الألوهية والعبادة في بيان دعوة الرسل : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، ومثل هذا كثير جداً.

ثانياً : أن الحال التي كان عليها المشركون، ووقع بسببها العداوة بينهم وبين رسلهم هي عبادة غير الله تعالى، فلم ينازعوا رسلهم في أن الله تعالى هو الخالق المالك المدبر، وإنما كانت المنازعة في إفراد الله تعالى بالعبادة.

وكانت دعوة الرسل إليهم «شهادة أن لا إله إلا الله»، وهذا يعنى أنهم لم يحققوها، بل أعرضوا عنها واستكبروا، ولذلك قال الله تعالى عنهم : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥]. واستكبارهم كان عن معنى الأمر بعبادة الله تعالى وحده.

ثالثاً : ما قصه الله تعالى عن قوم موسى حين طلبوا منه أن يجعل لهم صنماً يعكفون عليه كما في قوله سبحانه : ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فهم هنا لا يريدون بالإله معنى الخالق والرازق، وإنما المراد طلب صنم يعكفون عليه للعبادة.

وكذلك ما قصه عنهم بشأن العجل كما في قوله سبحانه وتعالى عن السامري : ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٨]. فقولهم "هذا إلهكم" ليس إلا معنى المعبود، إذ يعلمون يقيناً أن الذي صنعه لهم إنما هو السامري، فلا

يلتبس عليهم أنه لا يملك خلقاً ولا تدبيراً، ولذلك حاجهم الله تعالى وألزمهم ببطلان اتخاذهم العجل بما يعلمونه يقيناً دون التباس، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩].

رابعاً: في حديث بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن، تعددت ألفاظ ما أمره به في البدء بدعوتهم، ففي رواية بلفظ: (ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله)[١]، وفي لفظ، (فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله)[٢]، وفي لفظ: (فليكن أو ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى)[٣].

وهذه الألفاظ لا تعارض بينها، بل هي يوافق بعضها بعضاً مما يدل على أن السلف لما رووا هذه الألفاظ بالمعنى لم يتعدوا معناها المراد، فكان معنى شهادة أن لا إله الله، هو معنى عبادة الله وحده، وهو معنى توحيد الله سبحانه.

ومثل هذا ما جاء في رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحديث جبريل عليه السلام لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة

---

(١) رواه البخاري في الزكاة - باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد على لفقراء - رقم ١٤٩٦، ومسلم في الإيمان - باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام - رقم ١٩.

(٢) رواه البخاري في الزكاة - باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة - رقم ١٤٥٨، ومسلم في الإيمان - باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام - رقم ١٩.

(٣) رواه البخاري في التوحيد - باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ - رقم ٧٣٧٢، ومسلم في الإيمان - باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام - رقم ١٩.

وأماراتها، ففي الحديث حين سأله عن الإسلام، قال النبي ﷺ: **(الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله . . .)** الحديث[١].

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه لمجيء جبريل، كان جواب النبي ﷺ حين سأله عن الإسلام قال: **(الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً . .)** الحديث[٢].

والروايتان تفسر إحداهما الأخرى، فالشهادة بالألوهية بمعنى الإفراد بالعبودية.

وقد جمع الحافظ ابن حجر بين معنى اللفظين في شرحه لحديث أبي هريرة رضي الله عنه ، فذكر أن المراد بالعبادة في حديث أبي هريرة هي النطق بالشهادتين، وقال: (ولما عبر الراوي بالعبادة، احتاج أن يوضحها بقوله " ولا تشرك به شيئاً " ولم يحتج إليها في رواية عمر لاستلزامها ذلك)[٣].

ومثل هذا أيضاً ما جاء في روايات حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في

---

(١) رواه مسلم في الإيمان - باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان - رقم ٨، وأبو داود في السنة - باب في القدر - رقم ٤٦٩٥، والترمذي في الإيمان - باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام - رقم ٢٦١٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه - باب نعت الإسلام - رقم ٤٩٩٠.

(٢) رواه البخاري في الإيمان - باب سؤال جبريل النبي ﷺ - رقم ٥٠، وفي تفسير القرآن - باب قوله «إن الله عنده علم الساعة»، ومسلم في الإيمان - باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان - رقم ٩.

(٣) فتح الباري ١/ ١٤٥-١٤٦.

مباني الإسلام، ففي رواية أن النبي ﷺ قال: (**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ..**) الحديث[١].

وفي رواية بلفظ: (**بني الإسلام على خمس: على أن يوحد الله..**) الحديث[٢].

وفي رواية أخرى بلفظ: (**على أن يعبد الله ويكفر بما دونه ..**) الحديث[٣].

فهذا التعدد في الروايات واختلاف الألفاظ فيها متوافق من حيث المعنى فلا تعارض بينها، مما يبين جلياً التوافق بين معنى (لا إله إلا الله) والأمر بعبادته وحده.

إذاً، فتعريف الإله بأنه المعبود هو الذي تدل عليه النصوص الشرعية، والأوضاع اللغوية، والنقولات الأثرية عن سلف الأمة من الصحابة وغيرهم.

قال الشيخ عبد الرحمن المعلمي: (أن الصحابة ﷺ كانوا يفهمون اتحاد معنى شهادة أن لا إله إلا الله التي يثبت بها الإسلام، ومعنى التزام عبادة الله تعالى وعدم الشرك به)[٤].

وبعد، إذا تبين المراد بكلمة (إله)، يبقى الحديث عن معنى كلمة

---

(١) البخاري في الإيمان - باب بني الإسلام على خمس - رقم ٨، ومسلم في الإيمان - باب أركان الإسلام ودعائمه العظام - رقم ١٦.
(٢) مسلم في الإيمان - باب أركان الإسلام ودعائمه العظام - رقم ١٦.
(٣) مسلم في الإيمان - باب أركان الإسلام ودعائمه العظام - رقم ١٦.
(٤) رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله ص ٣٧.

التوحيد مجتمعة وهي (لا إله إلا الله)، ومما سبق من بيان فإن معناها هو أن لا معبود إلا الله تعالى.

ولكن في واقع الحال فإن هناك معبودات كثيرة عبدت من دون الله تعالى، وقد أطلق عليها (آلهه)، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١] الآية، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، إلا أن إطلاق اسم الآلهة عليها هو باعتبار وقوع العبادة لها دون اعتبار صحة ذلك من عدمه.

أما باعتبار الصحة والفساد، والاستحقاق وعدمه، فهي ليست آلهة، وليس لها من خصائص الألوهية شيء، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وعلى هذا، فهناك خبر مقدر في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، إذا أن (لا) هي النافية للجنس تعمل عمل (إن)، و (إله) اسمها، والخبر مقدر بعدها.

وقد قيل في تقديره: (موجود)، وقيل: (لنا)، وقيل: (بحق)[1].

وأصوب تلك التقديرات أن يقدر بـ (حق)، فتكون الكلمة: (لا إله حق إلا الله)، ويكون المعنى: (لا معبود حق إلا الله). ويؤيد هذا دلالة الآية السابقة.

(١) انظر: معنى «لا إله إلا الله» للزركشي ص ٧٤.

وهذا التقدير هو ما رجحه الزركشي ﷺ في رسالته «معنى لا إله إلا الله»[١].

وأرى من المناسب هنا - توضيحاً لهذا الأمر - أن أنقل كلام الشيخ عبد العزيز بن باز ﷺ عند تعليقه على هذه المسألة في شرح الطحاوية، حيث قال: (ما قاله صاحب المنتخب ليس بجيد، وهكذا ما قاله النحاة، وأيده الشيخ عبد الله المرسي من تقدير الخبر بكلمة (في الوجود) ليس بصحيح لأن الآلهة المعبودة من دون الله كثيرة وموجودة، وتقدير الخبر بلفظ "في الوجود" لا يحصل به المقصود من بيان أحقية ألوهية الله سبحانه وبطلان ما سواها، لأن لقائلٍ أن يقول: كيف تقولون: "لا إله في الوجود إلا الله"؟ وقد أخبر الله سبحانه عن وجود آلهة كثيرة للمشركين .. فلا سبيل إلى التخلص من هذا الاعتراض، وبيان عظمة هذه الكلمة، وأنها كلمة التوحيد المبطلة لآلهة المشركين وعبادتهم دون الله، إلا بتقدير الخبر بغير ما ذكره النحاة، وهو كلمة (حق)، لأنها هي التي توضح بطلان جميع الآلهة، وتبين أن الإله الحق، والمعبود الحق هو الله وحده، كما نبه على ذلك جمع من أهل العلم، منهم أبو العباس ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن القيم، وآخرون رحمهم الله)[٢].

وخلاصة القول في معنى (لا إله إلا الله): أنها نفي لكل ما يعبدون من دون الله، وإثبات العبادة لله وحده؛ إذ هو المستحق لها،

---

(١) المرجع السابق ص ٧٥.

(٢) انظر التعليق في حاشية شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز - تحقيق د. عبدالله التركي وشعيب الأرناؤوط ص ٧٤.

فمن صرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى، فقد أخل بهذه الكلمة ولم يحققها.

وإثباتها متضمن لمعنى ربوبية الله تعالى، وأن له الأمر والخلق، على ما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.



المبحث الثاني

تعريف العبادة ومعنى (لا إله إلا الله) عند المبتدعة

لقد سبقت الإشارة في تمهيد المبحث السابق إلى عواقب الجهل بمفهوم العبادة ومعنى كلمة الشهادة، حيث يخاض بذلك في أنواع من الشرك وأبواب من الضلالات مع الظن بصواب المنهج واستقامة الطريق.

وقبل الكلام على تعريف المبتدعة للعبادة والألوهية، أرى مناسباً في هذا المقام نقل كلام للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن يبين فيه أن كثيراً من الناس هلكوا بعدم معرفة الحدود والحقائق على وجهها.

قال رَحَمَهُ ٱللَّهُ : (اعلم أن من تصور حقيقة أي شيء على ما هو عليه في الخارج، وعرف ماهيته بأوصافها الخاصة، عرف ضرورة ما يناقضه ويضاده، وإنما الخفاء بلبس إحدى الحقيقتين، أو بجهل كلا الماهيتين، ومع انتفاء ذلك، وحصول التصور التام لهما، لا يخفى ولا يلتبس أحدهما بالآخر، وكم هلك بقصور العلم، وعدم معرفة الحدود والحقائق من أمة، وكم وقع بذلك من غلط وريب وغمّة، ومثال ذلك أن الإسلام والشرك نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، والجهل بالحقيقتين أو أحدهما أوقع كثيراً من الناس في الشرك وعبادة الصالحين، لعدم معرفة الحقائق وتصورها، وإن ساعد الجهل وقصور

العلم عوائدُ مألوفةٌ، استحكمت البلية، وتمكنت الرزية . . .)[١].

والمتأمل لما عليه المبتدعة في توحيد العبادة من المخالفات في هذا التوحيد مما يصل إلى حد الإشراك بالله تعالى، والوقوع في سيرة أهل الجاهلية الأولى من صرف لأنواع من العبادة لغير الله تعالى كالدعاء والاستغاثة ونحوها، ثم ينظر في أقوالهم في تعريف العبادة وفهمهم لها، يدرك أن هذا الواقع الذي هم فيه نتيجة حتمية لذلك الفهم القاصر الذي جعل العبادة حالة مقيدة باعتقاد القلب، دون أن يكون لها أي صورة في ظاهر الأقوال والأعمال.

فالعبادة عندهم - كما سأبينه في النقل عنهم - مشروطة باعتقاد الخالقية والربوبية واستحقاق العبادة في المعبود، وأي قول أو عمل لا يصاحبه ذلك الشرط فلا يسمى عبادة مهما كانت صورته.

ومع تعدد عباراتهم في تعريف العبادة، إلا أن الجامع لها، والقيد الذي لا ينفك عنه أي تعريف منها هو اعتقاد التأثير المستقل من قبل من صرفت له العبادة.

وهذا مبني على ربطهم التام بين مفهومي الربوبية والألوهية، وجعلهما معنى واحداً ولا فرق، كما سيتبين في موضعه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

ولما كانت العبادة هي تحقيق كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، والألوهية عندهم بمعنى الربوبية، صار مفهوم العبادة - عندهم - ليس

---

(١) منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس ص ١٢.

له في الشرع إلا معنى اعتقاد الربوبية في المعبود.

ولذلك فإن اشتراطهم اعتقاد استحقاق العبادة والألوهية في مفهوم العبادة راجع إلى معنى ما سبق، لاتحاد المعنيين : الربوبية والألوهية.

والمبتدعة بهذا القيد أخرجوا كثيراً من الأعمال الشركية أن تكون شركاً، كدعاء الأموات والاستغاثة بهم وصرف أنواع من العبادة لهم، وما شابه ذلك، باعتبار أن أصحابها ما أرادوا إلا التوسل والاستشفاع والتعظيم والتوقير دون أن يقوم في قلوبهم اعتقاد استقلال المدعوين بالربوبية واستحقاق العبادة.

وبمثل هذا صارت سيرة الجاهلية الأولى في الشرك بالله تعالى صورة محكية في واقع معاش في أنحاء من بلاد المسلمين.

وسأورد هنا نماذج من أقوال المبتدعة في هذه المسألة ليكون الأمر أوضح في المعنى، وآكد في النسبة إليهم.

يقول أحمد زيني دحلان في تعريف الدعاء الذي يكون عبادة : (وإنما النداء الذي يكون عبادة هو نداء من يعتقد ألوهيته واستحقاقه للعبادة، فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه)[١].

وهذا تقريرٌ للعبادة في أوضح صورة تعبر عنها وهي الدعاء، فقيده للدعاء الذي يكون عبادة بذلك الاعتقاد، هو فرع عن كون العبادة لا تكون إلا به.

ويوضح ذلك تقريره أن الشرك لا يكون إلا بذلك الاعتقاد، حيث

(١) الدرر السنية في الرد على الوهابية ص ٣٤.

يقول : (فالذي يوقع في الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله سبحانه، أو اعتقاد التأثير لغير الله)[١].

وعليه فأي صورة للعبادة صرفت لغير الله تعالى، فلا يعد ذلك شركاً إلا بهذين القيدين اللذين ذكرهما.

فمفهوم العبادة عنده ما لازمه أحد أمرين هما محل اعتقاد القلب، وهما :

١- اعتقاد الألوهية في المعبود واستحقاقه للعبادة.

٢- اعتقاد التأثير المستقل لذلك المعبود.

ونتيجة هذا المفهوم ما قرره بقوله : (ولا يعتقد أحد من المسلمين ألوهية غير الله تعالى، ولا تأثير أحد سوى الله تعالى)[٢]، أي أن كل قول أو فعل مشابه لشرك أهل الجاهلية الأولى وقع من أحد المسلمين فإنه لا يعد في حقه شركاً ؛ إذ لم يلازمه ذلك الاعتقاد، فلم يكن عبادة صرفها لغير الله تعالى.

وحقيقة هذين الأمرين اللذين جعلهما لمفهوم العبادة يرجعان إلى معنى واحد حسب ما يقرره هو وأتباعه، وهو اعتقاد الربوبية في المعبود، إذ ليس للألوهية معنى - عنده - غير الربوبية، وفي ذلك يقول : (فإن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية)[٣].

ويقول أيضاً : (ومن المعلوم أن من أقر لله بالربوبية فقد أقرّ له

---

(١) الدرر السنية في الرد على الوهابية ص ٣٤.

(٢) الدرر السنية ص ٣٤.

(٣) الدرر السنية ص ٤٠.

بالألوهية، إذ ليس الرب غير الإله، بل هو الإله بعينه)[١].

فالحاصل في تقريره لمفهوم العبادة هو اشتراط اعتقاد الربوبية في المعبود، ومتى ما خلا القول أو الفعل من ذلك الاعتقاد فلا يسمى عبادة مهما كانت صورته.

ويقول القضاعي : (إن مسمى العبادة لا يدخل فيه شيء من التوسل والاستغاثة وغيرهما، بل لا يشتبه بالعبادة أصلاً، فإن كل ما يدل على التعظيم لا يكون من العبادة إلا إذا اقترن به اعتقاد الربوبية لذلك المعظم أو صفة من صفاتها الخاصة بها)[٢].

ويقول أيضاً : (إن الدعاء بمعنى النداء إن كان لمن لا يعتقده رباً فليس من العبادة في شيء ...، وإن كان لمن يعتقد ربوبيته أو استقلاله بالنفع والضر أو شفاعته عند الله بغير إذن الله فهو عبادة لذلك المدعو، وقد يطلق الدعاء على العبادة، وقد علمت أن معناها : الخضوع التام لمن يعتقد فيه ربوبية أو خاصة من خواصها)[٣].

ويقرر العاملي في كتابه «كشف الارتيابات» أن العبادة لا تأخذ حكمها شرعاً إلا حين يقارنها اعتقاد الربوبية في المعبود وأن كل عبادة جاء إطلاقها في الشرع لابد من تقييدها بذلك القيد، وإلا فهي مجرد إطلاق لغوي لا يكون صرفه لغير الله تعالى موجباً للشرك.

ويضرب لذلك مثلاً في الدعاء فيقول : (ثم إنه ورد إطلاق العبادة

---

(١) الدرر السنية ص ٤٠.

(٢) البراهين الساطعة ص ٣٨١.

(٣) البراهين الساطعة ص ٣٨٨-٣٨٩.

على دعاء الله تعالى في القرآن بقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]، والأخبار بقوله ﷺ: "**الدعاء مخ العبادة**"، ولكن ليس المراد بالدعاء هنا معناه اللغوي قطعاً وهو النداء، وإلا لكان كل من نادى أحداً وسأله شيئاً عابداً له، بل المراد به نداء الله وسؤاله والقيام بغاية الخضوع والتذلل بين يديه وإنزال حاجات الدنيا والآخرة به على أنه الفاعل المختار والمالك الحقيقي لأمور الدنيا والآخرة والمتصرف فيها كما يشاء، فمن دعا مخلوقاً على هذا النحو كان عابداً له، أما من دعاه يشفع له إلى الله بعد ثبوت أن الله جعل له الشفاعة فلا يكون عابداً له ولا فاعلاً لما لا يحل)[1].

بل إنه جعل موجب الشرك في عبادة الأوثان وما كان يفعله أهل الجاهلية لها هو اعتقاد الربوبية فيها، والاستقلال بالضر والنفع، حيث ذكر أن ما يترتب عليه حكم الشرك والكفر من العبادات والاعتقادات ثلاثة أمور:

الأول: اعتقاد المساواة لله في جميع الصفات.

الثاني: إنكار الشرائع.

الثالث: قال فيه: (ما ذكر مع عبادة الأوثان بما لم يأذن به الله بل نهى عنه من سجود ونحو وذبح لها وذكر اسمها عليه وطليها بدمه وتعظيمها باعتقاد استحقاق ذلك بالاستقلال لرفعة ذاتية واعتقاد أن له تدبيراً واختياراً كما كان يفعله عبدة الأصنام سواء كان مع الاعتراف

---

(١) كشف الارتياب ص ١٠٥.

بوجود إله وعدمه)[١].

ويقول محمد بن عبد المجيد في كتابه الموسوم بـ «الرد على بعض المبتدعة من الطائفة الوهابية» في تعريف العبادة : (فالعبادة شرعاً غاية الذل والخضوع لمن يعتقد له الخاضع بعض صفات الربوبية، كما ينبي عنه مواقع استعمالها في الشرع، فغاية الخضوع لا تكون عبادة بمجردها، بل حتى تكون على وجه خاص، وهو اعتقاد الخاضع ثبوت صفة من صفات الربوبية للمخضوع له)[٢].

ولذلك قد جعل الشرك الذي كان عليه أهل الجاهلية واقعاً بسبب ذلك الاعتقاد الذي جعله قيداً في تعريف العبادة، فيقول في ذلك : (إنما كفر أهل الجاهلية بعبادة الأصنام لتضمنها اعتقادهم ثبوت شيء من صفات الربوبية لها)[٣].

وفي «كشف النقاب» للنقوي قال : (لا يخفى أن العبادة كما هو الظاهر من لفظها : هي الطرق المخصوصة لخضوع العبد لمن يعتقده إلهاً)[٤].

ويقرر صاحب كتاب «التوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية» بأنه لا يفهم من معنى العبادة شرعاً إلا أنها الإتيان بأقصى الخضوع قلباً باعتقاد الربوبية في المخضوع له، أو قالباً مع ذلك الاعتقاد[٥].

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٦
(٢) الرد على بعض المبتدعة من الطائفة الوهابية ص ١٠.
(٣) المرجع السابق ص ١١.
(٤) كشف النقاب ص ٤٤.
(٥) التوسل والزيارة للفقي ص ١٦.

ويقرر هذا المعنى صاحب كتاب «التوحيد والشرك في القرآن الكريم»، فيذكر لمفهوم العبادة ثلاثة تعريفات كلها تؤول إلى معنى واحد وهو اعتقاد الربوبية أو الاستقلال بشيء من خصائصها في المعبود.

فبعد أن صدر الفصل الثاني من كتابه وهو (تحديد حقيقة العبادة)، بتعريف عام للعبادة قال فيه: (العبادة: هي الخضوع عن اعتقاد بألوهية المعبود وربوبيته واستقلاله في فعله)[١]، ذكر تعاريفاً ثلاثة جعل مرجع مفهوم العبادة إليها.

فالتعريف الأول قال فيه: (العبادة: هي الخضوع اللفظي أو العملي الناشئ عن الاعتقاد بألوهية المخضوع له)[٢].

فاشترط للعبادة أن تكون متضمنة اعتقاد العابد ألوهية من خضع له، ومن غير ذلك فلا تكون صورة اللفظ أو العمل عبادة مهما كان الخضوع فيه.

واشتراط اعتقاد الألوهية في المعبود - عنده - هو معنى اعتقاد ربوبيته واستقلاله في النفع والضر، وهذا ما ذكره في كتابه المذكور نفسه عند بيان معنى الإله فقال: (وإن شئت أن نفرغ ما نفهمه من لفظ الإله في قالب التعريف فارجع إلى الأمور التي تعد عند الناس من شؤون الربوبية ولوازمها، فالقائم بتلك الشؤون كلها أو بعضها هو الإله، فالخلق والتدبير والإحياء والإماتة والتقنين والتشريع والمغفرة

---

(١) التوحيد والشرك في القرآن الكريم لجعفر السبحاني ص ٧١.
(٢) المرجع لسابق ص ٧٢.

والشفاعة بالاستقلال كلها من شؤون الربوبية، فالقائم بهذه الشؤون حقيقة أو تصوراً : إله، واقعاً أو عند المتصور)[١].

أما تعريفه الثاني فيقول فيه : (العبادة : هي الخضوع أمام من يعتقد بأنه يملك شأناً من شؤون وجوده وحياته وآجله وعاجله)[٢].

وهذا واضح منه أن العبادة لا تكون إلا حين يعتقد العابد شيئاً من الربوبية في معبوده.

ويوضح هو نفسه ذلك فيقول : (وتوضيح ذلك : أن العبودية من شؤون المملوكية ومن مقتضياتها، فعندما يحس العابد في نفسه بنوع من المملوكية، ويحس بالطرف الآخر بالمالكية يفرغ إحساسه هذا - في الخارج - في ألفاظ وأعمال خاصة وتصير الألفاظ والأعمال تجسيداً لهذا الإحساس، ويكون كل عمل أو لفظ مُظهِر لهذا الإحساس العميق عبادة)[٣].

وأما تعريفه الثالث فيقول فيه : (إن العبادة هي الخضوع ممن يرى نفسه غير مستقل في وجوده وفعله أمام من يكون مستقلاً)[٤].

وعلى هذا التعريف فلا يكاد يوجد عبادة لغير الله واقعة في الأرض ؛ إذ كان المشركون لا يرون في معبوداتهم هذا الاستقلال، بل كانت تلبيتهم المشهورة عنهم : (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك

---

(١) المرجع السابق ص ٥٥.
(٢) المرجع السابق ص ٧٧.
(٣) المرجع السابق ص ٧٧-٧٨.
(٤) المرجع السابق ص ٨٠.

إلا شريك هو لك تملكه وما ملك)[١].

فالحاصل أن المبتدعة في تعريفاتهم يدورون حول تقييد معنى العبادة باعتقاد الربوبية والاستقلال في التدبير في المعبود، ومهما كان القول والفعل حين يكون خالياً من هذا الاعتقاد فلا يكون عبادة بحال.

وهذا الأمر قد برروا به ما وقع فيه كثير من الناس من الاستغاثة بالأموات ودعائهم والذبح لهم وغير ذلك من أنواع العبادة، باعتبار أن ما يصدر منهم في ذلك من قول أو فعل إنما هو ناشئ عن المحبة والتعظيم والتوقير والتوسل دون أن يخالطه شيء من اعتقاد الربوبية لأولئك المعظمين.

فليست تلك الأعمال - عندهم - من الشرك في شيء، لأنه ليس ثمة عبادة مصروفة لغير الله حين كان الاعتقاد هو تفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والتدبير.

بل منهم من صرح بأن تلك الاستغاثات والتوسلات هي خالص التوحيد ولبابه.

يقول يوسف النبهاني : (اعلم أن جميع المسلمين الزائرين والمستغيثين بعباد الله الصالحين ولا سيما الأنبياء والمرسلين خصوصاً سيدهم الأعظم ﷺ هم مع كمال تعظيمهم لأولئك السادات بالزيارات والاستغاثات يعلمون أنهم من جملة عبيد الله تعالى لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم من دون الله تعالى ضراً ولا نفعاً ولكنهم أحب عبيده تعالى

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج - باب التلبية وصفتها ووقتها - رقم ١١٨٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

إليه وأقربهم زلفى لديه، وهو سبحانه قد اتخذهم ولا سيما المرسلين منهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ شرائعه، وهم خلقه المحبون لدعوتهم المصدقون بنبوتهم وصفوتهم وسائط إليه في غفران زلاتهم وقضاء حاجاتهم . . .، فإذا علم ذلك يعلم يقيناً أن تعظيمهم وتوقيرهم والتوسل بهم إليه تعالى فضلاً عن كونه لا يخل بتوحيده سبحانه وتعالى هو من لباب التوحيد، وخالص دينه، وأحسن أنواع عباداته عز وجل)[١].

ويقول الدجوي : (فالمستغيث لا يعتقد أن المستغاث به من الخلق مستقل في أمر من الأمور غير مستمد من الله تعالى أو راجع إليه، وذلك شيء مفروغ منه، ولا فرق في ذلك بين الأحياء والأموات، فإن الله خالق كل شيء)[٢].

ويقول علوي الحداد - عن المستغيثين بالأموات - : (هؤلاء مهما عظموا الأنبياء والأولياء فإنهم لا يعتقدون فيهم ما يعتقدون في جناب الحق تبارك وتعالى من الخلق الحقيقي التام العام، وإنما يعتقدون الوجاهة لهم عند الله في أمر جزئي، وينسبونه لهم مجازاً، ويعتقدون أن الأصل والفعل لله سبحانه)[٣].

ويقول العاملي في «كشف الارتياب» : (إن الدعاء والاستغاثة بغير الله تعالى يكون على وجوه ثلاثة :

الأول : أن يهتف باسمه مجردا، مثل أن يقول : «يا محمد، يا

---

(١) شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ. ليوسف النبهاني ص ١٤٢-١٤٣.
(٢) تقريظ الدجوي لمقالات حسن خزبك المسماة «المقالات الوفية» ص ٢٢٣.
(٣) مصباح الأنام ص ٥.

علي، يا عبد القادر، يا أولياء الله، يا أهل البيت»، ونحو ذلك.

الثاني : أن يقول : «يا فلان كن شفيعي إلى الله في قضاء حاجتي، أو ادع الله أن يقضيها»، أو ما شابه ذلك.

الثالث : أن يقول : «يا فلان اقض ديني، أو اشف مريضي، أو انصرني على عدوي»، وغير ذلك.

وليس في شيء من هذه الوجوه الثلاثة مانع ولا محذور فضلا عما يوجب الإشراك والتكفير . . . للعلم بحال المسلم الموحد المعتقد أن من عدا الله تعالى لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا) [١].

وأيضاً فهذا الأمر الذي قرروه في معنى العبادة قد اضطرهم إلى القول بأن المشركين السابقين كانوا معتقدين الربوبية في آلهتهم، وبذلك كانوا مشركين وعابدين غير الله تعالى، رغم الآيات الصريحة المتعددة في بيان إقرار المشركين بتفرد الله تعالى في الخلق والتدبير.

ولكن لما كان اعتقاد الربوبية في المعبود قيداً لا تنفك عنه تعريفاتهم للعبادة، لم يسعفهم في حال المشركين إلا القول بأنهم واقعون في اعتقاد الربوبية فيما كانوا يعبدون.

يقول القباني في ذلك : (فهل سمعت عن أحد من المستغيثين أنه يعتقد في الرسول ﷺ، أو المولى المستغاث به أنه إله مع الله تعالى يضر وينفع، ويشفع بذاته كما يعتقد المشركون فيمن عبدوه) [٢].

---

(١) كشف الارتياب ص ٢٧٤.

(٢) فصل الخطاب في رد ضلالات ابن عبدالوهاب. ق٦١ - نقلاً عن دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لـ د.عبدالعزيز آل عبداللطيف ١٩٥.

ويقولِ الزهاوي : (أن المشركين إنما كفروا بسبب عبادتهم تماثيل الأنبياء والملائكة والأولياء التي صوروها على صورهم، وسجدوا لها وذبحوا، وبسبب اعتقادهم في الملائكة والأنبياء والأولياء أنهم آلهة مع الله يضرون وينفعون بذواتهم)[١].

ويقول محمد بن عبد المجيد : (إنما كفر أهل الجاهلية بعبادة الأصنام لتضمنها اعتقادهم ثبوت شيء من صفات الربوبية لها)[٢].

ويستدل الطباطبائي بقوله تعالى : ﴿...فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢] على أن المشركين حكم عليهم بذلك لأنهم جعلوا تلك الأصنام شريكة لله في الخلق والتدبير، فيقول : (ثم إنه سبحانه حكم بشركهم لاتخاذهم تلك الأصنام شريكاً لله في الخلق وتدبير العالم، وجوزوا عبادتها خلافاً لله تعالى .. - إلى أن قال : وأين هذا ممن لا يعتقد في الأنبياء والصلحاء الخلق والتدبير، ولا يعتقد عبادتهم)[٣].

فهذه النقول وأمثالها تدل على أن شرك المشركين السابقين لم يكن عند هؤلاء بمجرد دعاء غير الله تعالى من الأصنام والأوثان والاستغاثة بهم وطلب الشفاعة عندهم، ولكن مرجعه إلى ما وقر في صدورهم من اعتقاد التصرف والتدبير لتلك الأوثان واستحقاقها للعبادة الذي يعود في حقيقته إلى معنى الربوبية.

---

(١) الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق ص ٥١.

(٢) الرد على بعض المبتدعة من طائفة الوهابية ص ١١.

(٣) البراهين الجلية ص ٣٢-٣٣.

فالحاصل أن المبتدعة في تعريفهم للعبادة ضيقوا المعنى بأن قصروه على اعتقاد الربوبية في المعبود، والقول والفعل المصاحب لذلك الاعتقاد، أما صورة القول والفعل حين تخلو من ذلك الاعتقاد فلا يسمى ذلك عبادة مهما كان ذلة وخضوعاً.

وبذلك جعلوا ما يقوم به المستغيثون بأهل القبور بعيدا كل البعد عن الشرك، هذا إن لم يكن عندهم أيضاً من لباب التوحيد وخالص الدين كما سبق النقل عنهم في ذلك.

وبذلك أيضاً جعلوا الوصف القائم بالمشركين السابقين الذي جاءتهم رسلهم بأن يعبدوا الله وحده هو الشرك في الربوبية، وأنهم كانوا يعتقدون في آلهتهم الاستقلال في التأثير والتدبير، مما هو مخالفة صريحة للآيات الدالة على إقرار المشركين بتفرد الله تعالى بالملك والخلق والتدبير، وأن هذه الآلهة التي يعبدونها يبتغون أن تكون وسائط تقربهم إلى الله زلفى، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

معنى (لا إله إلا الله) عند المبتدعة:

كما سبق في بيان تعريف العبادة عندهم، وأنها لا تكون إلا باعتقاد الربوبية في المعبود، فإن هذا الأمر مطّرد هنا فيما يتعلق بمعنى كلمة الشهادة، إذا أن المعنى الذي يقررونه فيها هو الإقرار بتفرد الله سبحانه وتعالى بالخلق والتدبير.

وأصل ذلك راجع إلى تفسيرهم للإله بأنه بمعنى القادر على

الاختراع، فإذا أقر العبد بتفرد الله تعالى بالقدرة على الاختراع، وأن ليس ذلك إلا له وحده، فإنه يكون قد حقق معنى (لا إله إلا الله).

فمسألة التفرد بالخلق والتدبير قيد لا ينفك عنه كلامهم في تعريفهم للعبادة ومعنى الألوهية، فهذا أمر جامع يبنون عليه الكلام على العبادة والولهية والتوحيد والشرك.

وتعريف الإله بأنه القادر على الاختراع هو صريح أقوال أهل الكلام من السابقين واللاحقين، وذلك لما كان غاية ما يقررونه في باب التوحيد هو توحيد الربوبية.

فدار كلامهم في هذا الباب على هذا المعنى، وعليه جعلوا كلمة التوحيد التي أرسل الله عز وجل بها رسله، وأنزل بها كتبه راجعة إلى معنى توحيد الربوبية الذي كان غاية تقريراتهم، والذي لم تكن فيه المنازعة بين الرسل وأعدائهم.

وفي تعريف الإله بالقادر على الاختراع يقول البغدادي : (واختلف أصحابنا في معنى الإله : فمنهم من قال إنه مشتق من الإلهية، وهي قدرته على اختراع الأعيان، وهو اختيار أبي الحسن الأشعري)[١].

ويقرر الشهرستاني هذا المعنى باعتباره مقتضى دليل التمانع، القائم على استحالة وجود خالقين أو أكثر للعالم، فيقول : (ودلالة التمانع في القرآن مسرودة على من يثبت خالقاً من دون الله سبحانه وتعالى، قال تعالى : ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١])[٢].

(١) أصول الدين ص ١٢٣.
(٢) نهاية الأقدام ص ٩١.

ونسب بهذا إلى أبي الحسن الأشعري أن أخص وصف للإله هو القادر على الاختراع، فقال: (وعن هذا صار أبو الحسن رحمه الله إلى أن أخص وصف للإله هو القادر على الاختراع، فلا يشاركه فيه غيره، ومن أثبت فيه شركة فقد أثبت إلهين)[١].

وذكر فخر الدين الرازي أقوالاً في أصل اشتقاق لفظ الجلالة (الله)، وذكر منها القول بأن معنى الإلهية هو القدرة على الاختراع، فقال: (القول السابع: الإله: من له الإلهية، وهي القدرة على الاختراع، والدليل عليه أن فرعون لما قال: "وما رب العالمين"، قال موسى في الجواب: "رب السموات والأرض" فذكر في الجواب عن السؤال الطالب لماهية الإله: القدرة على الاختراع. ولولا أن حقيقة الإلهية هي القدرة على الاختراع لم يكن هذا الجواب مطابقاً لذلك السؤال)[٢].

فظاهر قوله تأييده وجه الاستدلال بهذه الآية على هذا المعنى، وسيأتي الجواب عن هذا الاستدلال في الكلام عن الشبه المتعلقة بهذه المسألة والجواب عنها إن شاء الله تعالى.

ويقول القاضي عبد الجبار - وهو من أئمة المعتزلة - في الاستدلال لدليل التمانع المثبت لانفراد الله عز وجل بالخلق والتدبير من السمع: (فأما دلالة السمع فأكثر من أن تذكر، نحو قوله جل وعلا: "لا إله إلا هو" وأشباهه)[٣].

---

(١) المرجع السابق ص ٩٢.

(٢) شرح أسماء الله الحسنى ص ١٢٤.

(٣) شرح الأصول الخمسة ص ٢٨٣-٢٨٤. وانظر ١٩٦.

ويقول القشيري - من الأشاعرة - في ذكر معنى الإله : (اختلف أقاويل أهل الحق في ذلك والكل متقارب يرجع إلى معنى واحد، فمنهم من قال : الإله من له الإلهية، والإلهية هي القدرة على الاختراع، ومنهم من قال : هو المستحق لأوصاف العلو والرفعة، ومنهم من قال هو من له الخلق والأمر)(١).

فالمعنى الواحد الذي قرر رجوع تلك الأقوال إليه هو توحيد الربوبية، وأن الله تعالى متفرد في الخلق والتدبير.

ولذلك فإنه قد اعترض على تعريف الإله بأنه المعبود، فقال : (ومن الناس من قال إن معنى [الله] أنه المعبود، ومنهم من عبر عنه فقال : هو المستحق للعبادة، ومن قال : الذي لا تجب العبادة إلا له .. إلى أن قال : وهذا أيضاً لا يصح)(٢).

وقد قرر السنوسي في متنه المشهور في العقيدة هذا المعنى، وجعل كلمة التوحيد بتحقيق اعتقاد تفرد الله سبحانه وتعالى في الربوبية.

فبعد أن قرر الكلام في التوحيد على معنى الربوبية، وجعل مدار المتن فيما يتعلق بالتوحيد على هذا المعنى، قال في آخر متنه : (ويجمع معاني هذه العقائد كلها [لا إله إلا الله، محمد رسول الله] ؛ إذ معنى الألوهية : استغناء الإله عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه)(٣).

---

(١) شرح أسماء الله الحسنى للقشيري ص ٦٥-٦٦.

(٢) المرجع السابق ص ٦٤.

(٣) السنوسية - ضمن المجموعة التوحيدية ص ٤٥-٤٦.

فالحاصل أن أهل الكلام لما أن كان غاية ما يقررونه في التوحيد هو توحيد الربوبية، فإن معنى كلمة الشهادة التي هي أساس التوحيد تدور - عندهم - حول هذا المعنى.

وهذا المعنى الذي قرروه لم يجاوزه من كانوا خصوماً ألدّاء لهذه الكلمة (لا إله إلا الله)، فالمشركون الذين عارضوا تلك الكلمة أشد المعارضة هم على الإقرار بأن الله تعالى هو وحده الخالق المدبّر، وأن ليس معه شريك في ذلك، ومع ذلك لم يجعلهم الله تعالى ولا رسوله ﷺ موحدين مقرين بهذه الكلمة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (والإله هو بمعنى المألوه المعبود، الذي يستحق العبادة، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق، فإذا فسّر المفسّر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية - وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه - لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين)[١].

ومن أقوال المتأخرين في تقرير معنى كلمة الشهادة (لا إله إلا الله) بأنها الإقرار بتفرد الله تعالى بالربوبية :

يقول أحمد زيني دحلان : (ومن المعلوم أن من أقر بالربوبية، فقد أقر بالألوهية إذ ليس الرب غير الإله بل هو الإله بعينه)[٢].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٢٦.

(٢) الدرر السنية ص ٤٠.

ويقول أبو حامد بن مرزوق : (إن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في الوجود وفي الاعتقاد، فمن اعترف بأنه لا رب إلا الله كان معترفاً بأنه لا يستحق العبادة غيره، ومن أقر بأنه لا يستحق العبادة غيره كان مذعناً بأنه لا رب سواه، وهذا الثاني هو معنى (لا إله إلا الله) في قلوب جميع المسلمين)(١).

وبما أن الأمر مرتبط بمسألة الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وطبيعة العلاقة بينهما، فسيأتي مزيد بيان لذلك - إن شاء الله تعالى - في المباحث المخصصة لذلك.

لكن جملة القول هنا أن تعريفهم للعبادة وتفسيرهم لكلمة (لا إله إلا الله) يرجعان إلى إفراد الله تعالى بالربوبية، وأنه وحده المتفرد بالخلق والتدبير، وأن الشرك لا يكون إلا في اعتقاد ذلك في غيره سبحانه، فترتب على قولهم في تفسير كلمة التوحيد ما ترتب على قولهم في تعريف العبادة، فمن أقر بمعنى (لا إله إلا الله) وهو - عندهم - إفراده سبحانه وتعالى بالخلق فقد حقق هذه الكلمة، وإن صدر منه ما صدر من استغاثة بغير الله تعالى ودعاء غيره.

وكذلك اضطرهم ذلك - كما اضطرهم في تعريف العبادة - إلى جعل المشركين السابقين مخالفين لهذه الكلمة (لا إله إلا الله) باعتبار الإشراك في الربوبية.

فالمشركون قد أنكروا هذه الكلمة، واستكبروا عنها، وعادوا وحاربوا أهلها، والدلائل في ذلك أكثر من أن تحصى هنا، فإذا كان

(١) التوسل بالنبي ﷺ ص ٢٢.

معناها (لا خالق إلا الله)، فلا سبيل إلا إلى القول بأنهم ما كانوا يقرون بتفرد الله تعالى بالخلق والتدبير، بل يجعلون معه شركاء في ذلك، خالقين ومدبرين !

ومن له أدنى تدبر في كتاب الله تعالى يدرك المخالفة الصريحة في هذه الدعوى لما هو مقرر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والواقع الذي كان عليه أولئك القوم.



المبحث الثالث

شبهات المبتدعة في تعريف العبادة ومعنى (لا إله إلا الله)

أولاً: في كون تعريفهم للعبادة ومعنى (لا إله إلا الله) يعد شبهة في نفسه:

إن ما ذكره المبتدعة في تعريف العبادة ومعنى الألوهية يعد في نفسه شبهة يعتمدون عليها في تقرير المخالفات القولية والعملية في توحيد العبادة، وذلك لما كان قيد ذلك التعريف اعتقاد الربوبية واستحقاق العبادة في المعبود، فصاروا بذلك ينفون ما يقع فيه كثير من الناس من الاستغاثة بالأموات ودعائهم والذبح والنذر لهم ونحو ذلك من أنواع العبادات، فصاروا ينفون أن يكون ذلك صرفاً لشيء من العبادة لغير الله تعالى، إن لم يكن ذلك عندهم من تعظيم شعائر الله تعالى التي أمر بها وجعلها من تقوى القلوب، معللين ذلك أن هذه الأقوال والأفعال لم تنبعث من قلوب تعتقد استقلال التأثير والتدبير فيمن توجهت إليه، بل كل ذلك تحت قدر الله تعالى وتدبيره، مما اضطرهم إلى نفي ذلك المعنى عن نفوس المشركين الأولين، معرضين عن الآيات الظاهرة في بيان إقرارهم بإفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير.

وكلما جاءهم من يبيّن لهم حقيقة تلك الأقوال والأفعال الشركية وأنها شرك بالله تعالى وسيرة موافقة لأهل الجاهلية الأولى واجهوه بتلك الدعوى التي يقررون بها كثيراً من الأعمال الشركية، متهمين من خالفهم بالجهل بحقائق الألفاظ ومدلولاتها، وأنه يصدر في أحكامه

عن غير تصور صحيح.

فصارت هذه الشبهة أساساً يبنون عليه كثيراً من المخالفات الواقعة في توحيد العبادة، إذ سَلِمُوا بها - ظنّاً وزعماً - أن ينالهم وصفٌ بشركٍ أو نقصٌ في دين !

وصارت كل شبهة بعد هذا هي للاستزادة في تقرير باطلهم ودعماً لتقرير هذه الشبهة.

يقول صاحب كتاب «فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان» حول هذا المعنى : (فلننتقل إلى معنى العبادة شرعاً، وأرجو أن تعطي هذا المقام فضل تنبه فإن الغلط فيه هو المزلقة الكبرى والمزلة العظمى، التي استحلت بها دماء لا تحصى، وأنهكت بها أعراض لا تعد . . . - إلى أن قال : فاعلم أنهم فسروا العبادة بالإتيان بأقصى غاية الخضوع، وأرادوا بذلك المعنى اللغوي، أما معناها الشرعي فهو أخص من هذا كما يظهر للمحقق الصبار على البحث من استقراء مواردها في الشرع فإنه الإتيان بأقصى غاية الخضوع قلباً باعتقاد ربوبية المخضوع له، أو قالباً مع ذلك الاعتقاد، فإن انتفى ذلك الاعتقاد لم يكن ما أتى به من الخضوع الظاهري من العبادة شرعاً في كثير ولا قليل مهما كان المأتي به ولو سجوداً)[١].

ويقول صاحب كتاب «الوهابية في الميزان» : (يجب أن تعلم بأن إزالة الخلافات الموجودة بين المسلمين والوهابيين في كثير من المسائل، تتوقف على تحليل مفهوم العبادة، ومع عدم الوقوف على

(١) فرقان القرآن. لسلامة القضاعي العزامي ص ١١١.

تعريف منطقي للعبادة وعدم التفاهم والإنصاف بين الطرفين لا فائدة من البحث والمناقشة)[١].

يريد بذلك أن الأخذ بمفهوم العبادة بقيد اعتقاد الربوبية في المعبود - وهو ما قرره قبل كلامه هذا - هو الأساس في ردّ مخالفة من يخالفهم فيما يقررونه من أعمال أو أقوال شركية ؛ إذ لا يجد من يخالفهم حُجة عليهم إن سلّم لهم هذا المعنى الذي قرروه.

وهذا الذي ذكروه في معنى العبادة والألوهية يحمل مخالفات شرعية ولغوية وواقعية واضحة جليه.

وسأعرض هنا إلى أهم المآخذ الدالة على بطلان ما ذهبوا إليه :

المأخذ الأول :

أن هذا مخالف لما جاء في نصوص كثيرة من أن المشركين السابقين كانوا مقرين بوحدانية الله تعالى في الخلق وأن له ملك السماوات والأرض وأنه مدبر الأمر وحده، وأن الأصنام التي كانوا يعبدونها لم تكن عندهم سوى شفعاء يشفعون لهم عند الله، ولم يكن لها من الملك والتدبير شيء.

وقد تنوعت الدلالات في كتاب الله في تقرير هذا المعنى، ومن ذلك :

الإخبار عن جواب المشركين الصريح حين يسألون عن خالق السماوات والأرض ومدبر الأمر ومالك السمع والأبصار بأنه الله تعالى

(١) الوهابية في الميزان. لجعفر السبحاني ص ١٦٩.

وحده، مما يدل دلالة واضحة على أن اعتقادهم قائم على إفراد الله تعالى بهذه المعاني، ومع ذلك سمى الله تعالى ما يصرفونه للأصنام والأوثان عبادة منهم لها.

ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦١-٦٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي دالة على إقرار المشركين بتفرد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير، ومع ذلك لم يمنعهم ذلك أن يُسموا بالمشركين لما عبدوا مع الله تعالى غيره.

الإخبار بتصريح المشركين أن عبادتهم لما اتخذوه من دون الله أولياء إنما هو لطلب القربى والزلفى عند الله تعالى وأنهم شفعاء لهم

عند الله تعالى وأنهم وسائط لهم في قضاء حوائجهم، مما يدل على أن عبادتهم لها لم يصاحبها اعتقاد الاستقلال بالتأثير والتدبير في تلك المعبودات.

ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَر: ٣].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله في معنى هذه الآية: (يقول تعالى ذكره: والذين اتخذوا من دون الله أولياء يتولونهم ويعبدونهم من دون الله يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهة إلا لتقربونا إلى الله زلفى، قربة ومنزلة، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا)[1].

ومن أدلة ذلك أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يُونس: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٨].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله: (يقول جل ثناؤه: فلولا نصر هؤلاء الذي أهلكناهم من الأمم الخالية قبلهم أوثانهم وآلهتهم التي اتخذوا عبادتها قرباناً يتقربون بها فيما زعموا إلى ربهم منا إذ جاءهم بأسنا، فتنقذهم من عذابنا إن كانت تشفع لهم عند ربهم كما يزعمون، وهذا احتجاج من الله لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومه، يقول لهم: لو كانت آلهتكم التي تعبدون من دون الله تغني عنكم شيئاً، أو تنفعكم عند

---

(١) جامع البيان «تفسير الطبري» جلد ١٢/ ٢٣/ ١٩١.

الله كما تزعمون أنكم إنما تعبدونها لتقربكم إلى الله زلفى لأغنت عمن كانت قبلكم من الأمم التي أهلكتها بعبادتهم إياها، فدفعت عنها العذاب إذا نزل، أو لشفعت لهم عند ربهم، فقد كانوا من عبادتها على مثل الذي عليه أنتم، ولكنها ضرتهم ولم تنفعهم)[١].

فهذه الحال في عبادة الأوثان وغيرها هي في مشركي العرب ومشركي الأمم قبلهم، أنهم لم يعبدوها معتقدين استقلالها في خلق وملك، وإنما هو التقرب الله زلفى إذ هو رب الجميع في اعتقادهم، ولذلك كانت تلبيتهم حين يلبون: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك".

ومن أشعارهم الدالة على هذا المعنى قول أوس بن حجر:

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر[٢]

الإخبار عن لجوء المشركين في الدعاء حال الضراء إلى الله تعالى وحده ونبذهم كل ما كانوا يعبدون من دونه، مما يدل على ما تقرر في قلوبهم من تفرد الله تعالى وحده بالنفع والضر وأن تلك الآلهة التي كانوا يعبدون ما كانت إلا وسائط جعلوها وسيلة لحصول مطلوبهم عند ربهم.

والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ

(١) المرجع السابق جلد ١٣/٢٦/٢٩.
(٢) المفضليات ص ٩٧.

لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢].

ويدل لذلك أيضاً ما رواه عمران بن حصين رضي الله عنه قال، قال النبي ﷺ لأبي: **يا حصين كم تعبد اليوم إلهاً**؟ قال أبي: سبعة، ستاً في الأرض وواحداً في السماء، قال: **فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك**؟ قال الذي في السماء ..[1].

وهذا التفريق الذي ذكره هو لاعتقاده أن الخلق والتدبير وتصريف الأمور بيد الذي في السماء وحده، ولو كان معتقداً ذلك في الآلهة التي يعبدها في الأرض لما كان للتفريق معنى.

إخباره سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم كانوا يحتجون لشركهم بمشيئة الله تعالى، وأنه ما وقع منهم ذلك إلا لأن الله شاءه وأراده، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [النحل: ٣٥].

وهذا يدل على اعتقادهم أن تصريف الكون وتدبيره إنما هو بيد الله

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات - باب ما جاء في جامع الدعوات عن النبي ﷺ، وقال: حسن غريب.

تعالى فالكائن ما يريده ويشاؤه لا ما يشاؤه ويريده غيره من الخلق والأصنام والأوثان وغيرها من المعبودات، على أنه ليس لهم حجة في ذلك على شركهم وعبادتهم غيره، إذ قد أبان لهم الطريق وأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين.

إثبات نوع إيمان للمشركين مع شركهم، وهذا راجع إلى إيمانهم بتفرد الله تعالى بالخلق والتدبير، وأنهم أشركوا بعبادة غيره معه.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]، وهذا الإيمان هو اعترافهم بأن الله تعالى هو خالقهم ورازقهم ومدبر شؤونهم، والشرك الذي وقعوا فيه هو عبادتهم غيره.

وهذا المعنى هو ما نقل عن أئمة التفسير: ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومجاهد وقتادة وعطاء رحمهم الله تعالى، كما نقله عنهم ابن جرير رحمه الله[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية: من إيمانهم إذا قيل لهم من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون[2].

وهذا الإيمان المنسوب لهم هو الإيمان اللغوي بمعنى التصديق والإقرار بذلك المعنى، وليس هو الإيمان الشرعي الذي به تكون النجاة من الكفر وعواقبه.

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري جلد ٨/ ١٣/ ٧٧.

(٢) المرجع السابق، والصفحة نفسها.

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله : (والذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أن هذا الإيمان المقيد بحال الشرك إنما هو إيمان لغوي لا شرعي، لأن من يعبد مع الله غيره لا يصدق عليه اسم الإيمان ألبتة شرعاً، أما الإيمان اللغوي فهو يشمل كل تصديق، فتصديق الكافر بأن الله هو الخالق الرازق يصدق عليه اسم الإيمان لغة مع كفره بالله، ولا يصدق عليه اسم الإيمان شرعاً)(١).

المأخذ الثاني :

أن ما ذكروه مخالف لدلالة اللغة، حيث جعلوا معنى (الرب) هو معنى (الإله)، مع أنهما معنيان متغايران في اللغة.

(فالإله) قد تقدم كلام أهل التفسير واللغة في معناه وأنه المعبود، وقد أطلق على ما كان يعبده المشركون آلهة باعتبار أنها عُبدت مع الله تعالى لا أنها مستحقة لذلك أو أنها خالقة ومدبرة.

وتقدم كلام حبر الأمة وترجمان القرآن في تفسير قوله تعالى : "ويذرك وإلهتك" - على قراءته - أن معناها : ويذرك وعبادتك.

أما (الرب) فبمعنى مالك الشيء وصاحبه، ولا تطلق هكذا بالتعريف دون الإضافة إلا على الله عز وجل، لأنه خالق كل شيء ومالكه، أما ملكية غيره لشيء من المخلوقات فربوبيته نسبية بذلك التملك.

قال ابن منظور : (الرب : هو الله عز وجل، هو رب كل شيء أي

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٧٥.

مالكه، وله الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له وهو رب الأرباب، ومالك الملوك والأملاك، ولا يقال: الرب، في غير الله تعالى إلا بالإضافة)[١].

وقال ابن الأنباري: «(الرب» ينقسم على ثلاثة أقسام: يكون الرب: المالك، ويكون الرب: السيد المطاع، قال الله تعالى: ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يُوسُف: ٤١] أي سيده، ويكون الرب: المصلح، ربَّ الشيء إذا أصلحه)[٢].

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: (أما تأويل قوله «رب»، فإن الرب في كلام العرب متصرف على معان، فالسيد المطاع فيها يدعى رباً ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة:

وأهلكن يوماً ربّ كندة وابنه ... وربّ معدّ بين خبت وعرعر

يعنى رب كندة: سيد كندة.

ومنه قول نابغة بني ذبيان:

تخب إلى الغمان حتى تناله ... فدىً لك من رب طريفي وتالدي

والرجل المصلح للشيء يدعى رباً.

ومنه قول الفرزدق بن غالب:

كانوا كسائلة حمقاء إذ حقنت ... سلاءها في أديم غير مربوب

يعني بذلك في أديم غير مصلح ...

---

(١) لسان لعرب ١/ ٣٩٩.

(٢) لسان العرب ١/ ٤٠٠-٤٠١.

- إلى أن قال - : والمالك للشيء يدعى ربه، وقد يتصرف أيضاً معنى الرب في وجوه غير ذلك غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة.

فربنا جل ثناؤه، السيد الذي لا شبيه له، ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر)[1].

ثم ذكر هذا المعنى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فالحاصل في معنى (الرب) كما ذكره الإمام ابن جرير رحمه الله راجع إلى ثلاثة معان:

المعنى الأول: السيد المطاع.

المعنى الثاني: المصلح للشيء يدعى ربه.

المعنى الثالث: المالك للشيء يدعى ربه.

وهذه المعاني ثابتة لله تعالى بتمامها وكمالها لا شريك له في ذلك سبحانه.

إذاً، فالمعنى الذي ذكره المبتدعة للألوهية وقيدوه بمعنى اعتقاد الربوبية في المعبود مخالف لما دلت عليه اللغة من المغايرة بين كلمة (الإله) وكلمة (الرب)، على أنه يصح التعبير بأحدهما عن الآخر، حيث إن الإله لا يكون كذلك إلا باتصافه بالربوبية، والرب المالك لكل شيء هو وحده المستحق للعبادة.

---

(١) جامع البيان للطبري ١/ ٦٢.

وهذا التلازم لا يصدق إلا في حق الله تعالى إذ هو الحق في ربوبيته وألوهيته، ولذلك فإن مصداق الرب عين مصداق الإله في نفس الأمر، وهو أن الله تعالى هو وحده المستحق للعبادة فله الألوهية والعبودية على خلقه، وهو سبحانه الرب المتفرد بالخلق والملك والتدبير.

فلما كان هذان المعنيان راجعين إليه وحده صح إرادة أحدهما بالآخر بهذا الاعتبار، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣].

وكذلك ما جاء في حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه لما قال للنبي ﷺ: يا نبي الله، حدثني بأمر أعصتم به، قال: **(قل ربي الله ثم استقم)**[١].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله - في الردّ على من فسّر الإله بأنه القادر على الاختراع -: (فإن قيل قد تبين معنى الإله والإلهية فما الجواب عن قول من قال بأن معنى الإله القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة؟ قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا قول مبتدع، لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلاً.

---

(١) رواه الترمذي في الزهد - باب ما جاء في حفظ اللسان - رقم ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن - باب كف اللسان في الفتنة - رقم ٣٩٧٢، وأحمد في المسند ٣/ ٤١٣، وهو عند مسلم في كتاب الإيمان - باب جامع أوصاف الإسلام - رقم ٣٨ بلفظ: (قل آمنت بالله ثم استقم).

الثاني : على تقدير تسليمه، فهو تفسر باللازم للإله الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقاً قادراً على الاختراع، ومن لم يكن كذلك، فليس بإله وإن سمي إلهاً، وليس مراده أن من عرف أن الإله هو القادر على الاختراع فقد دخل في الإسلام وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام)(١).

المأخذ الثالث :

أن ما ذكروه في ذلك وقيدوه باعتقاد الربوبية في المعبود يقتضي أن يكون قوم موسى لما اتخذوا العجل وقالوا هذا إلهكم وإله موسى، أنهم يعتقدون أن هذا العجل خالق رازق مستقل بالتدبير، وكذلك لما طلبوا إلهاً كما قص الله تعالى عنهم بقوله : ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، أنهم يريدون من يعتقدون فيه الخلق والتدبير غير الله تعالى، هذا لازم لقيدهم الذي ذكروه، وهو باطل، وقد حاجهم الله تعالى بما يعلمونه يقيناً من حال العجل فقال تعالى : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩].

المأخذ الرابع :

أن ذلك يقتضي أن لا يكون هناك أقوال ولا أعمال شركية بذاتها، ولا يحكم على أحد بشرك إن اقترفه ما لم يظهر ما في باطنه وأنه معتقد استقلال الخلق والتدبير فيمن يصرف إليه أقواله وأعماله التي هي من

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٨١.

أعمال المشركين وأقوالهم. فدعاء غير الله تعالى والسجود والركوع له والذبح والنذر له - على هذا - ليس من الشرك في شيء إلا إذا عُرف ما يقوم في باطن صاحب هذه الأعمال، فإن كان فاعلها معتقداً ربوبية من دعاه أو سجد له أو صرف له شيئاً من تلك العبادات كان ذلك في حقه شركاً بربه، وإن خلا من ذلك فليس له من اسم الشرك وحكمه نصيب.

المأخذ الخامس:

أن اعتقاد الربوبية في غير الله تعالى هو شرك في نفسه، سواء صاحبه قول أو عمل أم لا، فمن لم يقرّ لله تعالى بوحدانيته في ربوبيته فهو مشرك ضال، حتى لو لم يصرف شيئاً من العبادات لغير الله تعالى.

وعليه فحمل النصوص الدالة على حصول الشرك ببعض الأقوال والأفعال على ذلك الاعتقاد فيه تعطيل لما تعلق بتلك الأقوال والأفعال من حكم، وصار ذكرها وعدمه سواء، إذا لا أثر لها في الحكم فهو مقتصر على اعتقاد الربوبية فيمن صرفت له.

يقول صاحب كتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية» في رده على العاملي الرافضي في اشتراطه اعتقاده استحقاق العبادة واستقلال التدبير والخلق فيمن صرفت العبادة له حتى يصدق عليه أنه عابد له: (.. وذلك أن الذي يعتقد هذه الأمور التي ساقها هنا لصنم أو وثن ثم يذبح ويسجد وينحر ويعظم لذلك الوثن أو الصنم، ويكون ذلك المعتقد الذابح الناذر الساجد كافراً عند هذا الشيعي، فكفره إما أن يكون لأجل اعتقاده أن لهذا الوثن تدبيراً واختياراً واستحقاقاً ورفعة ذاتية، وإما

لأجل سجوده له وذبحه ونذره وتعظيمه وذكر اسمه على الذبيح، وإما أن يكون لأجل الأمرين معاً.

فإن كان كفره عند هذا الشيعي لأجل هذا الاعتقاد لم تكن هناك فائدة في اشتراطه الكفر بهذه الأعمال من السجود والنذر والنحر، بل يكون حينئذ هذا الاشتراط لاغياً باطلاً مفسداً للمعنى الذي عناه، وكان الواجب الصحيح أن يقول حينئذٍ أن من اعتقد التدبير والاختيار للأوثان واعتقد استحقاقها ذلك استقلالاً كفر على جميع الفروض سواء أعمل لها شيئاً أم لم يعمل شيئاً، وسواء أسجد لها أم لم يسجد، ولا ريب أن من اعتقد هذه العقيدة في وثن من الأوثان فقد كفر بلا قيد ولا شرط.

وأما إن كان كفره عنده لأجل عمله هذه الأعمال من السجود والنذر والذبح والتعظيم للأوثان، لم تكن هناك فائدة في تغيير ذلك بالاعتقاد المذكور، بل لم يكن من الصحيح الحق تقييده به ولا بغيره، وكان الصحيح الواجب أن يقول: ومن سجد للأوثان وعظمها ونذر لها وذبح وذكر أسماءها على الذبيح كفر سواء اعتقد غير ذلك فيها أم لم يعتقد)[١].

المأخذ السادس:

أن ما ذكروه في تعريف العبادة ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله، أقروا به ما وقع فيه كثير من الناس من دعاء الأموات والاستغاثة بهم،

---

(١) الصراع بين الإسلام والوثنية لـ عبدالله القصيمي ١/ ٢٥٣-٢٥٤.

وصرف أنواع العبادة لهم بحُجة أنهم لم يفعلوا ذلك إلا توسلاً وتشفعاً عند الله تعالى دون أن يكون في بواطنهم اعتقاد التدبير والتصرف في الكون في هؤلاء الأموات وغيرهم.

ومع هذا وما تقدم من بيان بطلان هذا القيد الذي جعلوه في تعريفهم للعبادة، لم يسلم لهم الأمرُ على ما يريدون، فقد نطقت أحوال وأقوال كثير ممن يدعون الأموات ويستغيثون بهم بما يكنونه في صدورهم من تقرير أن هؤلاء الأموات لهم تصرّفٌ في الكون وتدبير لأموره، بل لهم القدرة على الإحياء والإماتة والإفقار والإغناء ونحو ذلك من الأمور التي هي من أفعال الله تعالى وحده ومن معاني ربوبيته عز وجل، حتى صار منهم من يعتقد أن من الأولياء من يعطى كلمة التصريف «كن فيكون»[١]

وهذا نطق به من هم يعدون أهل نظر وعلم فيهم، كيف بعوامهم الذين هم في عماية جهلم غارقون؛ ولذلك تراهم كلما ازدادت بهم شدة وضاقت عليهم حال زاد توجههم إلى أولئك الأولياء، وما ذاك إلا بدافع ما يعتقدونه فيهم من جلب النفع ودفع الضر وكشف الكرب، بخلاف ما كان عليه أهل الجاهلية الأولى إذ كانوا يعتقدون في آلهتهم مجرد الواسطة والشفاعة دون التصرف في الكون وأن ذلك بيد الله تعالى وحده، فلذلك إذا أصابهم الضر لجئوا إلى من يعتقدون بيده تصريف الأمور وتدبيرها وحده وهو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر: الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان. لمحمد النور ضيف الله. ص ٢٧٣. حيث ذكر ذلك في ترجمة عوّوضة بن عمر شكال القارح.

ومن تأمل كتب المبتدعة من الصوفية وأمثالهم يجد صراحة هذا الأمر تنطق به ألسنتهم وتحكيه أحوالهم، حتى جعلوا للأولياء مراتب يقتسمون فيها التأثير والتصرف في هذا الكون كل بحسب مرتبته(١).

إذاً : فالحاصل أن المبتدعة في تعريفهم للعبادة ومعنى (لا إله إلا الله) قد خالفوا النصوص الشرعية والدلائل اللغوية، فصارت هذه الشبهة التي يتمسكون بها خلواً من أي حجة يحتجون بها أو سند يعتمدون عليه، وما عاد بأيديهم سوى الهوى الذي هو سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ثانياً : الشبهات التي يتمسكون بها في تعريفهم العبادة ومعنى (لا إله إلا الله) :

الشبهة الأول :

الاستدلال بقوله تعالى - في محاورة فرعون وموسى ﷺ - : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٣-٢٤].

قالوا : فذكر في الجواب عن السؤال الطالب لماهية الإله : القدرة على الاختراع، ولولا أن حقيقة الإلهية هي القدرة على الاختراع لم يكن هذا الجواب مطابقاً للسؤال(٢).

---

(١) انظر: الصراع بين الإسلام والوثنية لعبدالله القصيمي ٢/٢١٢ - ٢٧٤، مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية لـ إدريس محمود إدريس ٢/٦٢٩-٦٥٨.

(٢) انظر: شرح الأسماء الحسنى للرازي ص ١٢٤.

الجواب من وجهين :

الوجه الأول :

أن السؤال لم يكن عن الماهية، وإنما هو سؤال من أظهر الجحد والنكران أن يكون ربّ غيره وادعى أنه هو الرب الأعلى، فسؤاله سؤال إنكار للرب الذي يدعو موسى ﷺ إلى عبادته وتوحيده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وقد ظن بعض الناس أن سؤال فرعون (وما رب العالمين) هو سؤال عن ماهية الرب، كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول : ما الإنسان؟ ما الملك؟ ما الجني؟ ونحو ذلك. قالوا : ولما لم يكن للمسؤول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يعرف به وهو قول (رب السماوات والأرض)، وهذا قول قاله بعض المتأخرين وهو باطل.

فإن فرعون إنما استفهم استفهام إنكار وجحد، لم يسأل عن ماهية ربٍّ أقرّ بوجوده، بل كان منكراً له جاحداً، ولهذا قال في تمام الكلام : ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٧] فاستفهامه كان إنكاراً وجحداً. يقول : ليس للعالمين رب يرسلك، فمن هو هذا؟ إنكاراً له)[1].

إذاً، فالمقدمة التي ذكروها في كون السؤال كان عن الماهية غير صحيحة.

(١) بيان تلبيس الجهمية ١/ ٥٢٤.

الوجه الثاني:

أنه لا تلازم بين مقدمتهم ونتيجتها، فجواب موسى ﷺ ليس فيه ما يفيد تفسير الإله بالقادر على الاختراع، ونفي أن تكون بمعنى المعبود؛ إذ يصح أن يقرر استحقاقه سبحانه وتعالى للعبادة وحده بذكر صفاته وأفعاله الدالة على تفرده بالخلق والملك والتدبير، وهذا في القرآن كثير كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣]، وغيرها من الآيات كثير.

الشبهة الثانية:

الاستدلال بآية أخذ الميثاق على بني آدم حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فقالوا: إن الله تعالى قال هنا: "ألست بربكم" ولم يقل: ألست بإلهكم، فاكتفى منهم بالإقرار بالربوبية، وهذا يدل على اتحاد مفهومي الربوبية والألوهية، وأن المطلوب من الإقرار بـ (لا إله إلا الله) هو ما ذكر في هذا الميثاق وهو الإقرار بأنه الرب وحده، فيكون معنى (لا إله إلا الله) أي لا خالق ولا رب سواه[١].

---

(١) انظر: الدرر السنية لدحلان ص ٤٠، مصباح الأنام للحداد ص ١٧، البراهين الساطعة للقضاعي ص ٣٧٩.

الجواب على هذه الشبهة من وجوه :

الوجه الأول :

أن ذكر الربوبية في الآية لا يدل على نفي الألوهية، ولا اتحادها مفهوماً مع الربوبية، بل ذكر الألوهية حاصل هنا بدلالة اللزوم، فالإشهاد على الربوبية والإقرار بها له لازم يجب أن لا ينفك عنه وهو حصر استحقاق العبادة بالرب الخالق المالك وحده سبحانه دون ما سواه، وألفاظ القرآن معان كاملة تامة لا تنقطع لوازمها عن ملزوماتها الدالة عليها.

ولذلك فالآية لا تفيد حصر التوحيد بالربوبية، بل هي دالة على لازمه وهو إفراده سبحانه بالألوهية.

قال الشيخ محمد بشير السهسواني : (إن الإقرار بتوحد الربوبية مع لحاظ قضية بدهية، وهي : أن غير الرب لا يستحق العبادة يقتضي الإقرار بتوحيد الألوهية عند من له عقل سليم وفهم مستقيم، فيكون الإقرار المذكور حجة عليهم، كما احتج الله تعالى على المشركين بتوحيد الرازق ومالك السمع والأبصار .. على وحدانية الألوهية)[١].

والاستدلال بالملزوم على اللازم قد جاء في القرآن كثيراً في تقرير التوحيد ففي آيات كثيرة يُلزم المشركون بالإقرار بتوحيد الله تعالى في عبادته لإقرارهم بأنه الرب الخالق وحده كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١].

(١) صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ص ٤٣.

الوجه الثاني:

أن لفظ (الرب) و (الإله) يجتمعان في دلالة أحدهما على الآخر في نفس الأمر، فالرب هو المستحق للألوهية، والإله الحق لا بد وأن يكون خالقاً رازقاً، وهذا الأمر لا يكون إلا في حق الله سبحانه وتعالى، فقوله في الآية: "ألست بربكم" دال على معنى الألوهية؛ إذ إفراده بالربوبية مستلزم لإفراده بالعبادة.

أما ما عبد من دون الله تعالى فيسمى إلهاً باعتبار حصول تلك العبادة له لا باعتبار استحقاقه لها أو حصول موجبها وهو الربوبية.

الوجه الثالث:

أن يكون في الآية اختصار، ويكون المعنى: ألست بربكم وإلهكم.

قال الشيخ محمد السهسواني: (الاحتمال الثاني: أن في الآية اختصاراً والمقصود: الست بربكم وإلهكم؟، يدل عليه أثر ابن عباس رضي الله عنهما: "إن الله لما مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق"[1].

وفي أثر أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، قال: "فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة، فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم على

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ٦/ ٩/ ١١٢ من غير لفظ «وتكفل لهم بالأرزاق».

أنفسهم «ألست بربكم؟ قالوا بلى» الآية، قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري فلا تشركوا بي شيئاً، فإني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي وأنزل عليكم كتبي. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك. فأقروا له يومئذٍ بالطاعة"[(١)][(٢)].

الشبهة الثالثة:

إثبات وصف الإقرار بالألوهية لمن أقر بالربوبية بحجة أن الرب هوالإله بعينه، مستدلين بسؤال الملكين لمن في القبر: من ربك؟[(٣)]

وفي تقرير هذه الشبهة يقول أحمد دحلان: (ومن المعلوم أن من أقر لله تعالى بالربوبية فقد اقر له بالألوهية إذ ليس الرب غير الإله، بل هو الإله بعينه، وفي الحديث: إن الملكين يسألان العبد في قبره، فيقولان له: من ربك؟ ولم يقولا له: من إلهك؟ فدل على أن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية)[(٤)].

---

(١) أخرجه عبدالله بن الإمام أحمد في زوائد المسند ٥/ ١٣٥، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٥: رجاله رجال الصحيح إلا محمد بن يعقوب فهو مستور. وأخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ٩/ ١١٥، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٥٣ وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) صيانة الإنسان ص ٤٤٦

(٣) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه - رقم ٢٨٧١ عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) الدرر السنية ص ٤٠.

الجواب:

ما سبق في الوجه الأول والثاني من الجواب على الشبهة السابقة يصلح أن يكون جواباً هنا.

ويقال أيضاً في ردّ هذه الشبهة:

أولاً: أن قوله: (ومن المعلوم أن من أقر لله تعالى بالربوبية فقد أقر له بالألوهية) مخالف للنصوص الكثيرة الصريحة بأن المشركين كان مقرين لله تعالى بالربوبية، وأنهم يعبدون هذه الآلهة لتقربهم إلى الله تعالى زلفى، وقد سبق ذكر طرف من ذلك.

ثانياً: أن قوله (ليس الرب غير الإله بل هو الإله بعينه) كلام مجمل يحتاج إلى بيان.

فإن أراد بذلك أن مصداق الرب هو عين مصداق الإله في نفس الأمر، وفي اعتقاد المسلمين المخلصين، فهذا صحيح لا مرية فيه، إلا أن الكلام هنا ليس في هذا، ولكن في اتحاد معنى الرب والإله، وأن معنى الألوهية هل هو بمعنى الربوبية أم لا؟ وقد سبق تغاير اللفظين معنىً في اللغة.

مثل هذا أن تقول إن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، فهذا حق لا شك فيه إلا أنه لا يقتضي أن تكون هذه الأسماء بمعنى واحد.

كذلك إن أراد أن الإله هو الرب في اعتقاد المشركين فهو باطل، لأنهم كانوا يتخذون مع الله آلهة دون أن ينسبوا لها شيئاً من الربوبية.

يقول الشيخ محمد بشير السهسواني: (وكون مصداق الرب عين مصداق الإله في نفس الأمر وعند المسلمين المخلصين لا يقتضي اتحاد

مفهوم توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ولا اتحاد مصداق الرب والإله عند المشركين من الأمم الماضية وهذه الأمة . . . .

أما الرب فلأن معناه المالك والسيد والمتصرف للإصلاح، والمصلح والمدبر والمربي والجابر والقائم والمعبود . . . .

وأما الإله فلأن معناه المعبود بحق أو باطل . . . .

فتوحيد الربوبية : اعتقاد أن الرب واحد سواء كان ذلك الرب عين الإله أو غيره، وتوحيد الألوهية اعتقاد أن الإله واحد سواء كان ذلك الإله عين الرب أو غيره.

وإذا تقرر هذا فنقول : يمكن أن يوجد في مادة توحيد الربوبية ولا يوجد توحيد الألوهية، كمن يعتقد أن الرب واحد ولا يعتقد أن الإله واحد، بل يعبد آلهة كثيرة، ويمكن أن يوجد في مادة توحيد الألوهية ولا يوجد توحيد الربوبية، كمن يعتقد أن المستحق للعبادة واحد، ولا يعتقد وحدانية الرب، بل يقول إن الأرباب كثيرة متفرقة، ويمكن أن يجتمعا في مادة واحدة كمن يعتقد أن الرب والإله واحد، فثبت أن مفهوم توحيد الربوبية مغاير لمفهوم توحيد الألوهية.

نعم، توحيد الربوبية من حيث إن الرب مصداقه إنما هو الله تعالى لا غير يستلزم توحيد الألوهية من حيث إن الإله مصداقه إنما هو الله تعالى لا غير، لكن هاتين الحيثيتين زائدتان على نفس مفهومي التوحيدين، ثابتتان بالبرهان العقلي والنقل)[1].

---

(١) صيانة الإنسان ص ٤٠-٤١ بتصرف.

ثالثاً : أما استدلاله بسؤال الملكين للرجل في قبره : من ربك ؟ ولا يقولان له : من إلهك. فهو لا يدل على اتحاد الربوبية والألوهية في المعنى، ولكن لما كان أحدهما هو عين مصداق الآخر في نفس الأمر كان ذكر أحدهما دالاً على معنى الآخر بهذا الاعتبار، كما سبق بيانه في النقطة السابقة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (المقصود هنا بيان حال العبد المحض لله الذي يعبده ويستعينه فيعمل له ويستعينه، ويحقق قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية، وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية، فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد، لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران، كما في قوله : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١-٣]، وفي قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، فجمع بين الاسمين اسم (الإله) واسم (الرب) فإن الإله هو المعبود الذي يستحق أن يعبد، والرب هو الذي يربي عبده فيدبره)[1].

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : (اعلم أن الربوبية والألوهية يجتمعان ويفترقان كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١-٣]، وكما يقال : (رب العالمين وإله المرسلين)، وعند الإفراد يجتمعان كما في قول القائل : من ربك.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٨٣-٢٨٤.

مثاله : الفقير والمسكين نوعان في قوله : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، ونوع واحد في قوله ﷺ : "**افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم**"[١].

إذا ثبت هذا فقول الملكين للرجل في القبر : من ربك؟ معناه : من إلهك؟ لأن الربوبية التي أقر بها المشركون ما يمتحن أحد بها، وكذلك قوله : ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]. فالربوبية في هذا هي الألوهية، ليست قسيمة لها، كما تكون قسيمة لها عند الاقتران)[٢].

الشبهة الرابعة:

تقريرهم أن مشركي العرب والأمم السابقة لهم كانوا مشركين مع الله تعالى غيره في الخلق والملك والتدبير، ولم يكونوا يقرون له تعالى بوحدانيته في الربوبية.

الجواب:

أن دافع هذا التقرير منهم أن يخرجوا به من لازم أن العبادة يكون الشرك فيها - وكذلك (لا إله إلا الله) تكون المخالفة فيها - من غير اعتقاد الربوبية في غير الله تعالى.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٧٥، الحاشية (١).

(٢) مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب ١٧/٥.

فتعريفهم للعبادة أنها اعتقاد الربوبية في المعبود، وكذلك قولهم في معنى (لا إله إلا الله) بأنه إفراد الله تعالى بالخلق والاستقلال بالفعل، لا يسلم لهم إلا بهذا الذي قرروه في شرك المشركين.

وسيأتي في الفصل الثالث من الباب الثاني - إن شاء الله - ذكر الشبه التي يتمسكون بها في ذلك، والجواب عنها إضافة إلى ما سبق بيانه من تنوع دلائل القرآن على إقرار المشركين بوحدانية الله تعالى في ربوبية.

ولكن يقال هنا جوابا عاما : إن هذا مخالف لدلائل الكتاب والسنة والواقع الذي كان عليه المشركون من إقرارهم بوحدانية الله تعالى في الخلق والملك، وأن عبادتهم لآلهتهم إنما كانت طلباً لشفاعتهم عند الله سبحانه، كما قال تعالى عنهم : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣].



الفصل الثالث

شبهات المبتدعة في الخلط بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية

- **المبحث الأول:** تقرير أهل السُّنة للتفريق بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية، ومذهبهم في التفريق بينهما.
- **المبحث الثاني:** موقف المبتدعة من التفريق بين نوعي التوحيد.
- **المبحث الثالث:** شبهات المبتدعة في الخلط بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية.

المبحث الأول

تقرير أهل السُنة للتفريق بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية، ومنهجهم في العلاقة بينهما

أولاً : تقرير أهل السُنة للتفريق بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية :

لما كان توحيد الله عز وجل في خصائصه التي لا تنبغي لغيره هو الغاية التي خلق من أجلها الجن والإنس، وهو الحق الذي قام عليه خلق السماوات والأرض، وخلافه هو الباطل الذي تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، فقد دأب أهل السنة والجماعة على بيانه وجعله أهم المهمات وأول الأوليات، تعلماً وتعليماً ودعوة وجهاداً، فأبانوا معانيه وفضائله وشروطه، وما يدخل فيه وما يخرج منه، وما فيه من أنواع وأقسام، مستندين في ذلك إلى كتاب الله تعالى وسُنة نبيه ﷺ، وما كان عليه سلف الأُمة الأبرار، فما قرروه في هذا الباب - أعني التوحيد - من مصطلحات وتقسيمات فإنهم لم يخرجوا فيها عن دلائل النصوص، فمعنى ما يذكرونه راجع إليها.

ومن ذلك قولهم بالتفريق بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية، فأهل السنة يفرقون بينهما ببيان أن كلا منهما له معنىً يختلف عن الآخر، وإن كان بينهما من التلازم ما يجعلها لا ينفكان في تحقيق الوحيد، فكل منهما مطلوب من العبد تحقيقه، فإذا أخل بأحدهما فليس له في التوحيد نصيب.

وقد سبق بيان معنى العبادة والألوهية، وكذلك معنى الربوبية،

فالعبادة متعلقة بفعل العبد، فكل أنواع العبادة يجب على العبد أن يصرفها لله تعالى وحده، وبذلك يتحقق توحيده فيها.

وأما الربوبية فهي متعلقة بفعل الرب سبحانه، بأنه الرب الخالق الملك المدبر، فيجب على العبد أن يقر بذلك لله تعالى وحده دون ما سواه، وبذلك يتحقق توحيده فيها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ : (والإنسان يجد في نفسه الفرق بين النفي والإثبات، والتصديق والتكذيب، وبين الحب والبغض، والحض والمنع، حتى أن الفرق بين هذا النوع والنوع الآخر معروف عند العامة والخاصة ...

وإذا كان كذلك، فلابد للعبد أن يثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال، وينفي عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال، ولا بد له في أحكامه من أن يثبت خلقه وأمره، فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته، وعموم مشيئته، ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل، ويؤمن بشرعه وقدره إيماناً خالياً من الزلل، وهذا يتضمن التوحيد في عبادته وحده لا شريك له، وهو التوحيد في القصد والطلب، والأول يتضمن التوحيد في العلم والقول)[١].

وتفريق أهل السنة بين هذين النوعين داخل في بيان كل ما يجب على العبد تجاه ربه سبحانه وتعالى، وهذا مقصد شرعي عليه قامت دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

وإن ضلال كثير من الناس في التوحيد راجع إلى عدم تحقيق جميع

---

(١) التدمرية ص ٤-٥.

مطالبه، وهذا راجع إلى عدم تمييزهم بين تلك المطالب فتداخلت عليهم مفاهيمها، فصار منهم من يظن أنه حققها جميعها وهو في واقع الأمر محقق لبعض دون بعض.

فالذين لم يفرقوا بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية، وجعلوهما شيئاً واحداً وهو الإقرار بوحدانية الله تعالى في الخلق والتدبير لم يروا في صرف الدعاء والاستغاثة والذبح والنذر ونحو ذلك لغير الله تعالى مخالفة للتوحيد ما دام الاعتقاد قائماً على تفرد الله تعالى بالربوبية فانفتحت عليهم أبواب من الشرك المطابق لما كان عليه أهل الجاهلية الأولى وهم يظنونه تعظيماً لشعائر الله تعالى فلا يرونه من الشرك في شيء.

ولما كانت هذه العاقبة نتيجة حتمية لذلك التداخل في مفاهيم مطالب التوحيد صار لزاماً بيان كل مطلب بمعانيه الموافقة لدلالات النصوص من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وما عليه اللسان العربي المبين، وبيان الفروق التي بينها لتتميز ويعلم المرء أنه حققها جميعاً.

لذلك فقد قرر أهل السنة التفريق بين هذين النوعين من التوحيد في أقوالهم ومصنفاتهم، وتعددت عباراتهم في بيان ذلك إلا أنها راجعة إلى معنى واحد، وهو أن توحيد العبد ربه سبحانه لا يتحقق إلا بالإقرار له سبحانه بوحدانيته في الربوبية، والعمل بمقتضى ذلك الإقرار وهو صرف العبادة له وحده لا شريك له.

فمن أقر لله وحده بالربوبية لكنه صرف شيئاً من العبادة لغير الله تعالى فليس بموحد، ولا ينفعه ذلك الإقرار إلا أن يجمع معه التوحيد

في العبادة.

وهذا التفريق بين نوعي التوحيد هو الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة، ودلالة اللغة، وهو المنقول عن سلف الأمة من الصحابة ﷺ والتابعين لهم بإحسان.

وسأذكر هنا من ذلك ما يدل دلالة صريحة على ما قرره أهل السنة من التفريق بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية.

دلالة القرآن على التفريق بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية:

من تأمل كتاب الله تعالى يجد الآيات الكثيرة الدالة على وحدانية الله تعالى في ربوبيته وما يدخل في هذا المعنى من ذكر أسمائه الحسنى وصفاته العلى كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على أن الله تعالى هو رب العالمين، وهو وحده الخالق له الملك سبحانه وتعالى.

وكذلك يجد الآيات الكثيرة الآمرة بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، الدالة على أنه وحده المستحق للعبادة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ [يس: ٦١]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فالآيات الأولى متعلقة بأفعال الله تعالى، والآيات الثانية متعلقة بأفعال العباد، وهذا يبين أن الآيات تتحدث عن جانبين لابد أن يتحقق فيهما توحيد العبد:

الجانب الأول: ما يتعلق بأفعال الله تعالى من الخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك، فهذا يجب على العبد أن يوحد الله تعالى فيه بأن يثبت ذلك لله وحده وينفيه عمن سواه، وهذا الذي يسميه أهل السُّنة توحيد الربوبية.

الجانب الثاني: ما يتعلق بفعل العبد نفسه من دعاء ورجاء وتوكل وإنابة وصلاة وذبح ونحو ذلك من أنواع العبادات، فهذا يجب على العبد أن يوحد الله تعالى فيه بأن يصرف تلك العبادات لله وحده لا شريك له، وهذا الذي يسميه أهل السنة توحيد العبادة.

ثم إنه كثيراً ما يأتي في القرآن تقرير توحيد العبادة استدلالاً عليه بتوحيد الربوبية، فيقرر الله تعالى ربوبيته للعالمين وخلقه للأولين والآخرين ويجعل لازم ذلك أن يوحّد في العبادة.

وأمثلة ذلك في القرآن كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

ومن ذلك قوله سبحانه عن عيسى ﷺ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٦].

فجعل عبادته نتيجة حتمية يجب أن تكون؛ لأنه الرب سبحانه، وأن الخلق كلهم عبيد له، فالعبودية القهرية القائمة بالخلق بمعنى أنهم

مربوبون لله تعالى يجب أن يُحقِّق لازمها فلا يعبد إلا هو سبحانه.

قال ابن جرير رحمه الله : (ومعنى الكلام : وإني وأنتم أيها القوم جميعاً لله عبيد، فإياه فاعبدوا دون غيره)[1].

ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: ٦٢-٦٤].

ففي الآية تقرير وحدانية الله تعالى بالخلق والتدبير، وأن عبادة غيره جهل ينافي حقيقة ذلك الإقرار.

ولذلك (يكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده في عبادته، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ووبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده، لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١])[2].

(١) جامع البيان ٩/ ١٦/ ٨٥.
(٢) أضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٤١١-٤١٢.

وفي مقابل ذلك بيّن الله تعالى بطلان عبادة من يعبد من دونه سبحانه بأن ذلك المعبود لا يملك من أمر الربوبية شيئاً.

ومن أدلة ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

فقد (بيّن سبحانه أن من دُعي من دون الله من جميع المخلوقات من الملائكة والبشر وغيرهم أنهم لا يملكون مثقال ذرة في ملكه، وأنه ليس له شريك في ملكه، بل هو سبحانه له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وأنه ليس له عون يعاونه كما يكون للملك أعوان وظهراء، وأن الشفعاء عنده لا يشفعون إلا لمن ارتضى، فنفى بذلك وجوه الشرك، وذلك أن من يدعون من دونه إما أن يكون مالكاً، وإما أن لا يكون مالكاً، وإذا لم يكن مالكاً، فإما أن يكون شريكاً وإما أن لا يكون شريكاً، وإذا لم يكن شريكاً فإما أن يكون معاوناً وإما أن يكون سائلاً طالباً، فالأقسام الثلاثة وهي: الملك والشركة والمعاونة منتفية، وأما الرابع فلا يكون إلا من بعد إذنه)[١].

فالآية دالة على بطلان عبادة من يدعى من دون الله سبحانه بانتفاء كل الأسباب الموجبة لعبادة ذلك المعبود، وهي معاني الربوبية.

ومن ذلك الحُجة التي آتاها الله تعالى إبراهيم على قومه، وقد قصها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧/ ٦٦.

وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ الآيات إلى قوله: ﴿...وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبيَّن لهم في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم .... وبيَّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة ... فبيَّن أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً ... ثم انتقل إلى القمر فبيَّن فيه مثل ما بيّن في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: ٧٨])[1].

ومما يدل على التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة في القرآن: أن الله تعالى أثبت للمشركين إقرارهم بربوبيته ووحدانيته في ذلك، لكنه نفى عنهم توحيدهم في عبادته، مما يدل على الفارق بين معنى ما أثبته لهم وما نفاه عنهم.

والآيات في ذلك كثيرة، وقد سبق ذكر التنوع المذكور في كتاب الله تعالى في الدلالة على ذلك.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٦٩.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٦]، فأثبت لهم إيماناً وهو إقرارهم بربوبيته سبحانه، وأثبت لهم شركاً وهو عبادتهم غيره.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (من إيمانهم إذا قيل لهم من خلق السماء، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا : الله، وهم مشركون)[١].

وقال عكرمة رحمه الله : (تسألهم من خلقهم، ومن خلق السماوات والأرض، فيقولون : الله، فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره)[٢].

وكذلك قوله سبحانه : ﴿...فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢].

روى ابن جرير رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية : (وإنما عنى بقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢] أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه)[٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وفيها دلالة بينة لمن كان له قلب وعقل سليم على الفارق بين توحيد الله تعالى في ربوبيته، وتوحيده في عبادته، وأنهما متلازمان لا يتحقق توحيد العبد إلا بهما.

فما يذكره أهل السنة من تنوع التوحيد والتفريق بين أنواعه هو

---

(١) جامع البيان للطبري ٨/ ١٣/ ٧٧.

(٢) المرجع السابق، والصفحة نفسها.

(٣) المرجع السابق ١/ ١/ ١٦٤.

معنى مذكور في كتاب الله تعالى، والعبرة هي في ذلك المعنى وإن لم يأت بلفظ التنوع أو التقسيم أو التفريق، فالمفاهيم تقرر بمعانيها لا بأسمائها وألفاظها.

يقول الإمام ابن القيم ﷺ في تقرير تنوع التوحيد وأن القرآن متضمن لذلك: (وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه، فوراء ذلك كله، وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوه فوق سماواته على عرشه، وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح، كما في أول سورة الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران وسورة الإخلاص بكاملها، وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية، وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة يونس ووسطها وآخرها، وأول سورة الأعراف وآخرها، وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته

وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد)[(١)].

فهذا الكلام من الإمام ابن القيم يبين أن القرآن بيّن كل ما يتعلق بالتوحيد: أنواعه ولوازمه وشروطه ونواقضه ونحو ذلك، وهذا يفيد أن الفروق بين أنواعه مبينة.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في بيان أن القرآن دال على أقسام التوحيد: (وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] الآية، وقال ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣] تجاهل من عارف أنه عبد مربوب، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] الآية،

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٤٤٩.

وقوله : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله، كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جداً.

الثاني : توحيده جل وعلا في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى "لا إله إلا الله"، وهي متركبة من نفي وإثبات، فمعنى النفي منها : خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها : إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام، وأكثر آيات القرآن في هذا النوع من التوحيد وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]...

- ثم ذكر جملة من الآيات الدالة على هذا النوع، ثم قال - :

النوع الثالث : توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاه، وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين :

الأول : تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، كما قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

والثاني : الإيمان بما وصف الله به نفسه، أو وصفه رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله، كما قال بعد قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] : ﴿...وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الإتصاف، قال تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠])[١].

ومن أدلة القرآن الدالة على التفريق بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية: اقتران لفظ الربوبية ولفظ الألوهية - وهو الدال على العبادة - وذلك كما في سورة الناس، إذ يقول تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ [الناس: ١-٣]، فذكر هذه الأوصاف الثلاثة في سياق واحد دال على وجود الفرق بينها.

فذكر سبحانه وتعالى ربوبيته للناس المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم، وأن لا غنى لهم عنه سبحانه وتعالى طرفة عين.

ثم ذكر ملكه لهم وأنهم عبيد له مملوكون لا يخرجون عن تصرفه وتقديره سبحانه.

ثم ذكرَ ألوهيته، بأنه هو وحده المستحق للعبادة وحده، وأن أي عبادة صرفت لغيره فهي باطل وظلم عظيم.

(فكما أنه وحده ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم، فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكاً في إلهيته كما لا شريك معه في ربوبيته)[٢].

والحاصل أن القرآن الكريم دال على الفرق بين نوعي التوحيد: (توحيد الربوبية وتوحيد العبادة)، ومن له أدنى تأمل في ذلك يرى الأمر في غاية الظهور.

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٠-٤١١.

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/ ٢٤٧.

دلالة السنة:

١- من ذلك قوله ﷺ: **(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله)**(١).

ومعلوم أنه ﷺ قد قاتل كفار قريش مع إقرارهم بوحدانية الله تعالى في ربوبيته، فدل ذلك على أن هذا الإقرار منهم ليس هو تحقيق قول (لا إله إلا الله)، فدل على أنهم أقروا بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية.

٢- ومن ذلك ما جاء في قصة أبي طالب لما حضرته الوفاة حيث قال له النبي ﷺ: **"يا عم قل لا إله إلا الله. كلمة أشهد لك بها عند الله"**، ولم يزل يعرضها عليه حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.(٢)

ففي الحديث دلالة على أن عبد المطلب وأبا طالب لم يحققا شهادة أن لا إله إلا الله، مع أن أقوالهم دالة على إقرارهم بربوبية الله تعالى.

ومن شعر أبي طالب:

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد   وأخوته دأب المميت المواصل

---

(١) تقدم تخريجه ص ٧٤ الحاشية (١).

(٢) رواه البخاري في الجنائز - باب إذا قال المشرك عند الموت «لا إله إلا الله» - رقم ١٣٦٠، ومسلم في الإيمان - باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت... - رقم ٢٤.

فمن مثله في الناس أي مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلهاً ليس عنه بغافل
كريم المساعي ما جد وابن ماجد ... له إرث مجد ثابت غير ناصل
وأيّده رب العباد بنصره ... وأظهر ديناً حقه غير زائل
فو الله لولا أن أجيء بسبة ... تجر على أشياخنا في المحافل
لكنا تبعناه على كل حالة ... من الدهر جداً غير قول التهازل(١)

٣- ومن ذلك ما جاء من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله.؟ قال: "**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**" ... الحديث(٢).

فهذا استدلال بالربوبية على الألوهية، والمعنى أن أعظم الذنب أن تجعل لله تعالى نداً تعبده مع علمك أنه سبحانه هو الذي خلقك، وفي ذلك دلالة أن العبد قد يتخذ من دون الله تعالى نداً مع إقراره بأن الله تعالى خالق، وهذا المعنى يدل على الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة.

٤- من تأمل حال النبي ﷺ مع المشركين، وما كان يدعوهم إليه، وعلى أي شيء كانت المنازعة بينهم وبينه، يدرك أنهم لم يكونوا ينازعون في وحدانية الله تعالى في خلقه وملكه وربوبيته للعالمين، وإنما

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٥٤-٥٥.
(٢) رواه البخاري في التفسير - باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ - رقم ٤٤٧٧، ومسلم في الإيمان - باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده - رقم ٨٦.

كان عنادهم واستكبارهم وإعراضهم عن دعوته لهم أن يوحدوا الله في العبادة وأن لا يصرفوا شيئاً من أنواعها لغيره عز وجل.

دلالة اللغة:

لقد مرّ معنا في الفصل السابق أن اللغة دالة على المغايرة بين كلمتي (الرب)، (الإله).

فـ (الرب) راجع معناه إلى السيد المطاع والمصلح للشيء المدبر له والمالك للشيء.

أما (الإله) فمعناه المعبود، ولذلك أطلق على ما كان يعبده أهل الجاهلية آلهة لأنها عبدت، ولكن تلك الألوهية التي نسبت إليها باطلة لأنها لا تستحق شيئاً منها.

فالربوبية مشتقة من الرب، والألوهية مشتقة من الإله، وعليه فإن المغايرة واقعة بين الربوبية والألوهية، ولذا فإن الفرق متقرر بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

أقوال السلف دالة على التفريق:

لقد تضافرت النقول عن سلف الأمة الأبرار من الصحابة ومن تبعهم بإحسان بما هو دال على التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، وقد تقدم طرف من ذلك كما في قول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]. بأن إيمانهم هو إقرارهم بأن الله خالقهم ورازقهم، وشركهم هو في عبادتهم غير الله تعالى[١].

---

(١) تقدم ص ١٧٨، الحاشية (١).

ومثل ذلك مروي عن أئمة التفسير رحمهم الله تعالى.

فعن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (يقولون: الله ربنا، وهو يرزقنا. وهم يشركون به بعده).

وقال عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ: (يعلمون أن الله ربهم، وهم يشركون به بعد).

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: (إنك لست تلقى أحداً منهم إلا أنبأك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته).

وقال الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السماوات والأرض، فهذا إيمانهم، ويكفرون بما سوى ذلك).

وقال عبد الرحمن بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: (ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]، قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي وتقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك[1]. المشركون كانوا يقولون هذا)[2].

فأقوال هؤلاء الأئمة دالة على أن الكفار كانوا مقرين بأمر دون أمر، فالذي أقروا به هو وحدانية الله تعالى في ربوبيته، والذي خالفوا فيه هو توحيده في عبادته.

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٦٠، الحاشية (١).
(٢) انظر في هذه النقول عن السلف: جامع البيان ٨/ ١٣/ ٧٨-٧٩.

وبذلك يتبين بلا ريب أن التفريق بين نوعي التوحيد هو ما عليه الأئمة السابقون، الذين هم أفقه وأعرف من غيرهم بدلائل النصوص.

ومن أقوال الأئمة الدالة على التفريق :

١- قول الإمام أبي حنيفة ﷺ : (والله يدعى من أعلى لا من أسفل، لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء)[١].

٢- قول القاضي أبي يوسف ﷺ : (وإنما دل الله خلقه بخلقه ليعرفوا أن لهم رباً يعبدونه ويطيعونه ويوحدونه، وليعلموا أنه مكونهم لا هم كانوا)[٢].

فهذا النقل عن أبي يوسف ظاهر في ذكر نوعي التوحيد ولزوم أحدهما للآخر، فمعرفة الرب لازمها العبادة والطاعة وتوحيده في ذلك كله.

٣- قول الإمام أبي عبد الله ابن بطة العكبري ﷺ : (وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء :

أحدها : أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مبايناً لمذهب أهل التعطيل الذي لا يثبتون صانعاً.

والثاني : أن يعتقد وحدانيته ليكون مبايناً بذلك لمذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

---

(١) الفقه الأبسط ص ٥١.

(٢) رواه قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» ١/ ١١٢.

والثالث : أن يعتقده موصوفاً بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفاً بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه)[١].

وهذا النقل ظاهر في التفريق بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية، بل هو نص على أقسام التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

هذه نقول عن أئمة متقدمين واضحة الدلالة في التفريق بين توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة.

أما المتأخرون : فالنقول عنهم لا تكاد تحصى كثرة، ومن طالع مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم والشيخ محمد ابن عبد الوهاب وأئمة الدعوة في نجد وغيرها يرى هذا مقرراً في مواضع كثيرة تبياناً للحق الذي ضلت فيه أفهام وظنت أنها حين تقر بالوحدانية لله في ربوبيته وأنه الخالق المبدع للكائنات قد حققت التوحيد المطلوب منها، وما درت أن هذا ما وقف عنده المشركون السابقون وأن وراء ذلك أمراً هو الغاية من إيجادهم، وهو توحيد الله تعالى في عبادته وهو معنى الشهادة (لا إله إلا الله).

والحاصل أن أقوال الأئمة من سلف الأُمة ومن سار على نهجهم ظاهرة جلية في تقرير هذا التفريق بين نوعي التوحيد (الألوهية والربوبية)، سواء كان ذلك بالتنصيص على التفريق والتقسيم أو بما هو المفهوم الواضح الذي لا يتطرق إليه الاحتمال من أقوالهم.

---

(١) مختصر الإبانة لابن بطة - مخطوط ق٣ / ج٢ / ١٧٢-١٧٣.

أحوال المشركين في الجاهلية ومن قبلهم دالة على التفريق :

وهذا ظاهر فيما قصه الله تعالى علينا من أحوالهم في عبادتهم غير الله تعالى، وأن ذلك كائن منهم لأصنامهم بغية التقرب إلى الله زلفى وطلباً للشفاعة عنده، وأنهم في مسألة الربوبية غير مخالفين، بدليل إقرارهم حال سؤالهم عمن خلق السماوات والأرض ومن يدبر الأمر، فإنهم يثبتون ذلك لله تعالى وحده، ومع ذلك فقد حُكم عليهم بالشرك، فدل على أن توحيدهم في ربوبية الله تعالى للكائنات ليس هو كل التوحيد، وأن ما هم واقعون فيه من عبادة غير الله تعالى شرك، فلم يتحقق مع إقرارهم بالربوبية توحيد آخر وهو توحيد العبادة.

وقد تقدم بيان هذا في مواضع عدة، ولكن الشاهد هنا أن هذه الحال التي كانوا عليها والتي ذكرها الله تعالى عنهم دالة على الفرق الحاصل بين توحيد الربوبية والذي بيّن الله تعالى إقرارهم له، وبين توحيد العبادة الذي بيّن الله تعالى مخالفتهم فيه.

ويمكن إجمال الفروق بين توحيد الربوبية وتوحيد اللألوهية بما يلي[1] :

١- الاختلاف في الاشتقاق، فالربوبية مشتقة من اسم الله (الرب)، والألوهية مشتقة اسم (الإله).

٢- أن متعلق الربوبية، الأمور الكونية : كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحوها. ومتعلق توحيد الألوهية : الأوامر والنواهي :

---

(١) انظر: المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة. ص ١١٣.

من الواجب والمحرم والمكروه.

٣- أن توحيد الربوبية قد أقر به المشركون، أما توحيد الألوهية فقد رفضوه.

٤- أن توحيد الربوبية مدلوله علمي، وأما توحيد الألوهية فمدلوله عملي.

٥- أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، أما توحيد الألوهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية - كما سيأتي بيانه إن شاء الله -.

٦- أن توحيد الربوبية توحيد الله بأفعاله هو سبحانه، كالخلق ونحوه، أما توحيد الألوهية فهو توحيد الله بأفعال عباده من الصلاة والزكاة والحج والصوم والخشية والرهبة ونحو ذلك.

ثانياً: العلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة:

إن ما سبق تقريره من التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة لا يعني أبداً انتفاء العلاقة بينهما أو ضعفها أو أن من أقر بأحدهما فقد حقق التوحيد وصار فرداً في صفوف الموحدين - كما قد يرمي بذلك بعض الجهلة أهل التوحيد حين يقررون التفريق بين ذينك النوعين -.

بل إن بين النوعين تلازماً يمنع تحقق التوحيد حال تخلف أحدهما عن الآخر، فلا توحيد لأحد ينجيه عند ربه سبحانه إلا بالإتيان بهما جميعاً، فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية (العبادة) فالرب الخالق مدبر الأمر هو المستحق وحده أن يعبد، ومن أقر بوحدانية الله تعالى في ربوبيته فإنه يلزمه توحيده في العبادة.

أما توحيد الألوهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية، فالإله المستحق للعبادة لابد أن يكون رباً خالقاً، ومن وحّد الله تعالى في الألوهية فلابد وأن يكون مقراً له بوحدانيته في ربوبيته وإلا فهو لم يقم بصدق العبادة.

فكان توحيد الربوبية كالمقدمة لتوحيد الألوهية الذي هو نتيجة لازمة له لا تنفك عنه في نفس الأمر.

ولذلك فإنّا نجد في القرآن كثيراً ما يأمر الله تعالى بعبادته ويقرن مع ذلك الأمر موجب استحقاقه للعبادة وهو وحدانيته في ربوبية كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢].

وكذلك نجد في القرآن كثيراً الاحتجاج على المشركين وأمرهم بعبادة الله وحده بما هم مقرون به وهو وحدانية الله تعالى في ربوبيته كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزّخرُف: ٨٧].

ومثل ذلك بيان بطلان ما هم عليه من عبادة الأوثان بأن ما يعبدونه من دون الله لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن ذلك إنما هو لله تعالى وحده كما قال تعالى عن قول إبراهيم ﷺ لقومه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العَنكبوت: ١٧].

ولما كان توحيد الربوبية أمراً فطرياً لا يخالف فيه أكثر الناس كان

هو الحُجة والشاهد في أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهي الأمر بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، لأجل ذلك التلازم بينهما، فلا يتم الإقرار الفطري على حقيقته إلا حين يتحقق لازمه الذي لا ينفك عنه وهو أن يوحد العبد ربه في ألوهيته، وبذلك يكون قد حقق مقام التوحيد.

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن مشهد التوحيد: (وفي هذا المشهد يتحقق للعبد مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، علماً وحالاً، فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى صاعداً منه إلى توحيد الإلهية، فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلب القلوب ويصرفها كيف يشاء، وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه، وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها، وأصفاها وأشدها وألينها، من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً، فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه، فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتنساق المحاب تبعاً لها، كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخاوف، وتنساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه، فهذا علامة توحيد الإلهية في القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي باب توحيد الإلهية هو: توحيد الربوبية.

فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلى

توحيد الألوهية، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر، ويحتج عليهم به، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية)[١].

والحاصل أن أنواع التوحيد وإن اختلفت في معانيها ومدلولاتها إلا أن التوحيد الذي أمر الله تعالى به عباده لا يتحقق إلا باجتماعها في العبد، وبذلك يستحق وصف الإسلام، وكلما كان أكثر تحقيقاً لجوانب تلك الأنواع كان ذلك أكمل في توحيده وأرفع في درجته.



(١) مدارج السالكين ٤١٢-٤١٣. وانظر في العلاقة بين أنواع التوحيد: الكواشف الجلية عن معاني الواسطية للسلمان ص ٤٢١.

المبحث الثاني

موقف المبتدعة من التفريق بين نوعي التوحيد

إن مما سبق بيانه في تعريف العبادة ومعنى (لا إله إلا الله) عند المبتدعة، وجعلهم العبادة مقيدة باعتقاد استقلال التأثير في المعبود، وقولهم في معنى (الإله) إنه القادر على الاختراع، ونحو هذا المعنى مما مؤداه الخلق والتدبير، فإن موقفهم من التفريق بين نوعي التوحيد بيّن ظاهر وهو نفي ذلك وردّه وإنكاره.

فليس لتوحيد العبادة عندهم معنى سوى توحيد الربوبية، والعكس بالعكس، معرضين بذلك عن الدلائل النقلية واللغوية الدالة على ذلك التفريق.

وهذا مبني على ما جعلوه أول الأمر وغايته وهو معرفة الخالق والإقرار بربوبيته، فلذلك تجد غالب كلامهم في التوحيد ومعانيه وأقسامه راجعاً إلى هذا المعنى.

ولما قرر أهل السنة ما تقتضيه الأدلة الشرعية والأوضاع اللغوية من تغاير المعنى في نوعي التوحيد، وأن العبد لا يتحقق له توحيد إلا بالجمع بين المعنيين، قابلوا ذلك بالرد والإنكار وعرض الشبه الملبسة، وخلعوا على أنفسهم لباس الناصح المتبع للأثر، فنادوا بأن هذا التفريق محدثة بدعة ما قرأناه في كتاب، ولا رأيناه في سنة، وكأن لم يكن لهم من أقوال وتقريرات إلا منصوصات الكتاب والسنة، وكأن لم يكن

للتوحيد عندهم تقسيمات قصرت عن معاني الكتاب ومدلولات السنة.

ولا غروى، فما الحدوث عندهم علة الإنكار، ولكن لما كان هذا التفريق يحول بينهم وبين ما يثبتون ويتشبثون به ويقررونه من الاستغاثة بالأموات والذبح والنذر لهم وصرف أنواع من العبادة لهم ضربوا كل سبب لدفعه، وزينوا القول ليّاً باللسان لرده، بل لجّ في عماهة ظلمه وضلاله من نسب - منهم - ذلك التفريق إلى طريقة الضالين الذي قالوا إن الله ثالث ثلاثة، فجعل تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أنواع (توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات) المبني على التفريق بين نوعي التوحيد ضرباً من عقائد النصارى القائلين بالتثليث[١].

فالحاصل أنه قد اجتمعت كلمتهم على إنكار هذا التفريق وردّه والرد على القائلين به.

يقول أحمد دحلان: (وقالوا إن التوحيد نوعان: توحيد الربوبية وهو الذي أقر به المشركون، وتوحيد الألوهية وهو الذي أقرّ به الموحدون وهو الذي يدخلك في دين الإسلام، وأما توحيد الربوبية فلا يكفي، وكلامهم باطل .. فإن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية .. - إلى أن قال: فهل سمع المسلمون في الأحاديث والسير أن رسول الله ﷺ إذا قدمت عليه أجلاف العرب ليسلموا على يده يفصل لهم توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، ويخبرهم أن توحيد الألوهية هو الذي يدخلهم في دين الإسلام، أو يكتفي منهم بمجرد الشهادتين وظاهر

(١) انظر كاب «التنديد بمن عدد التوحيد - إبطال محاولة التثليث في التوحيد والعقيدة الإسلامية» لحسن بن علي السقاف ص ٥.

اللفظ ويحكم بإسلامهم؟ فما هذا الافتراء على الله ورسوله، فإن من وحّد الرب فقد وحّد الإله، ومن أشرك بالرب فقد أشرك بالإله)[١].

ويقول علوي الحداد: (توحيد الألوهية داخل في عموم توحيد الربوبية، بدليل أن الله تعالى لما أخذ الميثاق على ذرية آدم خاطبهم الله تعالى بقوله: "ألست بربكم" ولم يقل بإلهكم، فاكتفى منهم بتوحيد الربوبية، ومن المعلوم أن من أقر له بالربوبية فقد أقر له بالألوهية، إذ ليس الرب غير الإله، بل هو الإله بعينه)[٢].

ويقول الدجوي: (وإني أعجب لتفريقهم بين توحيد الألوهية والربوبية، وجعل المشركين موحدين توحيد الربوبية مع قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، وهل المراد من الأرباب إلا المعبودات)[٣].

والنقل عنهم في ذلك يطول، إلا أن معنى ما يذكرونه ومحصله هو إنكار التفريق بين نوعي التوحيد، وجعل توحيد الألوهية بمعنى توحيد الربوبية، وأن المشركين الذين كذبوا الرسل أشركوا في الربوبية، فصار شركهم عائداً إلى ذلك المعنى.

❁❁❁❁❁

---

(١) الدرر السنية ص ٤٠-٤١.
(٢) مصباح الأنام ص ١٧.
(٣) مجلة نور الإسلام - المجلد الرابع ص ٣٢٢.

المبحث الثالث

شبهات المبتدعة في الخلط بين نوعي التوحيد

لقد سبق الكلام - في الفصل السابق - على شبهات المبتدعة في معنى (لا إله إلا الله) عندهم مع الرد عليهم في ذلك.

وحيث إن قولهم هناك دائر حول اتحاد مفهومي الربوبية والألوهية وأن لا فرق بينهما، فإن هذا المعنى هو مقصود هذا المبحث.

ولذلك، فإن ما ذكرته من الشبهات هناك - في تقريرهم لمعنى الألوهية - يوردونه في إنكارهم التفريق بين نوعي التوحيد، وعليه فسأورد هنا ما لم أذكره هناك مما رأيت أن ذكره هنا أنسب.

وقبل عرض شبهاتهم هنا لا بد من استحضار ما سبق تقريره في المبحث السابق من أن جميع الدلائل قائمة على تقرير التفريق بين نوعي التوحيد، وهي دلائل محكمة بينة يجب الردّ إليها حال الاشتباه، مع أنه لا اشتباه في هذه القضية في نفس الأمر، ولكن ضعف الفهم وغلبة الهوى داعٍ إلى ذلك.

وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذا الأمر في الكلام على شبهات المبتدعة في تقرير أن شرك المشركين السابقين كان في الربوبية.

ولذلك فسيكون الكلام هنا عن شبهتين رأيت مناسبتهما هنا، أما ما سبق وما سيأتي من شبه لها تعلق بهذا المبحث فرأيت مناسبتها لما وضعت فيه مع الاكتفاء بهذه التقدمة للإشارة إلى هذا التعلق.

الشبهة الأولى:

قولهم : إن التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وما انبنى عليه من تقسيم التوحيد إلى هذين المعنيين بدعة لم ترد في كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه ﷺ، وما سمعنا أن النبي ﷺ كان إذا قدمت عليه أجلاف العرب ليسلموا على يديه يفصل لهم أن التوحيد على قسمين ربوبية وألوهية، وأن توحيد الربوبية لا يكفي ولا ينجي مفرداً عن الألوهية[١].

الجواب من وجوه:

الوجه الأول:

عدم التسليم بعدم ورود هذا التفريق في الكتاب والسنة، بل هو معنى ظاهر في نصوص الكتاب والسنة، وقد قدمت في المبحث الأول من هذا الفصل أنواعاً من الدلائل الدالة على هذا التفريق، ولعل من أظهر ما يكون من ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، وهذان أمران متقابلان، ولا يشك المرء بالفرق بين المتقابلات.

الوجه الثاني:

إن كان المراد عدم ورود لفظ التقسيم بأن التوحيد ينقسم إلى توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية، فهذا لا يضر ؛ إذ العبرة بالمعاني، وأهل

---

(١) انظر كلام أحمد زيني دحلان المتقدم ص ١٨١ ، وانظر: مقال الدجوي «توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية» في مجلة نور الإسلام - المجلد الرابع ص ٢٥٥.

السنة ذكروا مصطلح التقسيم بناء على المعنى الذي أفادته النصوص الشرعية، والكلام في المصطلحات قبولاً أو رداً هو بحسب مطابقتها للمعنى المراد من عدمها، فإن طابقته فهي صحيحة مقبولة وإلا فهي مردودة.

ثم إن ألفاظ التقسيم المذكورة بناء على التفريق بين النوعين هي ألفاظ شرعية واردة في الكتاب والسنة، فلم يخرج التقسيم عن دلالة الكتاب والسنة لا في اللفظ ولا في المعنى.

وهذا التقسيم الاستقرائي هو (استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء)[١].

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: (وقد يقول البعض إن هذا التقسيم للتوحيد بدعة. ولكن نقول: بتتبع النصوص الواردة في التوحيد وجدناها لا تخرج عن هذه الأقسام الثلاثة، والاستدلال المبني على التتبع والاستقراء ثابت حتى في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾ [مريم: ٧٧-٧٨] والجواب لا هذا ولا هذا، ولهذا قال: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٧٩]»[٢].

---

(١) التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير. لـ د. بكر أبو زيد ص ٣٠ - حاشية رقم ٢. وانظر: «العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية» لـ أحمد آل بو طامي ١/ ٦٦-٦٧.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد ابن عثيمين، جمع فهد السليمان ١/ ٨٣-٨٤.

الوجه الثالث:

أن العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ كانوا عارفين بمقاصد اللغة، والنبي ﷺ كان يدعوهم إلى تحقيق (لا إله إلا الله)، فهم يدركون معنى هذه الكلمة إذا أقروا بها وهو أن يتركوا كل ما كانوا يعبدونه مع الله تعالى، وأن هذا لا يعني تحويل اعتقاد قلبي فقط من اعتقاد أنها لا تخلق ولا ترزق ثم إن لهم حرية الإبقاء على طقوسهم تجاهها.

كلا، بل إنهم يعرفون معنى هذه الكلمة، وأنها لا تقف عند حدود إثبات الخالقية والربوبية لله تعالى وحده، ولكنها كلمة التوحيد لله تعالى في ربوبيته وألوهيته، فلا يدعى إلا هو، ولا يرجى إلا هو، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يتذلل إلا إليه عز جاهه وجل ثناؤه.

إذاً فالتفريق بين النوعين في دعوة النبي ﷺ واقع ضمناً، إذ لم يقبل منهم الإقرار بوحدانية الله تعالى في ربوبيته دون الألوهية، وقد أخبره الله تعالى أنه إن سألهم عن خالق السماوات والأرض ومدبر الأمر ليقولن الله، وهذا هو المقصود بتوحيد الربوبية، فلم يكن يقبل منهم ﷺ إلا أن يجمعوا مع ذلك توحيد الألوهية، وهو معنى (لا إله إلا الله).

ولو تأملت آي الكتاب، وقلبت صفحات السنة لما وجدت أحداً قُبل منه إسلام بإقراره بربوبية الله تعالى فقط دون أن يوحده في عبادته.

ولقد جاء كفار قريش إلى أبي طالب يشكون النبي ﷺ فأخبره أبو طالب بذلك، فقال له النبي ﷺ: **"يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية"**،

ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا: كلمة واحدة؟ نعم وأبيك عشراً، فقالوا: وما هي؟ قال: "لا إله إلا الله". فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥][١].

فهؤلاء هم الذي قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وهم الذي قال تعالى فيهم: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥]، فلأي شيء - وهم على الإقرار للربوبية - رفضوا تلك الكلمة، إلا أنهم فهموا أنها لا تقف عند إثبات الربوبية فقط، بل هناك معنى زائد وهو توحيد الله تعالى في ألوهيته.

وبهذا الفهم للنصوص والواقع قال أهل السنة بالتفريق بين النوعين.

الشبهة الثانية:

أن التفريق بين النوعين والقول بأن كفار قريش مقرون بنوع منهما يقتضي القول بان للكفار توحيداً صحيحاً ينجيهم من النار، وهذا مصادمة للنصوص[٢].

---

(١) رواه أحمد في المسند ١/ ٣٦٢، والترمذي في التفسير - باب ومن سورة ص - رقم ٣٢٣٢.

(٢) انظر: الدرر السنية لدحلان ص ٤٠-٤١، مقال الدجوي «توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية» في مجلة نور الإسلام - المجلد الرابع ص ٢٥٩، مصباح الأنام لعلوي الحداد ص ١٧.

الجواب من وجوه:

الوجه الأول:

أنه لم يقل أحد من أهل السنة إن كفار قريش كانوا موحدين، هكذا بهذا الإطلاق، وإنما كلامهم في أنهم - أي كفار قريش - كانوا مقرين بتوحيد الربوبية وهو من الحجة عليهم، وهم مع ذلك مشركون اسماً وحكماً، إذ لا ينجيهم ذلك الإقرار دون أن يوحدوا الله تعالى في ألوهيته.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فهذا التوحيد - أي توحيد الإلهية - هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة، فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

أما توحيد الربوبية فقد أقر به المشركون، وكانوا يعبدون مع الله غيره، ويحبونه كما يحبونه، فكان ذلك التوحيد - الذي هو توحيد الربوبية - حُجة عليهم)[١].

ويقول الإمام ابن القيم: (ولذلك كان توحيد الألوهية هو المنجي من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عباد الأصنام كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يأتوا بتوحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له لم ينفعهم توحيد ربوبيته)[٢].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٤/ ٣٨٠.

(٢) عدة الصابرين ص ٣٥.

الوجه الثاني:

أن إثبات نوع من التوحيد لهم لا يعني إثبات التوحيد المطلوب شرعاً، كما أن إثبات إيمان لهم لا يعني إثبات الإيمان الشرعي المطلوب تحقيقه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، فهذا نوع من الإيمان - وهو الإيمان اللغوي[١] - لكنهم لا يقال إنهم مؤمنون.

فما يقال في الإيمان هنا يقال في لفظ التوحيد.

الوجه الثالث:

أن الكافر قد تكون عنده تصورات صحيحة، ويصدر منه أعمال صالحة إلا أنها لا تقبل منه ولا تنجيه من عذاب الآخرة، لأنها لم تقم على أصل صحيح وهو تحقيق التوحيد لله تعالى بجميع أنواعه.

فالكفار قد حكى الله تعالى عنهم أنهم كانوا يعبدونه ويدعونه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

قال القرطبي: ("إلا الذي فطرني"، استثناء متصل لأنهم عبدوا الله مع آلهتهم)[٢].

وقد تقدم ذكر قول النبي ﷺ للحصين بن عبيد الخزاعي: (**يا حصين، كم تعبد من إله؟**) قال: سبعاً، ستاً في الأرض وواحداً في السماء"،

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٧٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٥٠.

قال : (**فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك ؟**) قال : الذي في السماء[١].

وهم إذا مستهم الضراء فلا يدعون إلا الله تعالى كما قال سبحانه عنهم : "**فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون**"، فهم يدعونه في حال الضراء وحده، ويدعونه في حال الرخاء لكن يشركون معه غيره.

فهذا نوع من العمل لهم سماه الله تعالى دعاء وإخلاصاً، وهذا لا يقتضي الحكم عليهم بالإسلام وأنهم على دين صحيح، بل هذا من إقامة الحجة عليهم وإبطال ما هم عليه من الشرك بأن لا يملك السراء ولا الضراء إلا الله تعالى.

فالكافر قد يكون متلبساً بعمل صالح يوصف به إلا أنه لا يقبل منه عند الله تعالى، لأنه قام على أساس باطل وهو الشرك.

نعم، قد ينتفع به ولكن ذلك في الدنيا كما قال النبي ﷺ : (**إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها**)[٢].

فالحديث دال على أن الكافر يصدر منه العمل الصالح إلا أن ذلك لا يعني أنه وصف بإسلام أو إيمان، وهكذا الشأن في نسبة الإقرار بالربوبية للمشركين لا يعني أبداً نسبتهم إلى التوحيد والدين الصحيح.

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٧٧، الحاشية (١).

(٢) رواه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار - باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة - رقم ٢٨٠٨، وأحمد ٣/ ٢٨٣.

الباب الثاني

شبهاتهم في معنى الشرك

- الفصل الأول: معنى الشرك وأنواعه عند أهل السنة.
- الفصل الثاني: معنى الشرك عند المبتدعة.
- الفصل الثالث: شبهات المبتدعة في أن شرك الأمم السابقة كان في الربوبية.
- الفصل الرابع: شبهاتهم في نفي وقوع الشرك في هذه الأمة.

الفصل الأول

معنى الشرك وأنواعه عند أهل السنة

تمهيد في ضرورة التعرف على معنى الشرك

كما سبق بيان ضرورة التعرف على المقاصد الشرعية والفهم الصحيح لدلائلها المتعلقة بالعبادة والتوحيد، فإن الأمر لازم هنا أيضا في التعرف على الشرك وأنواعه وأسبابه وجميع ما يتعلق به، خشية الوقوع في شيء منه.

فالشرك هو أعظم ذنب عصي الله تعالى به كما قال سبحانه: ﴿...إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وهو الذنب الذي لا يغفر الله لصاحبه كائنا ما كان كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

وهو المحبط للعمل مهما كان فيه من حسن وتقى وخشية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

فهو أعظم الشر وأقبح القول وأسوأ العمل، وهذه - لعمر الله - موردة المهالك، فإن غابت عن العبد معانيها وطرائقها فالخوف أن تناله بشَرَكها.

وبيان الشر والتعرف عليه وأسبابه من المطالب الشرعية التي دل

عليها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل سلف الأمة الأبرار.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: ٥٥].

وقد أقر النبي ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه على السؤال عن الشر خشية الوقوع فيه كما في الصحيح عن حذيفة رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني .. الحديث[1].

وقد كان سلف الأُمة الأخيار وعلى رأسهم صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم أعرف الناس بأمور الخير وأمور الشر، فكانوا أكثر الناس اتباعا للأول، وأبعدهم عن الثاني.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فإن كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله، ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم، ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم أعظم إيمانا وجهادا ممن بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر، لما

(١) رواه البخاري في المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام - رقم ٣٦٠٦، ومسلم في الإمارة - باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن - رقم ١٨٤٧.

علموه من حسن الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي)[١].

فمعرفة الشرك من ضرورات كلمة التوحيد لأنها متضمنة البراءة منه، وأن الوقوع في شيء منه ينقصها أو يبطلها.

ولذلك فإنه لما خفي معناه الحقيقي على كثير من الناس صاروا لا يبالون الوقوع في أشياء هي من معانيه، بل يعدونها من حقائق التوحيد، وإن كانوا ينفرون أشد النفر من كلمة الشرك وما يدور حولها.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره ودعا إليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه، فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكرا والمنكر معروفا، والبدعة سنة والسنة بدعة، ويكفَّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويُبَدَّع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانا والله المستعان)[٢].

ويقول الشيخ مبارك الميلي رحمه الله في نتيجة إهمال الكلام في الشرك: (نتج عن قلة الخوض في هذا الموضوع أن صار الشرك أخفى المعاصي معنى، وإن كان أجلاها حكما، فلظهور حكمه وكونه من الضروريات ترى المسلمين عامتهم يتبرؤون منه ويغضبون كل الغضب

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٣٠١.
(٢) مدارج السالكين ١/٣٥١-٣٥٢.

إن نسبوا إليه، ولخفاء معناه وقع من وقع منهم فيه وهم لا يشعرون، ثم وجدوا من أدعياء العلم من يسمي لهم عقائد الشرك وأعماله وأسمائه بأسماء تدخل في عقائد الإسلام وأعماله، ثم يدافع عنهم ويحشرهم في زمرة أهل السنة، حتى ليخيل إليك أن العامي الواقع في حمأة الشرك جهلاً واغتراراً أقرب إلى السنة والاستقامة من أولئك العلماء النصحاء المؤتسين برسول الله ﷺ عن خبرة وصدق)[١].

ومن أجل ذلك كله كانت طريقة أهل الحق بيان الخير الموصل إلى مرضاة الله تعالى، وبيان الشر الذي يعيق الوصول إلى مرضاته سبحانه وتعالى ليكون المرء على أشد الحذر منه ومن أسبابه وطرائقه.

وأعظم الأمر وأوله في الحقوق على المكلفين هو توحيد الله تعالى ؛ إذ هو الغاية من إيجادهم، فبيان ذلك يسبق كل بيان، والتحذير مما يخالفه ويناقضه يسبق كل تحذير.

ولذلك كان بيان التوحيد والشرك مقدما في بيان أهل السنة للحق، فكلامهم المنقول ومصنفاتهم المرقومة أظهر شاهد لذلك، وهذا نتيجة الأخذ بالنصوص الشرعية وفهمها الفهم الصحيح وتقديمها على غيرها، إذ أن كتاب الله تعالى كله في تقرير التوحيد ولوازمه، ونقض الشرك وأسبابه، يرى ذلك من تأمل الكتاب حق التأمل، ووقف بفهم ثاقب مع سنة النبي ﷺ وأيامه ولياليه.

ومسائل الدين - وخاصة الكبار التي يتعلق بها أساس التكليف - ليست محل خفاء ولا غموض ولا تعقيد، بل هي من الجلاء بالمحل

---

(١) رسالة «الشرك ومظاهره» ص ٤٧.

الأرفع، ولكن قد يغيب عن النفس ذلك الجلاء لا من خفاء المعنى، ولكن عماية الجهل، وغلبة الهوى اللذان يحجبان نور الحق كما تحجب الكف عن العين شعاع الشمس في ضحاها، وكما قال القائل:

حجرة ملؤها الظلام حوتني وحوتها أشعة القمراء
رب نفس تلفها ظلمات وهي في عالم كثير الضياء[١]

فمسألة التوحيد والشرك هي أوضح المسائل بيانا في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، ولذلك فإن تعريفات أهل السنة لهما هو تذكير لذلك المعنى البين الجلي، وليس لاشتباه الأمر أو لحاجته إلى التفسير والبيان.

ولقد تعددت أقوالهم في التعريف بهما إلا أن ذلك كله دائر حول المعنى المبين الذي لا يخفى إلا على من عمي قلبه، نسأل الله تعالى الهدى والتقى.

- **المعنى اللغوي للشرك:**

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (شرك: الشين والراء والكاف أصلان، أحدهما يدل على مقارنة وخلاف انفراد، والآخر يدل على امتداد واستقامة)[٢].

والشرك بتسكين الراء هو المراد به الأصل الأول، وهو المقارنة وخلاف انفراد.

---

(١) ديوان المثاني لـ عبدالوهاب عزام ص ٦٩.
(٢) معجم مقاييس اللغة ٣/ ٢٦٥ - مادة (شرك).

قال ابن فارس: (فالأول: الشِّرْكة، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلانا في الشيء، إذا صرتَ شريكه. وأشركت فلانا، إذا جعلته شريكا لك)(١).

وقال ابن منظور: (الشِّرْكة والشَّرِكة سواء: مخالطة الشريكين)(٢).

وقال الأزهري: (الشرك بمعنى الشريك وبمعنى النصيب، وجمعه أشراك كشبر وأشبار، وقال لبيد:

تطير عدائد الأشراك شفعا ... ووترا والزعامة للغلام)(٣)

وفي تاج العروس: (طريق مشترك: يستوي فيه الناس. واسم مشترك: يشترك في معان كثيرة، كالعين ونحوها، فإنه يجمع معاني كثيرة قال ابن الأعرابي:

ولا يستوي المرآن هذا ابن حرة ... وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك

فسره فقال: معناه مشترك.

وشركه في الأمر: دخل معه فيه، وأشركه معه فيه)(٤).

وقال الراغب في المفردات: (الشِّرْكة والمشاركة: خلط الملكين، وقيل: هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعدا، عينا كان ذلك الشيء أو معنى، كمشاركة الإنسان والفرس في الحيوانية، ومشاركة فرس وفرس

---

(١) المرجع السابق ٣/ ٢٦٥.
(٢) لسان لعرب ١٠/ ٤٤٨ - مادة شرك.
(٣) المرجع السابق.
(٤) تاج العروس لمرتضى الزبيدي ١٣/ ٥٩٤.

في الكمتة والدهمة[١])[٢].

ويتضح مما سبق أن الشرك في اللغة يرجع إلى معنى الخلط والضم والتسوية، وما ذكر له من معنى فإنه يرجع إلى ذلك[٣].

● **معنى الشرك شرعا:**

مما سبق في التعريف اللغوي لكلمة (الشرك)، يتضح المعنى الشرعي لها لموافقته له في الأصل، إلا أن الإطلاق الشرعي مختص بما هو حق لله سبحانه وتعالى فلا يشركه فيه أحد.

وأوضح تعريف للشرك بالمعنى الشرعي هو ما كان من قول صاحب الرسالة ﷺ، فقد سئل عليه الصلاة والسلام: أي الذنب أعظم؟ فقال (**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**)[٤].

وهذا هو الشرك الذي دلت نصوص أخرى كثيرة على أنه أكبر الكبائر وأعظم الذنوب.

والنِّد هو مثل الشيء الذي يضاده في أموره، والله تعالى هو وحده الخالق وكل من سواه فهو مخلوق، وهو وحده المالك وكل من سواه فهو مملوك، وهو وحده المدبِّر وكل من سواه فهو مدبَّر، وهو وحده المستحق للعبادة، فمن صرف شيئا من خصائص الله تعالى لغيره فقد

---

(١) الكمتة: هي لون بين السواد والحمرة يكون في الخيل والإبل وغيرهما. والدهمة: السواد. انظر: لسان العرب، مادة «كمت» ٢/ ٨١، ومادة «دهم» ١٢/ ٢٠٩.

(٢) المفردات ص ٢٥٩.

(٣) انظر: رسالة «الشرك ومظاهره» لمبارك الميلي ص ١٠٢-١٠٣.

(٤) تقدم تخريجه ص ٢١٥، الحاشية (٢).

جعله ندا لله تعالى في ذلك الشيء، وهذا هو الشرك به سبحانه وتعالى.

وهذا المعنى قد جاء واضحا جليا في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿...فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي أشباه[١].

وقال قتادة ومجاهد: عدلاء[٢].

فمن صرف شيئا من خصائص الله تعالى للمخلوق فقد جعله شبيها وعدلا له.

وكما في قوله تعالى: ﴿...ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١].

قال ابن جرير رحمه الله (والذين يجحدون نعمة الله عليهم بما أنعم عليهم من خلق ذلك لهم ولكم أيها الناس «بربهم» الذي فعل ذلك وأحدثه «يعدلون»: يجعلون له شريكا في عبادتهم إياه، فيعبدون معه الآلهة والأنداد والأصنام والأوثان، وليس منها شيء شركه في خلق شيء من ذلك، ولا في إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم، بل هو المنفرد بذلك كله، وهم يشركون في عبادتهم إياه غيره، فسبحان الله ما أبلغها من حجة، وأوجزها من عظة، لمن فكر فيها بعقل، وتدبرها بفهم)[٣].

ولما كان أكثر الشرك الواقع في الناس هو في صرفهم أنواعا من

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ١/ ١٦٣
(٢) المرجع السابق.
(٣) جامع البيان للطبري ٥/ ٧/ ١٤٤.

العبادة لغير الله تعالى صار الشرك منصرفا عند الإطلاق إلى الشرك في العبادة.

وقد سبق تقرير أن شرك السابقين كان في الألوهية، أما الربوبية فقد كانوا يقرون بها ؛ ولذلك كانت أول دعوة رسلهم إليهم إلى أن يعبدوا الله تعالى وحده، والنهي عن الشرك في العبودية.

وهذا لا يعني أن الشرك لا يكون إلا في العبودية فقط، ولكن لما كان الشرك في ذلك هو الأغلب صار اللفظ منصرفا له عند الإطلاق، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله - في الكلام على أنواع الشرك.

وقد تعددت أقوال أهل السنة في تعريفهم للشرك، إلا أن معنى ما يذكرونه راجع إلى معنى ما سبق - شأنهم في كل مآخذهم وهو اتباع نصوص الوحيين -.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (فمن عدل بالله غيره في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى فهو مشرك)[١].

وقال أيضا : (وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئا من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به)[٢].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : (وأما الشرك فهو نوعان : أكبر وأصغر. فالأكبر : لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٣/ ١٩.
(٢) الاستقامة ١/ ٣٤٤.

الله نداً، يحبه كما يحب الله)[١].

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله: (بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئا يختص به سبحانه)[٢].

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله: (الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية)[٣].

وقال الشيخ عبدالرحمن ابن سعدي رحمه الله: (حقيقة الشرك بالله أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم المخلوق كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية)[٤].

قلت: وكل هذا شامل للتشبيه في خصائص الربوبية، لما سبق بيانه من تضمن توحيد الألوهية لتوحيد الربوبية.

والحاصل أن المعنى الشرعي للشرك معنى ظاهر بيّن في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، ويدور كلام أهل السنة في تعريفه حول ذلك المعنى، وهو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، سواء كان ذلك في خصائص الربوبية وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، أو كان ذلك في استحقاقه للعبادة وحده سبحانه لا شريك له.

● **أنواع الشرك:**

لما كان الشرك مقابلا للتوحيد، وكان التوحيد متنوعا - بدلالة

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٤٨.

(٢) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ص ٣٢.

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ١١٥.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٢/ ٤٩٩.

الاستقراء - إلى أنواع ثلاثة - كما تقدم ـ، فإن الشرك له تنوع باعتبار هذه المقابلة، فيكون لكل نوع من أنواع التوحيد مقابل من الشرك.

إضافة إلى تنوع آخر هو باعتبار درجة الشرك نفسه وحكم صاحبه من حيث خروجه من دائرة الإسلام أو لا.

وبناء على ذلك فالشرك باعتبار مقابلته لأنواع التوحيد له أنواع ثلاثة:

النوع الأول: الشرك في الربوبية.

النوع الثاني: الشرك في الألوهية.

النوع الثالث: الشرك في الأسماء والصفات.

وتعريف كل نوع من هذه الأنواع مأخوذ من معنى ما تقدم تقريره في معنى الشرك شرعا مع تخصيص ذلك بمدلول ذلك النوع.

فالنوع الأول: الشرك في توحيد الربوبية: وهو صرف شيء من خصائص الربوبية لغير الله تعالى، كالخلق ولإيجاد والاستقلال بالفعل ونحو ذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في تعريف الشرك في الربوبية: (هو إثبات فاعل مستقل غير الله، كمن يجعل الحيوان مستقلا بإحداث فعله، ويجعل الكواكب أو الأجسام الطبيعية أو العقول أو النفوس أو الملائكة، أو غير ذلك مستقلا بشيء من الأحداث)[1].

وهذا النوع من الشرك لم يكن محل المنازعة بين الرسل عليهم

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٧/ ٣٩٠.

الصلاة والسلام ومخالفيهم، وقد تقدم من النصوص ما يدل على أن مشركي العرب لم يكونوا واقعين في هذا النوع، بل كانوا مقرين بوحدانية الله تعالى في خلق السماوات الأرض وملكه سبحانه لكل شيء.

يقول الإمام ابن أبي العز رحمه الله : (فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥] الآيات، ومثل هذا كثير في القرآن.

ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم)[1].

ومع أن أكثر الناس لم ينازعوا في هذا الشرك إلا أن طوائف منهم وقعت فيه كقول بعض المشركين : إن ثم خالقا خلق بعض العالم. وكما يقوله الثنوية من المجوس في النور والظلمة، والفلاسفة الدهرية في حركة الأفلاك.

ولذلك فقد جاء بيان بطلان هذا النوع من الشرك في القرآن، والإلزام بما هو لازم له من توحيد الخالق سبحانه وتعالى في الألوهية.

قال تعالى : ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩.

كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (فتأمل هذا البرهان الباهر، بهذا اللفظ الوجيز البين، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقا فاعلا، يوصل إلى عابده النفع، ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه، بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بمماليكهم إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه .... وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد، لا إله غيره)[1].

أما النوع الثاني وهو الشرك في توحيد الإلهية : هو أن يصرف شيئا من العبادة لغير الله تعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعريفه : (بأن يدعى غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة، كما قال سبحانه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]»[2].

وقد تقدم معنى الألوهية وأنها العبادة، فمن صرف شيئا من أمور العبادة كالصلاة والصيام والنسك إلى غير الله تعالى كائنا من كان، فقد أشرك في توحيد الألوهية.

وهذا الشرك هو الأكثر وقوعا في الناس، وهو الذي كانت فيه

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص ٦٢.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (تحقيق د. ناصر العقل) ٢/ ٢٢٦.

المنازعة بين الأنبياء ومخالفيهم، ولذلك كان أول دعوتهم إلى نبذ هذا النوع من الشرك.

ولذلك فإن الشرك إذا أطلق فالمراد الأغلب فيه منصرف إلى هذا النوع، إذ أنه محل المنازعة والإعراض.

ولذلك فإن الكلام عن الشرك وبيان بطلانه والتحذير منه في نصوص الكتاب والسنة هو في هذا النوع بالأصالة، وهو مشتمل ضمنا على بيان بطلان غيره.

ولقد تعددت النصوص من الكتاب والسنة وتنوعت في بيان بطلان هذا النوع، ومن طرق القرآن في ذلك :

١- النهي عنه، ووصفه بأقبح الأوصاف بأنه أعظم الظلم وأعظم الجهل وأسوأ القول والعمل، وأنه مناف للعقل والفطرة.

قال تعالى : ﴿...إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر: ٦٤]، وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ٥﴾ [الأحقاف: ٥]، وقال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٣١﴾ [الروم: ٣٠-٣١].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى.

٢- بيان عاقبة هذا الشرك، وأن صاحبه لا يغفر له كائنا من كان، كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن

يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

٣- بيان بطلان كل سبب موجب لهذا الشرك، وقطع كل حجة يتمسك بها صاحبه، حتى لم يبق أي شيء يتمسك به يصحح فيه ما هو عليه.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسد بها عليهم أبلغ سد وأحكمه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو كان لا يرجو منفعة؛ لم يتعلق قلبه به، وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكا للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكا لمالكها، أو ظهيرا، أو وزيرا، أو معاونا له، أو وجيها ذا حرمة وقدر يشفع عنده.

فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده ...)[1].

والحاصل أن هذا النوع من الشرك ينصرف إليه معنى الشرك عند الإطلاق لأجل ما سبق بيانه من أنه محل المنازعة وكثرة الانتشار.

ولذلك فإن تعريف الشرك بمعنى هذا النوع - كما قد يعرفه به

---

(١) مختصر الصواعق ص ٦١-٦٢.

بعض أهل السنة - ليس هو من نقص المعنى ولا قصر العبارة عن كمال مدلولها، ولكن لأن الخلوص من هذا النوع متضمن الخلوص من غيره، ولأنه أصل شرك المشركين.

النوع الثالث: الشرك في الأسماء والصفات: وهو صرف شيء من خصائصه سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته لأحد من المخلوقين.

وقد بين الله تعالى بطلان هذا الشرك بنفي المماثلة له من أحد من خلقه، كما في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وفي قوله تعالى: ﴿...لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وفي قوله سبحانه: ﴿...هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

وهذا النوع من الشرك متضمن لما سبق من الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية باعتبار تضمن توحيد الأسماء والصفات لاسمه تعالى (الرب) واسمه (الإله)، فهما من أسمائه عز وجل خاصان به، لا يشاركه فيهما غيره، دالان على وصف الربوبية والألوهية، فمن جعل للمخلوق شيئا من خصائص الربوبية أو شيئا من خصائص الألوهية فقد وقع في هذا النوع من الشرك ضمنا.

يقول الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله: (وأما توحيد الأسماء والصفات فهو شامل للنوعين السابقين - يعني توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية -، فهو يقوم على إفراده سبحانه بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا تنبغي إلا له، ومن جملتها كونه ربا

واحدا لا شريك له في ربوبيته، وكونه إلها واحدا لا شريك له في ألوهيته.

فاسم الرب لا ينصرف عند الإطلاق إلا إليه : فله وحده الربوبية المطلقة الشاملة لجميع خلقه.

وكذلك اسم الجلالة «الله» لا يطلق - كما قدمنا - إلا عليه وحده، فهو ذو الإلهية على جميع خلقه ليس لهم إله غيره)[١].

فهذا وجه تضمن هذا النوع لبقية الأنواع.

ولكن لما كان ضلال عامة من أشرك في عدم تحقيق معنى الألوهية ولوازم الربوبية أُفرد هذان النوعان بالذكر، كما قال الإمام المقريزي رحمه الله : (وشرك الأُمم كله نوعان : شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية)[٢]، والله أعلم.

أنواع الشرك باعتبار حكمه[٣]:

● **النوع الأول : الشرك الأكبر :**

وهو إثبات شريك لله تعالى في شيء من خصائصه، كمن يعتقد أحدا خالقا مع الله، أو يتخذ من دونه أندادا يحبهم كحب الله أو يصرف لهم شيئا من العبادة.

فهذا الشرك لا يغفر الله لصاحبه، وصاحبه خالد مخلد في النار، لا يقبل الله تعالى منه صرفا ولا عدلا، وهو المراد بمثل قوله تعالى :

---

(١) دعوة التوحيد ص ٧٣.
(٢) تجرد التوحيد المفيد ص ٥٢. وانظر: مدارج السالكين لابن القيم ١-٨٥-٨٦.
(٣) انظر: مدارج السالكين لابن القيم ١/ ٣٤٨ وما بعدها.

﴿...إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

وهو الذي كان عليه غالب الناس قبل الإسلام، والذي أبقى عليه أعداء الرسل وقاتلوا من أجله، فصار أظهر وصف لاصق بهم، فلذلك تغلب تسميتهم في القرآن به، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: ١]، وغير ذلك من الآيات.

فمن صرف شيئا مما هو من خصائص الله تعالى كاعتقاد أن غيره مشارك له في الخلق والتدبير أو صرف أي نوع من أنواع العبادة لغيره، فهو مشرك شرك أكبر، حكمه حكم المشركين السابقين، ولو صلى وصام وقال إني مسلم، إذ لا يجتمع هذا النوع مع الإسلام أبدا.

● **النوع الثاني: الشرك الأصغر:**

لقد تعددت أقوال العلماء في تعريف هذا النوع من الشرك، إلا أنها ليست محل تعارض.

فمنهم من عرفه بالمثال كما فعل الإمام ابن القيم رحمه الله حيث قال: (وأما الشرك الأصغر: فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (**من حلف بغير الله فقد أشرك**)، وقول الرجل للرجل (ما شاء الله وشئت)، و (هذا من الله ومنك) و (ما لي إلا الله وأنت) و (أنا متوكل على الله وعليك) و (ولولا أنت لم يكن

كذا وكذا)، وقد يكون هذا شرك أكبر بحسب قائله ومقصده)[١].

ويعرفه الراغب رحمه الله في المفردات بأنه : (مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق المشار إليه بقوله ﴿...جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: ١٩٠])[٢].

ومن أهل العلم من عرفه بأنه ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر.

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله : (هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة)[٣].

ويقول الشيخ عبدالعزيز السلمان رحمه الله : (هو كل وسيلة وذريعة يتطرق بها إلى الشرك الأكبر)[٤].

والذي أراه أكثر انضباطا، وأدق تعبيرا في تعريف الشرك الأصغر - والله أعلم - هو : أنه (ما أتى في النصوص أنه شرك، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر)[٥].

وذلك لأمرين :

١- أن الحكم على شيء بأنه من الشرك الأصغر مرجعه إلى النص

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٥٢.
(٢) المفردات ص ٤٥٢.
(٣) القول السديد في مقاصد التوحيد - في حاشية كتاب التوحيد ص ٥٣.
(٤) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص ٣٢١.
(٥) انظر: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ عبدالعزيز بن باز - جمع محمد الشويعر ١/ ٤٤، ومجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن عثيمين - جمع فهد السليمان ٢/ ٢٠٣.

الشرعي.

٢- أن أظهر ما يتميز به الشرك الأصغر عن الأكبر كونه لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام.

فإذا ورد في نصوص الشرع تسمية قول أو فعل بأنه شرك، مع دلالة الشرع أن من وقع في شيء من ذلك لا يخرج من الملة، فهذا الشرك محمول على الشرك الأصغر.

ومثل هذا لفظ الكفر وحكمه، فما ورد في النصوص أنه كفر فهو محمول على ما هو مخرج من الملة، أي الكفر الأكبر، إلا إذا دلت الدلائل الشرعية على بقاء صاحبه مسلما، فهو محمول إذاً على الكفر الأصغر.

وقد جاء في الحديث أن الشرك الأصغر هو الرياء، كما في حديث محمود بن لبيد الأنصاري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**)، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله.؟ قال: (**الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**)[1].

وهذا - والله أعلم - لأن الرياء أمر غالب في الناس، وقلّ أن ينجو منه أحد، فسمي الشرك الأصغر به لغلبته وعظيم خطره، أو لأنه

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٤٢٨، ورواه الحاكم من حديث شداد بن أوس ﷺ ٤/ ٣٦٥ موقوفاً بلفظ: «كنا نعد على عهد رسول الله ﷺ أن الرياء الشرك الأصغر». قال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

مبدأ الشرك، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن الرياء: (هو من جنس الشرك أو هو مبدأ الشرك)[١].

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يخافونه ويحذرونه، كما قال ابن أبي مليكة: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه)[٢].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص)[٣].

وسماه النبي ﷺ: شرك السرائر، كما جاء في الحديث عن محمود ابن لبيد رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ فقال: (**أيها الناس إياكم وشرك السرائر**) قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟ قال: (**يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر**)[٤]

وسماه أيضا: الشرك الخفي، كما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: (**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**) قالوا: بلى! قال: (**الشرك الخفي، يقوم الرجل**

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٨/ ١٦٢.
(٢) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ١/ ٣٢.
(٣) فتح الباري ١/ ١٣٦.
(٤) رواه ابن خزيمة في صحيحه ٢/ ٦٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٢٩٠، وابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٢٢٧.

فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل)[١].

ويمكن التفريق بين الشرك الأكبر والأصغر بما يلي[٢]:

أولا : أن الشرك الأكبر مخرج للعبد من ملة الإسلام، أما الشرك الأصغر فلا يخرج من الملة .

ثانيا : أن الشرك الأكبر محبط للأعمال كلها، جملة وتفصيلا، وأما الشرك الأصغر فيحبط العمل الذي قارنه.

ثالثا : الشرك الأكبر موجب للخلود في النار، أما الشرك الأصغر فلا يوجب الخلود في النار فهو إما موجب لدخول النار، أو أن حكمه حكم الكبائر فهو تحت مشيئة الله تعالى إن شاء عذب صاحبه وإن شاء عفا عنه - على خلاف بين أهل العلم في هذه المسألة -[٣].

---

(١) رواه ابن ماجه في الزهد - باب الرياء والسمعة - رقم ٤٢٠٤، وأحمد في المسند ٣/ ٣٠، والحاكم في مستدركه ٤/ ٣٦٥ وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة للشيخ عبدالعزيز بن باز - جمع محمد الشويعر ١/ ٤٨، المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة والجماعة. لـ د. إبراهيم البريكان ص ١٤٩

(٣) ومن المناسب هنا أن أنقل كلاما للشيخ عبد الرحمن السعدي - وهو ضمن رسالة بعثها الشيخ إلى الشيخ عبد الرحمن الحصين، ذكرها الدكتور عبد الرزاق البدر في كتابه " الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة" ص ١٨٨، ١٨٩، وذكر أنها مؤرخة في ٢٩/ ٦/ ١٣٧٤ -

قال الشيخ ابن سعدي: (من لحظ إلى عموم الآية - يعني قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] الآية - وأنه لم يخص شركا دون شرك أدخل فيها الشرك الأصغر، وقال إنه لا يغفر، بل لا بد أن يعذب صاحبه؛ لأن من لم يغفر له لا بد أن يعاقب. ولكن القائلين بهذا لا يحكمون بكفره ولا بخلوده بالنار وأنه =

رابعا : أن الشرك الأكبر يحل النفوس والأموال، بعكس الشرك الأصغر.

❁❁❁❁❁

= يعذب عذابا أبديا؛ لأن هذا مذهب الخوارج المنحرفين، وإنما يقولون يعذب عذابا بقدر شركه ثم بعد ذلك مآله إلى الجنة.

وأما من قال إن الشرك الأصغر لا يدخل في الشرك المذكور في هذه الآية، وإنما هو تحت المشيئة فإنهم يحتجون بقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، فيقولون: كما إنه بإجماع الأئمة أن الشرك الأصغر لا يدخل تحت هذه الآية التي حكم الله بها للمشرك بتحريم الجنة والخلود في النار فلا يدخل في تلك الآية...).

الفصل الثاني

معنى الشرك عند المبتدعة

لقد تبين مما سبق أن التوحيد عند المبتدعة يتحقق بتحقق إفراد الله تعالى بالربوبية، وأنه وحده الخالق المدبر المستقل بالفعل دون غيره، وأن ذلك - عندهم - هو معنى التوحيد الذي يجمع جوانبه.

وبناء على ذلك فإن مفارقة ذلك التوحيد لا تكون إلا بتخلف ذلك المعنى في الاعتقاد، أي أن الشرك هو اعتقاد خالق مدبر مستقل بالفعل مع الله تعالى، أما إذا كان هذا المعنى منتفيا في النفس فإن الشرك منتف عنها.

وهذا ما يصرح به المخالفون في توحيد العبادة، والذين يقرون ما يصرفه كثير من الناس من أنواع العبادة لغير الله تعالى كالدعاء والاستغاثة والتوكل والذبح والنذر، ونحو ذلك، معللين ذلك بأن تلك الأفعال والأقوال خالية من اعتقاد الخالقية لغير الله تعالى، وعليه فلا يصح أن تحمل على الشرك - عندهم -.

يقول القاضي علي بن عبدالكافي السبكي - في تقرير ما يفعل عند قبر النبي ﷺ من أنواع الاستغاثات والتوسلات، وأن ذلك ليس من معنى الشرك ؛ إذ أن الشرك متعلق بجانب الربوبية فقط، أما تلك الاستغاثات فالباعث عليه تعظيم قدر النبي ﷺ واعتقاد عظم جاهه عند الله تعالى دون أن يكون فيها صرف شيء من خصائص الربوبية له، فهو وسيلة للداعي عند ربه سبحانه ـ، يقول : (واعلم أن ههنا أمرين لا بد

منهما :

الأول : وجوب تعظيم النبي ﷺ، ورفع رتبته على سائر الخلق.

والثاني : إفراد الربوبية، واعتقاد أن الرب تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه.

فمن اعتقد في أحد من الخلق مشاركة الباري تعالى في ذلك، فقد أشرك وجنى على جانب الربوبية فيما يجب لها، وعلى الرسول فيما أدى إلى الأُمة من حقها.

ومن قصر بالرسول عن شيء من رتبته، فقد جنى عليه فيما يجب له، وعلى الله تعالى بمخالفته فيما أوجب لرسوله.

ومن بالغ في تعظيم النبي ﷺ بأنواع التعظيم، ولم يبلغ به ما يختص بالباري تعالى، فقد أصاب الحق، وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعا، وذلك هو العدل الذي لا إفراط فيه ولا تفريط)[١].

فواضح من هذا الكلام - ومما قرره في كتابه هذا من جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ في قبره[٢] - تقييد معنى الشرك بالربوبية.

ويعرف أحمد زيني دحلان الشرك ببيان ما يوقع المرء في الشرك فيقول : (فالذي يوقع في الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله سبحانه، أو اعتقاد التأثير لغير الله . . . ولا يعتقد أحد من المسلمين ألوهية غير الله، ولا تأثير أحد سوى الله)[٣].

---

(١) شفاء السقام في زيارة خير الأنام ص ٢٥٩.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٣١٣.

(٣) الدرر السنية ص ٣٤.

ويقول أيضا : (الذي يقدح في التوحيد هو اعتقاد التأثير لغير الله، أو اعتقاد الألوهية أو استحقاق العبادة لغير الله، وأما مجرد النداء من غير اعتقاد شيء من ذلك فلا ضرر فيه)[١].

ويقرر علوي الحداد صحة ما عليه المستغيثون بأهل المقابر بنفي الشرك عنهم، إذ أنهم لم يعتقدوا فيهم قدرة على الخلق والإيجاد، فيقول : (هؤلاء مهما عظموا الأنبياء والأولياء فإنهم لا يعتقدون فيهم ما يعتقدون في جناب الحق تبارك وتعالى من الخلق الحقيقي التام العام، وإنما يعتقدون الوجاهة لهم عند الله في أمر جزئي، وينسبونه لهم مجازا، ويعتقدون أن الأصل والفعل لله سبحانه)[٢].

ويستنكر الشطي أن يكون مجرد الدعاء والاستغاثة من دون ذلك الاعتقاد أن يكون من معاني الشرك فيقول : (فإنهم يصرحون - يعني الوهابية كما يسميهم - بأن من يستغيث بالرسول ﷺ أو غيره في حاجة من حوائجه، أو يطلب منه أو يناديه في مطالبه ومقاصده، ولو بـ (يا رسول الله)، أو اعتقد على نبي أو ولي ميت وجعله واسطة بينه وبين الله في حوائجه فهو مشرك حلال الدم والمال)[٣].

ويقول محمد علوي المالكي - في تقرير هذا المعنى - : (أنه لا يكفر المستغيث إلا إذا اعتقد الخلق والإيجاد لغير الله تعالى)[٤].

---

(١) الدرر السنية ص ٣٥.
(٢) مصباح الأنام ص ٥.
(٣) النقول الشرعية في الرد على الوهابية - ضمن مجموعة رسائل - ص ٧٤.
(٤) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٨٧.

ويقول - مقررا ما عليه أهل الاستغاثة بالمقبورين، وأن ما هم فيه ليس من معاني الشرك - : (ومن هنا فإن الواجب علينا أننا إذا وجدنا في كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله سبحانه وتعالى فإنه يجب حمله على المجاز العقلي، ولا سبيل إلى تكفيرهم ؛ إذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسنة، فصدور ذلك الإسناد من موحد كاف في جعله إسنادا مجازيا ؛ لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أن الله هو الخالق للعباد وأفعالهم، لا تأثير لأحد سواه لا لحي ولا لميت، فهذا الاعتقاد هو التوحيد، بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك، وليس في المسلمين إطلاقا من يعتقد لأحد مع الله فعل أو ترك أو رزق[1] أو إحياء أو إماتة، وما جاء من الألفاظ الموهمة فإن مقصود أصحابها هو الاستشفاع إلى الله بتلك الوسيلة)[2].

ويحصر جعفر السبحاني معنى الشرك بأمر اعتقادي راجع إلى معنى اعتقاد الربوبية في غير الله تعالى فيقول : (خلاصة القول في المقام أن أي عمل ينبع من هذا الاعتقاد (أي اعتقاد بأنه إله العالم أو ربه أو غني في فعله وأنه مصدر للأفعال الإلهية) ويكون كاشفا عن هذا النوع من التسليم المطلق يعد عبادة، ويعتبر صاحبه مشركا إذا فعل ذلك لغير الله.

ويقابل ذلك : القول والفعل والخضوع غير النابع من هذا الاعتقاد)[3].

ولذلك فقد جعل شرك مشركي عهد الرسالة واقعا باعتقادهم نوعا

---

(١) هكذا في الأصل. والصواب: فعلاً أو تركاً أو رزقاً.
(٢) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٨٤.
(٣) التوحيد والشرك في القرآن الكريم ص ٨٨.

من الاستقلال في الفعل لآلهتهم[١].

والحاصل أن المعنى المقرر للشرك عند المبتدعة المخالفين في توحيد العبادة هو أمر اعتقادي متعلق بنسبة شيء من الفعل استقلالا لغير الله تعالى.

ولذلك لما كان التوحيد متعلقاً - عندهم - بالربوبية، صار الشرك أيضا متعلقا بالربوبية.



(١) المرجع السابق ص ٨٤.



الفصل الثالث

شبهات المبتدعة في أن شرك الأمم السابقة كان في الربوبية

لما كان قول المبتدعة في معنى الشرك راجعا إلى اعتقاد الربوبية لأحد غير الله تعالى، وأن العبادات المصروفة لغير الله تعالى لم تكن شركا - عندهم - إلا لكونها متضمنة اعتقاد الربوبية في المعبود؛ لم يكن بد - عندهم - أن يقرروا أن المشركين السابقين الذين أرسل الله تعالى إليهم الرسل مبشرين ومنذرين كانوا معتقدين الربوبية في آلهتهم التي عبدوها مع الله تعالى، وأنهم بذلك صاروا مشركين.

أما مجرد الدعاء والاستغاثة وطلب الحوائج من معبوداتهم فليست هي - عندهم - موجب الشرك ولا من معناه.

ولذلك فإنهم يعتذرون - بل هم مقرون - لما يقوم به كثير من العوام من الاستغاثات بالأموات، وما يصرفونه لهم من أنواع العبادات بأن ذلك لم يصدر من قلب معتقد الربوبية لغير الله تعالى، بل قلب رأى عظيم المنزلة ورفعة الجاه لأناس قربهم المولى إليه، فجعلوهم واسطة رغبة أن يشفعوا له عند ربه.

وإذا بُين لهم الأمر، وتليت عليهم آيات الكتاب التي وصفت الشرك وبينت حكم أهله، قالوا تلك آيات نزلت في المشركين الأولين، حيث كانوا يعتقدون أن آلهتهم مستقلة بالضر والنفع، أما ما يفعله الناس اليوم من طلب ودعاء واستغاثة بالأموات فشيء آخر ليس من

معنى الشرك في شيء ؛ إذ أن أصحابه يقولون : لا إله إلا الله. ولا يعتقدون أن غير الله تعالى خالق مدبر مستقل بالفعل والنفع والضر.

فشرك الأمم السابقة - عندهم - كان كله في اعتقاد الربوبية لغير الله تعالى، وأن ما صرفوه لآلهتهم من الدعاء والرجاء والخوف والمحبة صار شركا لما كان قائما على اعتقادهم الربوبية فيهم.

يقول داود بن جرجيس - مقررا أن المشركين عباد الأصنام كانوا مشركين في الربوبية - : (فاعلم أن الكفار كانوا مشركين بالله تعالى أصنامهم في الربوبية والعبادة ... فمن قال إن الكفار كانوا يوحدون الله توحيد الربوبية أخذا من ظاهر بعض الآيات فقد أخطأ وما أصاب، ولا تدبر السنة ولا الكتاب، فإن الربوبية والألوهية متلازمان، الرب والإله معناهما واحد، لأن الذي يستحق أن يعبد لا بد أن يكون ربا)[١].

ويقول السمنودي - مقررا ذلك أيضا - : (فجاءهم الشرك - يعني مشركي العرب - من جهة اعتقادهم استحقاق العبادة لغير الله، واتخاذهم ربا من دون الله، وأما المسلمون فهم بحمد الله بريئون من ذلك، إذ لا يعتقدون شيئا يستحق الألوهية والعبادة غير الله تعالى، فهذا هو الفرق بين الحالين)[٢].

ويقول القباني - في تقرير ذلك أيضا - : (فهل سمعت عن أحد من المستغيثين أنه يعتقد في الرسول ﷺ أو في الولي المستغاث به أنه إله مع الله تعالى يضر وينفع ويشفع بذاته كما يعتقد المشركون فيمن

---

(١) نقلاً عن سعادة الدارين للسمنودي ٢/ ٢٢.

(٢) سعادة الدارين ٢/ ٢٢.

عبدوه)[١].

ويقول محمد بن عبدالمجيد : (إنما كفر أهل الجاهلية بعبادة الأصنام لتضمنها اعتقاد شيء من صفات الربوبية لها)[٢].

ويقول العاملي في «كشف الارتياب» - مقررا شرك مشركي العرب في الربوبية - : (لا شيء يدلنا على أنهم - أي مشركي العرب - لا يعتقدون في الأصنام ومعبوداتهم من الجن والإنس والملائكة أنه لا تأثير لها في الكون، وأن التأثير لله وحده وهي شافعة فقط، إذ يجوز أن يعتقدوا أن لها تأثيرا بنفسها بغير ما في الآيات المستشهد بها، فتشفي المرضى، وتنصر على الأعداء، وتكشف الضر وغير ذلك، وأنها تشفع عند الله حتما ولا يرد شفاعتها، أو أن الله جعل لها قسطا من التأثير أوكله إليها، بل ظاهر الآيات هو ذلك)[٣].

ويقول الزهاوي : (أن المشركين إنما كفروا بسبب عبادتهم تماثيل الأنبياء والملائكة والأولياء التي صوروها على صورهم، وسجدوا لها وذبحوا، وبسبب اعتقادهم في الملائكة والأنبياء والأولياء أنهم آلهة مع الله يضرون وينفعون بذواتهم)[٤].

ويقول الطبطبائي - مقررا أن الله تعالى حكم بشرك المشركين

---

(١) فصل الخطاب في رد ضلالات ابن عبدالوهاب - مخطوط - ق ٦١. نقلاً عن «دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - لـ د. عبدالعزيز آل عبداللطيف ١٩٥.

(٢) الرد على بعض المبتدعة من الطائفة الوهابية ص ١١.

(٣) كشف الارتياب ص ١٧٠.

(٤) الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق ص ٥١.

لاعتقادهم الربوبية في غيره سبحانه - : (ثم إنه سبحانه حكم بشركهم لاتخاذهم تلك الأصنام شريكا لله في خلق وتدبير العالم، وجوزوا خلافتها لله تعالى فيما نهاهم عنه على لسان أنبيائه بقوله تعالى : (فلا تجعلوا لله أندادا)، وأين هذا ممن لا يعتقد في الأنبياء والصلحاء الخلق والتدبير ولا يعتقد عبادتهم)[١].

ويعجب الدجوي ممن قال بالتفريق بين الربوبية والألوهية وجعل المشركين مقرين بالربوبية، فيقول : (وإني أعجب لتفريقهم بين توحيد الألوهية والربوبية، وجعل المشركين موحدين توحيد الربوبية مع قوله تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله)، وهل المراد من الأرباب إلا المعبودون؟)[٢].

فالحاصل أن المبتدعة لم يجدوا مخرجا من إلزامهم بمشابهة أعمال وأقوال المستغيثين بغير الله أهل القبور ونحوهم بما كان عليه أهل الجاهلية الأولى إلا بالقول بأن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون الربوبية في معبوديهم، وبذلك استحقوا وصف الشرك وحكمه.

وما سبق من نقول هو أمثلة توضح تقريرهم لهذا المعنى.

أما شبهاتهم التي تمسكوا بها في تقرير هذا المعنى فسأعرض إليها مبينا بطلان مستمسكهم بها - إن شاء الله تعالى -، ولكن قبل ذلك سأذكر جوابا عاما عن قولهم بأن شرك الأمم كان في الربوبية، مبينا أن

---

(١) البراهين الجلية ص ٣٢-٣٣.

(٢) مجلة نور الإسلام - المجلد الرابع - مقال «توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية» ص ٣٢٢.

أكثر الشرك الذي وقع فيه كثير من الناس هو الشرك في الألوهية مع إقرارهم بإفراد الله تعالى في الربوبية.

بيان أن أكثر شرك الأمم السابقة كان في الألوهية دون الربوبية :

أولا : أن أول شرك وقع في البشرية كان في قوم نوح عليه الصلاة والسلام، فقد كان الناس قبل ذلك من لدن آدم عليه الصلاة والسلام على التوحيد، واستمروا على ذلك قرونا، حتى وقع الشرك فأرسل الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وكان نوح عليه الصلاة والسلام أول الرسل؛ إذ أن أول وقوع الشرك في البشرية كان في قومه.

وهذا الشرك الذي وقعوا فيه لم يكن في اعتقاد أن أحدا مع الله تعالى مشاركا له في ربوبيته، وإنما كان في جعل الوسائط بينهم وبين الله تعالى في قضاء حوائجهم.

فقد أخرج البخاري في صحيحه في تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها

بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت)[١].

فهذا أول الشرك وقوعا في بني آدم، وهو ظاهر أنه في الغلو في تعظيم الصالحين، وجعلهم وسائط تدعى وترجى طلبا للشفاعة عند الله تعالى.

يوضح هذا ما ذكره ابن جرير في تفسير هذه الآية بسنده عن محمد ابن قيس قال: (كانوا قوما صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم)[٢].

فهذا الشرك في عبادة غير الله تعالى هو مبدأ الشرك في البشرية، وليس فيه أنهم اعتقدوا في هؤلاء الصالحين الذين عكفوا على تماثيلهم أنهم أرباب خالقون مدبرون مع الله تعالى، بل جعلوهم وسطاء بينهم وبين الله تعالى لعظم جاههم عنده.

ولذلك فإن أول دعوة نوح عليه الصلاة والسلام لهم: (أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).، ولم يأت في كتاب الله تعالى أن نوحا عليه الصلاة والسلام دعاهم إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى في الخلق

---

(١) رواه البخاري في التفسير - باب «وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً» - رقم ٤٩٢٠.

(٢) جامع البيان للطبري ١٤/ ٢٩/ ٩٩.

والإيجاد، بل كان يحاجهم بمقتضى إقرارهم بوحدانية الله تعالى في الربوبية، كما قال الله تعالى عنه أنه قال لقومه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١﴾ [هود: ٣١]، وكما قال سبحانه عنه عليه الصلاة والسلام مذكرا قومه بنعم الله تعالى عليهم وقربه لإجابة من دعاه: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۝١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ۝٢٠﴾ [نوح: ١٠-٢٠].

فهذه الآيات قائمة مقام المحاجة للخصم بما هو به مقر، فدل ذلك على أن قوم نوح ﷺ لم تكن منهم منازعة في ربوبية الله تعالى لهم ولجميع الكائنات، وإنما كانوا يجعلون الوسائط بينهم وبين الله تعالى في إجابة الدعاء وقضاء الحوائج ونحو ذلك.

ثانيا: أن ما قصه الله تعالى في كتابه من دعوة الرسل لقومهم هو أمرهم لهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك الله، وتقرير أنه لا أحد يستحق العبادة غيره سبحانه، مما يدل دلالة صريحة بينة أن غالب شرك المشركين كان في توحيد العبادة.

فمبدأ دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام لأقوامهم أن يقولوا لهم: ﴿...ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾ [الأعراف: ٦٥]، وهذا المعنى هو المذكور في كل ما قصه الله تعالى في دعوات الرسل

إلى قومهم.

أما توحيد الربوبية فلم تكن فيه المنازعة بين الرسل وأقوامهم، بل من كان مجادلا فيه منكرا له قد أخبر الله تعالى عنه ما يكنه في نفسه ويضمره من الإقرار به، كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال إخبارا عن قول موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون لما أنكر الآيات: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ولقد كان الرسل عليهم الصلاة والسلام يحتجون على أقوامهم في توحيد العبادة بإقرارهم بوحدانية الله تعالى في ربوبيته.

ومن ذلك ما قصه الله تعالى عن هود ﷺ أنه قال لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩].

وما قصه سبحانه عن صالح ﷺ أنه قال لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

ومن ذلك محاجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه وقومه في عدم ملك الآلهة التي يعبدون للنفع والضر، ولم ينكروا عليه ذلك، بل أنكروا دعوته إلى ترك عبادتهم التي وجدوا عليها آباءهم.

وهذه المحاجة مذكورة متنوعة في مواضع كثيرة من كتاب الله

تعالى، ومن تأملها يدرك حقيقة المنازعة، وأنها كانت في استحقاق العبادة لله تعالى وحده، أما عدم ملك الآلهة للخلق والتدبير وأن ذلك لله تعالى وحده فهذا لم يظهروا فيه المخالفة، بل أظهروا فيه الاعتراف الصريح كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٧].

فالحاصل أن من تأمل دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام لأقوامهم يدرك أنها في توحيد الله تعالى في عبادته، وأن الغالب في الشرك الواقع فيهم هو إشراك غير الله تعالى في العبادة، أما الشرك في الربوبية فأغلبهم لم يخالف فيه.

ثالثًا: ما ذكره الله تعالى عن حال المشركين الذين أرسل فيهم نبينا محمد صلى الله تعالى عنهم، وأنهم ما كانوا يشركون آلهتهم في الخلق والتدبير، وإنما كان شأنهم فيها ما ذكره سبحانه عنهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وما أخبر سبحانه وتعالى عنهم أنهم حين يسألون عمن خلق السموات والأرض ومن يدبر الأمر فيقرون بأن ذلك لله تعالى وحده كما هو مقرر في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى.

وقد تقدم بيان تنوع الأدلة في كتاب الله تعالى على إقرار المشركين

بربوبية الله تعالى، وأن إشراكهم كان باتخاذ الشفعاء من دونه سبحانه وتعالى.

هذا وقد ذكر ابن اسحاق والكلبي أنه كان أصل عبادة الأحجار عند العرب أن الواحد منهم إذا خرج من مكة حمل معه حجرا من حجارة الحرم تبركا به وتعظيما للحرم، فحيثما نزل وضعه وطاف به، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه(١).

فهم لم يعظموا تلك الحجارة لاعتبارٍ غير كونها من حجارة البيت، وما ذلك منهم إلا ظن التعظيم لصاحب البيت الذي يعتقدونه الخالق الرازق وحده.

وكذلك الأصنام التي وضعوها، لا تجد منها صنما إلا ولهم فيه اعتقاد ما يقربهم إلى خالقهم وأنه وسيلة إليه في قضاء حوائجهم.

وكما سبق عن ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر أنها أسماء رجال صالحين، وأنها عبدت لأجل مكانة هؤلاء الرجال عند الله تعالى فعبدت وسيلة واستشفاعا، وأن هذه الأصنام آلت إلى قبائل العرب.

ولأجل هذا تكثّر العرب من الأصنام حتى صار لكل قبيلة صنم أو أكثر من صنم.

ولقد دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح ووجد حول الكعبة ستين وثلاثمائة صنم، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ﴾

---

(١) انظر: الأصنام للكلبي ص ٢٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/ ١٧٤.

[الإسراء: ٨١]، ﴿...جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾ [سبأ: ٤٩][(١)]

وقد وصف أبو رجاء العطاردي رضي الله عنه حال العرب في الجاهلية في عبادة الأحجار فقال: (كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرا هو أخير ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا عليه)[(٢)].

وهذه الحال تصور حقيقة ما يريدونه من تعظيم تلك الأحجار، وهو التبرك والاستشفاع، وليس من المتصور أبدا أن يريدوها خالقة مدبرة لأمورهم.

يقول الشهرستاني: (وبالجملة: وضع الأصنام حيث ما قدروه إنما هو على معبود غائب حتى يكون الصنم المعمول على صورته وشكله وهيأته نائبا منابه، وقائما مقامه، وإلا فنعلم قطعا أن عاقلا ما لا ينحت جسما بيده ويصوره صورة، ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه، وإله الكل وخالق الكل، إذ كان وجوده مسبوقا بوجود صانعه، وشكله يحدث بصنعة ناحته.

لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها، كان عكوفهم ذلك عبادة، وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها، وعن هذا كانوا يقولون: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى).

---

(١) رواه البخاري في المغازي - باب أين ركز لنبي ﷺ الراية يوم الفتح - رقم ٤٢٨٧، ومسلم في الجهاد - باب إزالة الأصنام من حول الكعبة - رقم ١٧٨١.

(٢) رواه البخاري في المغازي - باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال - رقم ٤٣٧٧.

فلو كانوا مقتصرين على صورها في اعتقاد الربوبية والإلهية لما تعدوا عنها إلى رب الأرباب)[١] .

شبهاتهم في أن شرك المشركين السابقين كان في الربوبية :

بين يدي هذه الشبهات أذكر أموراً توضح بطلان ما عليه المبتدعة في هذه المسألة، وتوضح حقيقة مذهب أهل السنة في ذلك :

الأمر الأول :

أن هذا الذي قرروه معارض لما جاء في نصوص كتاب الله تعالى من أن المشركين كانوا مقرين لله تعالى في ربوبيته، وأنه خالق السماوات والأرض ومدبر الأمر.

وقد سبق بيان هذا الأمر بذكر أنواع من الأدلة في كتاب الله تعالى عليه[٢] .

إضافة إلى ما جاء مرويا عن العرب في جاهليتهم من نظم ونثر مما يدل دلالة ظاهرة صريحة على ما كانوا عليه من الإقرار بوجود الله تعالى وأنه سبحانه بيده تصريف الأمور.

ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة -وذلك قبل إسلامه- :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل[٣]

---

(١) الملل والنحل ص ٦١١.
(٢) انظر ص ١٧٣-١٧٤.
(٣) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب أيام الجاهلية - رقم ٣٨٤١، ومسلم - كتاب الشعر - باب في إنشاد الأشعار وبيان أشعر الكلمة وذم الشعر - رقم ٢٢٥٦.

ومن ذلك قوله :

فاقنع بما قسم المليك فإنما   قسم الخلائق بيننا علّامها[١]

وكذلك لما جاء أبرهة لهدم الكعبة توجهوا إلى الله تعالى في حمايتها، ومن ذلك قول عبد المطلب جد النبي ﷺ :

لاهـــم إن الـمـرء يـمــ   ـنـع رحـلـه فـامـنـع حـلالـك
لا يـغـلـبـن صـلـيـبـهـم   ومـحـالـهـم غـدواً مـحـالـك
إن كـنـت تـاركـهـم وقـبــ   ـلـتـنـا فـأمـر مـا بـدا لـك[٢]

ومن ذلك قول طرفة بن العبد في معلقته :

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد   ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد[٣]

وقول زهير بن أبي سلمى في معلقته :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم   ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم الحساب أو يعجل فينقم[٤]

وفي أشعار أُمية بن أبي الصلت ما يدل الدلالة البينة على إقراره بوحدانية ربه وإثبات المعاد، حتى قال فيه النبي ﷺ : (وكاد أُمية بن

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٩٩.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٦ وقال: هذا ما صح له منها. وانظر: جامع البيان للطبري ١٥/ ٣٠/ ٣٠٢.
(٣) شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٦٥.
(٤) المرجع السابق ص ٨١.

أبي الصلت أن يسلم)[١].

وجاء في رواية عمرو بن الشريد عن أبيه ﷺ قال: ردفت النبي ﷺ يوما، فقال: (هل معك من شعر أُمية بن أبي الصلت شيء) قلت: نعم، قال: (هيه). فأنشدته بيتا، فقال: (هيه). ثم أنشدته بيتا، فقال: (هيه).حتى أنشدته مائة بيت[٢].

وهذه الاستزادة دالة على صحة المعنى في أشعاره.

ومن شعره - ما نسبه إليه ابن هشام في سيرته -:

إن آيات ربنا ثاقبات ... لا يماري فيهن إلا الكفور

خلق الليل والنهار فكل ... مستبين حسابه مقدور

ثم يجلو النهار رب رحيم ... بمهاة شعاعها منثور[٣]

(وشعره معروف سائر، وكثير منه في نحو هذه المعاني المفردة رب الخليقة بالربوبية، المؤمنة بالبعث.

فانظر إلى قول النبي ﷺ: **(إن كاد ليسلم)**، فلم يحكم له بالإسلام بمجرد توحيده رب الخليقة بالخلق ولإحياء والإماتة ونحو ذلك، وهو من الجاهليين الذين كانوا في زمن النبي ﷺ)[٤].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب أيام الجاهلية - رقم ٣٨٤١، ومسلم - كتاب الشعر - باب في إنشاد الأشعار وبيان أشعر الكلمة وذم الشعر - رقم ٢٢٥٦.

(٢) رواه مسلم في كتاب الشعر - باب في إنشاد الأشعار وبيان أشعر الكلمة وذم الشعر - رقم ٢٢٥٥، وأحمد ٤/ ٣٩٠.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٧٤.

(٤) هذه مفاهيمنا. صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ ص ١١٤.

ومن ذلك أيضا قول النابغة الذبياني :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب[١]

ومن ذلك قول ذي الإصبع العدواني :

إن الذي يقبض الدنيا ويبسطها إن كان أغناك عني سوف يغنيني

الله يعلمني والله يعلمكم والله يجزيكم عني ويجزيني[٢]

والحاصل أن من تأمل أقوالهم وأحوالهم يجد أن إقرارهم بربوبية الله تعالى ووحدانيته في ذلك أمر ظاهر، وليس هو محل اختلاف وجدل بينهم.

الأمر الثاني :

أن أهل السنة والجماعة لما قالوا إن كفار قريش والأُمم السابقة قبلهم كانوا مقرين بربوبية الله تعالى، لا يعنون بذلك أنهم كانوا مستكملين لجوانبها عاملين بلوازمها محققين نتائجها التي تقتضيها.

لم يكن هذا المراد أبدا، وإنما المعنى أن ذلك الإقرار واقع منهم بصريح أقوالهم، إلا أنهم واقعون في تناقض مع ذلك الإقرار.

ولعل أظهر أمر وقعوا فيه وهو مناقض لذلك الإقرار هو صرف العبودية لغير الله تعالى، فصرفهم للعبادة لغير الله تعالى مناقض لما يقتضيه ذلك الإقرار الذي نطقوا به من أن الله تعالى هو وحده الخالق الرازق وأنه بيده تصريف الأمور، ولذلك جاءت المحاجة عليهم في

---

(١) ديوان النابغة الذبياني - جمع محمد الطاهر بن عاشور ص ٥٥.

(٢) المفضليات ص ١٦٢.

كتاب الله سبحانه وتعالى ببيان هذه المناقضة التي هم عليها، حتى وصلت تلك المناقضة حالة يزريهم بها من له أدنى عقل وفهم، وقد تقدم في حديث أبي رجاء العطاردي رضي الله عنه يحكي أحوالهم في الجاهلية- قال: (كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجرا هو أخير ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناها عليه، ثم طفنا به)[1].

فتلك الحال تحكي تناقضا ظاهرا بين ما يقرون به، وبين ما هم واقعون فيه من الشرك.

إذاً، فإثبات إقرارهم بربوبية الله تعالى ليس مدحة لهم تعني أنهم عملوا بمقتضى ذلك الإقرار، بل هو إزراء بهم إذ وقعوا بما ينافي حقيقته.

ولذلك فلا تعارض بين ما جاء في كتاب الله تعالى من إقرارهم بربوبية الله تعالى ووحدانيته في خلق السماوات والأرض وتدبير الأمر، وبين ما جاء فيه من تنقصهم قدر الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٤]، فهم قوم تنقصوا قدر الله تعالى بأن جعلوا المخلوق معبودا معه يدعى ويرجى ويصلى له وينحر، فلا غرابة أن يقع منهم سب لله تعالى أو نسبة البنات له أو نحو ذلك، ويكون ذلك تناقضا بين إقرارهم وبين ما هم عليه من حال.

ويوضح هذا أن لا خلاف في معرفة إبليس لربه وإقراره بأنه خالقه

(١) تقدم تخريجه ص ٢٧٩.

وأن أمره بيده بدلالة النصوص الجلية في ذلك، ومع هذا فهو رأس الشر والشرك والضلال، وأكبر داع إلى الاستكبار على الله تعالى والاستهزاء به.

وكذلك ما ذكره الله تعالى عن أهل الكتاب من معرفة الرسول ﷺ حق المعرفة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ومع ذلك كذبوه وأنكروه.

والأمثلة على ذلك تكاد لا تحصى كثرة، ولكن المقصود بيان أن إثبات إقرار المشركين بالربوبية لا يعني أنهم لا يقعون بما ينافي حقيقتها ومقتضاها، بل أظهر أحوالهم وهو صرف العبادة لغير الله تعالى هو أظهر تناقض في ذلك.

وأيضا فلا يعني إثبات ذلك الإقرار منهم إقرارا لهم على ما يقعون فيه مما هو مخالف لمقتضاه، كما يدعيه من لم يفهم حقيقة قول أهل السُّنة في ذلك.

وهذه مسألة مهمة لا بد من بيانها، لأن كثيرا ممن هاجم أهل السنة في إثباتهم إقرار المشركين بالربوبية يصور ذلك إحقاقا لدين كان عليه المشركون كما قال أحدهم: (ومن العجب العجاب قول المدعي الكذاب لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله من أهل القبلة: أنت لم تعرف، التوحيد نوعان: توحيد الربوبية الذي أقرت به المشركون والكفار، وتوحيد الألوهية الذي أقرت به الحنفاء وهو الذي يدخلك في دين الإسلام، وأما توحيد الربوبية فلا. فيا عجبا هل للكافرين توحيد صحيح؟ فإنه لو كان توحيده صحيحا لأخرجه من

النار، إذ لا يبقى فيها موحد كما صرحت به الأحاديث)[١].

فتبين بذلك أن قول أهل السنة: إن المشركين كانوا مقرين بربوبية الله تعالى ووحدانيته في ذلك هو في إثبات ذلك الإقرار مع وقوع التناقض بعدم عملهم بمقتضاه.

الأمر الثالث:

أن المشركين لم يكونوا على أمر واحد فيما يعتقدون، فقد كانوا على درجات في ذلك.

وقد ذكر الشهرستاني أصنافهم في ذلك وجعلهم ثلاثة:

الصنف الأول: منكروا الخالق والبعث والإعادة.

الصنف الثاني: منكروا البعث والإعادة.

الصنف الثالث: منكروا الرسل عباد الأصنام.

وقال في الصنف الثالث: (وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة، وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام، وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة، وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر، وأحلوا وحرموا، وهم الدهماء من العرب، إلا شرذمة منهم نذكرهم...)[٢].

إذاً، فإن كان من العرب في الجاهلية من أنكر الخالق وأشرك في الربوبية، فلا يعني أنهم سواد غالب، بل هم شرذمة قليلون.

---

(١) انظر: مصباح الأنام لعلوي الحداد ص ١٧.

(٢) الملل والنحل ٢/ ٥٨٢-٥٨٣.

أما شبهات المبتدعة في هذه المسألة فكما يلي :

الشبهة الأولى :

استدلالهم بقوله تعالى - عن حال المشركين يوم القيامة في محاورتهم لمعبوديهم - : ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٤-٩٨].

فالتسوية هنا- عندهم- تقتضي أن المشركين كانوا يساوون مع الله غيره في ربوبيته[(١)].

والجواب من وجوه :

● **الوجه الأول :**

أن الآية لا تدل على ما ذهبوا إليه، إذ أن التسوية في الطاعة والعبادة[(٢)]، وليست تسوية من كل وجه ؛ إذ لم يقل أحد إنهم مساوون لله تعالى من كل وجه[(٣)].

وقد تقدم ذكر الأدلة التي تبين إقرارهم بتفرد الله تعالى بالخلق والملك، وهي لا تعارض هذه الآية.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿...ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ

---

(١) انظر: مقالات الدجوي ١/ ١٥٠-١٥٢.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١١/ ١٩/ ٨٨، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ٧٩، لسان العرب ١٤/ ٤١١.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٧/ ٧٥.

يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿...فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢].

فالمشركون جعلوا لله تعالى الأنداد والشركاء وعدلوا به غيره وساووهم به، وكل ذلك في الطاعة والعبادة، وليس المراد التسوية من كل وجه؛ لإثباتهم تفرد الله بالربوبية، والمتقرر في آيات كثيرة.

• **الوجه الثاني:**

هل يُستدل بالآية على أن المشركين يقولون بأن أصنامهم وأوثانهم وما كانوا يعبدون مساوية لله ومماثلة له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؟

فإن كان هذا هو معنى ما يستدلون له فقد خالفوا جميع الدلالات: الشرعية والعقلية والفطرية.

وإن كانوا لا يقولون به ويجعلون التسوية في أمور معينة، فقد قالوا بأنها تسوية من وجه دون وجه، فيبطل احتجاجهم على أهل السُّنة بذلك، وتظهر الحجة لأهل السُّنة بقولهم: إن التسوية في الطاعة والعبادة دون الربوبية والخلق.

وهذا ما تشهد له النصوص الكثيرة من القرآن، وأقوال أئمة التفسير، وكذلك الواقع الذي كان يعيشه أولئك المشركون.

• **الوجه الثالث:**

أن هذا الاستدلال لا يمشي مع استدلالهم بالآيات التي يستنبطون منها إلحاد المشركين ونفيهم للخالق كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا

ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

إذ أنه لا تجتمع هذه التسوية مع إنكار الخالق.

• **الوجه الرابع:**

أنه قد ذكر بعض أهل العلم أن هذه الآيات في سورة الشعراء هي مخاصمة بين الأتباع والمتبوعين، بين الذين استضعفوا والذين استكبروا، فهي ليست بين عباد الأصنام وأصنامهم[1].

وهذا قد جاء في آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وغيرها من الآيات الدالة على هذا المعنى.

الشبهة الثانية:

استدلالهم بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦].

فيقولون: إن الآية دالة على أن المشركين كانوا يعتقدون في آلهتهم التأثير بالنفع والضر[2].

والجواب:

أن الآية حُجة عليهم ودالة على خلاف ما يريدون؛ إذا أنها في الاحتجاج على المشركين في عبادتهم غير الله تعالى مع علمهم أنها لا تملك كشف الضر ولا التحويل عنه.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٤، أضواء البيان للشنقيطي ٦/ ٢٧٥

(٢) انظر: كشف الارتياب للعاملي ص ١٧٠.

وهذا المعنى قد جاء مبينا في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣] الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: ١٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالآية دالة على (أن المعبودين من دون الله الذين زعم الكفار أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، ويشفعون لهم عنده لا يملكون كشف الضر عن عابديهم: أي إزالة المكروه عنهم، ولا تحويلا: أي تحويله من إنسان إلى آخر، أو تحويل المرض إلى الصحة، والفقر إلى الغنى، والقحط إلى الجدب ونحو ذلك)[١].

ثم إن رجاء جلب النفع ودفع الضر وكشفه هو حاصل عند أولئك المشركين في آلهتهم باعتبار الشفاعة والوساطة عند الله تعالى كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة من اتخاذهم آلهتهم شفعاء عند الله وأنهم لا يعبدونهم إلا للتقرب إلى الله سبحانه.

فالمشركون كانوا يعتقدون النفع والضر في آلهتهم بهذا الاعتبار لا لأنها تملك الاستقلال في ذلك أو أن لها شيئا من خصائص الربوبية الخلق والرزق ونحو ذلك[٢].

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٣/٥٩٨-٥٩٩.

(٢) انظر: الصراع بين الإسلام والوثنية لـ عبدالله القصيمي ٢/١٤٢.

الشبهة الثالثة:

استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝٦٠﴾ [الفرقان: ٦٠].

قالوا: وفي هذا دلالة على أنهم لا يسجدون إلا لأصنامهم، ولا يعتقدون إلها غيرها[(١)].

والجواب من وجوه:

- **الوجه الأول:**

أن ظاهر استدلالهم بهذه الآية هو أن المشركين كانوا ينكرون وجود الله تعالى، ومنكرون لربوبيته سبحانه، فإن كان هذا مرادهم باستدلالهم فهو مصادمة لصريح المنقول والمعقول، ومعارضة لما يقرون به هم من وقوع الشرك عند كفار قريش، إذ لا معنى للشرك مع وجود هذا الإنكار.

وإن قالوا: إن المعنى ليس هذا. فيقال لهم إذاً: لا معنى لاستدلالكم بالآية على ما تريدون، ولا وجه لكم فيها على أن كفار قريش كانوا يعتقدون مشاركة آلهتهم لله تعالى في الربوبية.

- **الوجه الثاني:**

أن هذا الإنكار الواقع من كفار قريش هو لاسم (الرحمن)، ويدل عليه ما كان في صلح الحديبية لما أمر النبي ﷺ الكاتب أن يكتب

---

(١) انظر: مقالات الدجوي ١/ ٢٥١، صلح الإخوان لداود بن جرجيس ص ١٢٤.

(بسم الله الرحمن الرحيم)، قال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب (باسمك اللهم) كما كنت تكتب ..[١].

فالإنكار متوجه إلى الاسم لا المسمى.

قال الألوسي في تفسيره: (وقيل: سألوا عن ذلك لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله كما يطلقون الرحيم والرحوم والراحم عليه، أو لأنهم ظنوا أن المراد غيره عز وجل، فقد كانوا شاع فيما بينهم تسمية مسيلمة برحمن اليمامة)[٢].

وفيما ذكره الألوسي ﷺ وجه آخر وهو أنهم ظنوا أن المراد متوجه إلى مسيلمة كذاب اليمامة، حيث كانوا يعرفونه بذلك[٣].

● **الوجه الثالث:**

أنه قد قيل في إنكارهم هذا: إنه إنكار عارف بالأمر متجاهل له ليرد الحق الذي مع خصمه، ويبطل حُجته بما هو لجاج لا يحمل أي حُجة[٤].

● **الوجه الرابع:**

أنه قد يكون إنكارهم راجعا إلى إنكارهم رسالة النبي ﷺ، وأن ما جاء به هو - عندهم - إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، وأنه

---

(١) رواه البخاري في الشروط - باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب - رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢ عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.
(٢) روح المعاني ١٩/ ٣٩.
(٣) انظر: جامع البيان للطبري ٩/ ١٥/ ١٨٢، و ١١/ ١٩/ ٢٩.
(٤) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٦/ ٣٤٥.

أساطير الأولين، فإذا أمرهم بعبادة الله تعالى وحده والسجود له وحده أنكروا ذلك وردوا عليه ساخرين هازئين: (وما الرحمن؟)، كما قد قالوا له: انسب لنا ربك؟[١]

فهم أرادوا بذلك أن ما جاء به ليس من عند الله تعالى، فأنكروا مَن أمَرَه وأَوحى إليه باعتبار أنه أمرٌ من عند نفسه لا من عند الله.[٢]

الشبهة الرابعة:

استدلالهم بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فقالوا: إن هؤلاء لم يكونوا صادقين في إقرارهم بأن الله ربهم وخالقهم، وكذلك في زعمهم أنهم أرادوا بعبادة تلك الأصنام هو التقرب إلى الله تعالى زلفى، ولو كان هذا منهم حقا وصدقا لما تجرؤوا على سب الله تعالى[٣].

والجواب من وجوه:

● **الوجه الأول:**

ما تقدم بيانه من أن إقرار المشركين بربوبية الله تعالى لا يعني أنهم

---

(١) رواه الترمذي في التفسير - باب ومن سورة الإخلاص - رقم ٣٣٦٤، وأحمد ٥/ ١٣٣، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٨٩ عن أُبي بن كعب ﷺ. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: الصراع بين الإسلام والوثنية لعبدالله القصيمي ٢/ ١٤٣.

(٣) مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوي المالكي ص ٩٥-٩٦. وانظر: مقالات الدجوي ١/ ١٥٤، صلح الإخوان لابن جرجيس ص ١٢٧.

محققون لمقتضاها، بل هم واقعون بما هو مناقض لذلك المقتضى من عبادة غيره سبحانه ونسبة الولد إليه وتقديم آلهتهم فيما ينذرونه ويذبحونه ونحو ذلك.

● **الوجه الثاني:**

ما تقدم بيانه أيضا من أن كفار قريش ليسوا على درجة واحدة فيما يعتقدون، وإن كان الأغلب والدهماء منهم على إثبات وحدانية الله تعالى في ربوبيته، إلا أنه قد يكون فيهم من هو مخل بهذا الاعتقاد وواقع في الإشراك فيه.

● **الوجه الثالث:**

أن يقال إن السب هنا ليس سبا صريحا، وإنما هو الخوض في ذكره تعالى بما لا يليق.

يقول الراغب في المفردات: (وسبهم لله ليس على أنهم يسبونه صريحا، ولكن يخوضون في ذكره فيذكرونه بما لا يليق به، ويتمادون في ذلك بالمجادلة، فيزدادون في ذكره بما تنزه تعالى عنه)[١].

● **الوجه الرابع:**

أن يقال إن سبهم ليس بصريح النسبة إلى الله تعالى لكن يؤول إليه سبحانه، كسبهم للنبي ﷺ ومن أرسله ومن يأمره.

يدل لذلك ما قاله كفار قريش للنبي ﷺ بعد أن كلموا فيه عمه أبا طالب: ليكف عن آلهتهم ويترك دعوته. فرفض ذلك، فقالوا له: لتكف

---

(١) المفردات ص ٢٩١.

عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ولنشتمن من يأمرك[١].

● **الوجه الخامس:**

هب أن سبهم كان صريحا، فهذا لا ينافي إقرارهم، إذ أن باعثه الحمية والعصبية، وهم كفار قد تعلقت قلوبهم بغير الله تعالى وأحبوهم كما يحبون الله أو أشد، فلا غرو أن يتعصبوا لهم ويقابلوا سب المسلمين لهم بسب الله تعالى حال غضبهم لهذه الآلهة والأنداد التي يحبونها كحب الله تعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمعلوم أن المشركين قد يحبون آلهتهم كما يحبون الله أو تزيد محبتهم لهم على محبتهم لله؛ ولهذا يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم)[٢].

يقول العلامة الألوسي: (ويحتمل أن يراد سبهم له - عز اسمه - صريحا، ولا إشكال، بناء على أن الغضب والغيظ قد يحملهم على ذلك، ألا ترى أن المسلم قد تحمله شدة غيظه على التكلم بالكفر.

ومما شاهدناه أن بعض جهلة العوام؛ أكثر الرافضة سب الشيخين رضي الله عنهما عنده فغاظه ذلك جدا، فسب عليا - كرم الله تعالى وجهه - فسئل عن ذلك، فقال: ما أردت إلا إغاظتهم، ولم أر شيئا يغيظهم مثل ذلك، فاستتيب عن هذا الجهل العظيم)[٣].

---

(١) جامع البيان للطبري ٥/ ٧/ ٣١٠، روح المعاني للألوسي ٧/ ٢٥١.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٧/ ٦٣٢.
(٣) روح المعاني ٧/ ٢٥١.

الشبهة الخامسة:

استنصار المشركين واستمطارهم لآلهتهم، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [يس: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: ٢٠-٢١]، وكما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنبياء: ٤٣].

قالوا: الاستفهام هنا إنكاري على سبيل التوبيخ لهم على ما اعتقدوه[١].

والجواب على ذلك من أوجه:

- **الوجه الأول:**

أنه ليس في ذلك ما يدل على إنكارهم لربوبية الله تعالى، فلا يعارض النصوص الصريحة الدالة على اعترافهم بوحدانيته تعالى في ربوبيته.

- **الوجه الثاني:**

لم يقل أحد إن المشركين لم يكونوا يرجون في آلهتهم جلب نفع أو دفع ضر، وإلا لما عبدوها وأحبوها كحب الله.

فهم ما صرفوا لها أنواع العبادة إلا لاعتقادهم أنها باب عظيم

(١) انظر: فرقان القرآن لسلامة القضاعي ص ١١٣.

لحصول ما يرجون من نصرة أو رزق أو نحو ذلك، ودفع ما يحذرون من عذاب وعقاب وفقر ومرض ونحوه، وذاك بأن جعلوها وسيلة تشفع لهم عند الله تعالى في حصول مطلوبهم ودفع مكروههم. وهذا سبب زعموه، جعلوه موجبا لأن تكون آلهة معبودة.

فرجاؤهم نفع آلهتهم أمر ظاهر لا مرية فيه، ولكن ذلك لا يقتضي أنهم اعتقدوها هي التي تخلق وترزق وتملك النفع والضر، بل جعلوها وسيلة يستشفعون بها عند الله تعالى في ذلك.

وعلى هذا المعنى تدل الآيات التي ذكر فيها رجاؤهم آلهتهم، وخوفهم منها، ومحبتهم لها.

يقول الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [يس: ٧٤]، قال: (واتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة يعبدونها لعلهم ينصرون، يقول: طمعا أن تنصرهم تلك الآلهة من عقاب الله وعذابه)[1].

ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير آية تبارك: (ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [المُلك: ٢١] أي من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده، أي لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله عز وجل وحده لا شريك له، أي وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا﴾ [المُلك: ٢١] أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [المُلك: ٢١] أي في معاندة واستكبار ونفور على إدبارهم عن الحق لا يسمعون

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٣/ ٢٩.

له ولا يتبعونه)[١].

ويقول العلامة الألوسي رحمه الله: (﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٨١] أي متجاوزين الله تعالى الذي رأوا منه تلك القدرة الباهرة، والنعم الظاهرة، وعلموا أنه سبحانه المتفرد بها ﴿ءَالِهَةً﴾ من الأصنام وأشركوها به عز وجل في العبادة، ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝﴾ [يس: ٧٤] رجاء أن ينصروا، أو لأجل أن ينصروا من جهتهم فيما نزل بهم وأصابهم من الشدائد أو يشفعوا لهم في الآخرة)[٢].

فمثل هذه الآيات دال على اعترافهم بربوبية الله تعالى وذلك باتخاذهم الوسائل - بزعمهم - التي تنجيهم من عذابه وعقابه، فجعلوا تلك الآلهة وسيلة لذلك.

الشبهة السادسة:

استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قالوا: إن هذه الآية دالة على أن المشركين كانوا دهرية منكرين للخالق[٣].

الجواب من وجوه:

- **الوجه الأول:**

أن الآية في إنكار المشركين للبعث والنشور، وهذا ظاهر في

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢١.
(٢) روح المعاني ٢٣/ ٥١.
(٣) انظر: التوسل لابن مرزوق ص ٣٠.

حالهم، والأدلة في ذكر ذلك عنهم كثيرة جدا، وهذا لا يعارض إثبات أنهم مقرون بوحدانية الله تعالى في الخلق والتدبير.

وسياق الآيات دال على هذا المعنى، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: ٢٤-٢٦].

قال ابن جرير رحمه الله: (وقال هؤلاء المشركون الذين تقدم خبره عنهم: ما حياة إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها، لا حياة سواها، تكذيبا منهم بالبعث بعد الممات)(١).

• **الوجه الثاني:**

أن القول بأن المشركين مقرون بربوبية الله تعالى ووحدانيته في ذلك، لا يعني أن إقرارهم كان على التمام والكمال، وقد تقدم أنهم واقعون فيما هو مناقض لحقيقة ذلك الإقرار.

وهذا الذي هم فيه من نسبة الإهلاك للدهر هو من هذا الباب، إذ أنهم قوم جاهلون بالله تعالى ولم يقدروه حق قدره، وذلك ظن كاذب قادح في إقرارهم بربوبية الله تعالى.

• **الوجه الثالث:**

أن المسألة - محل البحث - هي: هل المشركون كانوا يعتقدون

---

(١) جامع البيان للطبري ١٣/ ٢٥/ ١٥١.

في آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى استقلال التأثير والتدبير، أم أنهم اتخذوها وسطاء وشفعاء لهم عند الله تعالى ؟

وليس في الآية ما يستدلون به على ذلك ؛ إذ أنها في ذكر ظنهم السيئ أن الدنيا لا حياة بعدها وأن مرور الأيام والأزمان يخرج أناسا ويفني آخرين.

فليس في الآية ما يفيد اعتقادهم التأثير المستقل في آلهتهم التي يعبدون، وقد دلت النصوص الكثيرة على أنهم كانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى.

وبذلك نستدل على أنهم لم يكونوا يعتقدون استقلال النفع والضر في آلهتهم، وإن كانوا واقعين في بعض القوادح في توحيد الربوبية.

● **الوجه الرابع:**

أن هذا قد يكون واقعا من طائفة منهم وهم قليل.

وقد تقدم الإشارة إلى ما ذكره الشهرستاني في تقسيم اعتقادات العرب في الجاهلية، ومن ذلك قوله : (فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المغني، وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي، وقصدا للحياة والموت على تركبها وتحللها، فالجامع هو الطبع، والمهلك هو الدهر: ﴿...وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤] فاستدل عليهم بضرورات فكرية وآيات قرآنية في كم آية

وكم سورة)[١].

الشبهة السابعة:

استدلالهم بالآيات المذكور فيها كفرهم بالله تعالى، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [فصلت: ٩].

قالوا: فهذا الكفر دليل إنكارهم لخالقية الله تعالى[٢].

والجواب:

أن هذا من أغرب الاستدلال، إذ لم يقل أحد من أهل السنة أن هؤلاء المشركين ليسوا كفارا بالله تعالى، وهذا الأمر ليس هو محل النزاع هنا، إذ الكلام على أن المشركين كانوا مقرين بربوبية الله تعالى، وهذا لا يعارض أن يكونوا كفارا، لأن الكفر لا ينحصر في إنكار الخالق، وجحد ربوبيته، إذ بين الأمرين عموم وخصوص، فكل جاحد لربوبية الله تعالى فهو كافر، ولكن ليس بالضرورة أن يكون كل كافر جاحدا لربوبية الله تعالى.

ولذلك فإن كل من أعرض عن اتباع النبي ﷺ واستبدل بدينه أي

---

(١) الملل والنحل ٢/ ٥٨٢.

(٢) انظر: مقالات الدجوي ١/ ٢٥٠، صلح الإخوان لابن جرجيس ١٢٤.

دين آخر فهو كافر سواء كان يهوديا أو نصرانيا أو وثنيا مشركا، كائنا من كان.

فاستدلالهم ليس في محل النزاع، وما هو إلا حشد وجمع ليحسب من يقف عليه أنهم على شيء.

الشبهة الثامنة:

استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

فاستدلوا بهذه الآية على أن ألهتهم أعظم في نفوسهم من الله تعالى.

يقول صاحب كتاب «مفاهيم يجب أن تصحح»: (فلولا أن الله تعالى أقل في نفوسهم من تلك الحجارة ما رجحوها عليه هذا الترجيح الذي تحكيه هذه الآية، واستحقوا حكم الله عليهم بقوله «ساء ما يحكمون»)[1].

والجواب من وجوه:

- **الوجه الأول:**

أن أهل السنة لا ينازعون في أن المشركين واقعون فيما هو قادح في توحيد الربوبية ومناقض له، وذلك بصرفهم العبادة لغير الله تعالى.

---

(١) مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص ٩٦، وانظر: مقالات الدجوي ١/ ٢٥٣.

ولذلك فإنهم - أي المشركين - يُلزمون اللوازم الباطلة بأنهم اتخذوا هذه الأوثان أربابا لأنهم عبدوها، والعبادة لا تكون إلا لرب خالق مدبر، وإن كانوا هم يقولون إنهم يعبدونها لا على أنها تخلق وترزق، ولكن لتقربهم إلى الله زلفى.

فأقوالهم وأفعالهم في حقيقتها قدح للربوبية وإن كانوا يقرون بها، كما أن أقوال وأفعال المستغيثين بالأموات الصارفين لهم أنواع العبادة في حقيقتها قدح لجناب الربوبية وإن كان أصحابها يقولون إنهم يعتقدون وحدانية الله تعالى في الخلق والتدبير.

فكل ما وقع فيه المشركون من صرف العبادة لغير الله تعالى، ومساواتهم له بالله تعالى، كما في هذه الآية، وكمحبتهم آلهتهم كحب الله تعالى، لازمه القدح في جناب الربوبية، وهذا أمر لا ينفيه أهل السُنة عن المشركين.

وإنما الكلام في تقرير أنهم واقعون في ذلك وهم يظهرون اعتقادهم وحدانية الله تعالى في الخلق والتدبير، وأن آلهتهم ما هم إلى شفعاء ووسطاء لهم يقربونهم إلى ربهم زلفى.

فهذا الإقرار الذي هم فيه لم ينفعهم شيئا حين وقعوا بما ينافي حقيقته وهو الإشراك مع الله تعالى في العبادة.

● **الوجه الثاني:**

أن الآية دالة على صرفهم شيئا من العبادة لغير الله تعالى، وذلك أنهم ينذرون لغير الله كما ينذرون له، بل ويحرصون على ما ينذرونه لآلهتهم أكثر من حرصهم على ما كان لله تعالى.

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ...﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآية، وذلك أن أعداء الله كانوا إذا احترثوا حرثا، أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منها جزءً وللوثن جزءً، فما كان من حرث أو تمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، فإن سقط منه شيء فيما سمي لله ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء إلى الذي جعلوه للوثن، فسقى شيئا جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والتمرة التي جعلوا لله، فاختلط بالذي جعلوا للوثن، قالوا: هذا فقير، ولم يردوه إلى ما جعلوا لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوا لله، فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أنعامهم: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه لله، فقال الله في ذلك: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآية(١).

فالكلام في الآية على صرفهم شيئا من العبادة لغير الله تعالى، وليس في أنهم يقرون أن آلهتهم خالقة ومدبرة مع الله تعالى.

نعم، هذه المساواة قدح في الربوبية ولا شك، ولكن دعواهم التي يتشبثون بها: أن آلهتهم شافعة لا خالقة مدبرة.

• **الوجه الثالث:**

ما سبق في رواية ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه اعترافهم وإقرارهم بأن

(١) جامع البيان للطبري ٥/ ٨/ ٤٠-٤١.

آلهتهم فقيرة عاجزة، وأن الله تعالى غني عن هذا الذي ينذرونه، وعللوا فعلهم ذلك بهذا الأمر.

وهذا يفيد إقرارهم بغنى الله تعالى وربوبيته، وفقر آلهتهم وعجزها، مما يدل دلالة ظاهرة على أنهم لم يكونوا مشركين في الربوبية، وإن كانوا واقعين بما هو قادح لإقرارهم بها.

الشبهة التاسعة:

استدلالهم بالآيات المذكور فيها اتخاذ المشركين للأرباب.

كما في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام وهو يقرر التوحيد لصاحبي السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾ [آل عمران: ٨٠].

فقالوا: إن المشركين متخذون معبوداتهم أربابا من دون الله، فهذا يدل على أنهم معتقدون ربوبيتهم مع الله تعالى.

قال الدجوي في مقالاته: (فصرح بتعدد الأرباب عندهم، وعلى الرغم من تصريح القرآن بأنهم جعلوا الملائكة أربابا يقول ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب: إنهم موحدون توحيد الربوبية، وليس عندهم

إلا رب واحد، وإنما أشركوا في توحيد الألوهية !)[١].

والجواب على ذلك من وجوه:

• الوجه الأول:

ما سبق من الأدلة الدالة على أن المشركين ما كانوا يعتقدون غير الله تعالى خالقا للسموات والأرض ومدبرا للأمر، وهذا لا تعارض بينه وبين ما ذكروه من أدلة، يوضح ذلك الوجه الثاني.

• الوجه الثاني:

أنه يصح التعبير عن الألوهية بالربوبية باعتبار التلازم الذي بينهما، فالمشركون لما اتخذوا آلهة يعبدونها مع الله تعالى، كان ذلك أن صرفوا شيئا من خصائص الربوبية لغير الله تعالى، وهي استحقاق العبادة، إذ أنه لا يستحق العبادة إلا من كان ربا.

ففي هذه الآيات الحكم بلازم الأمر، وهو اتخاذ آلهة تعبد مع الله تعالى، فهم وإن كانوا لا يقولون بأن معبوداتهم تملك الخلق والنفع والضر مع الله تعالى، إلا أنهم لما صرفوا لها شيئا من العبادة فقد شبهوها بالرب الخالق المالك.

ولذلك فقد جاء في تفسير هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠]: أن المراد بذلك عبادتهم مع الله تعالى، كما قال ابن جرير رحمه الله: (يعني بذلك آلهة

(١) مقالات الدجوي ١/ ٢٥٠. وانظر: صلح الإخوان لابن جرجيس ص ١٢٥، البراهين الساطعة للقضاعي ص ٣٨٢.

يعبدون من دون الله)[١].

وقد جاء في سبب نزولها ما رواه محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو رافع القرظي - حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام -: أتريد يامحمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أوذاك تريد منا يامحمد وإليه تدعونا؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ (**معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني**) أو كما قال ﷺ. فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩][٢].

فهذه الآيات فيما كان عليه أهل الجاهلية من عبادة غير الله تعالى، لا في اعتقادهم الربوبية في غيره سبحانه.

وفي هذا المعنى ما هو منقول عن زيد بن عمر بن نفيل:

أربا واحدا أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الرجل البصير

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أزور

---

(١) جامع البيان للطبري ٣/ ٣/ ٣٢٩.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٣/ ٣/ ٣٢٥، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٣٨٤، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٤٠٤، زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٦٣٠، السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٥.

ولا هبلا أدين وكان ربا لنا في الدهر إذ حلمي يسير(١)

● **الوجه الثالث:**

وهو رد عليهم فيما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، إذ قد جاء ذلك مفسرا من قول النبي ﷺ بالشرك في طاعة الله تعالى، لا في اعتقادهم أن الأحبار والرهبان خالقون مدبرون للأمر مع الله سبحانه وتعالى.

فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: (**يا عدي اطرح عنك هذا الوثن**)، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه)(٢).

الشبهة العاشرة:

استدلالهم بقول الله تعالى - حكاية عن قوم هود -: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

فاستدلوا بهذا على أن المشركين كانوا يعتقدون في آلهتهم التأثير والضر والنفع(٣).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٥٥.

(٢) رواه الترمذي في التفسير - باب: ومن سورة التوبة - رقم ٣٠٩٥.

(٣) انظر: فرقان القرآن للقضاعي ص ١١٣.

والجواب على ذلك:

أن هذا الاعتقاد ليس بلازم لمقولتهم تلك، إذ أنهم كانوا يرجون في آلهتهم النفع ويخافون منها الضر عن طريق الشفاعة والتوسط، وإلا لما عبدوها والتجئوا إليها.

فخوّفوا هودا عليه الصلاة والسلام بما يخشونه هم من آلهتهم التي يظنونها وسائط تقربهم إلى ربهم.

ومثل ذلك ما ذكره الله تعالى لنبيه ﷺ عن كفار قريش: ﴿...وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٦].

قال ابن جرير رحمه الله: (ويخوفك هؤلاء المشركون يا محمد بالذين من دون الله من الأوثان والآلهة أن تصيبك بسوء، ببراءتك منها وعيبك لها، والله كافيك ذلك)[(١)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾» يعني المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلا منهم وضلالا)[(٢)].

ومن تأمل هذه الآية في سورة الزمر يجد فيها أبلغ الرد على استدلال المبتدعة بمثيلتها في سورة هود بأن المشركين يعتقدون الربوبية في آلهتهم، وذلك أن الله تعالى ذكر بعدها ما يعتقده المشركون من

---

(١) جامع البيان للطبري ١٢/ ٢٤/ ٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٨.

إفراد الله تعالى بخلق السموات والأرض، بما هو تسفيه لهم لعبادتهم غيره سبحانه، وتخويفهم النبي ﷺ بتلك الآلهة التي لا تضر ولا تنفع، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ﴾ [الزُّمَر: ٣٨].

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: (يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا)[١].

الشبهة الحادية عشرة:

الاستدلال بقول أبي سفيان بعد غزوة أحد: (أعل هبل)[٢]، على أنهم - أي المشركين - يقدمون آلهتهم على الله تعالى فكيف يكونون موحدين في الربوبية؟

يقول صاحب كتاب " مفاهيم يجب أن تصحح " : (ومن هذا القبيل قول أبي سفيان رضي الله عنه قبل إسلامه: «أعل هبل»، كما رواه البخاري، ينادي صنمهم المسمى بهبل أن يعلو في تلك الشدة رب السماوات والأرض، ويقهره ليغلب هو وجيشه جيش المؤمنين الذي يريد أن يغلب آلهتهم، هذا مقدار ما كان عليه أولئك المشركون مع تلك الأوثان ومع الله رب العالمين)[٣].

---

(١) المرجع السابق ٤/ ٥٨.
(٢) القصة في صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة أحد - رقم ٤٠٤٣.
(٣) مفاهيم يجب أن تصحح. ص ٩٦.

والجواب :

أن هذا تفسير منهم لا يدل عليه الكلام، بنوا عليه اللازم الذي يريدون.

فمن قال إن مراد أبي سفيان أن هبل يعلوا الله سبحانه وتعالى ؟ بل ظاهر حالهم يدل على اعتقادهم أن آلهتم مملوكة لله تعالى، كما سبق ذكره من قولهم في التلبية : (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك)[١].

ولكن مراد الكلام منه بذلك : أن دينهم - أي المشركين - والذي يمثله تعظيم هبل وغيره من الآلهة قد غلب - كذبا وزعما منهم - دين المسلمين الذي يدعو إلى نبذ جميع تلك الآلهة.

قال ابن إسحاق : (معنى قوله أعل هبل : أي ظهر دينك)[٢].

الشبهة الثانية عشرة :

أن المشركين لو كانوا مقرين بالربوبية لما ذكر الله تعالى لهم تلك الآيات الآمرة بالتفكر في الإبل كيف خلقت، وفي الجبال كيف نصبت، وفي الأرض كيف سطحت، وفي السماء كيف رفعت[٣].

والجواب :

أن هذا منهم من أغرب القول وأضعف الاستدلال، وتصوره كاف

---

(١) تقدم تخريجه ص ١٦٠.

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٤٠٨.

(٣) التنديد بمن عدد التوحيد للسقاف ص ١٠.

في رده وبيان ضعفه.

ومع ذلك فيقال :

أولا : أن ذلك الأمر بالتفكر هو من إلزامهم بلازم ما هم عليه من الإقرار بوحدانية الله تعالى في الخلق والتدبير، وهو توحيده سبحانه وتعالى في العبادة.

ففي ذلك دلالة بينة على إقرارهم بالربوبية، فكان الاحتجاج عليهم بها في أمرهم بالإقرار بوحدانية الله تعالى في ألوهيته.

وهذا كثير في كتاب الله تعالى.

ثانيا : أن الأمر بالتفكر في ربوبية الله تعالى ليس خاصا بالمشركين، ولم يتوجه الخطاب إليهم وحدهم في ذلك، بل هو عام حتى للمؤمنين، بل إلى خالص المؤمنين وهم الأنبياء والمرسلين، كما في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٦-٨].

والمؤمن مأمور بالتفكر في ملكوت السموات والأرض ليزداد بذلك إيماناً ويقيناً بربه سبحانه وتعالى، وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين بذكرهم إياه سبحانه في كل حال، وتفكرهم في خلق السموات والأرض، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

فهل يقول ذاك الذي يستدل بالآيات التي تأمر الكفار بالتفكر في

مخلوقات الله سبحانه على إنكار الكفار لربوبيته سبحانه، هل يقول في الآيات التي تأمر المؤمنين بالتفكر: إنها دالة على إنكارهم للربوبية؟

الشبهة الثالثة عشرة:

قولهم: إن إقرار المشركين بوحدانية الله تعالى في الربوبية إنما هو في حال المناظرة والمجادلة فقط، وبعد ذلك يرجعون إلى اعتقاد الربوبية في آلهتهم[١].

ومنهم من يفسر بذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

والجواب على ذلك من وجوه أربعة:

● **الوجه الأول:**

أن هذا مخالف لما عليه أئمة التفسير من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وقد تقدمت أقوالهم بأن المشركين كانوا يقرون بأن الله تعالى هو خالقهم ورازقهم ومع ذلك يشركون معه غيره في العبادة.

فهذه حال واحدة فيهم - من غير حال الضراء - منطوية على أمرين مجتمعين وهما الإقرار بوحدانية الله تعالى في ربوبيته والإشراك في عبادته.

● **الوجه الثاني:**

أن ذلك مخالف لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم

---

(١) انظر: فرقان القرآن للقضاعي ص ١١٣، التنديد بمن عدد التوحيد لحسن السقاف ص ٩، ٣٨.

مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦]، فجملة، "وهم مشركون" حالية، والمقرر في علم البلاغة أن الحال قيد لعاملها وصف لصاحبها، وعليه فإن عامل هذه الجملة الحالية الذي هو «يؤمن» مقيّد بها، فيصير المعنى تقييد إيمانهم بكونهم مشركين، فهذه حال واحدة اجتمع فيها الإيمان والشرك، وقد مرّ توجيه ذلك بأن الإيمان هو اللغوي لا الإيمان الشرعي الذي هو مقابل الكفر(١).

● **الوجه الثالث:**

أن المشركين يصرحون بأن ما يعبدونه من دون الله تعالى إنما هم وسطاء وشفعاء لهم إلى الله سبحانه، وأنهم - أي الآلهة التي يعبدون - مخلوقون مربوبون لله.

وهذه أمور يقرون ويصرحون بها وليس ثمة مناظرة ولا مجادلة، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك)(٢).

وكذلك ما هو منقول من أشعارهم ومنثورهم مما فيه الدلالة على إقرارهم بربوبية الله تعالى، وقد تقدم ذكر طرف من ذلك(٣).

● **الوجه الرابع:**

هب أن ذلك الإقرار منهم كائن حال المناظرة والمجادلة، إذاً هم

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٧٥.

(٢) تقدم تخريجه ص ١٦٠.

(٣) انظر ص ٢٨٠-٢٨٣.

قوم وقّافون عند الحق حين يخاصمون فيه فيرجعون إليه ويقرون به !

فلماذا لا يكون ذلك حالهم في كل ما يقام عليهم فيه حُجة ؟

أتراهم أقروا بالرسالة وقد ظهرت لهم دلالاتها حتى علموا في قرارة أنفسهم أنها ليست من عند محمد ﷺ ؟

أتراهم أقروا بالبعث والنشور وقد قامت الدلائل عليه في كتاب الله تعالى بأبلغ بيان وأظهر حجة ؟

إن النبي ﷺ قد بلغهم دين الله تعالى بأظهر البيّنات وأبلغ الآيات، فلماذا اقتصر إقرارهم على هذه القضية فقط دون غيرها ؟

اللهم إلا أن يقال إنهم لم تقم عليهم حُجة وتظهر لهم إلا في مسألة الربوبية دون غيرها !

ألا فما أبعد ما تبلغه هذه الشبهة من الضعف !





الفصل الرابع

شبهاتهم في نفي وقوع الشرك في هذه الأمة

لقد حاول المبتدعة تبرير ما هو واقعٌ فيه كثير من الناس من المخالفات في توحيد العبادة والتي تصل إلى حد الشرك الأكبر الذي لا يغفر الله تعالى لصاحبه بتقرير أن هذه الأمة لا يقع فيها الشرك، مستندين في ذلك إلى أدلة لووا بها ألسنتهم، ولبسوا الحق بالباطل، وأغروا أفهاما وأسماعا أصغت إلى زخرف قولهم وحسبت أنهم على شيء، غافلة عن صريح الدلالات، والحجج البينات، ومع هذا فالهوى يعمي ويصم.

فالمبتدعة في قولهم هذا أخرجوا ما هو واقع من الاستغاثات والدعوات وصنوف العبادت المصروفة للأموات أن تكون شركا ؛ إذ أنها وقعت من أناس منتسبين إلى هذه الأمة، وهذه الأمة محفوظة من الشرك.

وجملة ما تعلقوا به من الشبه في ذلك يمكن حصرة في أمور ثلاثة، وهي :

أولا : النصوص الدالة على فضل هذه الأمة وأن أمرها باق إلى قيام الساعة.

ثانيا : النصوص الدالة على حفظ عموم الأُمة من الشرك، أو عدم الخوف على الأمة منه.

ثالثا : النصوص الدالة على فضل من قال لا إله إلا الله، ونجاته بها، أو التي تحذر من تكفيره أو رميه بالشرك.

وسأعرض لذكر هذه الشبه والجواب عليها مفصلا - إن شاء الله تعالى -، **ولكن أذكر هنا جوابا عاما** عن المسألة التي قرروها، وهي نفي وقوع الشرك في هذه الأمة، فأقول :

لا بد من تحرير المسألة أولاً، وذلك بأن يقال : هل المراد وقوع عموم الأمة وجملتها في الشرك، وأنه لا يبقى أحد منها على الإسلام ؟

أم أن المراد هو وقوع طوائف وأفراد من الأمة في الشرك ؟

ولا شك أن المعنى الأول متفق على نفيه، ولا يقول به أحد من أهل السنة، بل أمر الأمة محفوظ إلى يوم القيامة - كما سيأتي بيانه إن شاء الله -، وليس الكلام هنا عن هذا المعنى.

أما المعنى الثاني فهو محل النقاش والرد هنا، إذ أن المبتدعة قرروا عدم وقوع ذلك، وجعلوه مطية لنفي وصف الشرك عن الأعمال الشركية التي أنكرها أهل السنة على طوائف ممن ينتسب لهذه الأمة واقعين فيها.

أما أهل السنة فقد جمعوا بين النصوص، وأخذوا الكتاب بقوة، فلم يضربوا بين معانيه، ولم يحكموا أهواءهم فيه، فكما أنهم يؤمنون بأن أمر الأمة باق إلى قيام الساعة، فإنهم يؤمنون - أيضا - بالنصوص الدالة على لحاق طوائف من الأمة بالمشركين، واتباعها سنن من كان قبلها.

وبعد هذا التحرير للمسألة يقال في الجواب العام على المبتدعة في ذلك :

لقد وردت نصوص كثيرة دالة على وقوع طوائف من الأمة في الضلال الموصل إلى حد الكفر والشرك المخرج من ملة الإسلام، مما هو صريح في نقض ما قرره المبتدعة هنا، وليس فيه أي تعارض لما استدلوا به - كما هو واضح بعد تحرير المسألة -.

ومع تلك النصوص فإن التاريخ شاهد لذلك، فالطوائف والأفراد الذين خرجوا من الملة وكفروا بعد إيمانهم لا ينكر وجودهم في تاريخ الأمة إلا مجادل بغير سلطان لديه، ومعمي عن صفحات التاريخ وشواهد الواقع.

ومما يدل على بطلان قول المبتدعة بنفي وقوع الشرك في هذه الأمة ما يلي :

١ - النصوص الدالة على أن الأمة تأخذ مأخذ القرون قبلها، ومن ذلك :

ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : **(لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه)** قلنا : يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال : (فمن؟)[(١)].

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء - باب ما ذكر عن بني إسرائيل - رقم ٣٤٥٦، ومسلم في العلم - اتباع سنن اليهود والنصارى - رقم ٢٦٦٩.

وفي المسند وسنن الترمذي عن أبي واقد الليثي ﷺ أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ : (**سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم**)[١].

وكذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : (**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع**) فقيل : يا رسول الله، كفارس والروم؟ فقال : (**ومن الناس إلا أولئك ؟**)[٢].

وقد فسر أبو هريرة ﷺ بمعنى الحديث قوله تعالى : ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩][٣].

وقال ابن عباس ﷺ : (ما أشبه الليلة بالبارحة «كالذين من قبلكم» هؤلاء بنوا إسرائيل شبهنا بهم)[٤].

---

(١) رواه الترمذي في الفتن - باب ما جاء: لتركبن سنن من كان قبلكم - رقم ٢١٨٠، وأحمد ٥/ ٢١٨. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسُنة - باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» - رقم ٧٣١٩.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري ٦/ ١٠/ ١٧٦.

(٤) المرجع السابق ٦/ ١٠/ ١٧٦.

فهذه النصوص وما في معناها فيها دلالة صريحة على أنه يكون في هذه الأمة ما كان في الأمم السابقة، والشرك ومحدثات الأمور من أظهر ما كان في الأمم السابقة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولا ريب أن في أهل القبلة من يشبه اليهود والنصارى في بعض الأمور، ... - وذكر حديثي أبي سعيد وأبي هريرة السابقين - ... ومشابهتهم في الشرك بقبور الأنبياء والصالحين هو من مشابهتهم التي حذر منها أمته قبل موته في صحته ومرضه، وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وأن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[١] ...)[٢].

ويقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (قال ابن بطال: أعلم ﷺ أن أُمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كما وقع للأُمم قبلها، وقد أنذر في أحاديث كثيرة بأن الآخر شر، والساعة لا تقوم إلا على شرار الناس، وأن الدين إنما يبقى قائما عند خاصة من الناس. قلت: وقد وقع معظم ما أنذر به ﷺ، وسيقع بقية ذلك)[٣].

---

(١) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة - باب النهي عن بناء المساجد على القبور - رقم ٥٣٢.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٧/ ٢٨٦.
(٣) فتح الباري ١٣/ ٣١٤.

٢ - ما ورد من النصوص دالا على أن طوائف من الأمة تلحق بالمشركين وتعبد الأوثان.

ومن ذلك : ما رواه ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أُمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أُمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي)[١].

وكذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يرجع ناس من أمتي إلى أوثان يعبدونها من دون الله)[٢].

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة). وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية[٣].

وفي معناه ما أخرجه الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (لا تقوم الساعة حتى تدافع مناكب نساء بني عامر على ذي الخلصة)[٤].

---

(١) رواه الترمذي في الفتن - باب ما جاء: لا تقم الساعة حتى يخرج كذابون - رقم ٢٢١٩، وأبو داود في الفتن والملاحم - باب ذكر الفتن ودلائلها - رقم ٤٢٥٢، وابن ماجه في الفتن - باب ما يكون من الفتن - رقم ٣٩٥٢، وأحمد ٥/ ٢٨٧. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ٣٢٧، رقم ٢٥٠١.

(٣) رواه البخاري في الفتن - باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان - رقم ٧١١٦، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة - باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة - رقم ٢٩٠٦.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٢٢، وقال: على شرط البخاري ومسلم. ووافقه الذهبي.

وروى ابن عمر رضي الله عنهما أيضا، عن النبي ﷺ قال: **(لا تقوم الساعة حتى تنصب الأوثان، وأول من ينصبها أهل حصن من تهامة)**[١].

وروي عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: لا تقوم الساعة حتى تنصب فيها الأوثان وتعبد - يعني المحاريب -[٢].

وقد جاء في بعض الأحاديث حدوث الشرك في آخر الزمان ورجوع الناس إلى عبادة اللات والعزى، إلا أنها لا تدل على المعنى المتقرر هنا؛ لأنها دالة على وقوع ذلك بعد قبض كل من هو من هذه الأمة، حيث لا يبقى في الأرض من يقول: الله الله. كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: **(لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى)**، فقلت: يارسول الله! إن كنت لأظن حين أنزل الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٩] إن ذلك تام. قال: **(إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحا طيبة فتوفي كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم)**[٣].

فهذا كما أنه لا يدل على المعنى المقرر هنا، فإنه أيضا لا يعارضه، فحدوث الشرك وطغيانه ورجوع مجموع الناس إليه في آخر الزمان بعد قبض أرواح المؤمنين لا يعارض وقوع الشرك في طوائف من الأمة مع وجود المؤمنين الموحدين الذين جاء الوعد بظهورهم ونصرتهم.

---

(١) رواه ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» ص ١٧٨ برقم ٢٧١.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٦ برقم ٢٦٨.

(٣) رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة - باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة - رقم ٢٩٠٧.

وفارق ما بين الأمرين: أن ما يكون قبل قبض أرواح المؤمنين ليس شركا عاما يجتمع أهل الأرض عليه، بحيث لا يبقى من الأمة من يقوم بالتوحيد ويدعو إليه.

أما ما يكون بعد قبض أرواح المؤمنين فهو شرك عام شامل بحيث لا يبقى في الأرض من يوحد الله تعالى، فلا يبقى على ظهرها إلا شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة كما صحت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ[١].

والإشارة إلى هذا الفرق هنا؛ لأني وجدت من يستدل على نفي وقوع الشرك في الأُمة بالأحاديث الدالة على أن رجوع الناس إلى عبادة الأوثان تكون بعد قبض أرواح المؤمنين، وعدم بقاء أحد من الأمة في الأرض. فخلط بين الأمور وظن أن استدلاله يسعفه هنا فيما ذهب إليه[٢].

---

(١) ومن ذلك ما رواه مسلم في كتاب الإمارة - باب قوله ﷺ **«لا تزال طائفة..»** - رقم ١٩٢٤ عن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال: كنت عند مسلمة بن مخلد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم. فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر فقال له مسلمة: يا عقبة اسمع ما يقول عبد الله. فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»**. فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحا كريح المسك، مسها مس الحرير فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة.

(٢) انظر مثالاً على ذلك: الصوعق الإلهية في الرد على الوهابية. لسليمان بن عبدالوهاب ص ٥٠.

٣ - ما جاء من النصوص دالا على تغير الزمان قبل قيام الساعة، وحدوث الفتن، وفشو المنكرات، ورفع العلم وظهور الجهل، وغير ذلك مما هو في معناه.

ومن ذلك:

أ - حديث حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: (نعم) قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: **(نعم، وفيه دخن)**، قلت: وما دخنه؟ قال: **(قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر)**، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: **(نعم دعاة إلى أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها)**، قلت: يا رسول الله صفهم لنا فقال: **(هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا)**، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: **(تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)**، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام قال: **(فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)**[١].

ب ـ ما قاله أنس بن مالك ﷺ وقد شُكي إليه ما يلقى الناس من الحجاج: **اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم. سمعته من نبيكم ﷺ**[٢].

---

(١) رواه البخاري في المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام - رقم ٣٦٠٦، وفي الفتن - باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة - رقم ٧٠٨٤، ومسلم في الإمارة - باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن - رقم ١٨٤٧.

(٢) رواه البخاري في الفتن - باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه - رقم ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن - باب منه لا يأتي زمان إلا الذي شر منه - رقم ٢٢٠٦، وأحمد ٣/ ١٣٢.

ج - ما جاء عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج - وهو القتل -، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه عليه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه. وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس، يعني آمنوا أجمعون، فذلك حين (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا)، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)[1].

فهذه النصوص وما في معناها دالة على أن هذه الأُمة يأتي عليها أزمان فتن وجهل توقعها في أنواع من الضلالات، ولا يعارض هذا بقاء أمر الأمة مستقيما إلى قيام الساعة، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، ولكن المبتدعة أخذوا ببعض النصوص دون بعض، فصارت مثل هذه المعاني المقررة بدلالة الأحاديث السابقة معارضة - عندهم - للمعنى الذي فهموه من أحاديث بقاء أمر الأُمة مستقيما.

(١) رواه البخاري في الفتن - باب خروج النار - رقم ٧١٢١.

وصار الأخذ بالأحاديث كلها بمعان لا تعارض بينها حظا لأهل السنة عظيما.

٤ - ما جاء في أحاديث حوض النبي ﷺ، حيث ذكر فيها أن أقواما من أمته يذادون عن الحوض لما غيروا وبدلوا وأحدثوا بعده.

فمن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو بين ظهراني أصحابه: **(إني على الحوض أنتظر من يرد عليَّ منكم، فوالله ليقتطعن دوني رجال، فلأقولن: أي رب، مني ومن أمتي؟ فيقول: إنك لا تدري ما عملوا بعدك، ما زالوا يرجعون على أعقابهم)**[1].

٥ - دلالة التاريخ والواقع على ما وقع فيه طوائف ممن ينتسب لهذه الأمة من أنواع من الضلالات، منها ما هو شرك وكفر ومنها ما هو دون ذلك، مما هو من دلائل النبوة حيث أخبر النبي ﷺ بوقوع ذلك.

ومن أظهر ذلك ما وقع بعد وفاة النبي ﷺ من ارتداد أناس من الأُمة عن الإسلام فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه وقاتلهم الصحابة معه، فكانت من أعظم مناقبه، فلا تذكر سيرة أبي بكر رضي الله عنه إلا ويذكر معها حرب المرتدين.

فهل يغمض المبتدعة أعينهم عن هذه الحادثة الكبرى، أم سيقولون

---

(١) رواه مسلم في الفضائل - باب إثبات حوض النبي ﷺ - رقم ٢٢٩٤، ورواه البخاري في الرقاق - باب في الحوض - رقم ٦٥٩٣، ومسلم في الفضائل - باب إثبات حوض النبي ﷺ - رقم ٢٢٩٣ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

إن أولئك لم يرتدوا ولم ينقلبوا على أعقابهم لأن الأُمة لا يقع فيها الكفر ؟

إذاً، أي شيء سيقنعهم بعد هذا ؟

كيف إذا قيل لهم إن الأُمة قد مرت عليها - ولا تزال - طوائف منتسبة إليها اسما ونسبا، ولكنها آمنت بالطاغوت وكفرت بالله، وفضلت سبيل الكافرين على سبيل المؤمنين، وعملت على تبديل دين الله وتحريفه، ومع ذلك يسمون أنفسهم مسلمين من أُمة محمد ﷺ.

أتراهم - أعني المبتدعة - بعد تغافلهم عن حرب المرتدين سيقتنعون بتاريخ الأمة بعد ذلك مثالا دالا على حدوث الكفر في أناس منتسبين إليها ؟

فكم ظهر في تاريخها من فرق ودول ودويلات[1] ممن طفحت أقوالهم ومصنفاتهم وأحوالهم بالكفر الصريح الذي لا يشك فيه مؤمن قد علم ما أنزل الله على رسوله ﷺ.

أما زماننا الذي نعيش فيه فالشواهد فيه تكاد لا تحصى كثرة.

فهل يرون ذاك الذي تسمى باسم أهل الإسلام وتزيا بزيهم، ثم هو ينادي بترك الإسلام وإهماله، ويرميه بأنه سبب التخلف والرجعية، ويقول للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، أيرونه في أمان من الكفر بسبب انتسابه لهذه الأُمة اسما ؟

وهل يرون ذاك الذي بدل دين الله، وفضل حكم غير الله على

(١) كالباطنية والقرامطة والعبيديين وإخوان الصفا والاتحادية وغيرهم.

حكم الله تعالى أنه مسلم من أجل أنه من نسل المسلمين ؟

وهل يرون من ادعى النبوة ونسخ وأنسى من الشرع ما شاء أنه ما فارقه وصف الإسلام لأجل انتمائه لهذه الأُمة ؟

وهل يرون أن من يقول بنقصان الكتاب وأنه غير محفوظ، ويسب أكثر الصحابة - وخاصة السابقين منهم - ويتهمهم في دينهم، ويتهم عائشة رضي الله عنها بالزنا، أنه مسلم لأجل قوله أنه من أُمة الإسلام ونطقه بالشهادتين.

فلئن قالوا - أي المبتدعة - بضلال هؤلاء وكفرهم مع أنهم ينتمون إلى الأُمة، فيقال لهم : كذلك من صرف شيئا من العبادة من دعاء وصلاة ونسك وغير ذلك من أنواع العبادات لغير الله تعالى فهو مشرك ولو كان والداه وأهله من خيرة المسلمين وأتقاهم.

٦ - قد جاء في الشرع أحكام مترتبة على من ارتد عن دينه، وهذا يدل على عدم امتناع وقوع الكفر في الأُمة.

ولذلك فقد وضع الفقهاء جميعا - على اختلاف مذاهبهم - أبوابا خاصة بأحكام المرتد، ذكروا فيها ما يوقع المرء في الردة عن الإسلام، وما يترتب على ذلك من أحكام.

لكن المبتدعة - بتلبيسهم - جعلوا النصوص الدالة على الشرك وبيانه والتحذير من الوقوع فيه وعاقبة أهله نصوصا نازلة في أقوام سابقين، فلا يقبلون الاحتجاج عليهم بها رغم المشابهة الحاصلة في القول والفعل.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في هذا المعنى : (ومن عجائب

دحلان وأمثاله أنهم يظنون أن ما بينه القرآن من بطلان شرك المشركين خاص بهم لذواتهم، وليس بحُجة على من يفعل مثل فعلهم، كأن من ولد مسلما يباح له الشرك لجنسيته الإسلامية، وإن أشرك بالله في كل ما عده كتاب الله شركا، وعلى هذا لا يتصور وقوع الردة في الإسلام، لأن من سمي مسلما يجب أن يسمى كفره وشركه إسلاما، أو يعد مباحا له أو حراما على الأقل، وقد يعدونه مشروعا بالتأويل)[١].

٧- إن من العجب الذي لا يكاد ينتهي تلك الهجمات التي يرسلها فئات من الشيعة على أهل التوحيد بأنهم يكفرون الأمة ويضللونها وينسبونها للكفر والشرك رغم الأمان الذي بينه النبي ﷺ لها - مستدلين بذلك على بقاء أمر هذه الأُمة مستقيما، وأنه ﷺ لم يخش على أُمته الشرك -، ويبدئون ويعيدون حول هذا المعنى، ثم هم مع ذلك يضللون ويكفرون أصدق الناس إيمانا، وأعمقهم يقينا، وهم صحابة النبي ﷺ، وفي مقدمتهم أفضل الأمة على الإطلاق: أبو بكر وعمر وعثمان ﷺ.

فكتبهم طافحة بتكفير الصحابة ﷺ إلا نفرا يسيرا[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: (وأصل قول الرافضة: أن النبي ﷺ نص على علي نصاً قاطعاً للعذر؛ وأنه إمام معصوم ومن خالفه كفر؛ وأن المهاجرين والأنصار كتموا النص وكفروا بالإمام

---

(١) انظر تعليقه على «صيانة الإنسان» للسهسواني ص ٤٧٩-٤٨٠.

(٢) انظر: أصول الكافي للكليني ٢/ ٢٤٤. وانظر ما ذكره عنهم الشيخ عبد العزيز الدهلوي في (التحفة الثانية عشرة) - المختصر ص ٢٣٧.

المعصوم ؛ واتبعوا أهواءهم وبدلوا الدين وغيروا الشريعة وظلموا واعتدوا ؛ بل كفروا إلا نفراً قليلاً: إما بضعة عشر أو أكثر، ثم يقولون: إن أبا بكر وعمر ونحوهما ما زالا منافقين. وقد يقولون: بل آمنوا ثم كفروا.

وأكثرهم يكفر من خالف قولهم ويسمون أنفسهم المؤمنين ومن خالفهم كفاراً، ويجعلون مدائن الإسلام التي لا تظهر فيها أقوالهم دار ردة أسوأ حالاً من مدائن المشركين والنصارى، ولهذا يوالون اليهود والنصارى والمشركين على بعض جمهور المسلمين)[1].

فأي حجة سينطق بها الرافضي حين يجلب بخيله ورجله على أهل السنة حين يكفرون من كفره الله تعالى ورسوله، وهو يرى كتب أشياخه ملأى بتكفير وتضليل من ﷺ وأثنى عليهم ؟!

فالحاصل أن قول المبتدعة في نفي وقوع الشرك في هذه الأمة مخالفة صريحة للنصوص الشرعية والشواهد التاريخية، وما سبق فيه بيان كاف - بإذن الله تعالى - لذلك.

أما الشبه التي تمسكوا بها في قولهم هذا والجواب عليها فكما يلي :

الشبهة الأولى:

ما جاء في فضل هذه الأمة وبقاء أمرها إلى قيام الساعة: فقد تعلقوا فيها بالنصوص الدالة على هذا.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٣٥٦.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومن ذلك قول النبي ﷺ: **(من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطي، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله تعالى)**[١].

وما كان في هذا المعنى من النصوص الدالة على فضل الأمة وعصمتها[٢].

ويذكرون في ذلك تنصيص العلماء على تكفير من ضلل هذه الأمة، كما قال القباني: (نقول إن الأمة قد أجمعت على تكفير من ضلل الأمة، وممن نقل الإجماع علماء الحنابلة)[٣].

والجواب على ذلك:

أن هذا استدلال في غير محل النزاع، فأهل السنة لا يخالفون في فضل هذه الأمة، وأنها أفضل الأمم وأسبقها وأوسطها، وأن أمرها باق إلى أن يأتي أمر الله تعالى، وأنها لا تزال منها طائفة على الحق

---

(١) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة - باب قول النبي ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون» - رقم ٧٣١٢، ومسلم في الإمارة - باب قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق.. - رقم ١٠٣٧ [ينظر بعد الرقم ١٩٢٣].

(٢) انظر: الصواعق الإلهية لسليمان بن عبدالوهاب ص ١١١.

(٣) فصل الخطاب في نقض مقالة ابن عبدالوهاب - مخطوط ق١٣ - نقلاً عن دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب لـ د. عبدالعزيز آل عبداللطيف ص ٢٢٠.

منصورة، وأنها أكثر أهل الجنة.

فكل هذا وما في معناه مما دلت به النصوص المستفيضة على فضل هذه الأُمة لا يخالف فيه أهل السنة، بل يؤمنون به، ويرون ضلال من اعتقد غيره.

ولكن الكلام هنا ليس في هذا، إذ أن محل النزاع هو : هل هذه الأُمة يقع فيها الشرك أم لا ؟ وليس في كون الأُمة تشرك كلها أم لا.

فالمبتدعة قد ألزموا أهل السنة بما ليس بلازم، إذ أن إثبات وقوع طوائف أو أفراد من الأُمة في الشرك لا يعني أبدا أن الأُمة أشركت كلها وصار أمر جميعهم إلى ضلال وغواية.

وقد قدمت من النصوص ما فيه دلالة واضحة على وقوع طوائف من الأُمة في أنواع من الضلال مما قد يصل إلى الشرك بالله تعالى، وليس هذا بمعارض للنصوص الدالة على بقاء أمر هذه الأُمة وفضلها - ولله الحمد -.

فلئن أشرك من أشرك، وكفر من كفر بعد إيمانه، فالأمة لن تخلو في زمن من الأزمان من أهل الإيمان والتوحيد ينصر الله تعالى بهم دينه، ويعلي بهم كلمته، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله.

الشبهة الثانية:

استدلالهم بالنصوص الدالة على حفظ عموم الأُمة من الشرك، أو عدم الخوف على الأُمة منه.

فقد تمسكوا فيها بالنصوص الدالة على يأس الشيطان أن يعبد في

جزيرة العرب، والنصوص الدالة على عدم خوف النبي ﷺ الشرك على أمته.

فمن ذلك ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم)**[١].

وما جاء في الصحيحين عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها)**[٢].

وما كان في هذا المعنى من النصوص.

فقالوا: إن هذا أمان من النبي ﷺ لهذه الأُمة أن تقع في الشرك، وبناء على ذلك فما وقع فيه طوائف من الأُمة من الاستغاثة بالأموات، وجعلهم وسائط وشفعاء عند الله تعالى في قضاء الحوائج فليس من الشرك في شيء، ومن سمى ذلك شركا واتهم أهله بالشرك فقد خالف النصوص وضلل الأُمة، وأنزل النصوص التي جاءت في المشركين عباد الأوثان على أناس مسلمين موحدين[٣].

---

(١) رواه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار - باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس - رقم ٢٨١٢، والترمذي في البر والصلة - باب ما جاء في التباغض - رقم ١٩٣٧، وأحمد ٣/٣١٣.

(٢) رواه البخاري في الجنائز - باب الصلاة على الشهيد - رقم ١٣٤٤، ومسلم في الفضائل - باب إثبات حوض نبينا ﷺ - رقم ٢٢٩٦.

(٣) انظر: شفاء السقام للسبكي ص ٢٥٠، الصواعق الإلهية لسليمان بن عبدالوهاب ص ١١٦-١١٩، صلح الإخوان لابن جرجيس ص ١٤٤، البراهين الساطعة للقضاعي ص ٣٨٤.

ويمكن أن يلحق بذلك ما يستدلون به من نهي النبي ﷺ أن يبقى دينان في جزيرة العرب[١]. فيقولون : هذا أمان للجزيرة أن يكون فيها غير دين الإسلام.

وكذلك إخبار النبي ﷺ عن أروز الإيمان إلى المدينة[٢]، فيعرضونه في مقام حفظ الأمة من الشرك، فما يكون في المدينة من الاستغاثات والتوسلات بالأموات فهو محل إيمان لا شرك[٣].

والجواب على شبهتهم هذه كما يلي :

أولا : ما يتعلق بحديث يأس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب.

فالحديث ثابت من طرق عن عدد من الصحابة ﷺ، وقد تقدمت رواية جابر ﷺ عند مسلم.

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : **(إن الشيطان قد أيس أن يعبد بأرضكم هذه ولكنه قد رضي منكم بما تحقرون)**[٤].

وعن عمرو بن الأحوص ﷺ أن النبي ﷺ قال : **(ألا وإن الشيطان قد أيس من أن يعبد في بلادكم هذه أبدا ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم فسيرضى به)**[٥].

---

(١) ومن ذلك ما رواه أحمد في المسند ٦/ ٢٧٤ عن عائشة - ﷺ - قالت: كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال لا يترك بجزيرة العرب دينان.

(٢) رواه البخاري في الحج - باب الإيمان يأرز إلى المدينة - رقم ١٨٧٦، ومسلم في الإيمان - باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا - رقم ١٤٧.

(٣) انظر: الصواعق الإلهية لسليمان بن عبدالوهاب ص ١٢٤-١٢٦،

(٤) رواه أحمد في المسند ٢/ ٣٦٨.

(٥) رواه الترمذي في الفتن - باب ما جاء: دماؤكم وأموالكم عليكم حرام - =

وعن أبي حرة الرقاشي عن عمه أن النبي ﷺ قال: **(ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون ولكنه في التحريش بينكم)**[١].

وعن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(إن إبليس قد يئس أن يعبد في أرض العرب)**[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع، فقال: **(إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم فاحذروا ...)** الحديث[٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرضكم هذه وببلدكم هذا، ولقد رضي منكم بالمحقرات من أعمالكم)** الحديث[٤].

فالحديث ثابت من عدة طرق عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم، وإن كان بعض طرقه لا تخلو من مقال، إلا أن ذلك لا يضر؛ لسلامة الطرق الأخرى.

لكن استدلالهم بالحديث على عدم وقوع أحد من الأمة في الشرك

= رقم ٢١٥٩، وابن ماجه في المناسك - باب الخطبة يوم النحر - رقم ٣٠٥٥. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١) رواه أحمد في المسند ٥/ ٧٢ من حديث طويل.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٣٠٤.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ١/ ١٧١، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٤٤٩.

(٤) رواه الحميدي في المسند ١/ ٥٤ رقم ٩٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٢ وصححه ووافقه الذهبي.

فباطل، والجواب عليه من وجوه:

● **الوجه الأول:**

معارضته للأحاديث الثابتة الدالة على وقوع طوائف من الأُمة بالشرك، ولحوقها بالمشركين، وما كان من ارتداد طوائف من الأُمة عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ، وقد تقدم طرف في بيان ذلك.

فيكون للحديث معنى غير ما استدل عليه المبتدعة، وهو ما تبينه الوجوه التالية.

● **الوجه الثاني:**

أن الحديث فيه الإخبار عن يأس الشيطان من أن يعبد في جزيرة العرب، ويأس الشيطان ليس حكما قدريا نافذا، بحيث إن خالفه الواقع في زمن من الأزمان يكون ذلك معارضة لقدر أخبر عنه الشارع.

فالإخبار عن يأس الشيطان ليس إخبارا عن أمر قدري متحتم الوقوع، بل هو ذكر لحال الشيطان لما رأى ظهور الإسلام وتمكنه من قلوب أصحابه، فأيس من إخراجهم من دينهم إلى الشرك فاجتهد في التحريش بينهم، وأثر هذا قد ظهر في الأمة، حيث كانت الفتنة التي لم تزل الأُمة تتجرع مرارتها[1].

وهذا اليأس يشابهه يأس الكفار من المؤمنين أن يراجعوا دينهم بعد أن رأوا تمكنه في نفوس أهله وإقبال الناس عليه من كل فج، كما أخبر

---

(١) انظر: فتح المنان (تتمة منهاج التأسيس) للألوسي ص ٤٩٧، الصراع بين الإسلام والوثنية للقصيمي ٢/ ٢١٢.

الله تعالى بذلك نبيه ﷺ عشية يوم عرفة، حيث قال سبحانه : ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : (قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : يعني أن يراجعوا دينهم. وكذا روي عن عطاء بن أبي رباح والسدي ومقاتل بن حيان، وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن بالتحريش بينهم**»)[١].

ومع هذا فسعي الكفار أن يردوا المسلمين عن دينهم ديدن لا ينفك عنهم، ورغبة تملأ قلوبهم، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

إذاً، فالشيطان آيس وهو يرى تلك القلوب التي امتلأت توحيدا أن تطيعه في عبادة شجر أو حجر، فرضي بما هو دونه، لكنه لا يألو جهدا أن ينفذ إلى القلوب بالشرك ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وهذا عهده الذي قطعه على نفسه، نعوذ بالله من شره وشركه.

● **الوجه الثالث :**

أن الحديث فيه تخصيص جزيرة العرب بذلك، ومعناه أن غيرها لا يشمله ذلك، وهذا حُجة على المبتدعة في استدلالهم بالحديث على أن الشرك لا يكون في الأمة، إذ أن حدود الأُمة أوسع من جزيرة العرب.

فالحديث دال على فضل الجزيرة لتمكن الإسلام في قلوب أهلها

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٤.

أكثر من غيرهم، فهي أرض الإسلام الذي انطلق منها ويأرز إليها[(١)].

ولذلك جاء الأمر بتطهيرها من دنس الكفار والمشركين حيث قال عليه الصلاة والسلام: **(لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما)**[(٢)].

وهذا الفضل الذي خصت به جزيرة العرب لا يعارضه ما قد يقع فيه طوائف ممن يعيش فيها من أمور منكرة قد يصل بعضها إلى الكفر والشرك بالله تعالى.

ومثل هذا ما كان في زمن النبي ﷺ من المنافقين الذين ساكنوا المسلمين في أرض باركها الله تعالى، وزمن فضل الله أهله على من سواهم، فلا يعيب الزمانَ ولا المكانَ تلك الفئاتُ التي ما طابت بالتقى نفسا، ولا رفعت بالإسلام رأسا.

فالشرك شرك أينما كان، سواء فعل في أرض الجزيرة أم غيرها، وهو واضح المعالم ظاهر الأوصاف قولا وعملا، (فمحال أن يكون الشرك بصورته التي نهى الله عنها موجودا في بلاد كثيرة ويحكم عليها بالشرك، ويوجد في الجزيرة بصورته ولا يحكم عليها بالشرك. هذا من

---

(١) كما في حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: **(إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها)**. رواه مسلم في الإيمان - باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً - رقم ١٤٦.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير - باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب - رقم ١٧٦٧، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء - باب في إخراج اليهود من جزيرة العرب - رقم ٣٠٣٠، والترمذي في السير - باب ما جاء في إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب - رقم ١٦٠٦ و ١٦٠٧.

التلاعب والهوى الصارخ)[١].

• **الوجه الرابع:**

أن من أهل العلم من حمل الحديث على عموم الأُمة[٢].

فقد قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: (المراد أنه يئس أن تجتمع الأُمة كلها على الشرك الأكبر).

وهذا حق لا مرية فيه، فالأُمة لا تجتمع على ضلالة دون الشرك، كيف بالشرك الأكبر، وقد دلت النصوص على بقاء أمر هذه الأُمة مستقيما - ولو في طائفة من الناس - حتى يأتي أمر الله تعالى - كما تقدم بيانه -، وبذلك تجتمع النصوص: ما دل منها على حفظها من الشرك والكفر، وما دل منها على وقوع الشرك والكفر في أفراد وطوائف منها.

• **الوجه الخامس:**

أن في بعض ألفاظ طرق الحديث جاء تقييد الميؤوس منهم بالمصلين، فيحتمل أن يكون اليأس واقعا على أناس مخصوصين بناء على أن (أل) تكون للعهد، وأن يراد بهم الكاملون فيها.

فالمصلون هم المؤمنون المحققون لتوحيد الله تعالى، أما الغاوون

---

(١) هذه مفاهيمنا لصالح بن عبدالعزيز آل الشيخ ص ١٩٩.

(٢) ذكره الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين - كما في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية ٤/ ٤٨٢ -، وذكر عن الحافظ ابن رجب - رحمه الله - في شرح الحديث قوله: (المراد أنه يئس أن تجتمع الأُمة كلها على الشرك الأكبر).
قلت: وقد بحثت عن كلام ابن رجب في مظانه فلم أجده، والله تعالى أعلم.

المفرطون فليسوا من هذا الوصف في شيء.

قال الشيخ محمود شكري الألوسي : (إن الشيطان لا يطمع أن يعبده المؤمنون في جزيرة العرب، وهم المصدقون بما جاء به الرسول ﷺ من عند ربه، المذعنون له، الممتثلون لأوامره، المنتهون عما نهى عنه، ولا شك أن من كان على هذه الصفة فهو على بصيرة ونور من ربه، فلا يطمع الشيطان في أن يعبده.

وأما من تسمى باسم الإسلام، وتعاطى كل ما نهى عنه النبي ﷺ فيما يسر ويعلن فهو باسم المنافق أحق منه باسم المؤمن، وإن صام وصلى.

فمن التجأ إلى غير الله وتوكل على غيره ودعاه في سره ونجواه لم يكن مؤمنا برب العالمين، ولا مقرا بوحدانية إله السموات والأرضين، فوجود مثل هذا في جزيرة العرب لا ينافي الحديث الصحيح، كما لا يخفى على من له قلب سليم وعقل راجح)[١].

ثانيا : ما يتعلق بقول النبي ﷺ : (والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها)[٢].

فالحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه ، ولكن لا يصح استدلال المبتدعة به على عدم وقوع الشرك في الأمة.

---

(١) فتح المنان (تتمة منهاج التأسيس) ص ٤٩٧. وانظر: هذه مفاهيمنا لصالح آل الشيخ ص ١٩٩.

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٣٤ الحاشية (٢).

ويبين هذا الوجوه التالية:

- **الوجه الأول:**

معارضة هذا الاستدلال لما سبق بيانه من أنه يكون في هذه الأُمة ما كان في الأُمم السابقة، وأن فئات منها تلحق بالمشركين، كما ثبت ذلك بالنصوص الصحيحة وبالواقع الذي عاشته وتعيشه الأُمة.

وليس معنى ذلك أن دلالة الحديث غير صحيحة، بل هو ثابت - كما مر -، ولكن الكلام على المعنى الذي جعله المبتدعة مدلولا له، وإلا فالحديث معناه بين واضح، ولا يعارض النصوص الدالة على وقوع طوائف من الأُمة في الشرك.

يوضح هذا الوجه الثاني.

- **الوجه الثاني:**

أن الحديث خطاب موجه للصحابة ﷺ، وهم الذين تمكن التوحيد في قلوبهم بهداية الله تعالى لهم، حيث حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فكانوا أبعد الناس عن الشرك وأسبابه ووسائله.

فأخبر النبي ﷺ بما يخافه عليهم مما يجده الشيطان مدخلا إلى قلوبهم فينفذ به إلى ما يستطيعه من الإضلال فيهم وهو التنافس على هذه الدنيا وزينتها.

وقد وقع من ذلك ما يدل على معجزته ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: (ووقع من ذلك في هذا الحديث

إخباره بأنه فرطهم - أي سابقهم - وكان كذلك، وأن أصحابه لا يشركون بعده فكان كذلك، ووقع ما أنذر به من التنافس في الدنيا)[١] .

● **الوجه الثالث:**

أن الحديث ظاهر الدلالة في بيان أشد الأمور خطرا على الأُمة، وأقربها مدخلا إلى فساد الدين، وهو التنافس على زهرة الحياة الدنيا.

فهذا هو متعلق الدلالة، فليس هو في بيان ما يقع وما لا يقع، وإنما في بيان مبدأ الشر على الأُمة الذي يكون طريقا إلى ما سواه، فيكون المعنى مثل أن يقال: أنا لا أخشى على المسلمين كيد الأعداء، ولكن أخشى عليهم كيد من انتسب إليهم[٢] .

ولقد جاءت الروايات الكثيرة التي تبين أن أكثر ما يخافه النبي ﷺ على أمته التنافس في هذه الدنيا.

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض**). قيل: وما بركات الأرض؟ قال: (**زهرة الدنيا**). فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال: (**أين السائل؟**) قال: أنا. قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك. قال: (**لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها**

---

(١) فتح الباري ٦/ ٧١٠.

(٢) انظر: الصراع بين الإسلام والوثنية ٢/ ١٢٠.

استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حلوة، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع)[(١)].

---

(١) رواه البخاري في الرقاق - باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها - رقم ٦٤٢٧، ومسلم في الزكاة - باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا - رقم ١٠٥٢.
وللإمام ابن الأثير شرح جيد لهذا الحديث أرى من المناسب إثباته هنا لما فيه من إيضاح ما قد يشكل من معنى الحديث، فيقول: (الحبَط - بالتحريك -: الهلاك يقال حَبِط يَحبَط حبطاً. وقد تقدم في الحاء. ويُلِمّ: يَقْرُب أي يَدْنُو من الهلاك، والخِضرُ - بكسر الضاد -: نوع من البُقول ليس من أحرارها وجَيّدها. وَثَلَط البعير يُثْلِط: إذا ألقى رَجِيعه سَهْلاً رَقيقاً. ضَرَب في هذا الحديث مَثَلين: أحَدُهما لِلْمُفْرط في جَمْع الدنيا والمَنْع من حَقّها، والآخر للْمُقْتَصِدِ في أخْذِها والنَّفع بها، فقوله: «إنَّ ممَّا يُنْبِتُ الربيعُ ما يقتل حَبَطاً أو يُلِم» فإنه مَثَل للمُفْرط الذي يَأخُذ الدنيا بغير حَقّها، وذلك أن الربيع يُنبِتُ أحرار البُقول فَتَسْتِكْثر المشاية منه لاسْتطبابها إياه حتى تَنْتَفِخَ بُطُونُها عند مُجَاوَزتِها حدّ الاحتمالِ فتَنْشَقّ أمعاؤُها من ذلك فتهلك أو تُقارب الهلاك، وكذلك الذي يَجْمَع الدُّنيا من غير حِلّها وَيمْنَعُها مُسْتَحِقّها قد تَعرّض للهلاك في الآخرة بدخُول النَّار وفي الدنيا بأذى الناس له وحَسدهم إيَّاه وغير ذلك من أنواع الأذى، وأما قوله «**إلا آكِلة الخَضِر فإنه مَثَلٌ للمُقْتَصِد**» وذلك أن الخضر ليس من أحْرار البُقول وجَيّدِها التي يُنْبتُها الربيعُ بتوالي أمْطاره فتحْسُنُ وتَنْعُمُ ولكنَّه من البُقول التي ترعاها المواشي بعد هَيْج البُقول ويُبسِها حيث لا تَجِدُ سواها وتُسمِّيها العَربُ الجَنَبة، فلا تَرى الماشِية تُكْثِر من أكلها ولا تَسْتَمْرِئها، فضرب آكِلة الخضر من المواشي مثلا لمن يَقْتصد في أخْذ الدنيا وجَمْعها ولا يَحْمله الحِرْصُ على أخْذِها بغير حقّها، فهو بنَجْوةٍ من وبالها كما نَجَتْ آكلة الخضر، ألا تراه قال: «**أكَلْت حتى إذا امتدّت خَاصِرَتاها اسْتَقْبَلت عين الشمس فَثَلَطَت وبالت**» أراد أنها إذا شَبِعَت منها برَكَت مُسْتَقْبِلةً عين الشمس تَسْتَمرِئُ بذلك ما أكلَتْ وتَجْتَرُّ وتَثْلِطُ، فإذا ثَلَطَت فقد زال عنها الحَبَطُ، وإنما تَحَبط الماشية لأنها تَمتلئ بُطُونها ولا تَثْلِطُ ولا تَبول فتَنْتِفِخُ أجْوَافها فَيَعرِض لها المَرضُ فتَهْلِك. وأراد بزَهْرة الدنيا حُسنَها وبَهْجَتَها، وببرَكات الأرضِ نَمَاءَها وما يخرج من نَبَاتِها).
النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٤٠-٤١ مادة (خضر).

وجاء في بعض الروايات ذكر عدم خشيته ﷺ الفقر على أمته ولكنه خشي عليهم انفتاح الدنيا والتنافس عليها، وهذا لا يدل على عدم وقوع أحد من الأمة في الفقر، ولكن هو لبيان ما هو أخطر وأضر.

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم)**[1].

ثالثا: ما يتعلق بما يستدلون به من فضائل الجزيرة والحرمين وأروز الإيمان إلى المدينة والنهي أن يبقى دينان في جزيرة العرب بأن هذا يدل على أن هذه الديار ديار إيمان لاشرك.

والجواب:

أن هذا ليس في محل المنازعة، إذ لا تعارض بين هذه الفضائل، وبين أن يقع أحد من الأمة في الشرك، أو أن يعيش في تلك البقاع من هو من أهل الشرك والضلالة.

ولقد كانت المدينة خير ما كانت في زمن النبي ﷺ، ومع ذلك لم تخل من المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

ولقد كانت مكة وهي البلد الحرام التي باركها الله تعالى يقطنها المشركون سنين طوال حتى طهرها الله تعالى على يد نبيه ﷺ من دنس

(١) رواه البخاري في الجزية - باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب - رقم ٣١٥٨، ومسلم في الزهد والرقائق - باب الدنيا سجن للمؤمن جنة للكافر - رقم ٢٩٦١.

الشرك والمشركين.

بل قد جاء في أحاديث الدجال ما يدل على أن المدينة يكون فيها كفار ومنافقون، كما جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق)**[1].

الشبهة الثالثة:

فقد تمسكوا فيها بالنصوص الدالة على فضل (لا إله إلا الله)، وفضل من قالها، وما يحصل له من النجاة والفوز والفلاح، وتحذير النبي ﷺ من تكفير أحد من المسلمين ونسبته إلى الشرك.

والنصوص في هذا المعنى كثيرة جدا، ومن ذلك:

١- قوله ﷺ: **(فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)**[2].

٢- قوله عليه الصلاة والسلام: **(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . .)** الحديث[3].

٣- قوله ﷺ: **(ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمن قال لا إله**

---

(١) رواه البخاري في الحج - باب لا يدخل الدجال المدينة - رقم ١٨٨١، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة - باب قصة الجساسة - رقم ٢٩٤٣.

(٢) رواه البخاري في الأطعمة - باب الخزيرة - رقم ٥٤٠١، ومسلم في الإيمان - باب الدليل على أن مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً - رقم ٣٣.

(٣) تقدم تخريجه ص ٧٤ الحاشية (١).

إلا الله ولا نكفره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أُمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار)(١)(٢).

وكذلك النصوص الدالة على التحذير من تكفير المسلم أو قتله، ومن ذلك :

١- قول النبي ﷺ : **(سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)**(٣).

٢- تشديد النبي ﷺ على أسامة بن زيد رضي الله عنهما لما أن قتل رجلا بعد أن قال لا إله إلا الله، فقال ﷺ : **(يا أسامة ! أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله.؟)** فما زال يكررها حتى قال أسامة رضي الله عنه : تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم(٤) (٥).

فالشاهد أنهم جعلوا تلك النصوص الدالة على هذا المعنى مستمسكا لهم فيما يقرونه من أعمال الشرك التي وقع فيها كثير من المسلمين، والإنكار على من ينكر تلك الأعمال بحجة أنه يكفر المسلمين، ويجني على من قال لا إله إلا الله.

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد - باب في الغزو مع أئمة الجور - رقم ٢٥٣٢.

(٢) انظر: مفاهيم يجب أن تصحح ص ٧٣.

(٣) رواه البخاري في الإيمان - باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر - رقم ٤٨، ومسلم في الإيمان - باب قول النبي ﷺ «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**» - رقم ٦٤.

(٤) رواه البخاري في المغازي - باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد - رقم ٤٢٦٩، ومسلم في الإيمان - باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله - رقم ٩٦.

(٥) انظر: مفاهيم يجب أن تصحح ص ٧٦.

يقول سليمان بن عبدالوهاب في رده على الوهابية - بزعمه - : (ولكن ليس هذا بأعجب من استدلالكم بآيات نزلت في الذين : ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦]، والذين يقال لهم : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٩] والذين يقولون : ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، ومع هذا تستدلون بهذه الآيات، وتنزلونها على الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقولون ما لله من شريك، ويقولون : ما أحد يستحق أن يعبد مع الله)[1] .

والجواب على هذه الشبهة :

أنه هنا قد ظهر النزاع، واشتدت المفارقة بين أهل السنة والمبتدعة، فهذه الكلمة (لا إله إلا الله) هي أعظم القول وأفضله، وهي أول ما يدخل به في الدين وآخر ما يخرج به من الدنيا لمن أراد الفوز والفلاح.

فلا شك في فضلها وفضل من قالها محققا لمعناها، عاملا بمقتضاها.

ولا شك في عظيم الإثم لمن تعرض لأهلها بالتكفير والتفسيق بلا حجة ولا برهان.

تلك الكلمة التي خلق الله تعالى الخلق لأجلها، وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيانها والتحذير مما يخالفها، فكانت أحب القول إلى الله

---

(١) الصواعق الإلهية ص ١١.

وأعظمه، لم تكن السماوات والأرض ومن فيهن عدلا لها في الميزان فكانت أرجح من كل ذلك رغم الثقل الذي لا يعلم حصره إلا الله.(١)

ولم تكن لتصمد لها سجلات الغفلة والعصيان رغم كثرتها حتى طاشت تلك السجلات كلها ببطاقة واحدة حين حملت تلك الكلمة، نطق بها قلب خالص لوجه الله.(٢)

فليس أهل السنة بحاجة إلى المبتدعة في تذكيرهم بفضائل هذه الكلمة وفضائل أهلها، كيف وشغلهم الشاغل هو هذه الكلمة وبيان حقيقتها والدعوة إلى سبيلها، والدفاع عن أهلها ؟

ولكن، أكلّ من نطق بهذه الكلمة صار من أهلها وإن عمل ما عمل ؟

هذا فراق بين أهل السنة وبين المبتدعة.

إذ ظن المبتدعون أن ما يقوم به من ينتسب إلى هذه الأُمة وينطق بهذه الكلمة صباحه ومساءه من أعمال هي في حقيقتها مشابهة صريحة

---

(١) إشارة إلى ما رواه الحاكم في المستدرك ١/ ٧١٠ - وصححه ووافقه الذهبي - عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (قال موسى ﷺ: يا رب علمني شيئا اذكرك به وأدعوك به. قال: يا موسى قل: لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقول هذا. قال: قل لا إله إلا الله. قال: لا إله إلا أنت يا رب، إنما أريد شيئا تخصني به. قال: يا موسى لو كان السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله).

(٢) إشارة إلى حديث صاحب البطاقة. رواه الترمذي في الإيمان - باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله - رقم ٢٦٣٩، وابن ماجه في الزهد - باب ما يرجى من رحمة الله - رقم ٤٣٠٠، وأحمد في المسند ٢/ ٢١٣ عن عبدالله بن عمرو ﷺ.

لطريقة أهل الجاهلية الأولى كالاستغاثة بالأموات والسجود لهم ونحو ذلك .. يظنون أن ذلك ليس من الشرك في شيء لأنه صدر ممن ينطق بـ (لا إله إلا الله).

أما أهل السنة فقد قرروا ما دل عليه كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من أن هذه الكلمة ليست مجرد لفظ لا معنى له في واقع العبد، وإلا لتلفظ بها كفار قريش وبقوا عند حدود اللفظ دون المعنى وأبقوا على ما هم عليه من الشرك.

فلا بد من تحقيق هذه الكلمة حتى يثبت للمرء حكمها وفضلها.

أما مجرد التلفظ دون العمل فهذا شأن المنافقين الذين لا يذكرون الله إلا قليلا، فهم يقولون (لا إله إلا الله) بل ويشهدون أن محمدا رسول الله، ومع ذلك فهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها أبد الآبدين.

وهذه الكلمة قائمة على معنيين أساسيين هما ركناها، وهما : نفي جميع ما يعبد من دون الله تعالى كائنا من كان، وإثبات العبادة لله تعالى وحده.

فمن حقق معنى دون الآخر فلا حظ له بها.

ولذلك، فإن الذين يجعلون مع الله تعالى آلهة أخرى بدعائهم والتوكل عليهم وجعلهم وسائط بينهم وبين الله تعالى في قضاء حوائجهم لم يحققوا معنى هذه الكلمة، فلا حظ لهم بها وإن تلفظوا بها ألف مرة.

ولقد وقع الإجماع من الصحابة وغيرهم على تكفير أناس لم يزالوا

ينطقون بهذه الكلمة إلا أنهم وقعوا فيما يناقضها.

وللشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في هذا المعنى كلام أنقله بطوله ؛ لأن فيه بيانا شافيا - بإذن الله تعالى -، يقول : (ويقال أيضاً : هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة ؛ وقد أسلموا مع النبي ﷺ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويؤذنون ويصلون.

فإن قال إنهم يقولون : إن مسيلمة نبي.

فقل : هذا هو المطلوب، إذا كان من رفع رجلا إلى رتبة النبي ﷺ كفر وحل ماله ودمه، ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة، فكيف بمن رفع شمسان أو يوسف ؟ أو صحابياً أو نبياً إلى مرتبة جبار السموات والأرض، سبحان الله ما أعظم شأنه ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الرُّوم: ٥٩].

ويقال أيضاً : الذين حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار كلهم يدّعون الإسلام، وهم من أصحاب علي، وتعلموا العلم من الصحابة، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم ؟ أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين ؟ أم تظنون أن الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر، والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفّر.

ويقال أيضاً : بنو عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العباس كلهم يشهدون أن "لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" ويدعون الإسلام ؛ ويصلون الجمعة والجماعة، فلما أظهروا

مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين . . .)[١].

هذا جملة ما قد يتمسك به المبتدعة من شبهات في نفيهم وقوع الشرك في الأمة، الذي جعلوه مطية إلى تقرير ما يقع عند قبور الأولياء وغير الأولياء من دعوات واستغاثات بحجة أن هؤلاء المستغيثين من الأمة، والأمة لا شرك يقع فيها .



(١) كشف الشبهات ص ٣٩-٤٣.

الباب الثالث

شبهاتهم في أنواع من الشرك الأكبر

- الفصل الأول : الدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير الله.
- الفصل الثاني : الذبح والنذر لغير الله.
- الفصل الثالث : الركوع والسجود لغير الله.



الفصل الأول

الدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير الله

- تمهيد:
- المبحث الأول: مذهب أهل السنة في الدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير الله.
- المبحث الثاني: مذهب المبتدعة في الدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير الله.
- المبحث الثالث: شبهات المبتدعة في تجويز دعاء الأموات والاستغاثة بهم.



الفصل الأول

الدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير الله

تمهيد في بيان المراد بالدعاء والاستغاثة والاستعانة في هذا الفصل:

الاستغاثة : طلب الغوث، وهو : النصرة وكشف الشدة[١].

جاء في تاج العروس أنها : (طلب العون وهو التخليص من الشدة والنقمة، والعون على الفكاك والشدائد)[٢].

ومنه قول الله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩].

والاستعانة : طلب العون، وهي شاملة لمعنى الاستغاثة[٣]، إلا أن الاستغاثة مستعملة في حال الشدة والكرب - كما سبق في تعريف الراغب -، أما الاستعانة فهي أعم من ذلك.

وفي " لسان العرب " : (قال الليث : كل شيء أعانك فهو عون لك كالصوم عون على العبادة)[٤].

ولذلك فإن الاستغاثة تكون بالنداء والاستصراخ، كما قال في اللسان : (وغوّث الرجل واستغاث : صاح واغوثاه)[٥].

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٦١٧.
(٢) تاج العروس للزبيدي ٥/ ٢١٤.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٣٩٢.
(٤) لسان العرب ١٣/ ٢٩٩.
(٥) لسان العرب ٢/ ١٧٤.

وجاء في معنى الاستصراخ بأنه الاستغاثة[١].

أما الاستعانة فتكون بالنداء وغيره، كما في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة).

والدعاء: مصدر دعا يدعو، ويأتي في اللغة على معان منها:

١- النداء، فتقول: دعوت فلانا وبفلان: ناديته وصحت به، قال الراغب: (الدعاء كالنداء، إلا أن النداء قد يقال بيا أو أيا، ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان)[٢].

٢- التسمية، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣][٣].

٣- الندب. قال في لسان العرب: (ودعا الميت: ندبه، كأنه ناداه)[٤].

٤- السؤال، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: ٦٨][٥].

٥- الحث على فعل الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ

(١) النهاية لابن الأثير ٣/ ٢١، لسان العرب ٢/ ٢٢.
(٢) المفردات ٣٥١. وانظر: لسان العرب ١٤/ ١٥٨.
(٣) المفردات ص ٣١٥.
(٤) اللسان ١٤/ ٢٥٩
(٥) المفردات ٣١٥.

إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ [غافر: ٤١][(١)].

الطلب وسؤال الحاجات، وهو أكثره إطلاقا في كتاب الله تعالى، فما كان من أمر بدعاء الله تعالى ونهي عن دعاء غيره سبحانه وتعالى فهو منصرف إلى هذا المعنى.

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله في بيان معنى دعاء الله تعالى: (ومعنى الدعاء: استدعاء الرب - عز وجل - العناية، واستمداده المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود والكرم إليه)[(٢)].

ويدخل في هذا المعنى ما كان لازما له من الثناء على الله تعالى وتحقيق عبادته؛ إذ هي أسباب تقتضي حصول المطالب.

وبذلك كان الدعاء هو العبادة كما أخبر بذلك النبي ﷺ[(٣)].

يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله: (اعلم أن أصل الدعاء في اللغة: الطلب؛ فهو استدعاء لما يطلبه الداعي ويؤثر حصوله، فتارة يكون الدعاء بالسؤال من الله عز وجل والابتهال إليه كقول الداعي: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، وتارة يكون بالإتيان بالأسباب التي تقتضي حصول المطالب وهو الاشتغال بطاعة الله وذكره وما يجب من عبده أن

---

(١) المفردات ٣١٥.

(٢) شأن الدعاء ص ٤.

(٣) رواه أبو داود في الصلاة - باب الدعاء - رقم ١٤٧٩، والترمذي في التفسير - باب ومن سورة البقرة - رقم ٢٩٦٩، وابن ماجه في الدعاء - باب فضل الدعاء - رقم ٣٨٢٨، وأحمد ٤/ ٢٦٧. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

يفعله، وهذا هو حقيقة الإيمان)[١] .

وهذا المعنى للدعاء شامل لمعنى الاستغاثة والاستعانة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (والداعي يطلب أحد شيئين، إما حصول منفعة أو دفع مضرة، فالاستعاذة والاستجارة والاستغاثة كلها من نوع الدعاء والطلب)[٢].

والكلام في هذا الفصل هو عن هذا المعنى من الدعاء ؛ إذ أن أظهر المخالفات في توحيد العبادة هي دعاء غير الله تعالى بأن يتوجه إلى غيره من أصنام وأفلاك وأموات وملك وجان ونحو ذلك بالسؤال والطلب والاستغاثة والاستعانة وما في معنى ذلك مما هو عبادة لا ينبغي صرفها لغير الله تعالى.

والأصل في الدعاء والاستغاثة والاستعانة أن لا يصرف شيء من ذلك إلا إلى الله تعالى ؛ لأنه لا مغيث ولا معين على الإطلاق إلا هو سبحانه.

لكن يخرج من هذا المعنى ما كان سببا مباحا لم ينه عنه الشارع، ولم يعده من أنواع الشرك، كالاستغاثة والاستعانة بالحي الحاضر على ما يقدر عليه، فهذه من الأسباب التي جعلها الله تعالى بين العباد يتخذ فيها بعضهم بعضا سخريا.

ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام :

---

(١) فتح الباري لابن رجب ١/ ٢٠.

(٢) الاستغاثة في الرد على البكري ٢/ ٤٥٢.

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥].

وكذلك ما أمر به سبحانه من التعاون على البر والتقوى كما في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢].

أما مالم يكن كذلك فيبقى على الأصل، كسؤال الأموات والاستغاثة بهم، أو سؤال الأحياء ما هو من خصائص الربوبية كغفران الذنوب، وهداية القلوب، وشفاء الأمراض، ونحو ذلك[١].

إلا أن كثيرا من المبتدعة خلطوا بين الأمرين، وجعلوا الاستغاثة بالميت معنى مشابها للاستغاثة بالحي الحاضر على ما يقدر عليه، مع أن المفارقة بين الأمرين ظاهرة عقلا ونقلا - كما سيأتي بيانه في الجواب على هذه الشبهة لهم -.

فالمعنى الدال على الشرك لا يشتبه مع ما ليس كذلك؛ إذ أن التوحيد والشرك هما أظهر المعاني دلالة في الكتاب والسنة، وكذلك العقل والفطرة؛ حيث إنهما مدار المنازعة بين الرسل وأعدائهم.

ولقد كان الناس - في أزمان الرسالات - يستغيث ويستعين بعضهم ببعض فيما هو مقدور لهم، فما نهاهم الرسل عليهم الصلاة والسلام عن ذلك، وما حكموا عليهم بشرك ولا كفر به.

بينما حكموا على الذين كانوا يستغيثون بالأموات أو الغائبين بالشرك، كالمستغيثين بعيسى وعزير والملائكة عليهم الصلاة والسلام،

---

(١) انظر: الاستغاثة في الرد على البكري لابن تيمية ١/ ٣٠٠.

والمستغيثين بالأحجار والأشجار والأفلاك وما شابه ذلك.

ولقد جاء عن جمع من السلف - منهم ابن عباس وابن مسعود ﷺ - في معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء: ٥٦] أن المراد بذلك عزير والمسيح والملائكة والجن والشمس والقمر.

فعن ابن مسعود ﷺ قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم[١].

وعن ابن عباس ﷺ - بروايات عدة - أنهم عيسى بن مريم وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر[٢].

وهذا يدل دلالة ظاهرة على الفرق بين سؤال الحي الحاضر ما يقدر عليه وأنه لا يدخل في معنى الشرك، وبين سؤال الأموات والغائبين، وكذلك سؤال الحي ما لا ينبغي طلبه إلا من الله تعالى كغفران الذنوب وإنزال الغيث ونحو ذلك.

فسؤال الأموات والغائبين والاستغاثة بهم كل هذا من أنواع الشرك التي جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بمحاربتها والتحذير منها.

وفي حكم ذلك سؤال الحي الحاضر ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير - باب ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ - رقم ٤٧١٤، ومسلم في التفسير - باب في قولقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ - رقم ٣٠٣٠.

(٢) روى ذلك كله ابن جرير بسنده في تفسيره ٩/ ١٥/ ١٠٥-١٠٦.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان ذلك : (فالاستغاثة المنفية نوعان : أحدهما : الاستغاثة بالميت مطلقا في كل شيء.

والثاني : الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق، فليس لأحد أن يسأل غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله لا نبيا ولا غيره، ولا يستغيث بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق، وليس لأحد أن يسأل ميتا، أو يستغيث به في شيء من الأشياء، سواء كان نبياً أو غيره)(١) .

ويقول الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي رحمه الله : (والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه، كقولهم : يا لزيد، يا للمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة بالفعل.

وأما الاستغاثة بالقوة التأثيرية أو في الأمور المعنوية من الشدائد، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه فمن خصائص الله تعالى، لا يطلب فيها غيره)(٢) .

إذاً : فموضوع الكلام في هذا الفصل هو ما دل على المعنى الشركي من السؤال والطلب والاستغاثة والاستعانة، وهو سؤال الأموات أو الغائبين والاستغاثة بهم أو الاستغاثة بالحي الحاضر على ما لايقدر عليه إلا الله تعالى.

أما سؤال الحي الحاضر ما يقدر عليه فليس محل كلام هنا ؛ لأنه - كما تقدم - ليس من معاني الشرك.

---

(١) الاستغاثة ١/٣٥٩-٣٦٠.

(٢) سيف الله على من كذب على أولياء الله ص ٤٠.

ولما كان الأغلب الأعم في حال المخالفين في توحيد العبادة هو سؤال الأموات والاستغاثة بهم وإنزال الحاجات عندهم، فسيكون أغلب الكلام والمناقشة في هذا المعنى، أما غيره المشترك معه في الحكم فهو داخل في ذلك ضمناً أو لزوماً.



المبحث الأول

مذهب أهل السنة في الدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير الله

لما كانت عبادة الله تعالى وحده هي حكمة خلق الثقلين، وأساس دعوة الأنبياء والمرسلين، فإن دلائلها أظهر في المعنى وأبلغ في الحجة، ولا ينازع فيها إلا من أعماه هواه وغلبت عليه شقوته.

والدعاء هو أساس العبادة ومخها، بل هو العبادة بعينها باعتبار الحال واعتبار المآل؛ ولذلك فإن دلائله أظهر الدلائل وأجلاها.

وبناء على ذلك فالشرك في الدعاء هو أعظم الشرك وأظهره، ولقد كان أكثر شرك المشركين هو في دعائهم غير الله تعالى من الأموات والغائبين والجمادات.

ولذلك فإن الأمر بدعاء الله وحده دون ما سواه هو أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فبينوا ذلك بأوضح البيان وأبلغ الحجة، فلم يبق للمشركين أي مستمسك لما هم عليه من دعاء غير الله تعالى.

ومذهب أهل السنة في ذلك هو تلك الطريقة البينة الظاهرة التي أبانها المرسلون عليهم الصلاة والسلام - وفي مقدمتهم أفضلهم وخاتمهم ﷺ - وهي: أن الدعاء حق من حقوق الألوهية لا يصرف إلا إلى الله تعالى، وأن صرف شيء منه لغيره سبحانه شرك مخرج من ملة الإسلام.

ويدخل في ذلك الاستغاثة والاستعانة في غير ما جعله الله تعالى

سببا مباحا بين العباد، كالاستغاثة بالأموات والغائبين، والاستغاثة بالحي الحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

فكل ذلك من أنواع الشرك الذي أُرسل الرسل وأُنزلت الكتب لمحاربته.

وعلى هذا المعنى دلت أقوال سلف الأُمة وأفعالهم، ولم ينقل عن أحد منهم أنه دعا النبي ﷺ في قبره أو استغاث به فضلا عن أن يستغيث بغيره.

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم تصيبهم الشدائد وتنزل بهم الفتن، فما لجئوا يوما إلى القبر الشريف يستغيثون ويتوسلون، بل كان دأبهم ما تركهم عليه نبيهم ﷺ من دعاء الله تعالى والاستعانة به وحده.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان ذلك: (سؤال الميت والغائب نبيا كان أو غيره من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين، لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا استحسنه أحد من أئمة المسلمين، وهذا يعلم بالاضطرار من دين المسلمين، فإن أحدا منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترة أو نزلت به حاجة لميت: ياسيدي فلان أنا في حسبك، أو اقض حاجتي! كما يقوله بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين، ولا أحدا من الصحابة استغاث بالنبي ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها، وقد كانوا يقفون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال، ويشتد البأس بهم ويظنون الظنون، ومع هذا لم يستغث أحد منهم بنبي ولا

غيره من المخلوقين)[١].

ويقول أبو الوفاء ابن عقيل رحمه الله في بيان أن دعاء الأموات والاستغاثة بهم هو من الأمور الشركية التي أحدثها الجهال والطغام: (لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم . . .

قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد النيران، وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا)[٢].

فالاستغاثة بالأموات ونحوهم هو الدين الذي كان عليه المشركون، ولا حظّ في الإسلام لمن كان على ذلك، وهذا محل إجماع بين أهل السنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنوب، وهداية القلوب، وتفريج الكربات، وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين)[٣].

---

(١) الاستغاثة ١/ ٣٣١.

(٢) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ٤٥٥، اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ٢/ ٦١١، إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ١٣٣.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/ ١٢٤. وانظر في نقل الإجماع عنه: الإقناع للحجاوي - تحقيق د. عبدالله التركي ٤/ ٢٨٥.

.. إلى أن قال: (والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين الله وخلقه كالوسائط تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك، بل هذا دين المشركين عبدة الأوثان، كانوا يقولون: إنها تماثيل الأنبياء والصالحين، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله تعالى. وهو من الشرك الذي أنكره الله تعالى على النصارى حيث قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١](١).

ويقول الشيخ محيي الدين محمد البركوي الحنفي رحمه الله - في الكلام على ما يكون عند القبور من بدع، ومنها الاستعانة بالميت في قضاء الحاجات -: (وأما الزيارة البدعية فهي زيارة القبور لأجل الصلاة عندها، والطواف بها، وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود عليها، وأخذ ترابها، ودعاء أصحابها والاستعانة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية والولد وقضاء الديون وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من الحاجات التي كان عباد الأوثان يسألونها من أوثانهم، فليس شيء من ذلك مشروعا باتفاق أئمة المسلمين؛ إذ لم يفعله رسول الله ﷺ ولا أحد من الصحابة والتابعين، وسائر أئمة الدين، بل أصل هذه الزيارة البدعية الشركية مأخوذة عن عباد الأصنام)(٢).

ويقول الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله: (اعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئا من نوعي الدعاء - أي دعاء العبادة ودعاء المسألة - لغير الله فهو مشرك، ولو قال: لا إله إلا الله محمد رسول

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/ ١٣٥.
(٢) زيارة القبور الشرعية والشركية ص ٢٨.

الله، وصلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا الله، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله، فما أتى بهما حقيقة وإن تلفظ بهما، كاليهود الذين يقولون لا إله إلا الله، وهم مشركون)[(١)] .

والدلائل على أن الدعاء حق خالص لله تعالى لا يجوز صرفه لغيره، وأن الاستغاثة والاستعانة بالأموات والغائبين والجمادات من أنواع الشرك الظاهر، كثيرة ومتنوعة، ومن ذلك :

أولا : أن الدعاء هو أصل العبادة وأساسها وأفضلها، ويدل لذلك ما ثبت في السنن من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : **(الدعاء هو العبادة)**، ثم قرأ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠][(٢)] .

وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : **(أفضل العبادة الدعاء)**، وقرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠][(٣)] .

وفي سنن الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **(ليس شيء أكرم على الله من الدعاء)**[(٤)] .

ولقد سمى الله تعالى الدعاء عبادة، كما في الآية السابقة، وقد

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٢٢٧.

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٥٩، الحاشية (٣).

(٣) الحاكم في المستدرك ١/ ٦٦٧ وصحح إسناده ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة - رقم ١٥٧٩.

(٤) رواه الترمذي في الدعوات - باب ما جاء في فضل الدعاء - رقم ٣٣٧، وابن ماجه في الدعاء - باب فضل الدعاء - رقم ٣٨٢٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٢.

تلاها النبي ﷺ مبينا أن الدعاء هو العبادة.

وقال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في براءته من قومه وما يعبدون: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٨-٤٩].

فسمى دعاءهم لآلهتهم عبادة لها، مما يدل على أن أظهر أنواع العبادة هو الدعاء.

فلما كان الدعاء بهذه المنزلة من العبادة، والعبادة حق خالص لله تعالى، فإنه - أعني الدعاء - حق من حقوق الألوهية، وصرفه لغير الله تعالى شرك بيّن.

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: (فاعلم أن الدعاء نوع من أنواع العبادة المطلوبة من العباد، ولو لم يكن في الكتاب العزيز إلا مجرد طلبه لكان ذلك مفيدا للمطلوب، أعني كونه من العبادة، قال تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥] ... فكيف إذا انضم إلى ذلك النهي عن دعاء غير الله سبحانه، قال تعالى: ﴿...فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨] ... فكيف إذا صرح القرآن بأن الدعاء عبادة تصريحا لا يبقى عنده ريب لمرتاب، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] الآية)[1].

(١) رسالة في وجوب توحيد الله عز وجل ص ٥٥-٥٦.

فالدعاء هو أعظم العبادة، وهو أحبها إلى الله تعالى، لذلك فإنه سبحانه يرضى من عباده أن يدعوه ويسألوه، ويغضب على من يترك سؤاله، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**من لم يسأل الله يغضب عليه**)[١]، وفي لفظ: (**من لم يدع الله غضب عليه**)[٢].

ومن رحمته سبحانه وتعالى أنه ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، ويقول - وهو الغني عن عباده -: (**من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**)[٣].

فإذا تأمل العبد هذه المعاني، هل يلتجئ إلى أحد غير الله.؟ وهل ينزل حوائجه بغير بابه؟

فربنا الرحمن سبحانه قد فتح لعباده أبواب الدعاء وحببه إليهم ورغبه لهم، وهو سبحانه الغني عنهم، فما من عبادة إلا وهي متضمنة لذكر ودعاء؛ ليظل القلب معلقاً بالله تعالى، مفتقرا إليه، منزلا حوائجه عند بابه، قاصرا عبوديته لربه، حافظاً لها أن تلتفت إلى أحد سواه.

ثانيا: النصوص الكثيرة الآمرة بإفراد الله تعالى بالدعاء والناهية عن دعاء غيره، وقد جاء هذا المعنى في كتاب الله تعالى في نحو ثلاثمائة

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات - باب من لم يسأل الله يغضب عليه - رقم ٣٣٧٣.

(٢) رواه أحمد في المسند ٢/ ٤٤٣، وابن ماجه في الدعاء - باب فضل الدعاء - رقم ٣٨٢٧.

(٣) رواه البخاري في الجمعة - باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل - رقم ١١٤٥، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها - باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل - رقم ٧٥٨.

موضع[١].

وهذا المعنى جاء مطردا في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، لم يتخلف عنه في أي لفظ من ألفاظهما.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦].

ولقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقصر سؤاله ورغبته عليه وحده، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٨].

قال ابن جرير رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: "وإلى ربك" يا محمد فاجعل رغبتك، دون من سواه من خلقه، إذ كان هؤلاء المشركون من

(١) انظر: الدرر السنية في الأجوبة النجدية (رسالة منسوبة إلى الشيخ محمد بن سلطان) ٩/ ٤١٨.

قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد)[١] .

ولقد كان النبي ﷺ يوصي أصحابه بذلك، بأن يسألوا الله تعالى وحده، كما في وصيته لابن عباس رضي الله عنهما وهو غلام، حيث قال له : (**يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ..**) الحديث[٢].

وهذا أمر بأن يخلص الدعاء لله تعالى وحده (لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول عن دفع الضرر ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده ؛ لأنه حقيقة العبادة)[٣].

ولقد جاء رجل من بلهجيم إلى النبي ﷺ يسأله عما يدعو إليه، فأجابه بما يتضمن ترسيخ معنى الإلتجاء إلى الله تعالى وحده في الدعاء، وطلب الحاجات منه ؛ إذ أنه بيده ملكوت كل شيء، فقال ﷺ : (**أدعو إلى الله وحده الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك والذي إن ضللت بأرض قفر دعوته رد عليك والذي إن أصابتك سنة فدعوته انبت عليك**)[٤].

بل لقد كان عليه الصلاة والسلام يحمل أصحابه على ترك سؤال

---

(١) جامع البيان ١٥/ ٣٠/ ٢٣٧.

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع - رقم ٢٥١٦، وأحمد في المسند ١/ ٢٩٣. وقال الترمذي : حديث حسن صحيح.

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب ١/ ٤٨١.

(٤) رواه أحمد في المسند ٥/ ٦٣-٦٤.

الناس مطلقا بما هو ليس بشرك، فكيف إذا كان سؤالا مطابقا لحال المشركين ؟!

فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال : (**يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى**)(١).

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : (**ألا تبايعون رسول الله**)، وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال : (**ألا تبايعون رسول الله**)، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال : (**ألا تبايعون رسول الله**) قال : فبسطنا أيدينا، وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك ؟ قال : (**على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا والصلوات الخمس وتطيعوا - وأسر كلمة خفية - ولا تسألوا الناس شيئا**). فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه(٢).

---

(١) رواه البخاري في الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة - رقم ١٤٧٢، ومسلم في الزكاة - باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى - رقم ١٠٣٥.

(٢) رواه مسلم في الزكاة - باب كراهة المسألة للناس - رقم ١٤٣، ووأبو داود في الزكاة - باب كراهة المسألة - رقم ١٦٤٢، والنسائي في الصلاة - باب البيعة على الصلوات الخمس - رقم ٤٦٠، وابن ماجه في الجهاد - باب البيعة - رقم ٢٨٦٧.

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال : (**أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها**). قال : ثم قال : (**يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سدادا من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سدادا من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتا يأكلها صاحبها سحتا**)(١).

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : (**ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم**)(٢).

وفي السنن من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (**من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح**)(٣).

---

(١) رواه مسلم في الزكاة - باب من تحل له المسألة - رقم ١٠٤٤، وأبو داود في الزكاة - باب ما تجوز فيه المسألة - رقم ١٦٤٠، والنسائي في الزكاة - باب الصدقة لمن تحمل بحمالة - رقم ٢٥٨٠، وأحمد ٣/ ٤٧٧.

(٢) رواه البخاري في الزكاة - باب من سأل الناس تكثرا - رقم ١٤٧٥، ومسلم في الزكاة - باب كراهة المسألة للناس - رقم ١٠٤٠.

(٣) رواه الترمذي في الزكاة - باب من تحل له الزكاة - رقم ٦٥٠، وأبو داود في الزكاة - باب من يعطى من الصدقة وحد الغنى - رقم ١٦٢٦، والنسائي في الزكاة - باب حد الغنى - رقم ٢٥٩٢، وابن ماجه في الزكاة - باب من سأل عن ظهر غنى - رقم ١٨٤٠، وأحمد ١/ ٣٨٨.

وكان النبي ﷺ يعطي من سأله، ولكن من لم يسأله أحب إليه، كما قال عليه الصلاة والسلام : (**من استعف يعفه الله، ومن استغنى يغنه الله، ومن سألنا إما أن نبذل له، وإما أن نواسيه، ومن يستعف عنا أو يستغني أحب إلينا ممن سألنا**)[1].

وفي المسند من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (**وإن أحدهم ليسألني المسألة فأعطيها إياه فيخرج بها متأبطها وما هي لهم إلا نار**). قال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله فلم تعطيهم؟ قال : (**إنهم يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل**)[2] .

ففي هذا دلالة ظاهرة على أن ترك سؤال المخلوقين هو الأفضل مطلقا، وأن العبد يجب عليه أن يتوجه بالسؤال إلى الله وحده، هذا في الأمور التي لا تصل إلى حد الشرك، فكيف بسؤال الأموات والغائبين وإنزال الحوائج على أبواب قبورهم كما كان يفعله أهل الجاهلية الأولى ؟!.

ثالثا : أن دعاء الله وحده والاستغاثة به دون من سواه في كشف الضر هي طريقة الأنبياء والمرسلين التي وصفهم الله تعالى بها، وأثنى بها عليهم، فلم يعرف عن أحد منهم التجاؤه إلى قبر نبي قبله يسأله ويستغيث به بحجة الشفاعة وطلب القربى.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٣/ ٤٤، وابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ٢١١، والطيالسي ٢٢١١، والطحاوي في «شرح معاني الآثار ٢/ ١٦، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٠٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٣٥٠٤.

(٢) رواه أحمد ٣/ ١٦، وابن حبان ٣٤١٢ و ٣٤١٤، والحاكم ١/ ١٠٩ وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

بل كانوا كلهم ذوي التجاء إلى الله تعالى وحده، لا إلى نبي ولا إلى ملك ولا غير ذلك.

وأدلة ذلك لا تكاد تحصى كثرة.

فهذا نوح عليه الصلاة والسلام يصيبه الضر من قومه فيلجأ إلى ربه وحده بالدعاء، كما قال تعالى عنه: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وهذا هود عليه الصلاة والسلام يلجأ إلى ربه سبحانه وحده حين كذبه قومه، كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يذكر الله تعالى مناجاته لربه بعد مجادلة قومه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٣-٨٩].

ويناجي ربه حيث ترك أهله في وادي مكة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٧].

وهذا أيوب عليه الصلاة والسلام لما أصابه الضر، قال الله تعالى عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

ويونس عليه الصلاة والسلام لما التقمه الحوت رفع السؤال والحاجة إلى الله تعالى وحده، كما قال تعالى عنه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وقص تعالى في ذلك عن زكريا عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

وبيان ذلك عن أنبياء الله تعالى لا يكاد يحصى؛ إذ أن هذا المعنى هو حياتهم ودعوتهم وجهادهم.

أما نبينا ﷺ - بأبي هو وأمي - فقد كان كثير الدعاء لربه، كثير التضرع بين يديه، حاله كما أثنى عليه ربه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[(١)] - سُنة الأنبياء السابقين[(٢)] -؛ لما فيها من اللجأ والتضرع بين يدي الله تعالى.

فكان قاصرا رغبته إلى ربه تعالى، كما أمره بذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٨].

فهذه السيرة المباركة لأنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، المطردة على معنى واحد في الدعاء والاستغاثة وهو إخلاص ذلك لله تعالى وحده دون من سواه، ولم ينقل فيها أن أحدهم دعا ملكا أو التجأ إلى صاحب قبر، إن فيها لدلالة بينة ظاهرة على أن الدعاء حق خالص لله تعالى، لا ينبغي صرفه لغيره تعالى.

وعلى هذه السيرة المباركة سار أصحاب النبي ﷺ، توحيدا وإخلاصا لله تعالى في جميع أنواع العبادة، وأساسها الدعاء.

فلم يكونوا يأتون إلى قبر النبي ﷺ فيسألونه الحاجات وتفريج الكربات، فضلا عن أن يأتوا إلى قبر غيره، رغم ما وقع في زمنهم من فتن وابتلاءات.

ذلك أنهم وعوا معاني الرسالة، وأدركوا مقاصدها، فلم يزاحم فهمهم لها شرك ولا اشتباه، فكانوا نبراسا هاديا، يضيء السبيل لكل

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة - باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل - رقم ١٣١٩، وأحمد ٥/ ٣٨٨.

(٢) كما في قوله ﷺ عن نبي من الأنبياء: **(فقام إلى صلاته، وكانوا يفزعون إذا فزعوا إلى الصلاة)**. رواه أحمد ٤/ ٣٣٣، وابن أبي شيبة ١٠/ ٣١٩ والبيهقي في السنن ٩/ ٥٩.

سالك موحد.

فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجزاهم عن أُمة الإسلام أفضل الجزاء وأوفاه.

رابعا : النصوص الكثيرة التي تبين ضلال من يدعو من دون الله تعالى من لا يستجيب له، وأن المشركين لا ينالون من دعاء آلهتهم إلا الحسرة والندم وأسوأ العاقبة، مما يدل على أن الدعاء لا ينبغي صرفه إلا لله تعالى.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرّعد: ١٤].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله : (وقوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾، يقول : لا تجيب هذه الآلهة التي يدعوها هؤلاء المشركون آلهة بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضرّ. إلّا كباسطِ كَفَّيْهِ إلى الماءِ. يقول: لا ينفع داعي الآلهة دعاؤه إياها إلّا كما ينفع باسطَ كفيه إلى الماء، بسطُه إياهما إليه من غير أن يرفعه إليه في إناء، ولكن ليرتفع إليه بدعائه إياه وإشارته إليه وقبضه عليه. والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض على الماء. قال بعضهم :

فإنّي وَإيّاكُمْ وَشَوْقا إلَيْكُمُ ... كقابِضِ ماءٍ لَمْ تَسِقْه أنامِلُهْ

يعني بذلك: أنه ليس في يده من ذلك إلّا كما في يد القابض على الماء، لأن القابض على الماء لا شيء في يده).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا

يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقوله تعالى في مجادلة الخليل عليه الصلاة والسلام قومه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

ومن ذلك - أيضا - قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣] الآية.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريده عابده منه، فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك، فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا، فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده، فنفى سبحانه المراتب الأربع نفيا مترتبا متنقلا من الأعلى إلى ما دونه فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه، فكفى بهذه الآية نورا وبرهانا ونجاة وتجريدا للتوحيد وقطعا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها

ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن)[١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا، فمن تأملها ووقف عندها فإنه يدرك صريح المعنى الدالة عليه من النهي عن دعاء غير الله تعالى، وأن دعاء الأموات ومن في حكمهم هو من هذا الباب الذي ذم الله تعالى أهله وأوعدهم أشد العذاب .

خامسا : أن أصل شرك المشركين هو دعاء الأموات وطلب الشفاعة منهم عند الله تعالى.

ولقد تقدم الكلام على بدء الشرك في البشرية وأنه كان في قوم نوح عليه الصلاة والسلام، وأن سبب ذلك هو الغلو في الصالحين، فصيروا قبورهم مساجد يستغيثون فيها بأصحابها، ويلجئون إليهم في حاجاتهم.

فأصل عبادة الأصنام إنما كانت من القبور[٢]، وهذا مبدأ الشرك وأساسه الذي أرسل الله تعالى بسببه أول رسول إلى أهل الأرض.

وبناء على ذلك فإن دعاء الأموات والاستغاثة بهم هو من هذه السبيل سواء بسواء، وعليه دلت الآيات والأحاديث أنه شرك أكبر، لا حظ لصاحبه في الإسلام.

ولكن من غلبه جهله نظر إلى تلك الآيات على أنها في أقوام مضوا وعفت عليهم الأيام، دون أن يكون لها دلالة على من يحذوا حذوهم

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٤٣

(٢) انظر: الاستغاثة لابن تيمية ١/ ١٥٧.

من بعدهم.

فما أعجب الأفهام حين يظن أصحابها (أن ما بيّنه القرآن من بطلان شرك المشركين خاص بهم لذواتهم، وليس بحجة على من يفعل مثل فعلهم، كأن من ولد مسلما يباح له الشرك لجنسيته الإسلامية، وإن أشرك بالله في كل ما عده كتاب الله شركا)[١].

وما ذاك إلا من عدم التفكر في آي الكتاب، وإلا فظهور هذا الأمر - وهو إفراد الله تعالى بالدعاء، وأن دعاء الأموات من الشرك الصريح - هو في غاية الظهور.

يقول الشيخ حسين بن مهدي النعمي رحمه الله : (لا جرم لما كان ملاك أمر الجميع وحاصل مبلغهم وغايتهم هو التلاوة دون الفقه والتدبر والاتباع، خفي عليهم ذلك، وعموا وصموا عنه، وأنّى لهم ذلك؟ وقد منعهم سادتهم وكبراؤهم من أهليهم، وممن يقوم عليهم ويسوسهم، وقالوا: كتاب الله حجر محجور، لا يستفاد منه، ولا يقتبس من أنواره، ولا ينال ما فيه من العلم والدين..

فلعمر الله للخير أضاعوا، وللشر أذاعوا، وإلا فلولا ذلك لكانت هذه المسألة - أي إفراد الله بالدعاء - من أظهر الظواهر، لما أن العناية في كتاب الله بشأنها أتم وأكمل، والقصد إليها بالتكرير والتقرير والبيان في كتاب الله أكثر وأشمل)[٢].

---

(١) انظر تعليق محمد رشيد رضا على صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان للسهسواني - ص ٤٨٧

(٢) معارج الألباب ص ٢٤٠-٢٤١.

سادسا : ما جاء من التشديد من تقصد العبادة لله تعالى عند القبور لما تفضي إليه من الشرك، وأظهره سؤال الموتى والاستغاثة بهم كما هو حال أهل الجاهلية.

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث عائشة وعبد الله بن عباس ﷺ قالا : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : **(لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)**. يحذر ما صنعوا[1].

وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبدالله ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : **(إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ؛ فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك)**[2].

وفي المسند من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **(إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد)**[3].

---

(١) رواه البخاري في الصلاة - باب الصلاة في البيعة - رقم ٤٣٦، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة - باب النهي عن بناء المساجد على القبور - رقم ٥٣١.
(٢) تقدم تخريجه ص ٣٢١ الحاشية (١).
(٣) رواه أحمد في المسند ١/ ٤٣٥، وابن أبي شيبة ٣/ ٣٤٥، وابن حبان ٦٨٤٧، والطبراني في الكبير ١٠٤١٣، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢/ ٢٧ : إسناده حسن.

ولقد شدد النبي ﷺ في النهي أن يتخذ قبره عيدا، فقال : (**لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**)[١] .

وهذا كله في عبادة الله تعالى عند القبور، فكيف بمن دعا أهلها واستغاث بهم ؟![٢]

ومن نظر فيما آلت إليه المحدثات التي غالى بها أصحابها في القبور وأهلها، فوصلت إلى أن يصرفوا لهم أنواعا متعددة من العبادات، يدرك عظيم حكمة ما أراده النبي ﷺ من حماية جناب التوحيد وسد كل باب مفض إلى الشرك.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن الرسول مقاصده، جزم جزما لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغتيه : صيغة لا تفعلوا، وصيغة إني أنهاكم، ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه وارتكب ما عنه نهاه واتبع هواه ولم يخش ربه ومولاه وقل نصيبه أو عدم في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له، وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره

---

(١) رواه أبو داود في المناسك - باب زيارة القبور - رقم ٢٠٤٢، وأحمد ٣٦٧/٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ولقد عقد الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في كتاب التوحيد بابا هو دليل فقهه، فقال: باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟.

وارتكابا لنهيه، وغرهم الشيطان فقال: بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين وكلما كنتم أشد لها تعظيما وأشد فيهم غلوا كنتم بقربهم أسعد ومن أعدائهم أبعد. ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل على عباد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم)(١) .

والحاصل مما سبق أن الدعاء هو أعظم العبادات، وأنه حق خالص لله تعالى لا يجوز صرفه لغيره، وأن الاستغاثة بالأموات ومن كان في حكمهم أمر مناقض للتوحيد، وهو طريقة أهل الجاهلية الذين حكم الله تعالى بضلالهم وشركهم.

(فإن لم يكن الإشراك فيه - أي في الدعاء - شركا، فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك، فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك في الدعاء هو أكبر شرك المشركين الذين بعث فيهم النبي ﷺ، فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة، ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله)(٢).



(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٨٩.
(٢) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد. لسليمان بن عبدالله ص٢١٩.

المبحث الثاني

مذهب المبتدعة في الدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير الله

إن أعظم ما وقعت فيه المخالفة عند المبتدعة في توحيد العبادة هو دعاؤهم غير الله تعالى من الأموات والغائبين، متمثلين بذلك سيرة أهل الجاهلية الأولى، بل صاروا أشد من ذلك حين صارت استغاثتهم بالأموات لا تفارقهم في شدة ولا رخاء.

فقد قرروا أن الأنبياء كما أنهم وسائط في تبليغ الرسالات بين الله تعالى وخلقه، فهم كذلك وسطاء بينه وبينهم في قضاء حوائجهم.

وجعلوا في حكمهم في قضاء الحوائج الصالحين والأولياء، فصارت الاستغاثات بالأنبياء والصالحين والتوسل بهم من أظهر أقوالهم وأفعالهم.

وصار الواحد منهم أشد ما يكون خضوعا وخشوعا وانكسارا حين يقف بين يدي قبر رجل صالح - بل قد يكون قبر أحد الفاسقين - لما يقوم في قلبه من تعلق به في قدرته على قضاء مطلوبه، وحصول المأمول المرجو بالاستغاثة به والانطراح عند بابه.

وهذا أمر مقرر عندهم، مبدأ إثباته وتقريره بأن ينفوا عنه التباسه بالشرك، وأنه بعيد كل البعد عنه، لم ينه عنه كتاب ولم تحذر منه سنة.

ثم إذا هو بعد ذلك من أقرب القرب، وأزكى الصالحات، وأعظم المطالب، يدعون إليه بكل ما أوتوا من قوة، ويشنونها حربا شعواء

على كل من يخالفهم فيه ويوحد ربه تعالى بدعائه ورجائه والتجائه.

بل قد يبلغ الغلو عند طوائف منهم أن يفضلوا استغاثتهم بالأموات على الاستغاثة برب الأرض والسماوات تعالى وتقدس - كما سيأتي في بعض النقول عنهم -.

وجعلوا هذه الاستغاثات كما أنها سبيل لقضاء الحاجات - عندهم - هي من تعظيم شعائر الله، واحترام حقوق الأنبياء والإعلاء من منزلتهم، كما أن تركها دليل التنقيص وعدم التقدير لمن رفع الله تعالى منزلتهم وأعلى شأنهم.

وهذا المعنى - وهو تقرير الدعاء والاستغاثة بالأموات ومن هو في حكمهم - هو ما تنطق به كتبهم بصريح العبارة، وما تظهره أقوالهم وأفعالهم، سيرة من سبق ممن ذمهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، وأبطل حجتهم بقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٣-٤٤].

ومن نظر فيما سطره المبتدعة في هذا الباب، إما بحماية هذه الطريق أن توصف بشرك أو ابتداع، أو بجعلها سنة ماضية دلت عليها آيات الكتاب وسار عليها خيار الناس من الأنبياء والأولياء، يجده كمّا لا يكاد يحصى كثرة، نوّعوا له العبارة، وحسنوا له الألفاظ نظما ونثرا، ولبسوا فيه الحق بالباطل، وجمعوا له ما تصغى إليه أفئدة الجاهلين، وتركن إليه أفهام الغافلين من قصص ومنامات تمتد حبالها

بلا انتهاء، وتتسع دوائرها طولا وعرضا يوما بعد يوم.

وهنا سأشير إلى بعض قولهم في تقرير هذا الأمر في كتبهم، بما هو مثال يقاس عليه باقي ما تسير عليه تلك القافلة المتعثرة.

جاء في المدخل[١] لابن الحاج، في فصل زيارة القبور، في آداب زيارة قبر النبي ﷺ : (ثم يتوسل بالأنبياء عليهم السلام إلى الله في قضاء حوائجه، ويستغيث بهم، ويطلب منهم الحوائج، ولا سيما رسول الله ﷺ فإنه لا يخيب من استعان به، أو استغاث به، فإنه قطب دائرة الكمال، وعروس المملكة، فمن توسل به، أو استغاث به، أو طلب منه حوائجه، فلا يرد ولا يخيب.

والزائر يشعر نفسه أنه واقف بين يديه عليه الصلاة والسلام كما هو في حياته ؛ إذ لا فرق بين موته وحياته في مشاهدته لأمته، ومعرفته بأحوالهم ونياتهم وخواطرهم، وذلك جلي عنده لا خفاء فيه)[٢].

ويقول القاضي علي بن عبد الكافي السبكي - مقررا مشروعية الاستغاثة بالنبي ﷺ في قبره، ويدعي الإجماع على ذلك - : (إعلم أنه يجوز ويحسن التوسل، والاستغاثة، والتشفع بالنبي ﷺ إلى ربه سبحانه وتعالى.

وجواز ذلك من الأمور المعلومة لكل ذي دين، المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين، وسير السلف الصالحين، والعلماء والعوام من المسلمين، ولم ينكر أحد من أهل الأديان، ولا سمع في زمن من

---

(١) وفي هذا الكتاب رد جيد على كثير من البدع، ولكن في هذه المسألة فكما ترى.
(٢) المدخل لابن الحاج ١/ ٢٥٢.

الأزمان)(١).

ويقول تقي الدين الحصني في كتابه (دفع الشبه) - الذي ملأه سبا وتفسيقا وتكفيرا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - مقررا أن الاستغاثة بالنبي ﷺ واللواذ بقبره من أعظم الأسباب الموجبة لحصول المطلوب : (والمراد أن الاستغاثة بالنبي ﷺ واللواذ بقبره، والاستعانة به كثير على اختلاف الحاجات، وقد عقد الأئمة بابا، وقالوا : إن استعانة من لاذ بقبره وشكا إليه فقره وضره توجب كشف ذلك الضر بإذن الله تعالى . . .)(٢).

وذكر قصصا في ذلك لمن وقعت منهم استغاثة بالنبي ﷺ في قبره سواء كانت الاستغاثة بحوار قبره أو كانت من مسافة بعيدة عنه، وأنه بذلك تحققت مطلوباتهم، وقضيت حاجاتهم(٣).

ثم إنه رمى من أنكر مشروعية تلك الاستغاثات - وهو يشير إلى شيخ الإسلام ابن تيمة رحمه الله - بالفجور والبهتان، وأنه من أخبث الناس طوية، وأنه لا اعتقاد له(٤).

وهم في تقرير الاستغاثة بالنبي ﷺ بعد موته، يجعلون ذلك بمعنى التوسل به ﷺ، فلا فرق عندهم في ذلك ؛ إذ أن المعنى المراد من المستغيث هو أن يكون النبي ﷺ وسيلة في حصول مطلوبه.

---

(١) شفاء السقام ٢٩٣.
(٢) دفع شبه من شبه وتمرد. ويسمى (دفع الشبه عن الرسول والرسالة). ص ١٦٠.
(٣) المرجع السابق ص ١٦٠-١٦٥.
(٤) المرجع السابق ص ١٦٥.

وفي ذلك يقول السبكي : (فيصح أن يقال «استغثت النبي ﷺ» و «أستغيث بالنبي ﷺ» بمعنى واحد، وهو طلب الغوث منه بالدعاء ونحوه على النوعين السابقين في التوسل من غير فرق، وذلك في حياته وبعد موته)[١].

ومراده بالنوعين السابقين في التوسل هما : طلب الدعاء من النبي ﷺ، والثاني أن يطلب منه الأمر المقصود بمعنى أنه ﷺ قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه، وشفاعته إليه[٢].

ويقول القسطلاني في المواهب : (واعلم أن الاستغاثة هي طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث منه، فلا فرق بين أن يعبر بلفظ الاستغاثة، أو التوسل، أو التشفع، أو التجوه، أو التوجه ؛ لأنها من الجاه والوجاهة، ومعناه علو القدر والمنزلة)[٣].

ويقول ابن حجر المكي : (ولا فرق بين ذكر التوسل والاستغاثة والتشفع والتوجه به ﷺ أو بغيره من الأنبياء . . . والاستغاثة : طلب الغوث، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره، وإن كان أعلى منه، فالتوجه والاستغاثة به ﷺ وبغيره ليس لهما معنى في قلوب المسلمين غير ذلك، ولا يقصد بهما أحد منهم سواه . . . والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى، وأما النبي ﷺ فهو

---

(١) شفاء السقام ٣١٥.
(٢) المرجع السابق ٣٠٥-٣١٣.
(٣) المواهب اللدنّية ٢/ ٣٩٢.

واسطة بينه وبين المستغيث)[١].

ويقرر البكري أن كل من توسل إلى الله بنبيه في تفريج كربة فقد استغاث به سواء كان حيا أو ميتا، وأن من سأله وطلبه فقد استغاث به، فاقتضى ذلك أنه يطلب منه حيا وميتا كل شيء كما يطلب من الله، ويطلب بالتوسل به حيا وميتا كل ما يطلب من الله، وأن ذلك ثابت للصالحين أيضا[٢].

ويقول البكري - أيضا - مقررا ثبوت الاستغاثة بالنبي ﷺ: (إن الاستغاثة به بعد موته ثابتة ثبوتها في حياته؛ لأنه عند الله في مزيد دائم، لا ينقص جاهه)[٣].

ويقول القضاعي - في تقرير أن الاستغاثة بالنبي ﷺ في قبره من موجبات تنزل الرحمة - : (إن الاستغاثة به ﷺ من موجبات تنزل الرحمات، وسرعة قضاء الحاجات)[٤].

ويقول - أيضا - : (إن زيارة رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين، ونداءهم والاستغاثة بهم، والتوسل بهم إلى الله عز وجل، وما يتعلق بهم - كالتوسل والتبرك بآثارهم وقبورهم ومجالسهم ونحوها - من أقوى الأسباب التي وضعها الحكيم العليم لاجتلاب البركات، واستنزال الرحمات، واستجابة الدعوات، وسرعة قضاء الحاجات)[٥].

---

(١) الجوهر المنظم ص ١٧٥-١٧٦.
(٢) نقلاً عن الاستغاثة في الرد على البكري. لابن تيمية ١/ ٣٦٢.
(٣) المرجع السابق ١/ ٣٨٨.
(٤) البراهين الساطعة ص ٣٩٨.
(٥) المرجع السابق ص ٣٩٩.

ويقول - منكرا أن يكون شيء من الاستغاثات بالأموات مكروها فضلا عن أن يكون مخالفا للتوحيد - : (إن التوجه إليه ﷺ ونداءه بقوله : يا محمد، والاستنجاد به ليس شركا، ولا حراما، ولا مكروها، ولا خلاف الأولى.

بل ذلك أفضل في الأدب من الربوبية، وأشد اجتلابا للرحمة واستنزالا للقبول، وأقوى مظنة بالإجابة، وأدنى للرشد، وأبعد من الرد والحرمان)[(١)].

ويقول الزهاوي - مثبتا أن عموم العلماء قد جوزوا الاستغاثة بالنبي ﷺ بعد موته - : (وقد جوز أجلة العلماء الاستغاثة والتوسل بالنبي ﷺ . . . وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة على من يحصل منه غوث ولو تسببا وكسبا أمر نطقت به اللغة، وجوّزه الشرع)[(٢)].

ويذكر العاملي - في كشف الارتياب - أوجه الاستغاثة بالأموات، وينتهي إلى جوازها كلها، فيقول : (إن الدعاء والاستغاثة بغير الله تعالى يكون على وجوه ثلاثة :

الأول : أن يهتف باسمه مجردا، مثل أن يقول : «يا محمد، يا علي، يا عبد القادر، يا أولياء الله، يا أهل البيت»، ونحو ذلك.

الثاني : أن يقول : «يا فلان كن شفيعي إلى الله في قضاء حاجتي، أو ادع الله أن يقضيها»، أو ما شابه ذلك.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤٩.

(٢) الفجر الصادق في الرد على منكري التوسل والكرامات والخوارق ص ٥٤.

الثالث : أن يقول : «يا فلان اقض ديني، أو اشف مريضي، أو انصرني على عدوي»، وغير ذلك.

وليس في شيء من هذه الوجوه الثلاثة مانع ولا محذور فضلا عما يوجب الإشراك والتكفير)[١].

ويقول محمد علوي مالكي - في تقرير أن الاستغاثة ليست في شيء من الشرك إلا إذا اعتقد المستغيث أن المستغاث به مستقل في فعل الإغاثة - : (أنه لا يكفر المستغيث إلا إذا اعتقد الخلق والإيجاد لغير الله)[٢].

ولما سكن أولئك المبتدعة إلى تلك الاستغاثات، وامتلأت بها أفئدتهم، وكثرت في ألسنتهم أسماء من يلهجون باسمه، ويطرقون بابه، فزاحمت نداء : (اللهم)، ونداء : (يا رب)، وعموم الدعاء بالأسماء الحسنى، ضاقوا ذرعا بمن يدعو إلى أن يلهج القلب واللسان بمسمى واحد، وهو الحي القيوم، يصرف إليه رجاءه، ويخلص له دعاءه ؛ إذ أنه السميع المجيب، القريب الودود.

ولذلك فإنهم - أي المبتدعة - يجعلون من مهمات الأمور إظهار الاستغاثات والتوسلات بالأموات وخاصة من قبل المقتدى بهم من علماء ورؤساء، خوفا أن تضيع أصواتهم أمام دعوة التوحيد المباركة.

وفي ذلك يقول علوي الحداد : (وينبغي اليوم في هذا الوقت من الحوادث التي حدثت في الثلم في الدين باعتقاد العامة قول بدعي أن

---

(١) كشف الارتياب ص ٢٧٤.

(٢) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٨٧.

الاستغاثة شرك، فالعالم والمقتدى به ينبغي له أن يظهر الاستغاثة ليقتدى به)[١].

ويقول الكوثري: (لا بد لأهل السلوك والرشاد من التوسل والاستغاثة والاستمداد بأرواح الأجلة والسادة الأمجاد، إذ هم المالك لأزمة الأمور في ذلك المراد)[٢].

ويقول السمنودي - معترضا على من ينكر الاستغاثة بالأموات سواء كان نبيا أو غيره، وهو يشير بذلك إلى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله - : (أنكروا جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ، وكذا بغيره ممن ذكروا، بل تجاوزوا الحد فزعموا أن الاستغاثة بهم ونداءهم عند ذلك شرك أكبر)[٣].

ويقول الشطي - في مثل ذلك أيضا - : (فإنهم يصرحون بأن من يستغيث بالرسول عليه السلام، أو غيره في حاجة من حوائجه، أو يطلب منه أو يناديه في مطالبه ومقاصده ولو بيارسول الله، أو اعتقد على نبي أو ولي ميت وجعله واسطة بينه وبين الله في حوائجه فهو مشرك حلال الدم والمال.)[٤].

ويقرر النبهاني أهمية الاستغاثة بالأنبياء؛ إذ أنهم جمعوا بين واسطتين: واسطة تبليغ الرسالة، وواسطة قضاء الحاجات ودفع

---

(١) مصباح الأنام ص ٦٠.
(٢) إرغام المريد ص ٥.
(٣) سعادة الدارين ١/ ١٥١.
(٤) النقول الشرعية ص ١٠١.

الملمات، فيقول : (وقد عظّم الله تعالى أنبياءه وأصفياءه، فعظمناهم لأجله، فالتعظيم في الحقيقة راجع إليه سبحانه وتعالى، وقد جعلهم سبحانه وتعالى وسائط لنا في تبليغ شرائع دينه، فوسطناهم له عز وجل لقضاء حوائجنا، تبعا له في توسيطهم لنا في تبليغ شرائعه، واحتقارا لأنفسنا عن أن نكون أهلا لطلب حوائجنا منه سبحانه وتعالى بلا واسطة ؛ لكثرة ذنوبنا، ووفرة عيوبنا)[١].

بل إنه - أي النبهاني - تجاوز ذلك بأن ادعى أن ذلك من المعلوم من الدين بالضرورة[٢].

ولقد كان من المبتدعة من يوصي أتباعه ومريديه أن يأتوا إلى قبره بعد وفاته، ويستغيثوا به موعدا لهم أنه منهم قريب، ولحوائجهم قاض.

ومن ذلك ما ذكره الشعراني في طبقاته، قال : (وقال سيدي محمد ﷺ في مرض موته : من كانت له حاجة فليأت إلى قبري ويطلب حاجته أقضها له ؛ فإن ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل)[٣].

وقال أحمد زيني دحلان : (قد صرح كثير من العارفين أن الولي بعد وفاته تتعلق روحه بمريديه، فيحصل لهم ببركته أنوار وفيوضات.

قال : وممن صرح بذلك قطب الإرشاد سيدي عبد الله بن علوي الحداد، فإنه قال : الولي يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته

---

(١) شواهد الحق ص ٦٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٣.

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ٥١٨.

أكثر من اعتنائه بهم في حياته ؛ لأنه في حياته كان مشغولا بالتكليف، وبعد موته طرح عنه الأعباء وتجرد، والحي فيه خصوصية وبشرية، وربما غلبت إحداهما على الأخرى، وخصوصا في هذا الزمان فإنها تغلب البشرية، والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط)[١].

ويقول محمد زاهد الكوثري : (الولي في الدنيا كالسيف في غمده، فإذا مات تجرد منه، فيكون أقوى في التصرف)[٢].

ويقول محمد علوي المالكي - في تقرير تصرف الأرواح بعد الممات مستدلا على جواز الاستغاثة بها - : (حيث ثبتت حياة الأرواح بالأدلة القطعية فلا يسعنا بعد ثبوت الحياة إلا إثبات خصائصها، فإن ثبوت الملزوم يوجب ثبوت اللازم، كما أن نفي اللازم يوجب نفي الملزوم كما هو معروف، وأي مانع عقلاً من الاستغاثة إلى الله بها، والاستمداد منها كما يستعين الرجل بالملائكة في قضاء حوائجه، أو كما يستعين الرجل بالرجل، وأنت بالروح لا بالجسم إنسان. وتصرفات الأرواح على نحو تصرفات الملائكة لا تحتاج إلى ممارسة ولا آلة، فليست على نحو ما تعرف من قوانين التصرفات عندنا، فإنها في عالم آخر ... ولا شك أن الأرواح لها من الإطلاق والحرية ما يمكنها أن تجيب من يناديها، وتغيث من يستغيث بها كالأحياء سواء بسواء بل أشد وأعظم)[٣].

---

(١) تقريب الأصول لتسهيل الوصول. لأحمد زيني دحلان - نقلا عن شواهد الحق للنبهاني ص ١٥٠.
(٢) إرغام المريد ص ٢٨.
(٣) مفاهيم يجب أن تصحح ص ١٧٤.

ولقد بلغ الابتداع في هذا الأمر مبلغا تشمئز منه النفوس، وتنفر منه كل فطرة سليمة، حين كان من المبتدعة من يفضل الاستغاثة بالأولياء - بل وغير الأولياء حسب ما يخدم حصول مطلوبه - على الاستغاثة بالله تعالى، فصاروا بذلك كمن ﴿...إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥]، وكالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

وهكذا شأن صفاء التوحيد وضيائه وظلمة الشرك وسواده، لا يجمعهما قلب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وكثير من هؤلاء يخربون المساجد ويعمرون المشاهد، فتجد المسجد الذي بني للصلوات الخمس معطلا مخربا ليس له كسوة إلا من الناس، وكأنه خان من الخانات، والمشهد الذي بني على الميت عليه الستور و زينة الذهب و الفضة و الرخام و النذور تغدو و تروح إليه، فهل هذا إلا من استخفافهم بالله تعالى وآياته ورسوله، وتعظيمهم للشرك ؟! ؛ فإنهم اعتقدوا أن دعاء الميت الذي بني له المشهد والاستغاثة به أنفع لهم من دعاء الله تعالى و الاستغاثة به في البيت الذي بني لله عز وجل، ففضلوا البيت الذي بني لدعاء المخلوق على البيت الذي بني لدعاء الخالق)[1].

ويقول العلامة الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل: ٥٤]: (وفي الآية ما يدل

---

(١) الاستغاثة ٢/ ٥٨٢-٥٨٣.

على أن صنيع أكثر العوام اليوم من اللجوء إلى غيره تعالى ممن لا يملك لهم، بل ولا لنفسه نفعا ولا ضرا - عند إصابة الضر لهم وإعراضهم عن دعائه تعالى عند ذلك بالكلية - سفه عظيم، وضلال جديد، لكنه أضل من الضلال القديم.

ومما تقشعر منه الجلود، وتصعر له الخدود الكفرة أصحاب الأخدود، فضلا عن المؤمنين باليوم الموعود، أن بعض المتمشيخين قال لي وأنا صغير: إياك إياك أن تستغيث بالله تعالى إذا خطب دهاك، فإن الله تعالى لا يعجل في إغاثتك، ولا يهمه سوء حالتك، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين، فإنهم يعجلون في تفريج كربك، ويهمهم سوء ما حل بك.

فمج ذلك سمعي، وهمى دمعي، وسألت الله أن يعصمني والمسلمين من أمثال هذا الضلال المبين.

ولكثير من المتمشيخين اليوم كلمات مثل ذلك)[١].

ومن ذلك ما ذكره النبهاني في كتابه «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ - وهو يجمع فيه ما ترفضه كل فطرة سليمة من تلك الاستغاثات -، فقد ذكر نقلا عن رسالة مصطفى البكري «لمع برق المقامات العوال» أن محمد الحنفي فرش سجادته على البحر، وقال لمريده: قل يا حنفي، وامش، فمشى المريد خلفه، فخطر له: لم تقول «يا حنفي»؟ هلا قلت «يا الله»؟ فلما قالها غرق، فأمسك الشيخ بيده وقال له: أنت الحنفي تعرفه فكيف بالله.؟ فإذا عرفت الله

(١) روح المعاني ١٤/ ١٦٦.

فقل : يا الله.[١]

ومما ذكروه أن امرأة كف بصرها، ومات ولدها، فنادت وليها، وقالت : «أما الله فقد صنع ما ترى، ولم يبق إلا حسبك في»[٢].

ومما زادوا فيه ضلالا في هذا الباب أن كان منهم من يستغيث بقبور الكفار والمشركين ؛ إذ أن همه حصول مطلوبه، فما أن يسمع بقبر يتحصل عنده المطلوب - وهذا يكون من فعل الشياطين في كثير من الأحيان - إلا ويسارع إليه، غاضا الطرف عمن يكون صاحب القبر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في ذلك : (أن أولئك الغلاة المشركين إذا حصل لأحدهم مطلوبه ولو من كافر لم يقبل على الرسول ﷺ، بل يطلب حاجته من حيث يظن أنها تقضى فتارة يذهب إلى ما يظنه قبر رجل صالح، أو يكون فيه قبر كافر أو منافق، وتارة يعلم أنه كافر ومنافق ويذهب إليه، كما يذهب قوم إلى الكنيسة و إلى مواضع يقال لهم إنها تقبل النذر فهذا يقع فيه عامتهم)[٣].

ويقول أبو الفضل عبد الله الصديق الغماري في كتابه «الرد المحكم المتين» منكرا هذه الحال على من وقع فيها - مع أنه في كتابه هذا يقرر جواز التوسل بالنبي ﷺ، ويجعل الاستغاثة بمعناه[٤] -، يقول : (وليت الأمر اقتصر بالمتوسلين عند هذا الحد - يعنى مثل تقبيل العتبات

---

(١) شواهد الحق ٤٤٧.
(٢) أورده الشيخ حسين بن مهدي في معارج الألباب ص ١٩٩.
(٣) الاستغاثة ٢/ ٥٠٠.
(٤) انظر الكتاب ص ٤١.

والتمسح بالحديد، والدخول على هيئة الراكع الساجد - من المنكرات القبيحة، ولكنهم زادوا في الطين بلة، فتوسلوا بالكفار أعداء الله ورسوله ﷺ)[١].

أما أشعارهم فهي طافحة بالطوام من الدعاء والالتجاء الصريح إلى غير الله تعالى، يخلعون عليها لباس المدح والاحترام وإعطاء أهل الفضل قدرهم، ويزعمونها طرقا لأعظم أسباب الفلاح وقضاء الحوائج وكشف الجوائح ومحو الزلات.

وهي كثيرة جدا، ولكن أشير هنا إلى بعض ما ذكره النبهاني في كتابه «شواهد الحق».

فمن ذلك ما ذكره عن شرف الدين الأبوصيري قال :

يا أبا القاسم الذي ضمن إقسا ... مي عليه مدح له وثناء
الأمان الأمان إن فؤادي ... من ذنوب أتيتهن هواء
قد تمسكت من ودادك بالحبـ ... ـل الذي استمسكت به الشفعاء
وأبى الله أن يمسني السو ... ء بحال ولي إليك التجاء
قد رجوناك للأمور التي أبـ ... ـردها في فؤادنا رمضاء
وأتينا إليك أنضاء فقر ... حملتنا إلى الغنى أنضاء
وانطوت في الصدور حاجات نفس ... ما لها عن ندى يديك انضواء
فأغثنا يا من هو الغوث والغيـ ... ـث إذا أجهد الورى اللأواء
والجواد الذي به تفرج الغمـ ... ـة عنا وتكشف الحوباء[٢]

---

(١) الرد المحكم المتين ص ٢٧٢.
(٢) شواهد الحق ص ٣٥٠-٣٥١.

ومن ذلك أيضا ما ذكره عن شمس الدين النواجي المصري :

يا رسول الإله إني غريب فأغثني يا ملجأ الغرباء
يا رسول الإله إني فقير فأعني يا ملجأ الفقراء
يا رسول الإله إني ضعيف فاشفني أنت مقصد للشفاء
يا رسول الإله إن لم تغثني فإلى من ترى يكون التجائي
أنت ذخري وعدتي وملاذي وغياثي وعمدتي ورجائي
وشفيعي يوم القيامة في الحشـ ـر فكن لي يا أكرم الشفعاء
يا بسيط النوال يا كامل الفضـ ـل ويا وافر الندى والعطاء
لك قد جئت زائرا وتوسلـ ـت بجدوى يديك والآلاء
فاجبني يا مصطفى لسؤالي وتفضل بالعفو فهو قرائي[1]

ومن ذلك أيضا ما قاله عبد الغني النابلسي :

يا أشرف الرسل ضاقت فارسل الفرجا فإنني لك قد أضمرت ألف رجا
أنت الحبيب الذي في القلب منزله ومن محبته تستملك المهجا
وأنت ملجؤنا في كل حادثة من يلتجئ لك يا سر الوجود نجا
لولاك لولاك ما الأفلاك قد خلقت والناس لولاك كانوا كلهم همجا
يا أشرف الرسل من أشكو الزمان له إن لم تكن لي إذا خطب الزمان رجا
يا أشرف الرسل أثقال الذنوب بنا أودت وقد تركتنا نخبط اللججا[2]

(١) شواهد الحق ٣٥٢-٣٥٣.
(٢) شواهد الحق ص ٣٦٨

ومن ذلك ما قاله محمد البكري الكبير :

ما أرسل الرحمن أو يرسل ... من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه ... من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده ... نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها ... يعلم هذا كل من يعقل
فلذ به في كل ما ترتجي ... فإنه المقصد والمأمل
وعذ به من كل ما تختشي ... فإنه الملجأ والمعقل
وحط أحمال الرجا عنده ... فهو الشفيع دائما يقبل(١)

وأشعارهم في هذا المعنى كثيرة، إضافة إلى ما يذكرونه من رؤى وأحلام، وقصص في الاستغاثات تملأ الصفحات الطوال، يركنون إليها، معرضين عن صريح ما أمر الله تعالى به في كتابه من إخلاص الدعاء له وحده.

والحاصل أن المبتدعة قد ضلوا وأضلوا كثيرا فيما يتعلق بالدعاء والاستغاثة بغير الله سبحانه وتعالى، حتى صاروا في صغير الأمر وكبيره يلهجون بذكر المخلوقين، ضارعين إليهم في الدعاء، مقبلين عليهم في الرجاء، طالبين غفران الذنوب، وقضاء المطلوب، بحجة أنهم شفعاء عند الله تعالى، سيرة أهل الجاهلية الأولى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَر: ٣].

---

(١) شواهد الحق ص ٣٨٩، وقد أورد هذه القصيدة محمد علوي المالكي في «الذخائر المحمدية» - القسم الأول ١٥٨، وقال: إنها مجربة لقضاء الحوائج.

حتى صارت الاستغاثة بالأموات - عندهم - أول الطريق وآخره في رغبة حصول المطلوب ودفع المكروه، يتنقلون فيه من ضريح إلى ضريح، فصار لكلٍّ في ذلك وجهة هو موليها.

ولعمر الله، إنها للحال التي أبان النبي ﷺ بطلانها، وسد عليها في الشريعة كل باب، وإن ادعوها هم أدبا واحتراما وتقديرا لمقام النبوة، فلا عبرة بتزيين الأسماء وزخرفتها، وإنما الكلام في حقيقة ما عليه المعنى.

والله تعالى يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩].





المبحث الثالث

شبهات المبتدعة في تجويز دعاء الأموات والاستغاثة بهم

- **المطلب الأول:** شبهاتهم في الاستغاثة بالنبي ﷺ.
- **المطلب الثاني:** شبهاتهم في الاستغاثة بغير النبي ﷺ.



المطلب الأول

شبهات المبتدعة في الاستغاثة بالنبي

الشبهة الأولى:

قولهم إن الاستغاثة به ﷺ ليست عبادة لله. ؛ إذ أن العبادة هي اعتقاد الخلق واستقلال الفعل، أما الاستغاثة به ﷺ فلا تحمل هذا الاعتقاد، وإنما لكونه شافعا عند الله تعالى[(١)].

وهذه الشبهة يستصحبونها في كل المخالفات الشركية التي يقرونها، كما تقدم الكلام على تعريفهم للعبادة وشبهاتهم في ذلك، وأن تعريفهم للعبادة هو شبهة في ذاته يخرجون أنفسهم به من كل ما يتلبسون به من مخالفات في التوحيد.

ومحصل الجواب على هذه الشبهة هو ما تقدم في الرد عليهم في تعريفهم للعبادة من أنه ليس من شرط العبادة اعتقاد الخالقية في المعبود ؛ إذ أن المشركين السابقين ما كانوا يدعون آلهتهم إلا طلبا للقربى عند الله تعالى، لا اعتقادا بأنها تخلق أو ترزق، أو أنها بيدها تصاريف الأمور.

وفيما تقدم من جواب على تعريفهم للعبادة كفاية إن شاء الله تعالى في الجواب عن هذه الشبهة.

---

(١) انظر ما تقدم ص ١٧١.

الشبهة الثانية:

استدلالهم باستغاثة الناس به في حياته ﷺ حال الجدب وغيره[١].

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائما، ثم قال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا. فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: **(اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا)** قال أنس ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس ستا، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة يعني الثانية ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله قائما فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها عنا. قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: **(اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر)** قال: فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس[٢].

وهذا المعنى كثير جدا في سيرته ﷺ.

فقالوا: إن هذا يدل على جواز الاستغاثة به وهو بمعنى طلب

---

(١) انظر: شواهد الحق ص ٢٢.

(٢) رواه البخاري في الجمعة - باب الاستسقاء في المسجد الجامع - رقم ١٠١٣، وباب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة - رقم ١٠١٤، ومسلم في صلاة الاستسقاء - باب الدعاء في الاستسقاء - رقم ٨٩٧.

الدعاء منه ﷺ، وإذا ثبت ذلك في حياته فهو باق أيضا بعد موته ؛ لأنه ﷺ عند الله في مزيد دائم لا ينقص جاهه.

والجواب من وجوه :

● **الوجه الأول:**

أن ما ذكروه من أدلة هنا ليس مما نحن فيه ؛ إذ أنها في الطلب من النبي ﷺ ما يقدر عليه في حياته، وما هو اللائق به عليه الصلاة والسلام.

وهذا المعنى لا ينازع فيه أهل السنة، بل إنهم يثبتونه له ﷺ، كما أنهم يثبتونه لغيره، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقال : «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال فيسقون»[1]، وهذا فيه طلب الدعاء من العباس رضي الله عنه ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة ذلك.

وكذلك ما ورد في فضل أويس القرني - وهو من التابعين - أن رسول الله ﷺ قد قال فيه : (**إن رجلا يأتيكم من اليمن يقال له أويس لا يدع باليمن غير أم له، قد كان به بياض فدعا الله فأذهبه عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم فمن لقيه منكم فليستغفر لكم**)[2].

---

(١) رواه البخاري في الجمعة - باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا - رقم ١٠١٠

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة - باب من فضائل أويس القرني رضي الله عنه - رقم ٢٥٤٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٨.

ويدخل في هذا المعنى ما ثبت في السنة المستفيضة، بل المتواترة من أن الناس يستشفعون بالنبي ﷺ فيشفع لهم، وأنه أول شافع وأول مشفع - كما سيأتي بيانه في مبحث الشفاعة -.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وقد قلنا : إنه إذا طلب منه - أي من النبي ﷺ - ما يليق بمنصبه فهذا لا نزاع فيه والطلب منه في حياته و الاستغاثة به في حياته فيما يقدر عليه لم ينازع فيه أحد، فما ذكره - «وهو الاستدلال بما ورد من الاستشفاع به ﷺ في حياته» - لا يدل على مورد النزاع، ولكن هذا - أي البكري - أخذ لفظ الاستغاثة ومعناها العام فجعل يتشبث بهما.

وهذا إنما يليق بمن قال لا يستغيث به أحد حيا ولا ميتا في شيء من الأشياء.

ومعلوم أن عاقلا لا يقول هذا في آحاد العامة، فضلا عن الصالحين، فضلا عن الأنبياء والمرسلين، فضلا عن سيد الأولين والآخرين، فإنه ما من أحد إلا ويمكن أن يستغاث به في بعض الأشياء، فكيف بأفضل الخلق وأكرمهم على الله تعالى.

ولكن النفي عاد إلى الشيئين : إلى الاستغاثة به بعد الموت، وإلى أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فكيف إذا اجتمعا جميعا ؟ فإن من الناس من يستغيث بالموتى من الأنبياء والصالحين ويطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى)[١].

إذاً، فكل ما جاء من الاستغاثة به ﷺ في حياته فيما هو اللائق

(١) الاستغاثة ١/ ٤٠٥-٤٠٦.

بمنصبه، وكذلك ما جاء من الأدلة في الاستشفاع به ﷺ في الآخرة فهو حق لا مرية فيه، ولكن لا دليل فيه على ما ذهب إليه المبتدعة من جواز الاستغاثة به ﷺ في قبره ؛ إذ أن كل تلك الأدلة إنما وردت في حال الحياة سواء حياة الدنيا أو حياة الآخرة، وهذه لا تقاس عليها حالة الموت ؛ لما هو معلوم عقلا ونقلا من الفارق بين الحالين، وأن كل صاحب عقل يدرك ما يكون في حال الحياة من معرفة المستغاث بمطلوب المستغيث والعمل على إغاثته إن كان ذلك بمقدوره إن شاء، دون أن يكون ذلك في حال الموت.

فقياسهم حال الموت بحال الحياة قياس مع الفارق، ولا يسلم لهم، ويحتاجون إلى دليل يجوز لهم ذلك، ولن يجدوا إلا ما يدل على نقيض مرادهم، وأن الاستغاثة به ﷺ في قبره هي من جنس استغاثة المشركين السابقين بالأنبياء والصالحين، والتي حكم الله تعالى عليها بالشرك، كما سيأتي توضيحه في الأوجه الأخرى، إضافة إلى ما سيأتي من الكلام على شبهتهم عدم التفريق بين حالتي الموت والحياة.

ثم إن الكلام هنا على مسألة الاستغاثة به ﷺ لا على منزلته عند ربه، فهو ﷺ في مزيد منزلة ورفعة مكانه، لا ينقص ذلك موته فضلا عن أن ينفيه، فلا أحد من أهل السنة يقول إن منزلته بعد موته قد نقصت فلذلك لا يستغاث به.

كلا، ولكن المبتدعة خلطوا بين الأمور، ولبسوا الحق بالباطل، وجعلوا من لوازم القول بنفي الاستغاثة به ﷺ بعد موته الحكم على قدره ومنزلته بالنقص.

ولا تلازم بين الأمرين، كما أن لا تلازم بين القول بأن عيسى عبد الله ورسوله وأنه ليس ابنه وبين القدح فيه والتنقيص منه كما تدعيه النصارى.

فالكلام هنا في مسألة الاستغاثة وليس في مسألة المنزلة والقدر.

● **الوجه الثاني:**

أن الصحابة رضوان الله عليهم هم أفهم الناس بمراده ﷺ، ولقد كانوا يأتون إليه ويطلبونه ويسألونه في حياته، ويستشفعون به ليدعو لهم.

أما بعد موته ﷺ فلم يكونوا يفعلون ذلك؛ لما فهموه منه وعرفوه من النهي عن دعاء الموتى وسؤالهم.

وهذا الترك منهم لم يكن عن غفلة أو نسيان، كيف وهم أحرص الناس على طرق أبواب الخير كلها.

فيعلم من ذلك أن هذا كان عن علم وقصد منهم، وأنه يدل على تفريقهم بين حياته وموته ﷺ في أمر الاستغاثة والاستشفاع.

ولو كان ذلك جائزا لما عدلوا إلى الاستسقاء والتوسل بغيره من الأحياء كالعباس رضي الله عنه.

ولئن قيل: إن هذا العدول منهم لبيان الجواز[١].

فيقال: إن الناس لبيان جواز ذلك في النبي ﷺ بعد موته أحوج منهم لبيانه في أحد من الناس.

---

(١) انظر: الدرر السنية لدحلان ص ١٢. وانظر رد السهسواني في صيانة الإنسان ص ٢٠٧-٢٠٩.

ثم إن بيان الجواز قد علم بإقرار النبي ﷺ، كما في طلب الاستغفار من أويس القرني - وقد تقدم -، وهو المشرّع عليه الصلاة والسلام، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧][(١)].

ثم أيضا إنه من المعلوم فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه على سائر الصحابة، فلماذا لم يستشفع به بعد موته؟ فيكون قد جمع مع جواز الاستشفاع بغيره ﷺ جواز الاستشفاع بالميت!

ثم إن بيان الجواز يكون في المرة بعد مرات من الأصل، ولكن الصحابة رضي الله عنهم لم ينقل عنهم أنهم استغاثوا بالنبي ﷺ في قبره أو استسقوا به مرة من المرات.

● **الوجه الثالث:**

أن النبي ﷺ هو أرحم الناس بأُمته، فلم يترك خيرا إلا ودلهم عليه، ولا شرا إلا وحذرهم منه.

فلو كانت الاستغاثة به بعد موته من المشروع الذي تقضى به الحاجات لأمر أو حث أمته عليه، ورغبهم في المسارعة إليه؛ إذ أنه أرحم الناس بأُمته، وأشفقهم عليهم.

ولكن الأمر على نقيض ذلك، فقد حذر أُمته أن يتخذوا قبره مسجدا أو عيدا، ودعا ربه أن لا يكون قبره وثنا يعبد، ولعن الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد يحذر أُمته أن يصنعوا مثل ما صنعوا،

---

(١) انظر: صيانة الإنسان للسهسواني ص ٢٠٨.

وبين أن شرار الخلق الذين يتخذون القبور مساجد.

هذا فيمن يتخذ قبور الأنبياء مساجد يعبد الله تعالى فيها، فكيف بمن يعبد صاحب القبر ويصرف له من الدعوات والاستغاثات ما لا ينبغي أن يصرفه إلا لله تعالى؟

يقول الإمام ابن عبد الهادي رحمه الله: (فإن هذا لو كان مشروعا بعد موته - يعني الإتيان إلى قبره وطلب الاستغفار - لأمر به أُمته وحضهم عليه، ورغبهم فيه، ولكان الصحابة وتابعوهم بإحسان أرغب شيء فيه وأسبق إليه، ولم ينقل عن أحد منهم قط - وهم القدوة - بنوع من أنواع الأسانيد أنه جاء إلى قبره ليستغفر له، ولا شكا إليه ولا سأله .... فتبين أنه لو كان استغفاره لمن جاءه مستغفرا بعد موته ممكنا أو مشروعا لكان كمال شفقته ورحمته، بل رأفة مرسله ورحمته يقتضي ترغيبهم في ذلك وحضهم عليه، ومبادرة خير القرون إليه)[١].

● **الوجه الرابع:**

أن الاستغاثة بالصالحين في قبورهم، وصرف الدعاء لهم، هو مبدأ الشرك في البشرية، ومن أجله أرسل أول رسول إلى أهل الأرض وهو نوح عليه الصلاة والسلام.

وقد تقدم قول ابن عباس رضي الله عنهما في أصنام قوم نوح عليه الصلاة والسلام إنها: (أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم

---

(١) الصارم المنكي ص ٣٢٠.

عبدت[١].

فهم في دعائهم لهذه الآلهة ما أرادوا إلا أولئك الصالحين ليشفعوا لهم عند الله تعالى ؛ لمكانتهم عنده سبحانه.

وكذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، أن المراد بذلك الملائكة وعيسى وعزير ومريم عليهم السلام، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره[٢].

فهذه حال المشركين السابقين الذين جاء حكم الله تعالى بشركهم صريحا، أنهم كانوا يدعون الأنبياء والصالحين.

وهذا يدل على أن دعاءه ﷺ في قبره له حكم ما كان يفعله أهل الجاهلية الأولى بأنبيائهم وصالحيهم.

• **الوجه الخامس :**

أنه قد جاء عن النبي ﷺ نفي الاستغاثة به فيما لا يملكه، وإنما هو إلى الله تعالى وحده.

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام فينا النبي فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، قال : (**لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، على رقبته فرس له حمحمة، يقول : يا رسول الله أغثني. فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. وعلى رقبته**

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٧٤، الحاشية (١).

(٢) تقدم ص ٣٦٢-٣٦٣.

بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثني. فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. وعلى رقبته صامت فيقول : يا رسول الله أغثني. فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. أو على رقبته رقاع تخفق فيقول : يا رسول الله أغثني. فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك)[١].

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٤] قال : (يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا)[٢].

وقد جاء هذا المعنى في كتاب الله تعالى في غير ما آية كما في قوله تعالى : ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقوله تعالى : ﴿...قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٣]، وقوله تعالى : ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا

---

(١) رواه البخاري في الجاد والسير - باب الغلول.. - رقم ٣٠٧٣، ومسلم في الإمارة - باب غلظ تحريم الغلول - رقم ١٨٣١.

(٢) رواه البخاري في الوصايا - باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب - رقم ٢٧٥٣، ومسلم في الإيمان - باب في قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ - رقم ٢٠٦.

مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن: ٢١]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا المعنى ليس فيه أي دلالة على تنقص الرسول ﷺ ولا الحط من قدره؛ إذ أنه في بيان بشريته ﷺ، وأنه ليس له من شأن الألوهية والربوبية شيء، وإنما هو رسول اصطفاه الله تعالى واجتباه.

فمن صرف له شيئا من خصائص الألوهية كالدعاء والاستغاثة، فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فقد خالف مقصود رسالته وأساس دعوته - بأبي هو وأمي - ﷺ.

الشبهة الثالثة:

استدلالهم بأحاديث الشفاعة، وأنه ﷺ أول شافع وأول مشفع، وأن الناس يأتون الأنبياء في الموقف وكل يعتذر حتى ينتهي الأمر إليه فيقول: (أنا لها)، وأنه يشفع لأهل الكبائر من أُمته، إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على هذا المعنى(١).

فيقولون: نحن نستغيث به لأجل ذلك، وأنه يشفع في حوائجنا عند الله تعالى.

والجواب على ذلك:

هو ما سبق في الجواب على الشبهة السابقة؛ إذ أن استغاثة الناس به في الموقف هو في حال الحياة، يخاطبهم ويخاطبونه، وهم إنما

---

(١) انظر: شواهد الحق للنبهاني ص ١٢٧. وانظر: غاية الأماني في الرد على النبهاني، لمحمود شكري الألوسي ١/ ٣٩٢.

طلبوا أن يشفع لهم عند الله تعالى، وليس هذا كمن يدعوه ويرجوه في قبره عليه الصلاة والسلام.

فالحاصل أن ما سبق من الجواب على الشبهة السابقة هو جواب أيضا على هذه الشبهة.

الشبهة الرابعة:

استدلالهم بأنه قد جاء من يشكو الجدب عند قبر النبي ﷺ في عهد الصحابة[١].

ويذكرون في ذلك ما رواه مالك خازن عمر رضي الله عنه، قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ: فقال يا رسول الله استسق لأُمتك فإنهم قد هلكوا. فأتي الرجل في المنام فقيل له: إئت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنكم مسقيون، وقل له: عليك الكيس عليك الكيس. فأتى عمر فأخبره فبكى عمر ثم قال يا رب لا آلو إلا ما عجزت عنه.

وكذلك ما جاء في بعض الروايات أن هذا الرجل الذي جاء عند القبر هو بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه.

والجواب من وجوه:

- **الوجه الأول:**

ما يتعلق بإسناد هذا الأثر.

---

(١) الدرر السنية لدحلان ص ٩، شواهد الحق للنبهاني ص ١٣٨، التبرك لعلي الأحمدي ص ١٤٨. وانظر: الصراع بين الإسلام والوثنية للقصيمي ٢/ ٢/ ٤٨٥.

فقد رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن مالك الدار - وكان خازن عمر على الطعام - قال : أصاب الناس قحط في زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال : يا رسول الله استسق لأُمتك فإنهم قد هلكوا. فأُتي الرجل في المنام فقيل له : إئت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنكم مسقيون، وقل له : عليك الكيس عليك الكيس. فأتى عمر فأخبره، فبكى عمر ثم قال : يا رب لا آلو إلا ما عجزت عنه(١).

ورواه البيهقي في دلائل النبوة : أخبرنا أبو نصر بن قتادة وأبو بكر الفارسي قالا : حدثنا أبو عمرو بن مطر حدثنا إبراهيم بن علي الذهلي حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا أبو معاوية به(٢).

ومن طريقه رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق(٣).

وهذه الطريق لم يذكر فيها اسم الرجل الذي جاء إلى القبر.

وقد أعل بعض أهل العلم هذه الطريق بعلل :

أولا : ما يشعر من كلام بعض أهل لعلم بأن مالك الدار راوي القصة مجهول، فقد ذكره البخاري في «التاريخ الكبير»(٤)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»(٥)، ولم يذكرا فيه جرحا ولا تعديلا، ولم

(١) المصنف ٦/ ٣٥٦ (ما ذكر في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه).
(٢) دلائل النبوة ٧/ ٤٧.
(٣) تاريخ مدينة دمشق ٤٤/ ٣٤٥.
(٤) التاريخ الكبير ٧/ ٣٠٤.
(٥) الجرح والتعديل ٨/ ٢١٣. وانظر: التوسل للألباني ص ١٣٠، هذه مفاهيمنا لصالح آل الشيخ ص ٦١-٦٢.

يذكر ابن أبي حاتم راويا عنه غير أبي صالح السمان.

وقال الحافظ المنذري في الترغيب عنه: (ومالك الدار لا أعرفه)[١].

وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد[٢].

ثانيا: عنعنة الأعمش رحمه الله، وهو مدلس من الطبقة الثانية، كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله[٣].

ثالثا: تفرد مالك الدار - وهو غير معروف بالرواية - بهذه القصة، وهي مما تتداعى الهمم لنقلها؛ حيث إنها في أمر عم المسلمين جميعم في المدينة، وأشتد عليهم وقعه[٤].

رابعاً: أن الحافظ ابن حجر رحمه الله قد ذكر في فتح الباري رواية ابن أبي شيبة، فقال: (وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الداري)، وذكر القصة[٥].

وهذا وإن كان قد يفهم منه تصحيحه لسند الرواية، إلا أن قوله (من رواية أبي صالح السمان) قد يفهم منه - أيضا - أنه تصحيح الإسناد إلى رواية أبي صالح فقط، ويبقى احتمال توقف في حال مالك الدار.

---

(١) الترغيب ٢/ ٤١-٤٢.

(٢) مجمع الزوائد ٣/ ١٢٥.

(٣) طبقات المدلسين ص ٥٣.

(٤) هذه مفاهيمنا ص ٦٢.

(٥) فتح الباري ٢/ ٥٧٥.

يقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ﷺ موضحا ذلك : (إنه ليس نصا - يعني كلام الحافظ ابن حجر - في تصحيح جميع السند، إلا إلى أبي صالح فقط، ولولا ذلك لما ابتدأ هو الإسناد من عند أبي صالح، ولقال رأساً : عن مالك الدار وإسناده صحيح، ولكنه تعمد ذلك ليلفت النظر إلى أن ههنا شيئا ينبغي النظر فيه، والعلماء إنما يفعلون ذلك لأسباب منها : أنهم قد لا يحضرهم ترجمة بعض الرواة، فلا يستجيزون لأنفسهم حذف السند كله، لما فيه من إيهام صحته لا سيما عند الاستدلال به، بل يوردون منه ما فيه موضع للنظر فيه، وهذا هو الذي صنعه الحافظ رحمه الله هنا، وكأنه يشير إلى تفرد أبي صالح السمان عن مالك الدار كما سبق نقله عن أبي حاتم، وهو يحيل بذلك إلى وجوب التثبت من حال مالك هذا، أو يشير إلى جهالته. والله علم)[١].

هذا في هذه الرواية التي لم يسم فيها الرجل الذي جاء إلى القبر، فلا يعلم من هو.

أما الرواية التي فيها تسميته، وأنه بلال بن الحارث الصحابي ﷺ، فهي رواية ضعيفة باطلة ؛ إذ هي من رواية سيف بن عمر في الفتوح.

قال الحافظ في الفتح : (وقد روى سيف في الفتوح أن الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة)[٢].

وسيف بن عمر متفق على ضعفه عند المحدثين[٣].

(١) التوسل ص ١٣١.
(٢) فتح الباري ٥٧٥-٥٧٦.
(٣) انظر: التوسل للألباني ١٣٢.

قال ابن الجوزي في «الضعفاء والمتروكين» : (سيف بن عمر الضبي عن أبي بكر المدني في الأصل كوفي يروي عن عبيد الله بن عمر العمري.

قال يحيى : ضعيف الحديث، فلسٌ خير منه.

وقال أبو حاتم الرازي : متروك الحديث.

وقال النسائي والدارقطني : ضعيف.

وقال ابن حبان : يروي الموضوعات عن الأثبات. وقال : إنه يضع الحديث)[١].

وقال عنه الذهبي في الميزان : (قال عباس عن يحيى : ضعيف. وروى مطين عن يحيى : فلس خير منه.

وقال أبو داود : ليس بشيء.

وقال أبو حاتم : متروك.

وقال ابن حبان : اتهم بالزندقة.

وقال ابن عدي : عامة حديثه منكر)[٢].

وقال الذهبي - أيضا - في المغني : (متروك باتفاق)[٣].

وبناء على ذلك فالرواية التي ذكر فيها أن الذي جاء إلى القبر هو

---

(١) الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ٢/ ٢٥.
(٢) ميزان الاعتدال ٣/ ٣٥٢.
(٣) المغني في الضعفاء ١/ ٢٩٢.

بلال بن الحارث رواية واهية لا يصح الاحتجاج بها ألبتة.

ويبقى الكلام بعد ذلك في الرواية الأخرى التي لم يسم فيها الرجل، ولم يعرف من هو، وأنها لا تقاوم الروايات الصحيحة الصريحة الدالة على النهي عن طلب الموتى والدعاء عند قبورهم، كما يبنه الوجه التالي.

● **الوجه الثاني:**

على فرض صحة هذه القصة - والكلام هنا على الرواية التي لم يسم فيها الرجل الذي استسقى - على ما قد يفهم من كلام الحافظ ابن حجر السابق، وكذلك تصحيح الحافظ ابن كثير رحمه الله عند ذكره رواية البيهقي كما في البداية والنهاية[1] - فإنها لا تقاوم النصوص الصريحة التي جاءت في الصحاح والسنن برواية الأثبات المشهورين عن النبي ﷺ من نهيه وتشديده في اتخاذ القبور مساجد وأعيادا، وكذلك ما كان عليه الرسول ﷺ من قوله وفعله حال الاستسقاء، وأنه لم يأمر مرة أن يطلب منه الاستسقاء بعد وفاته، ولم يفعل هو ذلك أن طلب شيئا من نبي أو غيره، وقد ثبت أنه مر على قبر موسى عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج[2].

فكيف تترك النصوص الصحيحة الصريحة الدالة على النهي عن دعاء أهل القبور والطلب منهم إلى هذه القصة التي فيها ما فيها من مآخذ واحتمالات؟!

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ٩٤.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب من فضائل موسى ﷺ - رقم ٢٣٧٥.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله - تعليقا على تصحيح الحافظ ابن حجر في الفتح - : (هذا الأثر - على فرض صحته كما قال الشارح - ليس بحجة على جواز الاستسقاء بالنبي ﷺ بعد وفاته ؛ لأن السائل مجهول ؛ ولأن عمل الصحابة رضوان الله عليهم على خلافه، وهم أعلم الناس بالشرع، ولم يأت أحد منهم إلى قبره يسأله السقيا ولا غيرها، بل عدل عمر رضي الله عنه عنه لما وقع الجدب إلى الاستسقاء بالعباس رضي الله عنه ، ولم ينكر عليه ذلك أحد من الصحابة)[١].

• **الوجه الثالث:**

أن ما يستدل به المبتدعة من هذه القصة منقوض بفعل عمر رضي الله عنه ومن معه من الصحابة.

فإن مقتضى إقرارها أن يفعل مثل ما فعل هذا الرجل، ويأتي إلى قبر النبي ﷺ، ويستسقون به.

وحيث لم يفعل ذلك لا هو ولا أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لا عقيب هذا الإخبار من الرجل - حيث لم يبعد العهد فتذهل النفس عنه - ولا بعده بحين، دل ذلك على أن إتيان القبر والاستسقاء بالنبي ﷺ ليس مشروعاً.

وليس الظن بعمر رضي الله عنه - وهو من هو في الاتباع - أن يترك المشروع مع قيام الداعي إليه، وعلمه أنه محل اقتداء.

ثم إنهم لو تأملوا القصة لوجدوا أنه يمكن الاستدلال بها عليهم ؛

---

(١) تعليق الشيخ على فتح الباري ٢/ ٥٧٥.

إذ أن فيها ردا إلى الأصل : وهو دعاء الله تعالى وسؤاله الغيث، فلو كان إتيان القبر مشروعا لكان الأمر به، ولكن لما كان الأصل في ذلك أن يدعى الله تعالى دون وسائط رُد الأمر إليه.

يقول الشيخ عبد اللطيف بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ : (وفي الحديث المذكور أنه أمرهم أن يذهبوا إلى عمر فيستسقي لهم، فأرشدهم يقظة ومناما إلى سؤال الله والرغبة إليه، والاستغاثة به وحده، وكفى بهذا دليلا على إبطال هذه الدعوى الضالة)[١] .

● **الوجه الرابع :**

أن القصة ليس فيها دلالة على الاستغاثة بالنبي ﷺ في قبره كما يفعله كثير من المبتدعة من طلب الرزق والعافية والولد وكشف الكرب ونحو ذلك مما هو صريح الدعاء والسؤال.

وإنما الذي فيها أن هذا الرجل قال للنبي ﷺ : استسق لأمته، وهذا طلب الدعاء منه، لا دعاؤه هو بنفسه.

وهذا وإن كان ممنوعا ؛ لدخوله في عموم النهي عن اتخاذ القبور مساجد، إلا أنه ليس كدعاء الميت نفسه والاستغاثة به[٢] .

فالمراد هنا أن استدلال المبتدعة بهذه القصة على جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ في قبره وسؤاله الحاجات وكشف الكربات استدلال باطل.

---

(١) منهاج التأسيس ص ٣٨١.
(٢) وسيأتي بيان ذلك في مبحث الاستشفاع.

● **الوجه الخامس :**

ما يتعلق بوقوع الرؤيا بعد إتيان القبر لا يدل أبدا على مشروعية الفعل نفسه ؛ إذ أنه قد يقع السؤال عند قبر النبي ﷺ أو قبر غيره فيحصل المطلوب.

وهذا الوقوع ليس دليلا على المشروعية ؛ إذ قد يكون ذلك لسبب وافق ذلك الفعل، أو يكون فتنة واستدراجا، كما قد يقع للمشركين أحيانا من حصول مطلوباتهم في حال شركهم، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله تعالى - في الكلام على احتجاج المبتدعة بالقصص التي يتناقلونها في حصول ما يريدون بعد استغاثاتهم الشركية -.

والذي أنبه عليه هنا - على افتراض صحة الرواية - : أن هذه الرؤيا التي أعقبت إتيان القبر وطلب الاستسقاء منه ﷺ لا يستدل بها على مشروعية ذلك، كما أنه لا يستدل بإعطاء النبي ﷺ من جاء يسأله على مشروعية السؤال، بل قد تقدم من الأدلة ما يدل على النهي عن ذلك[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وكذلك أيضا ما يروى أن رجلا جاء إلى قبر النبي ﷺ فشكا إليه الجدب عام الرمادة فرآه وهو يأمره أن يأتي عمر فيأمره أن يخرج فيستسقي للناس فإن هذا ليس من هذا الباب ومثل هذا يقع كثيرا لمن هو دون النبي ﷺ وأعرف من هذا وقائع.

---

(١) انظر ص ٣٧٣.

وكذلك سؤال بعضهم للنبي ﷺ أو لغيره من أمته حاجته فتقضى له فإن هذا قد وقع كثيرا وليس هو مما نحن فيه.

وعليك أن تعلم : أن إجابة النبي ﷺ أو غيره لهؤلاء السائلين ليس مما يدل على استحباب السؤال فإنه هو القائل ﷺ : **«إن أحدكم ليسألني مسألة فأعطيه إياها فيخرج بها يتأبطها نارا فقالوا يا رسول الله فلم تعطيهم قال يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل»**[(١)].)[(٢)]

قلت : ثم إنه قد وقع في نفسي أن القصة قد ذكر فيها الرجل لعمر رضي الله عنه رؤيته للنبي ﷺ، وما أمره به.

أما ذهابه إلى القبر وطلبه الاستسقاء من النبي ﷺ فليس بصريح أنه أخبره به، والله أعلم[(٣)].

الشبهة الخامسة:

استدلالهم بالآثار التي فيها ذكر النبي ﷺ عند خدر الرجل[(٤)].

ومن ذلك ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه خدرت رجله، فقيل له : اذكر أحب الناس إليك، فقال : يا محمد.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣٧٦، الحاشية (٢).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٢٠٢.

(٣) ثم إني رأيت مثل هذه الملحوظة في كتاب «الفوائد الجليلة في بيان معنى الوسيلة والرد على شبهات القبوريين» لسيد الغباشي ص ٤٩، وقد قدم له الشيخ عبدالعزيز ابن باز.

(٤) الدرر السنية ص ٣٥، مفاهيم يجب أن تصحح ١٤٧. وانظر: فتح المنان للألوسي ص ٣٧٥، االرد على شبهات المستغيثين بغير الله لابن عيسى ص ٩٥، الصراع بين الإسلام والوثنية ٢/ ٣٢٩.

وكذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لرجل لما خدرت رجله : اذكر أحب الناس إليك. فقال الرجل : محمد ﷺ، فذهب خدره.

والجواب على ذلك من وجوه :

● **الوجه الأول :**

الكلام على الرواية.

فخبر ابن عمر رضي الله عنهما رواه البخاري في الأدب المفرد، قال : حدثنا أبو نعيم قال حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن سعد قال : خدرت رجل ابن عمر رضي الله عنهما، فقال له رجل : اذكر أحب الناس إليك، فقال : محمد[(١)].

ورواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» من طريق أبي إسحاق عن أبي شعبة - وفي نسخة : أبي سعيد - أنه قال : كنت أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما فخدرت رجله، فجلس، فقال له رجل : اذكر أحب الناس إليك، فقال : يا محمداه. فقام يمشي[(٢)].

ورواه أيضا من طريق أبي إسحاق عن الهيثم بن حنش، وذكر مثله، إلا أن ابن عمر قال : يا محمد ﷺ[(٣)].

ورواية ابن السني الأولى لا يعرف فيها الراوي عن ابن عمر

---

(١) الأدب المفرد ١/ ٣٣٥ - رقم ٩٦٤. وأاورده الألباني في ضعيف الأدب المفرد ص ٨٩ ورقم ١٥٠/ ٩٦٤.

(٢) عمل اليوم والليلة لابن السني ص ١٤١ رقم ١٦٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٤١ رقم ١٧٠.

تحديدا، ففي نسخة: أبو شعبة، وفي نسخة: أبو سعيد.

وفي الرواية الثانية الهيثم بن حنش، ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعدل، ولم يذكر فيه عن أبيه سوى أنه روى عنه أبو إسحاق وسلمة ابن كهيل[١].

وقد نص الخطيب البغدادي في «الكفاية» على أنه مجهول[٢].

وأمثل هذه الروايات رواية البخاري في الأدب المفرد.

إلا أنها لم تخل من عنعنة أبي إسحاق، ولقد أعلها بعض أهل العلم بذلك، إضافة إلى الاضطراب الحاصل في روايات أبي إسحاق رحمه الله.

يقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني -في بيان علل الحديث-: (الثانية: أنه من رواية أبي إسحاق عنه - يعني عن الهيثم -، وهو السبيعي، وهو مدلس وقد عنعنه، ثم إنه كان قد اختلط، وهذا من تخاليطه، فإنه اضطرب في سنده، فتارة رواه عن الهيثم هذا، وتارة عن أبي شعبة، وفي نسخة: أبي سعيد، رواه ابن السني، وتارة قال: عن عبدالرحمن بن سعد، قال: كنت عند ابن عمر، فذكره، أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وابن السني. وعبدالرحمن بن سعد هذا وثقه النسائي، فالعلة من أبي إسحاق من اختلاطه وتدليسه، وقد عنعنه في كل الروايات عنه)[٣].

---

(١) الجرح والتعديل ٩/ ٧٩.

(٢) الكفاية في علم الرواية ص ٨٨.

(٣) تخريج أحاديث الكلم الطيب ص ١٢٠.

أما أثر ابن عباس رضي الله عنهما فقد رواه ابن السني أيضا في «عمل اليوم والليلة» من طريق غياث بن إبراهيم عن عبدالله بن عثمان بن خيثم عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خدرت رجل رجل عند ابن عباس رضي الله عنهما، فقال ابن عباس: اذكر أحب الناس إليك. فقال: محمد ﷺ، فذهب خدره[(١)].

وغياث بن إبراهيم متروك متهم بالوضع فلا يحتج بحديثه.

قال الذهبي رحمه الله في المغني: (تركوه، واتهم بالوضع)[(٢)].

وقال في الميزان: (غياث بن إبراهيم النخعي عن الأعمش وغيره.

قال أحمد: ترك الناس حديثه.

وروى عباس عن يحيى: ليس بثقة.

وقال الجوزجاني: كان فيما سمعت غير واحد يقول يضع الحديث.

وقال البخاري: تركوه)[(٣)].

فالأثر المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما موضوع لا تقوم به حُجة.

● **الوجه الثاني:**

أن الرواية ليس فيها أنه دعا النبي ﷺ أو طلب منه شيئا، بل هو

---

(١) عمل اليوم والليلة ص ١٤١ رقم ١٦٩.
(٢) المغني في الضعفاء ٢/ ٥٠٧.
(٣) ميزان الاعتدال ٥/ ٤٠٦.

ذكرٌ لاسم المحبوب فقط، لا سيما إذا تأملت أصح ما روي فيه، وهو رواية البخاري في الأدب المفرد - على ما تقدم فيها - فإنه لم يذكر فيها حرف النداء، بل قال : (محمد).

بل إنه لو كانت بحرف النداء لم تكن دعاء ولا استغاثة، حيث إنها للندبة، أو لاستذكار الحبيب ليكون أقرب استحضارا للذهن.

فحين يقال للمرء : أذكر أحب الناس إليك، فيسميه، فإن من يعرف اللسان العربي لا يسمي ذلك دعاء ولا استغاثة.

● **الوجه الثالث :**

أن ذكر الحبيب عند خدر الرجل أمر معروف عند العرب، وقد ذكر ذلك في أشعارهم.

جاء في "صبح الأعشى" : (كانوا يقولون : إن الرجل إذا خدرت رجله فذكر أحب الناس إليه ذهب عنه الخدر)[١].

ومن ذلك قول الشاعر :

وما خدرت رجلاى إلا ذكرتكم فيذهب عن رجلاي ما تجدان[٢]

وقال آخر :

إذا مذلت رجلي ذكرتك أشتفي بدعواك من مذل بها فيهون[٣]

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ١/ ٤٦٣.
(٢) الحماسة البصرية لعلي بن الحسن البصري ٢/ ١٠٥، ونسب البيت إلى الأقيشر.
(٣) محاضرات الأدباء لأبي القاسم الأصفهاني ٣/ ٦٦.

وقالت امرأة من كلاب :

إذا خدرت رجلي ذكرت ابن مصعب   فإن قلت عبد الله أجلى فتورها[(١)]

وغير ذلك من الأشعار الدالة على هذا المعنى.

وقد قيل في سبب ذلك : إن ذكر من خدرت رجله لمحبوبه يجعل الحرارة الغريزية في بدنه، فيجري الدم في عروقه، فتتحرك أعصاب الرجل، فيذهب الخدر.

ولذلك فإن المراد هو تذكر الحبيب فقط، لا الاستغاثة به أو طلبه.

ومما يوضح ذلك قول الشاعر :

على أن رجلي لا يزال امذلالها   مقيما بها حتى أجيلك في فكري[(٢)]

فالمراد من ذلك هو أن يجال ذكر المحبوب في الذهن، وبذلك تنشط حركة الدم فيه، فيزال الخدر.

الشبهة السادسة :

استدلالهم بأنه قد وقع النداء من الصحابة ﷺ ومن بعدهم للنبي ﷺ بعد وفاته، ولم ينكر بعضهم على بعض في ذلك.

ومما يذكرونه في ذلك :

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ١/ ٤٦٤، الأمالي في لغة العرب لأبي علي القالي ٢/ ٢٧.

(٢) انظر: بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي ١/ ٣٢٠. وانظر: هذه مفاهيمنا لصالح آل الشيخ ص ٤٧، الرد على شبهات المستغيثين بغير الله لابن عيسى ص ٩٥-٩٦.

١- أن بلال بن الحارث ﷺ ذبح شاة فوجدها هزيلة، فقال : وا محمداه[١].

٢- أن فاطمة رضي الله عنها قالت بعد وفاة أبيها ﷺ : يا أبتاه، أجاب ربا دعاه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه، يا أبتاه، جنة الفردوس مأواه[٢].

٣- أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه خاطب النبي ﷺ بعد موته، وأن مما قاله له : (اذكرنا عند ربك ولنكن من همك)[٣].

٤- ما جاء في مرثية صفية رضي الله عنها - عمة النبي ﷺ -، للنبي ﷺ وفيها :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا براً ولم تك جافيا[٤]

٥- أن شعار المسلمين في قتال المرتدين يوم اليمامة : وامحمداه[٥].

٦- ما جاء عن عمر رضي الله عنه لما تحقق وفاة النبي ﷺ أنه قال - وهو يبكي - : (بأبي أنت وأُمي يارسول الله، لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه، فلما كثروا واتخذت المنبر لتسمعهم حن

(١) انظر: شواهد الحق للنبهاني ص ١٧٣. وانظر: الصراع بين الإسلام والوثنية للقصيمي ٢/ ٣٢٩.
(٢) انظر: الدرر السنية ص ٣٧ شواهد الحق ص ١٧٥.
(٣) الدرر السنية ص ٣٦ شواهد الحق ص ١٧٤. وانظر: الصراع بين الإسلام والوثنية ٢/ ٢٩٩.
(٤) الدرر السنية ص ٢٩، شواهد الحق ص ١٧٥.
(٥) شواهد الحق ص ١٧٣، مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد علوي المالكي ص ١٤٧. وانظر: الصراع بين الإسلام والوثنية للقصيمي ٢/ ٣٢٩.

الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم، بأبي أنت وأُمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته . . .) إلى آخر ما روي عنه(١).

فقالوا : إن هذه كلها نداءات للنبي ﷺ فعلها الصحابة رضوان الله عليهم ولم ينكروها، مما يدل على أن الاستغاثة به ﷺ ونداءه في قبره بطلب الحاجات من الأمور المشروعة.

والجواب من وجوه:

● **الوجه الأول:**

الكلام على الروايات السابقة :

أما ما روي عن بلال بن الحارث رضي الله عنه أنه لما ذبح شاة فرآها هزيلة نادى : (وامحمداه)، فهي رواية واهية لا يحتج بها في شيء ؛ فقد رواها الطبري في التاريخ من طريق سيف بن عمر عن مبشر بن الفضيل عن جبير بن صخر عن عاصم بن عمر بن الخطاب(٢).

وقد تقدم الكلام في سيف بن عمر(٣).

وفيه أيضا مبشر بن الفضيل.

قال الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» : (مبشر بن فضل شيخ لسيف لا يدرى من هو . . . وذكره العقيلي في الضعفاء فقال : كوفي

---

(١) شواهد الحق ص ١٧٤.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٥٠٩.
(٣) انظر ص ٤٢١-٤٢٢.

مجهول بالنقل لا يصح إسناده)[١].

فالقصة لا يصح الاحتجاج بها.

أما ما جاء عن فاطمة رضي الله عنها فهو صحيح، رواه البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أباه. فقال لها: (**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**)، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربا دعاه يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل ننعاه[٢].

ولكن ليس في ذلك حجة لهم في الاستغاثة بالنبي ﷺ بعد موته، كما سيأتي في الوجه الثاني أن ذلك ليس من الاستغاثة في شيء.

أما ما جاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه من مخاطبته النبي صلى ﷺ بعد موته، فإن الرواية التي فيها: (اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك)، لا تصح لأنها تذكر من غير إسناد، وفيها قرائن تدل على أن ذلك ليس من قول الصديق رضي الله عنه.

قال الشيخ محمد بشير السهسواني - مبيّناً ذلك - : (بقي قوله رضي الله عنه «اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك»، فإن فيه نداء مع الطلب من الميت، وهو غير جائز عندنا. والجواب هو الكلام في ثبوت هذا اللفظ، فإني لا أعلم أحدا رواه بسند صحيح أو حسن خال من

(١) لسان الميزان ٥/ ١٣.

(٢) رواه البخاري في المغازي - باب مرض النبي ﷺ ووفاته - رقم ٤٤٦٢، والنسائي في الجنائز - باب في البكاء على الميت - رقم ١٨٤٤، وابن ماجه في الجنائز - باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ - رقم ١٦٣٠.

العلة، إنما ذكره صاحب المواهب بغير سند، وعبارته هكذا : وقال ابن المنير : لما مات ﷺ طاشت العقول، فمنهم من خبل، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام، ومنهم من أضنى، وكان عمر ممن خبل، وكان عثمان ممن أخرس، يذهب ويجيء ولا يستطيع كلاما، وكان علي ممن أقعد فلم يستطع حراكا، وأضنى عبدالله ابن أنيس فمات كمدا، وكان أثبتهم أبو بكر، جاء وعيناه تهملان، وزفراته تتردد، وغصصه تتصاعد وترتفع، ودخل على النبي ﷺ فأكب عليه، وكشف الثوب عن وجهه، وقال : طبت حيا وميتا، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء قبلك، فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختيارا لجدنا لموتك بالنفوس، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك.

هكذا ذكره صاحب المواهب بلا سند، ولم يتعرض شارحه محمد ابن عبدالباقي الزرقاني أيضا لسنده، بل هناك قرينة تدل على أنه ليس من كلام الصديق رضي الله عنه ، وهي أن الله تعالى حرم على الأمة نداءه باسمه، قال تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، أي لا تجعلوا دعاءه وتسميته كنداء بعضكم بعضا باسمه، ورفع الصوت به، والنداء به من وراء الحجرات، ولكن قولوا : يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، فكيف يقول أفضل الأمة بعد الرسول ﷺ «يا محمد» ؟)[1].

فهذه اللفظة ليست ثابتة عنه رضي الله عنه .

---

(١) صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ص ٣٩٠.

أما أصل القصة وأنه رضي الله عنه كشف عن وجه النبي ﷺ وأثنى عليه بما هو أهله دون أن يكون منه طلب له، فهذا ثابت في الصحيح.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيمم النبي ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة[١]، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى فقال: بأبي أنت يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها[٢].

فهذه هو ما ثبت عنه رضي الله عنه، فلم يناده باسمه، ولم يسأله ويطلبه.

أما تضمن هذه الرواية للنداء فيأتي الكلام عليه في الوجه الثاني بأنه من باب الندبة.

أما مرثية صفية رضي الله عنها عمة النبي ﷺ، فقد رواها الطبراني في الكبير[٣] بإسناد حسنه الهيثمي - كما في مجمع الزوائد -[٤].

قلت: في إسناده ابن لهيعة، وهو متكلم فيه.

قال الذهبي في الميزان: (قال ابن معين: ضعيف لا يحتج به.

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية ١/ ٣٢٨: وبرد حبرة - بوزن عنبة - على الوصف والإضافة، وهو برد يمانٍ.

(٢) رواه البخاري في الجنائز - باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه - رقم ١٢٤٢، والنسائي في الجنائز - باب تقبيل الميت - رقم ١٨٤١، وابن ماجه في الجنائز - باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ - رقم ١٦٢٧.

(٣) المعجم الكبير ٢٤/ ٣٢٠.

(٤) مجمع الزوائد ٩/ ٣٩.

الحميدي عن يحيى بن سعيد أنه كان لا يراه شيئا.

نعيم بن حماد : سمعت ابن مهدي يقول ما اعتد بشيء سمعته من حديث ابن لهيعة إلا سماع ابن المبارك ونحوه.

ابن المديني عن ابن مهدي قال : لا أحمل عن ابن لهيعة شيئا)[١].

وفيه - أي في إسناده - الانقطاع بين عروة رحمه الله وجدّته صفية رضي الله عنها ؛ حيث إنه لم يدركها، بل إنه ما حدث عن أبيه إلا شيئاً يسيراً لصغر سنه، فكيف بجدته التي كانت وفاتها قبل ولادته ؟[٢]

وعلى كلٍّ، فالرواية - أيضا - ليست من الاستغاثة في شيء كما سيأتي بيانه.

أما ما جاء بأن شعار المسلمين يوم اليمامة : وامحمداه.

فقد رواه الطبري رحمه الله في تاريخه، قال: (كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن الضحاك بن يربوع عن أبيه عن رجل من بني سحيم قد شهدها - أي وقعة اليمامة - ...) وذكر القصة، وفيها : (وكان شعارهم يومئذ : يا محمداه ..)[٣].

وهذا إسناد واه جدا لا يحتج به في أقل المسائل، فكيف بما يتعلق بأصل الرسالة، وهو توحيد الله تعالى.

---

(١) ميزان الاعتدال ٤/ ١٦٧.

(٢) فوفاة صفية رضي الله عنها سنة عشرين للهجرة - كما في الاستيعاب لابن عبدالبر ٤/ ٤٢٨ - وولادة عروة كانت سنة ثلاث وعشرين، وهذا أدنى ما ذكر حيث قيل بعد ذلك. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٤٢٢.

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٢٨٢.

فسيف بن عمر قد مر ما فيه من تضعيف أهل العلم له[١].

والضحاك بن يربوع، قال فيه الأزدي: حديثه ليس بقائم. ذكره الذهبي في الميزان[٢].

وأبوه لم أقف له على ترجمة، وقد ذكر القصة عن رجل مجهول لم يسم.

فإسناد القصة - كما ترى - مظلم، لا يحتج به في أدنى المسائل.

على أنه لو صح لم يكن بمعنى الطلب والاستغاثة، إذ أن العدو جعل مع محمد ﷺ غيره في رتبته، فقالوا - أي أصحاب مسيلمة - : منا نبي ومنكم نبي، فقام القتال على أن لا نبي بعد محمد ﷺ.

أما ما روي عن عمر رضي الله عنه من ندبه النبي ﷺ بعد وفاته، فقد ذكرها القاضي عياض في الشفاء بصيغة التمريض ولم يذكر لها إسناداً[٣].

فهي ليست محل احتجاج ولا استشهاد.

وقد أشار الشيخ محمد بشير السهسواني إلى ذلك، فقال: (فعلى من يحتج به ذكر سنده، وتوثيق رجاله، وبيان أنه خال من جميع العلل القادحة في التصحيح والتحسين، ودونه خرط القتاد. على أن هذا من الرثاء المشروع، والتحزن والتوجع المباح، كما في قول فاطمة والصديق رضي الله عنهما)[٤].

---

(١) انظر ص ٤٢١-٤٢٢.

(٢) ميزان الاعتدال ٢/ ٢٤٨.

(٣) الشفا ١/ ٤٨.

(٤) صيانة الانسان ٣٩٢.

• **الوجه الثاني:**

أن ما ذكروه هنا من نداءات ليس مما نحن فيه ؛ إذ أن جملة ما ذكروه وما قد يذكرونه مما هو مشابه له إنما هو ندبة، كما في الأمثلة السابقة التي ذكروها. والندبة لا يراد بها سؤالا ولا طلبا، بل هي للتوجع والتأسف عليه، وحسن الثناء على المندوب[١].

والكلام هنا هو في النداء المتضمن دعاء وطلبا، كطلب غفران الذنوب أو كشف الضر أو إعطاء الولد ونحو ذلك، هل يصرف للنبي ﷺ بعد موته ؟

وإلا فمن المعلوم أن لغة العرب تشتمل على نداءات لا تتضمن ذلك، وليس الكلام فيها هنا، وأمثلة ذلك لا تحصى كثرة.

ومن ذلك مخاطبة النبي ﷺ لابنه إبراهيم حال نزعه : **(إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)**[٢].

ومنه مخاطبة صالح عليه الصلاة والسلام قومه بعد هلاكهم : ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩].

ومثل ذلك مناداة شعيب عليه الصلاة والسلام قومه.

ومن ذلك قول المصلي في التشهد : (السلام عليك أيها النبي

---

(١) انظر: لسان العرب ١/ ٧٥٤.

(٢) رواه البخاري في الجنائز - باب قول النبي ﷺ «إنا بك لمحزونون» - رقم ١٣٠٣، ومسلم في الفضائل - باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال - رقم ٢٣١٥.

ورحمة الله وبركاته)[١]، فلا أحد يقول: إن النبي ﷺ حاضر مع كل مصل يسمع منه ذلك، ولكن ذلك لتمام الاتباع في أمر الصلاة التي قال فيها عليه الصلاة والسلام: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[٢]، وكذلك فيه استحضار المنادى بالقلب، فصار كمن يخاطبه شاهدا حاضرا في قلبه، مع أنه ليس في ذلك كله طلب ولا استغاثة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقوله يا محمد يا نبي الله، هذا وأمثاله نداء يطلب به استحضار المنادى في القلب فيخاطب المشهود بالقلب كما يقول المصلي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والإنسان يفعل مثل هذا كثيرا، يخاطب من يتصوره في نفسه، وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب)[٣].

بل إنه قد ينادى الجماد الذي لا يسمع ولا يعي، ويكون المراد إما إظهار ذكر، أو إسماع حاضر أو نحو ذلك.

ومن ذلك قول النبي ﷺ إذا رأى الهلال: (**اللهم أهلله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله**)[٤].

وكان عليه الصلاة والسلام إذا سافر فأقبل الليل قال: (**يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك،**

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الأذان - باب التشهد في الآخرة - رقم ٨٣١، ومسلم - كتاب اللاة - باب التشهد في الصلاة - رقم ٤٠٢ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري في الأذان - باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة.. - رقم ٦٣١.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤١٦.
(٤) رواه الترمذي في الدعوات - باب ما يقول إذا رأى الهلال - رقم ٣٤٥١، وأحمد في المسند ١/ ١٦٢، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣١٧.

وشر ما يدب عليك، أعوذ بكَ من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد)[١].

والنصوص في هذا الباب كثيرة.

ولكن المبتدعة جعلوها حُجة في الاستغاثة بالأموات، وطلب الحاجات منهم.

وقد ظن هؤلاء أن أهل السُنة أنكروا عليهم دعاء الأموات والاستغاثة بهم على اعتبار النداء فقط دون مضمونه وحقيقته، فجمعوا لهم تلك النصوص معتقدين أنها الحجة التي تقصم ظهور من أنكر عليهم.

وما ذاك في حقيقته سوى تشغيب وتلبيس، وخلط للمعاني دون تمييز، وإخراج الكلام عن دائرة المراد منه.

الشبهة السابعة:

قياسهم واسطة الرسل في قضاء الحاجات على كونهم واسطة بين الله تعالى وخلقه في تبليغ الرسالة.

وفي ذلك يقول النبهاني: (وقد عظم الله تعالى أنبياءه وأصفياءه، فعظمناهم لأجله، فالتعظيم في الحقيقة راجع إليه سبحانه، وقد جعلهم الله تعالى وسائط لنا في تبليغ شرائع دينه، فوسطناهم له عز وجل لقضاء حوائجنا، تبعا له في توسيطهم لنا في تبليغ شرائعه)[٢].

---

(١) راه أبو داود في الجهاد - باب ما يقول الرجل إذا نزل المنزل - رقم ٢٦٠٣، وأحمد في المسند ٢/ ١٣٢، والنسائي في عمل اليوم والليلة - رقم ٥٣٦.

(٢) شواهد الحق ص ٦٦.

والجواب:

أن النظر في مثل هذا الكلام كاف في معرفة عظيم ما فيه من جهل، وضعف ما فيه من حجة.

فكيف تترك النصوص الصريحة البيّنة في وجوب إخلاص الدعاء لله تعالى وحده، وأن من دعا مخلوقا نبيا أو غيره فقد أشرك مع الله تعالى غيره، إلى هذه القياسات التي لا يعرف أصلها من فرعها؟!

وهل وقع الناس في الشرك، وحسنه الشيطان إليهم إلا من باب القياسات الباطلة التي ما أنزل الله تعالى من سلطان؟!

والله تعالى لم يجعل مورد التوحيد والشرك قياسات الناس وأهواءهم، بل بين ذلك على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام أوضح البيان وأجلاه.

والله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وما أحسن قوله تعالى: (ما لم ينزل به سلطانا)، لئلا يحتج بالمقاييس والحكايات)[١].

فما ذكروه هنا من قياس الواسطة في قضاء الحوائج على الواسطة في التبليغ ما هو إلا من جنس استدلالات المشركين التي احتجوا بها على شركهم كأنهم ينبئون الله تعالى بما لا يعلم، كما أخبر الله تعالى

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٢٠٢.

عنهم : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام سديد في هذا المعنى، إذ قال: (وإن أراد بالواسطة: أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم، يسألونه ذلك ويرجعون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار، لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها حق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧]، وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]، وقالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة، فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر، فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنب وهداية القلوب وتفريج الكروب وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين)[١].

ثم إن الأولى بهذا القياس الذي ذكروه أن يكون من باب تشبيه الخالق عز وجل بالمخلوق؛ إذ أن الملوك والسلاطين هم الذين يجعلون بينهم وبين الناس وسائط في مطالبهم.

فهؤلاء نظروا إلى هذه الحال في شأن ملوك الدنيا وسلاطينهم، فظنوا أن الشأن بملك الملوك سبحانه وتعالى لا بد أن يكون كذلك، وما علموا أن الله تعالى باسط يديه لكل سائل، فاتح أبواب رحمته لكل ملهوف وعائل، عز جاهه وجل ثناؤه، ما أرحمه وأحلمه وأكرمه!

الشبهة الثامنة:

عدم التفريق بين حياته ومماته ﷺ في الاستغاثة به، فهو لم ينقص قدره عند ربه بعد موته فتنقطع الاستغاثة به[٢].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/ ١٢٣.

(٢) الدرر السنية لدحلان ص ١٣- ١٤، شواهد الحق ص ١٥٩، مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص ١٨٧، التبرك للأحمدي ص ١٧٤. وانظر: الاستغاثة لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٣٦٧، ٣٨٨.

وهذه الشبهة وإن كانت قريبة جدا من الشبهة الثانية، ولكن ما أشير إليه هنا هو جعلهم الموت ليس فارقا بين الأمرين - أعني جواز الاستغاثة من عدمها -.

وهذا هو ما حملهم على جعل الأدلة على الاستغاثة به في حياته دليلا على جواز ذلك بعد موته ؛ إذ أن مناط الشرك عندهم هو اعتقاد الخالقية في المستغاث به.

يقول صاحب كتاب «التوحيد والشرك في القرآن» : (وستعرف أنه لا دخالة لحياة المستغاث منه ومماته في تحديد الشرك أو التوحيد مطلقا، لأن الاستمداد والاستغاثة بالحي مع الاعتقاد باستقلاله في القدرة والتأثير، وأصالته في إغاثة المستغيث يوجب الشرك، وكون الاستغاثة بالحي أمرا رائجا بين العقلاء لا يوجب صحتها إذا كانت مقرونة مع الاعتقاد باستقلال المستغاث في الإغاثة، لأن الدارج بين العقلاء هو : أصل الاستغاثة بالحي لا باعتباره مستقلا في العمل)[1].

والجواب :

أن الأدلة الشرعية والعقلية والمنقول عن سلف الأُمة يعارض ما ذهبوا إليه هنا.

فالميت تتغير في حقه أحكام كثيرة في الشرع، كتحول أملاكه إلى ورثته، وحل أزواجه لغيره، وعدم وجوب زيارته، والإنفاق عليه، كما

(١) التوحيد والشرك في القرآن الكريم، لجعفر السبحاني ص ١٣٥.

أنه ينقطع عمله إلا من ثلاث - كما جاءت السُنة بذلك -[١]، إلى غير ذلك مما فيه الدلالة الواضحة على وقوع الاختلاف في الأحكام المتعلقة بالمرء بين حالتي الحياة والموت، وتطلّب البرهان في هذا الأمر كتطلب الدليل على النهار وشمس الضحى تملأ الأرض.

إذا تقرر هذا - أعني وقوع الاختلاف في أحكام الشرع بين حالتي الموت والحياة -، فإنا ننظر بعده في مسألة الاستغاثة، هل هي مما يتغير حكمها بين الحياة والموت أم لا ؟

والناظر في أدلة الشرع يدرك يقينا أن دعاء الأنبياء والصالحين في قبورهم هو ما جاءت الرسالات بمحاربته والتحذير منه، وليس في ذلك من تنقص من جنابهم، بل هو ما يرضونه ويحبونه من المكانة التي أعطاهم الله تعالى، أنهم عباد الله ورسله، لم يدعوا الناس إلى سؤالهم والاستغاثة بهم، بل حالهم وما يدعون إليه كما قال تعالى في شأن نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقد تقدم من النصوص ما فيه الدلالة على هذا المعنى مما يغني عن تكراره[٢].

ولعل من أوضح ما يبين الفارق هنا : أن الصلاة مع الأنبياء عليهم

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الوصية - باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته - رقم ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا - باب ما جاء في الصدقة عن الميت - رقم ٢٨٨٠، والترمذي في الأحكام - باب في الوقف - رقم ١٣٧٦، والنسائي في الوصاا - باب فضل الصدقة عن الميت - رقم ٣٦٥١.

(٢) انظر ص ٣٨٤.

الصلاة والسلام في مساجدهم، والصلاة معهم في الأماكن التي ينزلونها هو من أفضل القرب، بينما الصلاة عند قبورهم واتخاذها مساجد من أعظم المنهيات التي شددوا فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في توضيح هذا المعنى : (لكن في مسألتهم - أي الأنبياء في قبورهم - أنوا ع من المفاسد، منها إيذاؤهم له بالسؤال، ومنها إفضاء ذلك إلى الشرك وهذه المفسدة توجد معه بعد الموت دون الحياة، فإن أحدا من الأنبياء و الصالحين لم يعبد في حياته ؛ إذ هو ينهى عن ذلك، وأما بعد الموت فهو لا ينهى، فيفضي ذلك إلى اتخاذ قبره وثنا يعبد، ولهذا قال النبي ﷺ : (لا تتخذوا قبري عيدا)، وقال : (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد)، وقال غير واحد من السلف في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]: إن هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، ولهذا المعنى لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور الأنبياء و الصالحين مساجد، و أما النبي أو الصالح إذا بنى له مسجدا في حياته يصلى فيه معه فهذا من أفضل الأعمال فحكم الحياة يفارق حكم الممات، وذلك كما جاءت السنة بذلك)[١].

أما العقل فدلالته أوضح ما تكون، فالفارق قائم لدى كل صاحب عقل بين الطلب من الحي الماثل أمام سائله، وبين الميت الذي يحجبه عنه قبره وهو يعيش حياته البرزخية التي أنشأها له ربه تبارك وتعالى.

---

(١) الاستغاثة ١/ ٣٤٣.

ولذلك لم يعهد عن العرب أنهم جادلوا النبي ﷺ لشركهم باستغاثة الناس بعضهم ببعض، واستعانة بعضهم ببعض، والعهد بهم أنهم لا يتركون صغيرة ولا كبيرة يرون فيها مأخذا لهم إلا وحاجوا بها.

وما ذاك إلا لما استقر في العقول من الفارق بين سؤال الميت وسؤال الحي الحاضر ما يقدر عليه.

أما المنقول عن سلف هذه الأُمة وهم الصحابة الأبرار فهو أوضح من الشمس في ضحاها، حيث إنهم كانوا يأتون إليه ﷺ في حياته ويطلبونه أن يدعو لهم ويستغفر لهم، وإذا اشتد بهم البأس استغاثوا به ؛ إذ أنه أرحم بأُمته وأرأف من أي مخلوق.

فما الذي جعل ذلك ينقطع منهم بعد وفاته ؟

فهل اعتقدوا أن رأفته ورحمته بأُمته زالت بعد موته ؟ كلا، وحاشاهم رضوان الله عليهم.

ولكنهم علموا - وهم أصفى الناس أذهانا، وأوسعهم أفهاما، وأعلمهم بمقاصد ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ - أن ذلك مما حذر منه ونهى عنه، بل وشدد في النهي، وأن ذلك يناقض لب دعوته، وأساس رسالته.

فرضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

إذاً، فجعل المبتدعة التساوي بين حالتي الموت والحياة فيما يتعلق بالاستغاثة أمرا مستقرا في الأذهان ما هو إلا مكابرة على أوضح الحجج والدلالات.

يقول الشيخ عبدالله أبو بطين رحمه الله : (فمن سوى بين الحي والميت، بقوله : يطلب من الميت ما يطلب من الحي. فقد سوى بين ما فرق الله والناس بينهما، حتى المجانين يعرفون الفرق بين الحي والميت)(١).

الشبهة التاسعة :

استدلالهم بحياة النبي ﷺ في قبره ؛ حيث إنه أفضل من الشهداء وأعلى منزلة منهم، وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فهو ﷺ حي من باب أولى.

وما دام الأمر كذلك فما المانع أن يُسأل ويُطلب ويستغاث به ؟(٢)

والجواب على ذلك متعلق بجانبين :

الجانب الأول : على معنى الحياة التي للأنبياء في قبورهم، والجواب على أدلة من يراها حياة حقيقية كما كان في الدنيا.

الجانب الثاني : على ما يترتب على ذلك المعنى في موضوع الاستغاثة.

أما الجانب الأول : فحياة النبي ﷺ في قبرة هي حياة أكمل من

---

(١) تأسيس التقديس ص ٨٢.

(٢) شفاء السقام للسبكي ص ٣٢١، مصباح الأنام لعلوي الحداد ص ٢٦، المنحة الوهبية لداود بن جرجيس ص ٣، ٢٥، شواهد الحق للنبهاني ١٤١، ١٦١، مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص ١٧٣،١٥٥. وانظر: الصراع بين الإسلام والوثنية ٢/ ٣٢٨،٤٩٠.

حياة الشهداء في قبورهم، وهو منعم بفضل ربه ورحمته في تلك الحياة.

ولكن هي ليست كحياته كما كان في الدنيا فوق الأرض، بل هي حياة برزخية لحق فيها بالرفيق الأعلى.

فإن كان المبتدعة مقرون بهذا المعنى، وأنها ليست كحياته الدنيوية، فلا وجه لاستدلالهم هنا.

أما إن قالوا : بل هي حياة كالحياة الدنيوية، وعليه فيجوز أن يُطلب كما كان يُطلب في الدنيا، فقد خالفوا بذلك صريح المنقول والمعقول.

ولقد أجاد الإمام ابن القيم رحمه الله في تحرير هذه المسألة في نونيته، والرد على من خالف فيها.

وأرى من المناسب أن أنقل مجمل كلامه فيها ؛ ليكون في ذلك جوابا كافيا - بإذن الله تعالى - على مزاعم المبتدعة في هذه المسألة.

فقد ذكر رحمه الله بعض الإيرادات التي ترد على القول بحياة النبي ﷺ في قبره كحياته الدنيوية، وهي :

١- لو كان حيا حياة دنيوية فلماذا كان تحت الأرض، إذ سنة الرحمن سبحانه أن يكون من هو حي في الدنيا أن يعيش فوقها ؟

٢- لماذا لا يفتي أمته ويفصل بينهم في المسائل التي اختلفوا فيها ؛ إذ أن ذلك هو دأبه لما كان بين ظهرانيهم.

٣- لـمَ لم يأته الصحابة رضوان الله عليهم أو من جاء بعدهم يشكون

إليه بأس من اعتدى عليهم.

٤- لماذا لم يكونوا ياتونه فيسألونه عما أشكل عليهم من المسائل ؟

٥- قد ورد في القرآن أنه ميت، كما قال تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٠].

٦- هل يموت عند نفخ الصور ؛ إذ أنه لا يبقى عند ذلك حي في الأرض، فإن كان كذلك فيكون في حقه ثلاث موتات، أما بقية الناس موتتان.

٧- لماذا لم يكن الصحابة يقصدون قبره عند الجدب ليدعو لهم، وقد كان ذلك دأبهم في حياته ﷺ.

ثم ذكر بعد ذلك ما احتج به المبتدعة على حياة النبي ﷺ في قبره، مجيبا عن كل ذلك.

فذكر أولا احتجاجهم بقياس ذلك على الشهيد، إذ أنه قد جاء في القرآن أنه حي، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٤]، والرسل من باب أولى أن يكونوا كذلك.

وأجاب عن ذلك بصحة القياس، ولكن من قال إن حياة الشهيد هي حياة دنيوية ؟ بل هي حياة أكمل من الحياة التي كان يعيشها في الدنيا، وليس من لازم ذلك أن تكون حياة دنيوية ليسمى بها حيا.

ثم إن كلامكم هذا مردود بأن الشهيد لا تبقى له أحكامه الدنيوية من مال وزوجات، فماله مقسم على ورثته، ونساؤه يباح لهن الزواج من غيره.

وكذلك فإن الأرض تأكل جسده ؛ إذ لم يرد النص بتخصيصهم بذلك، بل ذلك من خصائص الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإن كان قد يقع لبعض المؤمنين.

وذكر استدلالهم بأن النبي ﷺ لم يبح لأحد تزوج نسائه بعده.

وأجاب عن ذلك بأن هذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام، ولا دليل فيه على أن حياته حياة دنيوية، إذ أن نساءه ﷺ في الدنيا هن نساؤه في الأخرة، ولذلك أخبرن بذلك وخيرن بين الرسول ﷺ وغيره فاخترن الرسول ﷺ، وذلك لصحة إيمانهن.

ومع ذلك فهن قد أتين بعدة شرعية، مما يدل على ما ستقر أنه ﷺ انتقل إلى الدار الآخرة.

ثم ذكر استدلالهم بأنه ﷺ رأى موسى ﷺ يصلى في قبره ليلة الإسراء، كما جاء في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (**مررت على موسى وهو يصلي في قبره**)[١].

فقالوا إن الصلاة لا تكون إلا من حي حياة دنيوية.

وأجاب : بأن هذا ليس بلازم للحياة الدنيوية، وكذلك استدل بأن هذا ليس مختصا به، واستدل بالحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (**إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه وكان الصيام عن يمينه وكانت الزكاة عن شماله وكان**

(١) تقدم تخريجه ص ٤٢٣، الحاشية (٢).

فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قبلي مدخل. ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام : ما قبلي مدخل. ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل. ثم يؤتي من قبل رجليه فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس : ما قبلي مدخل، فيقال له : اجلس فيجلس وقد مثلت له الشمس وقد أدنيت للغروب، فيقال له : أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول : دعوني حتى أصلي، فيقولون : إنك ستفعل ..) الحديث[1].

وهذا ليس فيه ما يدل على أن الميت إذا مكن من الصلاة في قبره أن يكون حيا حياة دنيوية.

ثم ذكر استدلالهم برد النبي ﷺ لسلام من يسلم عليه، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام)[2].

وأجاب على ذلك بأن ذلك ليس بلازم للحياة الدنيوية، ولقد ورد

---

(١) رواه ابن حبان (الإحسان) في كتاب الجنائز - فصل في أحوال الميت في قبره - رقم ٣١١٣. وقال محققه شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.
ورواه عبدالرزاق في الامصنف - رقم ٦٧٠٣، وابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ٢٥٨، وابن جرير في تفسيره - تفسير قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، والحاكم في المستدرك ١/ ٣٧٩-٣٨١ وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الاعتقاد - باب الإيمان بعذاب القبر ص ١٧٨-١٧٩.
(٢) رواه أبو داود في المناسك - باب زيارة القبور - رقم ٢٠٤١، وأحمد ٢/ ٥٢٧.

أن ذلك يكون للمؤمنين، كما روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (**ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام**)(١).

ثم ذكر استدلالهم بحديث: (الأنبياء أحياء في قبورهم)(٢).

وأجاب عن ذلك بضعف الحديث فلا يستدل به.

قلت: وهو إن كان صحيحا لا يدل على مرادهم، فالحياة التي هم فيها ليست حياة دنيوية، بل أكمل وأجل. وليس من لازم إثبات أنهم أحياء في قبورهم أن تكون الحياة هي هي التي كانوا قبل الموت فيها.

ثم ذكر استدلالهم بحديث عرض الأعمال عليه، كما جاء في الحديث: (**حياتي خير لكم، تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم**)(٣).

وأجاب بأنه إن صح الحديث فهذا ليس مختصا به، فقد جاء بأن

---

(١) رواه ابن عبدالبر في الاستذكار ٢/ ١٦٥، وصححه عبدالحق الإشبيلي في الأحكام الشرعية الصغرى ١/ ٣٤٥.
وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٦/ ١٣٧.

(٢) رواه البزار (كشف الأستار للهيثمي - كتاب علامات النبوة، باب ذكر من تقدم من الأنبياء صلى الله عليهم وسلم - رقم ٢٣٤٠)، وابن عدي في الكامل (ترجمة الحسن بن قتيبة المدائني) ٢/ ٧٣٩، والبيهقي في حياة الأنبياء في قبورهم - رقم ١ عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٦٢١.

(٣) رواه البزار (كشف الأستار للهيثمي - كتاب الجنائز - باب ما يحصل لأمته ﷺ منه في حياته وبعد وفاته - رقم ٨٤٥) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٤: =

المرء قد تعرض عليه أعمال أقاربه، فإن كان سعيا صالحا فرحوا به، وإن رأوا سوءا قالوا : اللهم راجع بعبدك.

قلت : يشير بذلك إلى بعض الروايات الواردة في ذلك، وهي دالة على أن عرض العمل على صاحب القبر ليس دليلا أنه حي كحياته الدنيوية.

ومن تلك الروايات الواردة في ذلك ما جاء عند ابن المبارك في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري قال : (إذا قبضت نفس العبد تلقاه أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشير في الدنيا فيقبلون عليه ليسألوه، فيقول بعضهم لبعض : أنظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب، فيقبلون عليه فيسألونه : ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة هل تزوجت؟ فإذا سألوا عن الرجل قد مات قبله قال لهم إنه قد هلك فيقولون إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية. قال : فيعرض عليه أعمالهم فإذا رأوا حسنا فرحوا واستبشروا وقالوا هذه نعمتك على عبدك فأتمها وإن رأوا سوء قالوا اللهم راجع بعبدك)[1].

= (رواه البزار ورجاله رجال الصحيح). لكن قال العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ١٤٨ : (ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبدالمجيد بن أبي رواد وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين فقد ضعفه كثيرون). وأورده الألباني في السلسلة الضعيفة برقم ٩٧٥.

(١) الزهد لابن المبارك - رقم ٤٤٣. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٧٥٨.

هذا مجمل ما ذكره الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة في نونيته، وقد أقام فيه الحجة على بطلان ما يدعيه المبتدعة من حياة النبي ﷺ في قبره حياة كحياته الدنيوية، والتي كان منهم من بنى عليها جواز سؤاله والاستغاثة به في قبره[1].

وأما الجانب الثاني، وهو ما يترتب على معنى تلك الحياة:

فبعد أن تقرر معنى تلك الحياة التي يعيشها النبي ﷺ عند ربه، وأنها ليست كحياته الدنيوية كما كان فوق الأرض فلا يشرع أن يؤتى إليه ويسأل ويستغاث به؛ إذ أن ذلك من أشد ما نهى عنه، وحذر أُمته منه.

وقد تقدم من دلائل ذلك ما فيه هدى وكفاية بإذن الله تعالى.

الشبهة العاشرة:

استدلالهم بالقصص التي يكون فيها انتفاع من يأتي إلى قبره ﷺ ويستغيث به ﷺ.

ويذكرون من ذلك قصصا كثيرة، ويجعلونها من أوضح الأدلة على مشروعية الاستغاثة به، وأنها من أعظم القرب، بل وأنها سبب لقضاء الحاجات لا تتخلف عنه.

يقول النبهاني: (وقد صار من المجربات أن من استغاث به ﷺ إلى الله بإخلاص وصدق التجاء تقضى حاجته مهما كانت، ولم يحصل التخلف لأحد إلا من ضعف اليقين، وحصول التردد، وعدم صدق

---

(١) انظر النونية بشرح ابن عيسى ٢/ ١٥٤-١٨٠.

الالتجاء)[١].

وقد جمع النبهاني في كتابه «حُجة الله على العالمين»، وكذلك كتابه «شواهد الحق» حكايات كثيرة في ذلك، وقد نقلها من كتاب «مصباح الظلام فيمن استغاث في المستغيثين بخير الأنام في اليقظة والمنام» لأبي عبدالله النعمان محمد بن موسى الفاسي، و «المواهب اللدنية» للقسطلاني، وزاد عليهما[٢].

وإن استعراض طائفة من تلك الحكايات لأمر يطول به المقام، فكيف بها مجتمعة؟ ولكن سيأتي أن العبرة فيما ترك النبي ﷺ الأُمة عليه من دين بيّن قد أكمله الله تعالى بأبلغ بيان وأسد حُجة، وليست في مثل تلك القصص والحكايات التي لا تعرف لكثير منها خطاما ولا زماما.

والجواب على تلك الحكايات من وجوه:

● **الوجه الأول:**

أن النبي ﷺ قد ترك الأُمة على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وكان مما تركها عليه أنه ﷺ قد نهى أن يتخذ قبره عيدا، وأنه قد لعن الذين يتخذون قبور الأنبياء مساجد، وقد تقدم من النصوص ما يدل على ذلك أوضح الدلالة[٣].

ولو تطابق الناس على قبره ﷺ يدعون ويرجون ويستغيثون لكانت

---

(١) حجة الله على العالمين ص ٨١٤

(٢) انظر: «شواهد الحق» للنبهاني ص ٢٩٩ و «حُجة الله على العالمين» له ص٧٦٧

(٣) انظر ص ٣٨٤.

تلك الحال لدى كل من له فهم لنصوص الوحيين هي من ذلك الذي نهى عنه عليه الصلاة والسلام، وغلّظ فيه.

ولئن قال من قال: إنها ليست من ذلك في شيء. فليأت إذاً بمعنى تقبله العقول، وتستوعبه الأذهان لذلك الذي نهى عنه نبي الرحمة ﷺ.

ولن يجد في ذلك إلا أن يجعله ألفاظا منزوعة المعاني، وهذا أمر لا يرضى لأدنى البلغاء، فكيف بمن أوتي جوامع الكلم وأنزل عليه أحسن الكلام.

إذا عرف هذا، فالخير كل الخير في الوقوف مع تلك النصوص البينات، علماً وعملا؛ إذ أن ذلك هو ما كلف الله تعالى به عباده، وما يرضاه سبحانه وتعالى عنهم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

● **الوجه الثاني:**

أن وقوع مطلوب المستغيث به عند قبره ليس دليلا على مشروعية ذلك الفعل، وإن هذا ليقع عند قبر من هو دون النبي ﷺ.

وإن حصول المطلوب قد يقع بأسباب كثيرة - كحال الاضطرار أو نحوه - فتقارن ذلك الفعل، فيغتر المرء به فيحسب أن فعله ذلك هو السبب في حصول مطلوبه.

ثم هب أن ذلك هو السبب، فهل كل سبب يتحصل به المرء على مرغوباته في الدنيا يعتبر سببا مشروعا؟

فالأسباب الكونية التي جعلها الله تعالى ليس كلها يكون مشروعا

محبوبا لله تعالى، بل قد يكون منها ما يقع بها المطلوب، لكنها مبغوضة لله تعالى.

ألا ترى أن المال قد يزيد بالسرقة أو بالربا أو بالقمار أو بالغش ونحو ذلك.

فهل يعني ذلك أنها أسباب يستدل بوقوع المطلوب المرغوب فيه بها على أنها مشروعة؟

ألا ترى أن الكافر قد يزداد في كفره فإذا الدنيا تفتح له أبواب كنوزها، فيجمع منها ما تنوء مفاتحه بالعصبة أولي القوة.

أيصح أن يستدل بهذا العطاء على صحة حاله، وحسن أعماله؟

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه)**[1].

فعطاء الدنيا، وتحقق المطالب فيها ليس هو أمارة الرضى من الله تعالى، ولكن رضاه سبحانه وتعالى في اتباع شرعه الذي أنزله على نبيه ﷺ نورا وهدى للناس.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان هذا المعنى: (وأما إجابة الدعاء فقد يكون سببه اضطرار الداعي وصدق التجائه، وقد

(١) رواه أحمد في المسند ١/ ٣٧٨، والحاكم في المستدرك ١/ ٨٨ وصححه ووافقه الذهبي.

يكون سببه مجرد رحمة الله له، وقد يكون أمرا قضاه الله لا لأجل دعائه، وقد يكون له أسباب أخرى، وإن كانت فتنة في حق الداعي، فإنا نعلم أن الكفار قد يستجاب لهم فيسقون وينصرون ويعافون ويرزقون مع دعائهم عند أوثانهم وتوسلهم بها، وقد قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦]، وأسباب المقدورات فيها أمور يطول تعدادها ليس هذا موضع تفصيلها، وإنما على الخلق اتباع ما بعث الله به المرسلين والعلم بأن فيه خير الدنيا والآخرة)[١].

ويقول - أيضا - : (ليس كل من قضيت حاجته لسبب يقتضي أن يكون السبب مشروعا مأمورا به، فقد كان ﷺ يُسأل في حياته المسألة فيعطيها لا يرد سائلا وتكون المسألة محرمة في حق السائل حتى قال: (**إني لأعطي أحدهم العطية فيخرج بها يتأبطها نارا**)، قالوا: يا رسول الله فلم تعطيهم؟ قال: (**يأبون إلا أن يسألوني، ويأبى الله لي البخل**)، وقد يعمل الرجل العمل الذي يعتقده صالحا ولا يكون عالما أنه منهي عنه فيثاب على حسن قصده ويعفى عنه لعدم علمه وهذا باب واسع)[٢].

ويقول الإمام الشوكاني رحمه الله: (السُنة لا تثبت بمجرد التجربة، ولا يخرج الفاعل للشيء معتقداً أنه سُنة عن كونه مبتدعا، وقبول الدعاء لا يدل على أن سبب القبول ثابت عن رسول الله ﷺ، فقد يجيب الله

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ١٦٧-١٦٨.
(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٩٠.

الدعاء من غير توسل بسنة، وهو أرحم الراحمين، وقد تكون الاستجابة استدراجا)[1].

والحاصل أن كل أمر إنما تعرف مشروعيته حين يعرض على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، فإن وافقهما كان مشروعا، وإن خالفهما فهو المردود الممنوع وإن حصل لصاحبه به ما حصل.

فالشأن بهذه القصص التي يروونها أن يعمل بها ذلك، ثم بعده يتكلم في مشروعيتها من عدمه.

● **الوجه الثالث:**

وهو ما تكرر مرارا أن أصحاب النبي ﷺ هم أعرف الناس بمعاني ما أنزل الله تعالى على رسوله، وأحرصهم على اتباع الصراط المستقيم.

وإن الناظر لتلك القصص التي يرويها المبتدعة في هذا الشأن لا يجد فيها المروي الصحيح عن الصحابة رضوان الله عليهم، بل ولا عن أحد من سلف الأمة الأبرار المعروفين بإمامتهم في الدين.

وإن في هذا لهدى وبياناً لمن أراد سلوك الهدى الذي كان عليه صحابة نبينا ﷺ رضوان الله عليهم، مخالفاً لما هو عليه أصحاب تلك القصص والحكايات التي قد تبلغ بأصحابها إلى ادعاء أن النبي ﷺ قد خرج إليهم، وجلس معهم، وحادثهم، أو أخرج يده إليهم ليقبلوها، ونحو ذلك مما يعلم الناظر في كتاب الله تعالى وسنة ونبيه ﷺ وما عليه سلف الأمة أنه انحراف عن سُنة سيد المرسلين، واتباع واضح لغير

---

(١) تحفة الذاكرين للشوكاني ص ١٨٣.

سبيل المؤمنين.

هذا مجمل ما يتعلق به المبتدعة في تسويغهم الاستغاثة بالنبي ﷺ بعد موته.

وهناك شبهات أخرى يجعلونها حُجة لهم في هذا الأمر، ولكن لأنهم يستدلون بها على الاستغاثة به وبغيره عليه الصلاة والسلام، فقد أفردتها فيما يلي هذا المبحث.



المطلب الثاني

شبهات المبتدعة في الاستغاثة بغير النبي ﷺ

الشبهة الأولى:

استدلالهم بسماع الأموات[١].

فقالوا: إنه قد قام الدليل على أن الميت يسمع كلام الحي، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: **(إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه ..)** الحديث[٢].

وكما جاء أنه ﷺ أتى القليب الذي ألقي فيه صناديد قريش ممن قتل يوم بدر بعد ثلاثة أيام من وضعهم فيه، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: **(يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟)**، فقال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها. فقال رسول الله ﷺ: **(والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم)**[٣].

---

(١) المنحة الوهبية لابن جرجيس ص ٨، مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص ١٥٦. وانظر: الاستغاثة لابن تيمية ١/ ٣٣٩، ١٥٠.

(٢) رواه البخاري في الجنائز - باب ما جاء في عذاب القبر - رقم ١٣٧٤، ومسلم في الجنة وعيمها وأهلها - باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه - رقم ٢٨٧٠ عن أنس رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري في المغازي - باب قتل أبي جهل - رقم ٣٩٧٦، ومسلم في =

قالوا : فما دام الأموات يسمعون كلام من يكلمهم، فما المانع من أن يستغاث بهم، ويطلب منهم قضاء الحوائج.

والجواب على ذلك من وجوه:

● **الوجه الأول:**

أن مستند بيان التوحيد والشرك هو الأدلة الواضحة البينة، والتي تضافرت في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، ولقد قام الدليل الصريح أن ما يفعله الناس تجاه قبور الأنبياء والصالحين من استغاثة بهم وطلب الحوائج منهم يعتبر شركا بالله تبارك وتعالى.

ولقد تقدم الكلام في مبدأ الشرك في البشرية، وأنه ناتج من الغلو في الصالحين، وجعلهم ملجأ في قبورهم لطلب الحاجات وكشف الكربات، كما جاء في تفسير ابن عباس لقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]، أن هؤلاء أسماء رجال صالحين كانوا في قوم نوح، فأوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت[1].

فهؤلاء كان عبادهم يقصدونهم هم لا صورهم التي نصبوها، ويريدونهم هم أنفسهم أن يشفعوا لهم عند الله تعالى، ويقربوهم إلى الله

= الجنة ونعيمها وأهلها - باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه.. - رقم ٢٨٧٤ عن أنس رضي الله عنه.

(١) انظر: ص ٢٧٣-٢٧٤.

تعالى زلفى، وهم يظنون وصول دعواتهم واستغاثاتهم إليهم، ومع ذلك حكم الله تعالى عليهم بأن فعلهم هذا شرك وأرسل إليهم نوحا عليه الصلاة والسلام داعيا إلى توحيد الله تعالى، محذرا من الشرك وأسبابه، دافعا كل شبهة يستمسك بها القوم يحسبونها شيئا، وهي أوهن من بيت العنكبوت.

وكذلك مر معنا من النصوص ما يدل على النهي بل والتغليظ في اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، تقصد للصلاة والدعاء والسجود والركوع ونحو ذلك من أنواع العبادات، فهل يرى المبتدعة أن هذا النهي والتشديد مقابل ومعارض بسماع الموتى صوت من يخاطبهم - على أنه ليس محل وفاق كما سيأتي بيانه - ؟

فسؤال الموتى ودعاؤهم والرغبة إليهم في قضاء الحاجات وكشف الكربات لم يستند في حكمه بأنه شرك وضلال إلى أدلة محتملة أو طرق ضعيفة، بل إن ذلك أوضح ما يكون دلالة وأظهر ما يكون معنى.

فلا يصح أبدا - والحالة هذه - أن يعارض بما هو محل خلاف، بل وليس فيه دلالة أصلا على المعارضة، وإنما اشتباه يستمسك به من أعماه جهله أو غلب عليه هواه.

فمسألة سماع الموتى أو عدم سماعهم ليست هي مناط الدليل في حكم الاستغاثة بالأموات، وليست محل معارضة للدلائل الواضحة البينة على النهي عن دعاء الأموات والاستغاثة بهم ؛ إذ أن الكلام فيها على الجمع بين الأدلة التي قد يظهر فيها تعارض في المعاني، كما في الأدلة السابقة التي استدل بها المبتدعة على مرادهم وما يقابلها كما في

قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل: ٨٠]، وقوله تعالى : ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ٢٢]، وكذلك إنكار عائشة رضي الله عنها أن يكون النبي ﷺ أثبت سماع أهل القليب له وأنه إنما قال : إنهم ليعلمون الآن أن الذي كنت أقول لهم هو الحق.

ولم يقل أحد من العلماء الذين أثبتوا السماع : إن هذا دليل على جواز الاستغاثة بالأموات وطلب الحاجات منهم.

فالحاصل من هذا الوجه : أن يُعلم أن سماع الموتى ليس محل معارضة للأدلة الصريحة على شرك من يدعو الأموات، بل إنه ليس دليلا على ما يقرره المبتدعة هنا ؛ إذ أن سماعهم لا يحصل به استجابة منهم لمن يخاطبهم، والله تعالى يقول : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

فإذا كان هذا السماع - على اعتبار إثباته - لا يحصل به استجابة من المدعو للداعي فأين يكون وجه الدلالة إذاً ؟

ولقد نعى الله تعالى على أولئك الذين يدعون من لا يستجيب لهم، وجعل أخص أوصاف معبوديهم أنهم أموات غير أحياء، فقال سبحانه : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ

أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ [النحل: ٢٠-٢١].

يقول العلامة الألوسي في «روح المعاني» : (ما أعظمها آية في النعي على من يستغيث بغير الله تعالى من الجمادات والأموات، ويطلب منه ما لا يستطيع جلبه لنفسه أو دفعه عنه)[1].

وإذا كانت مسألة سماع الموتى أو عدم سماعهم هي المحكم والفاصل في مسألة الاستغاثة بالأموات لأضحت دلائل التوحيد والشرك في القرآن دلائل محتملة، قابلة للاجتهاد، والخلاف فيها محل اعتبار ونظر، ولأغفلت كثير من النصوص ذات الدلالات الظاهرة الجلية في هذا الأمر الجلل.

وبعد هذا أيضا، فلن يجدي تحرير هذه المسألة مع المبتدعة شيئا، سواء انتهت إلى النفي أو الإثبات ؛ إذ أنه قد ثبت في الشرع ما يدل على إبلاغ الموتى بعض ما يكون من الأحياء كما في السلام عليهم، وما دام الإبلاغ يحصل لهم فيدخل في ذلك ما يتوجه به إليهم من استغاثات وتوسلات.

فيبقى أصل الجواب على هذه الشبهة : وهو أنه ليس فيها دلالة أصلا على ما يريدون، وأنه لا يصح أن يعارض بها الأدلة الصريحة البينة.

ويشبه الكلام هنا ما تقدم الكلام عليه في استدلال المبتدعة بحياة النبي ﷺ في قبره على جواز دعائه والاستغاثة به.

---

(١) روح المعاني ١٤/١٦٦.

● **الوجه الثاني:**

أن مسألة سماع الموتى ليست محل اتفاق بين أهل العلم، بل الخلاف فيها معروف.

وممن قال بعدم سماعهم عائشة رضي الله عنها حيث أنكرت كون النبي ﷺ أخبر بسماع أصحاب القليب له.

ففي صحيح البخاري عن عروة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: **(هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟)** ثم قال: **(إنهم الآن يسمعون ما أقول)**، فذكر لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ: **(إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق)**، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] حتى قرأت الآية[١].

ففي هذا تقرير منها رضي الله عنها لمعنى الآية وأنه: انتفاء حصول السماع من الميت.

وتقديم أهل العلم لرواية ابن عمر رضي الله عنهما على توهيم عائشة رضي الله عنها له لا يعني بالضرورة تخطئتها في تفسير الآية، وذلك لأن رواية ابن عمر رضي الله عنهما ليست معارضة للآية، فليس فيها دلالة صريحة على سماع عموم الموتى، وإنما الكلام مخصص في أهل القليب[٢].

ولذلك فقد حمله بعض أهل العلم على أن ذلك خرق للعادة أجراه الله تعالى لنبيه ﷺ، كما قال قتادة رحمه الله - وهو أحد رواة حديث طلحة

(١) رواه البخاري في المغازي - باب قتل أبي جهل - رقم ٣٩٨١، ومسلم في الجنازة - باب أرواح المؤمنين - رقم ٢٠٧٦.
(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ٧/ ٣٥٤.

رضي الله عنه في أهل القليب - : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيرا ونقيمة وحسرة وندما(١).

وذكر الحافظ ابن حجر عن السهيلي ما محصله : إن في نفس الخبر ما يدل على خرق العادة بذلك للنبي ﷺ ؛ لقول الصحابة له : «أتخاطب قوما قد جيفوا»(٢).

قلت : يشير بذلك إلى أن من المتقرر في أذهان الصحابة رضي الله عنهم أن الأموات لا يسمعون خطاب من خاطبهم، فلذلك صدر منهم هذا السؤال، فكان الجواب على خصوصية الحال.

وقال ابن عطية رحمه الله : (فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد ﷺ في أن رد الله إليهم إدراكا سمعوا به مقاله، ولولا إخبار النبي ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين)(٣).

وقال البيهقي : (واستدلالها - "أي عائشة رضي الله عنها" - بقوله : ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] فيه نظر ؛ لأنه لم يسمعهم وهم موتى، لكن الله تعالى أحياهم حتى أسمعهم كما قال قتادة توبيخا لهم وتصغيرا وحسرة وندامة)(٤).

وعلى كلٍّ فليس المقام بسط الخلاف في المسألة وعرض مورد كل

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب قتل أبي جهل - رقم ٣٩٧٦.
(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ٧/ ٣٥٤.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧٠.
(٤) دلائل النبوة ٣/ ٩٣-٩٤.

قول، ولكن المراد هنا بيان أن ما استدل به المبتدعة هنا ليس أمرا مسلما، بل هو محل خلاف ونظر.

مع التأكيد على ما سبق بيانه في الوجه الأول أن المسألة ليست هي محل استدلال على حكم الاستغاثة بالأموات.

● **الوجه الثالث:**

إذا صح الاستدلال بسماع الأموات على الاستغاثة بهم لكان ذلك عاما في كل ميت، وسيلزم المستدل بذلك جواز الاستغاثة بالأموات الكافرين على اعتبار أنهم يسمعون؛ إذ أنه من المتقرر شرعا وعقلا جواز الطلب من الحي الكافر فيما يقدر عليه، وما هو بيده، فذلك ليس مختصا بالمؤمنين فقط.

هذا إذا علق الأمر بالسماع، أما إذا علق بحصول الاستجابة فالكلام إذاً فيها، ولا سبيل إلى إثبات استجابة الميت لمن دعاه وناداه.

وعليه فليس سماع الأموات حجة على جواز الطلب منهم والاستغاثة بهم.

بل الأمر أبعد من ذلك، فلو أن الداعي قد رأى صاحب القبر قد قام إليه، وحادثه بما يؤمله له في قضاء طلبته، لم يكن ذلك مسوغا على الإبقاء على الاستغاثة به، وإنزال الحوائج ببابه، إذ أنه من المعلوم لدى أهل الإيمان أن ذلك مما تضل الشياطين به الناس، فتظهر للداعي بصورة صاحب القبر فتقره على فعله، وتحسن له طريقته، وتعده الإجابة على تحقيق مطلوبه، فينخدع بذلك ويظن أن صاحب القبر لم يسمع كلامه فحسب، بل قام إليه وحادثه.

● **الوجه الرابع:**

أن سماع سؤال السائل ليس دليلا على مشروعية السؤال، فقد تضافرت الأدلة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ على النهي عن سؤال المخلوقين، والأمر بالرغبة بذلك إلى الله تعالى وحده.

وقد تقدم ذكر طرف من ذلك[1].

فهذا النهي واقع مع اليقين بسماع المسؤول سؤال السائل، فكيف والحالة شك واحتمال؟!

● **الوجه الخامس:**

أن الناظر في حال المبتدعة في سؤالهم الموتى واستغاثتهم بهم يرى أنهم لا يقصرون ذلك في حال القرب من صاحب القبر بحيث يغلب على ظن السائل أنه يسمعه، بل إنهم ينادون ويستغيثون من مكان بعيد، وقد يكون بينهم وبين المقبور آلاف الأميال، مما يدلك على أن مسألة سماع الأموات ليست محل فصل في الأمر عندهم، بل هم تجاوزوا ذلك إلى مراحل بالغة في البعد من اعتقاد أن أولئك المقبورين يعلمون حال السائل، ويسمعونه أينما كان، فلذلك تجدهم في البر والبحر ينادون في حال الضراء: يا فلان المدد، ويا فلان أغثنا، ويا فلان نحن في حسبك، ونحو ذلك مما هو أشد مما كان عليه المشركون السابقون.

---

(١) انظر ص ٣٧٣-٣٧٤.

الشبهة الثانية:

شبهة المجاز العقلي[١].

ومرادهم بها : أن الاستغاثة بالأموات وطلب الحوائج منهم لا يراد بها أنهم يقضون ذلك على الحقيقة بالخلق والإيجاد، بل المراد أن يشفعوا عند الله تعالى بقضائها، فهم أسباب في قضائها، أما الخلق والإيجاد فمن الله تعالى وحده .

يقول أحمد زيني دحلان : (وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث أمر معلوم لا شك فيه لغة ولا شرعا، فإذا قلت : «أغثني يا الله» تريد الإسناد الحقيقي باعتبار الخلق والإيجاد، وإذا قلت «أغثني يا رسول الله» تريد الإسناد المجازي باعتبار التسبب والكسب والتوسط بالشفاعة)[٢].

ويقول محمد بن علوي المالكي : (الواجب علينا أننا إذا وجدنا في كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله سبحانه وتعالى فإنه يجب حمله على المجاز العقلي، ولا سبيل إلى تكفيرهم ؛ إذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسنة، فصدور ذلك الإسناد من موحد كاف في جعله إسنادا مجازيا ؛ لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أن الله هو الخالق للعباد وأفعالهم، لا تأثير لأحد سواه لا لحي ولا لميت، فهذا الاعتقاد هو التوحيد، بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك،

---

(١) الدرر السنية لدحلان ص ١٧، شواهد الحق للنبهاني ص ١٥٩، ١٦٨، مفاهيم يجب أن تصحح ص ٨٥. وانظر: الصراع بين الإسلام والوثنية ٢/ ٤٥٧.

(٢) الدرر السنية ص ١٧.

وليس في المسلمين إطلاقا من يعتقد لأحد مع الله فعل أو ترك أو رزق[١] أو إحياء أو إماتة، وما جاء من الألفاظ الموهمة فإن مقصود أصحابها هو الاستشفاع إلى الله بتلك الوسيلة)[٢].

الجواب من وجوه:

● **الوجه الأول:**

أن ما سموه مجازا هنا، وفسروه: بأن الاستغاثة بالأموات واقعة على أنهم وسائط وشفعاء لا على أنهم خالقون مستقلون في الفعل هو المعنى بعينه الذي كان يتمسك به المشركون السابقون ويدّعونه في آلهتهم التي كانوا يعبدون، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣]، وكما أخبر عنهم حين يسألون عن مسألة الخلق والإيجاد أنهم ينسبون ذلك لله تعالى وحده، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزُّمَر: ٣٨]، وما في هذا المعنى من الآيات - وهو كثير -، وكذلك ما هو معلوم من تلبيتهم التي كانوا يلبون في حجهم وهي قولهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك[٣].

فالمعنى الذي سماه المبتدعة مجازا ورأوا أنهم سلموا به من مغبة الشرك هو المعنى نفسه الذي كان يبرر المشركون به دعاءهم غير الله

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب فعلاً أو تركاً أو رزقاً.
(٢) مفاهيم يجب أن تصحح ص ٨٥.
(٣) تقدم تخريجه ص ١٦٠.

تعالى، وهو أن هؤلاء المدعوين ما هم إلا وسائط وشفعاء في حصول المطلوب، إلا أن المشركين السابقين لم يكونوا يسمون ذلك مجازا.

وسواء سمي مجازا أو لم يسم فلا فرق ؛ إذ أن العبرة في الأشياء هو معانيها التي تنتهي إليها، وليس ما يحيط بها من أسماء، وإذا توافق المعنيان فالحكم واحد.

وقد تقدم الكلام على بطلان ما ذهب إليه المبتدعة من قصر الشرك على اعتقاد الخالقية لغير الله تعالى، وبينتُ بالأدلة المتنوعة أن المشركين السابقين لم يكونوا يشركون في الربوبية، ومع ذلك فقد حكم الله تعالى عليهم بالشرك وذلك باتخاذهم الوسائط والشفعاء يدعونهم من دون الله تبارك وتعالى.

ومحصل شبهة المجاز العقلي ينتهي إلى ذلك القول الذي قيدوا به الشرك.

● **الوجه الثاني:**

أنه لو فتح باب المجاز في هذه الأبواب المهمة المتعلقة بأساس الرسالات وهو توحيد الله تعالى لدخل منه كل مخالف لتوحيد الله تعالى بقول أو فعل بحجة أن ذلك القول أو الفعل محمول على المجاز العقلي لا على ظاهره المفهوم منه.

وبذلك يحصل من الخلط واللبس ما لا ينتهي إلى حد، وتنتشر المخالفات العقدية والعملية دون أن يكون لها أحكام قاطعة فاصلة، ولكلٍّ أن يقول ما يقول ويفعل ما يفعل متصدياً لكلِّ مُنكِرٍ عليه بحجة المجاز، جاعلا ذلك جسرا ممتدا يعبر من خلاله إلى ما يمليه عليه

هواه، ويرسمه له جهله.

قال الشيخ محمد بشير السهسواني رحمه الله : (لو سلم هذا - وهو الحمل على المجاز - لاستحال الارتداد، ولغاب باب الردة الذي يعقده الفقهاء، فإن المسلم الموحد متى صدر منه قول أو فعل موجب للكفر وجب حمله على المجاز العقلي، والإسلام والتوحيد قرينة على ذلك المجاز)[١].

● **الوجه الثالث:**

أن الكلام متى ما فهم منه معنى حقيقي فهو محمول على ذلك المعنى، فلا نحتاج أن نحمله على مجاز ولا غيره، وذلك كنسبة الأسباب إلى مسبَّباتها، فإن الأسباب إذا ذكرت لحصول المسبَّب لا يعني ذلك أن في الكلام ظاهرا محذورا يجب نفيه وهو اعتبار أن هذه النسبة تعني أن السبب خالق لذلك المسبَّب، ويُجعل هذا هو المعنى الحقيقي المفهوم من الكلام، وعليه فيجب حمل المعنى الظاهر على المجاز.

وإنما الكلام دال على معنى حقيقي يفهمه كل من يعقل لغة الخطاب.

ومثل ذلك نسبة الأفعال إلى فاعليها، فهي نسبة حقيقية - إذا كانت مطابقة للواقع - دالة على معنى بيّن ليس فيه اشتباه يوجب حمله على المجاز، فقولك «فلان أطعمني أو سقاني» إسناد حقيقي ليس من لازمه أن يكون دالا على اعتقادك أنه خالق لذلك الطعام والإطعام، فيحتاج

(١) صيانة الانسان ص ٢١٤.

الكلام فيه إلى تأويل ودعوى مجاز.

ومن ذلك ما يتعلق بموضوع الاستغاثة هنا، فطالب الإغاثة يفهم من كلامه معنى حقيقي دال على إرادته وقوع الإغاثة من المستغاث بحسبه، لا أن المستغاث وسيلة إلى طلب الإغاثة من غيره.

ولكن المبتدعة فتحوا على أنفسهم باب المجاز حتى تصوروا أن أي إسناد في الأفعال إلى غير الله تعالى فهو إسناد مجازي؛ إذ أن الله تعالى هو الفاعل على الحقيقة، فصاروا بذلك إلى شر الأقوال وأقبحها، حتى صار منهم من نسب جميع الأفعال حسنها وقبيحها إلى الله تعالى، وجعل هذا هو الحقيقة، أما نسبتها إلى فاعليها فمحمول على المجاز.

وفي مسألة الاستغاثة يشغبون كثيرا بخلط المفاهيم وتداخل المعاني، فيجعلونها معنى واحداً يثبت لله تعالى على اعتبار الخلق والإيجاد، ويثبت للمخلوق سواء كان حيا أو ميتا على اعتبار السببية، والمحذور هو اختلال هذه الاعتبارات.

وليس الأمر كذلك، فإن الاستغاثة بالحي القادر على الفعل ليست كالاستغاثة بالعاجز عنه، وليست كالاستغاثة بالميت والغائب، وإن كان كل ما يحدث من إغاثات فإنما تقع بخلق الله تعالى لها.

وبناء على تفاوت هذه المعاني الحقيقية في متعلقات الاستغاثة تفاوت الحكم بين الاستغاثة بالحي الحاضر على ما يقدر عليه، والاستغاثة بالميت والغائب.

ولكن المبتدعة لما جعلوها معنى واحدا تصوروا أن المحذور هو

في اعتقاد المستغيث أن المستغاث به - إذا كان غير الله تعالى - فاعل بالاستقلال، مغيث بالخلق والإيجاد، أما إذا كان معتقدا في المستغاث السببية فقط فذلك لم يناف التوحيد، ولا يمكن أن يصبغ صاحبه وصف شرك أو ضلال.

ومما يوضح هذا الأمر من كلام المبتدعة في ذلك ما قاله البكري في رسالته التي يرد فيها على شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ : (وكثيرا ما تنفى الأشياء في النصوص الشرعية إشارة إلى التوحيد، ويثبتها الباري سبحانه وتعالى في مواضع أخر اعتبارا بالأسباب و إثباتا لبساط الحكمة)[١].

وقد أجاب عليه شيخ الإسلام ﷺ فقال عن كلامه هذا : (هو كلام باطل، فإن الله سبحانه وتعالى لا ينفي شيئا و يثبته، إذ الجمع بين نفيه و إثباته تناقض، و كلام الله منزه عن التناقض، قال الله تعالى : ﴿...وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، ولكن المنفي غير المثبت، فالذي ينفيه في موضع ليس هو الذي يثبته في موضع أخر، ولكن هؤلاء الضلال يجعلون المنفي عين المثبت فيكون ما يضاف إلى الرب سبحانه وتعالى بطريق التوحيد يضاف إلى غيره بطريق السبب و الحكمة، ولهذا قالوا : إن كل ما يطلب من الله يطلب من غيره بهذا الطريق، فأشركوا في ربوبية الله تعالى وفي دعاء الله تعالى و عبادته حيث جعلوا ما يضاف إلى المخلوق يضاف إليه تعالى، فصار حقيقة قولهم أن المخلوق تضاف إليه مفعولات الله تعالى كلها،

---

(١) نقلاً عن الاستغاثة في الرد على البكري، لشيخ الإسلام ١/ ٣٠٢-٣٠٣.

و يطلب منه مقدورات الرب كلها، لما في الخلق من السبب و الحكمة، ولم يعلم هؤلاء الجهال أن السبب لا يستقل بالتأثير بل تأثيره متوقف على سبب آخر وله موانع، وحينئذ فلا يجوز تخصيصه بالإضافة إليه و إن كان سببا، وأيضا فالأسباب التي نعرفها مضبوطة، وأكثر ما فعله الله و يفعله لا نعرف نحن أسبابه، وأيضا أثبتوا أسبابا في خلقه و أمره ما أنزل الله بها من سلطان بل إثباتها مخالف للشرع و العقل فضلوا في إثبات أسباب لا حقيقة لها، وفي الإضافة إليها وفي تعليق الحوادث كلها بسبب واحد)[1].

ومما يستدلون به على ذلك: قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال: ١٧]، وقول النبي ﷺ: (**ما أنا حملتكم بل الله حملكم**)[2][3].

وهم بذلك يظنون أن النفي هنا إنما هو باعتبار الخلق والإيجاد، وأن الشيء نفسه مثبت باعتبار السببية.

ولو كان الأمر كذلك لاطرد في كل قول وفعل، ولما كان لنفي الرمي هنا مزيد معنى؛ لحصول الاشتراك في كل رمي، بل وفي كل فعل.

(لو كان هذا المراد لساغ أن يقال مثل هذا في جميع أفعال العباد، فيقال: ما ركبت إذ ركبت ولكن الله ركب، وما طفت إذ طفت ولكن

---

(١) المرجع السابق ١/ ٣٠٣-٣٠٤.

(٢) رواه البخاري في الأيمان والنذور - باب قول الله تعالى ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ - رقم ٦٦٢٣، ومسلم في الأيمان - باب ندب من رأى يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه - رقم ١٦٤٩.

(٣) انظر: الجوهر المنظم ص ١٧٧.

الله طاف، وما أكلت إذ أكلت ولكن الله أكل، ولكان يقال لكل من رمى بقوس : ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، ويقال للكفار إذا رموا المسلمين : ما رميتم إذ رميتم ولكن الله رمى، وأشباه ذلك مما لا يقوله مسلم ولا عاقل)(١).

ولكن المراد وصول الرمي - وهو حفنة التراب التي جمعها النبي ﷺ بيده - إلى جميع وجوه الكفار لم يكن حصوله بهذا السبب العادي الذي فعله النبي ﷺ، ولم يكن ذلك في قدرته، بل الله تعالى أوصل ذلك إليهم.

وكذلك في قوله سبحانه : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧]، أي لم يكن ذلك بحولكم وقوتكم، إذ أن مقتضى السبب العادي أن تكون الغلبة للأكثر عددا وعدة، ولكن الله تعالى هو الذي أظفركم عليهم رغم كثرة عددهم وقلة عددكم(٢).

وكذلك قوله ﷺ : (**ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم**)(٣)، محمول على مثل هذا المعنى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وأما حديث أبي موسى الأشعري وقوله : (**ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم**) لم يرد به النبي ﷺ كون الله خالق أفعال العباد، فإن هذا يتناول هذا الفعل و غيره من الأفعال، ومعلوم أنه لم يقل :لم أركب ولكن الله ركب، ولم يقل : ما

---

(١) الاستغاثة لشيخ الإسلام ١/ ٢٠٠-٢٠١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٧.

(٣) تقدّم تخريجه في الصفحة السابقة، الحاشية (٢).

جاهدت في سبيل الله ولكن الله جاهد، ولا سافرت ولكن الله سافر، ونحو ذلك، بل النبي ﷺ لما سألوه أن يحملهم قال: والله ما أحملكم وما عندي ما أحملكم عليه، فلما ذهب أبو موسى بعث إلى رسول الله ﷺ بنهب إبل، فأمر فبعث منها إلينا بخمس ذود غر الذرى، فقلنا: تغفلنا رسول الله ﷺ يمينه، لا نفلح أبدا، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: (**ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم**)، فلما لم يكن منه قصد ولا قدرة صح أن يقول: ما حملتكم لأني لم يكن عندي ما أحملكم عليه، ولكن الله حملكم بما يسره من الحمولة التي أتى بها بغير فعل مني، فنفى الحمل عن نفسه و أضافه إلى الله تعالى لأنه أراد به تيسير الحمولة ولم يكن له في هذا فعل)[1].

وعلى هذا المعنى للمجاز حملوا قول النبي صلى ﷺ: (**إنه لا يستغاث بي، إنما يستغاث بالله**)[2]، فقالوا: إ نه لا يدل على نفي الاستغاثة به، وإنما النفي متوجه إلى أن الاستغاثة وإن وقعت بالنبي ﷺ فإنها استغاثة بالله في الحقيقة، فالمنفي هو الخلق والإيجاد، بل قالوا إن فيه تقريرا للاستغاثة به[3].

ففسروا الحديث بضد معناه، وحرفوا الكلم عن موضعه؛ ليوافق مشاربهم.

---

(١) الاستغاثة ١/ ٢٤٧-٢٤٩.

(٢) رواه الطبراني - كما في مجمع الزوائد ١٠/ ١٥٩. وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. أهـ ورواه أحمد في المسند ٥/ ٣١٧ وابن سعد في الطبقات ١/ ٣٨٧ عن عبادة بن الصامت ﷺ بلفظ: «**إنه لا يقام لي بل يقام لله**».

(٣) انظر: الاستغاثة لشيخ الإسلام ١/ ٢٥٠.

وفي بيان تهافت هذا التفسير منهم يقول العلامة أبو المعالي الألوسي رحمه الله في رده على النبهاني: (فليس النفي لما ذكره هذا الزائغ، فإن المخاطبين يعلمون أن الله خالق أفعال العباد، وإنما نفى الاستغاثة عنه حماية للتوحيد وصيانة لجنابه، كما قال لمن قال له: أنت سيدنا وابن سيدنا: «**السيد الله، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله**»، ولو كان كما زعم هذا الزائغ، لنفي عن رسول الله ﷺ كل فعل وكل قول صدر منه، لأنه لا يفعله استقلالا، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦])[1].

- **الوجه الرابع:**

أن هذا المجاز لا يعرفه كثير ممن يعكف على القبور ويستغيث بأهلها، بل ظاهر حالهم يدل على اعتقاد قائم في النفس بأن أولئك المدعوين قادرون على التصرف، وأنهم هم بأنفسهم يكشفون الضر ويرفعون البلوى، ولذلك فإنهم يسمونهم أهل التصريف، وينسبون إليهم ما يحصل لهم من آثار استغاثاتهم.

يقول الشيخ محمود بن عبدالله الألوسي: (ولا أرى أحدا ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعلم الغيب، ويسمع النداء، ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير أو دفع الأذى، وإلا لما دعاه، ولما فتح فاه، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم)[2].

---

(١) غاية الأماني في الرد على النبهاني ١/ ٣٧١.
(٢) روح المعاني ٦/ ١١٥.

ويقول صاحب كتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية» : (ونحن لا نشك في أن أكثر هؤلاء الدعاة للأموات لا يعرفون هذه المسألة المجازية أصلا، ولا يدرون ما المجاز لا الإسنادي ولا غيره، ولا ما الحقيقة، فضلا عن أن يعرفوا أن هذه المسألة بعينها مجاز وأن القرينة هي التوحيد والإيمان، ولا يدرون من هذه العملية الاصطلاحية قليلا ولا كثيرا، وهؤلاء الدعاة أقل وأغبى من أن يقصدوا بقولهم : «أعطني يا رسول الله» كذا، سؤاله أن يكون سببا فيما يطلبون، ولو كانوا يريدون ذلك لفاهوا بما يريدون، واختصروا الطريق وجاءوا المسألة من بابها)[١].

● **الوجه الخامس:**

عدم التسليم بالسببية المذكورة هنا، فكون الاستغاثة بالأموات سببا بالأصالة - فضلا عن أن تكون سببا مشروعا - مما يفتقر إلى دليل، ولا دليل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رده على البكري في ذلك : (نحن لا ننازع في إثبات ما أثبته الله من الأسباب و الحكم، لكن من هو الذي جعل الاستغاثة بالمخلوق ودعاءه سببا في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى؟ ومن الذي قال إنك إذا استغثت بميت أو غائب من البشر نبيا كان أو غير نبي كان ذلك سببا في حصول الرزق و النصر و الهدى وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى؟ ومن الذي شرع ذلك و أمر به؟ ومن الذي فعل ذلك من الأنبياء و الصحابة و التابعين

(١) الصراع بين الإسلام والوثنية للقصيمي ١٠٢/٢.

لهم بإحسان إلى يوم الدين؟ فإن هذا المقام يحتاج إلى مقدمتين :

إحداهما : أن هذه أسباب لحصول المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

و الثانية : أن هذه الأسباب مشروعة لا يحرم فعلها ، فإنه ليس كل ما كان سببا كونيا يجوز تعاطيه، فإن قتل المسافر قد يكون سببا لأخذ ماله، وكلاهما محرم، والدخول في دين النصارى قد يكون سببا لمال يعطونه، وهو محرم، وشهادة الزور قد تكون سببا لمال يؤخذ من المشهود له، وهو حرام، وكثير من الفواحش، والظلم قد يكون سببا لنيل مطالب، وهو محرم، والسحر والكهانة سبب في بعض المطالب، وهو محرم، و كذلك الشرك في مثل دعوة الكواكب و الشياطين و عبادة البشر قد يكون سببا لبعض المطالب، وهو محرم، فإن الله تعالى حرم من الأسباب ما كانت مفسدته راجحة على مصلحته، وإن كان يحصل به بعض الأغراض أحيانا.

وهذا المقام مما يظهر به ضلال هؤلاء المشركين خلقا وأمرا، فإنهم مطالبون بالأدلة الشرعية على أن الله عز وجل شرع لخلقه أن يسألوا ميتا أو غائبا وأن يستغيثوا به، سواء كان ذلك عند قبره أو لم يكن عند قبره، والله تعالى حي عالم قادر لا يغيب كفى به شهيدا وكفى به عليما وهم لا يقدرون على ذلك)[١].

الشبهة الثالثة :

استدلالهم باستغاثة قارون ومن معه بموسى عليه الصلاة والسلام،

---

(١) الاستغاثة ١/ ٣٢٩-٣٣١.

فلم يغثهم موسى، فعاتبه الله تعالى على ذلك.

وقالوا : إن في هذا تقريرا للاستغاثة بغير الله تعالى، وأن ما كان منها فهو محمول على المجاز - كما تقدم في شبهتم السابقة -.

فالاستغاثة بموسى هنا - كما زعموا - مجازية، أما الاستغاثة بالله تعالى فهي حقيقية[١].

قلت : وقصة استغاثة قارون بموسى عليه الصلاة والسلام أخرجها الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أتى موسى قومه أمرهم بالزكاة، فجمعهم قارون فقال لهم : جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها، فتحملوا أن تعطوه أموالكم؟ فقالوا : لا نحتمل أن نعطيه أموالنا، فما ترى؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغي بني إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها، فدعا موسى عليهم، فأمر الله الأرض أن تطيعه، فقال موسى للأرض : خذيهم. فأخذتهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى. ثم قال للأرض : خذيهم. فأخذتهم إلى ركبهم، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى. ثم قال للأرض : خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى. فقال للأرض : خذيهم فأخذتهم فغيبتهم، فأوحى الله إلى موسى : يا موسى، سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم! وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم.

قال بن عباس : وذلك قول الله عز وجل ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ

---

(١) الدرر السنية لدحلان ص ١٨، سعادة الدارين للسمنودي ١/ ٢١١.

﴿ٱلْأَرْضَ﴾ [القَصَص: ٨١] خسف به إلى الأرض السفلى[١].

والجواب على هذه الشبهة من وجوه:

● **الوجه الأول:**

على أن الرواية موقوفة، ومحتملة للأخذ عن بني إسرائيل، إلا أنها ليست مما نحن فيه، ففي الرواية سؤال لموسى عليه الصلاة السلام لما مكنه الله تعالى منه.

وذلك بأن الله تعالى مكّن الأرض لموسى عليه الصلاة والسلام أن تطيعه، فصار المطلوب داخلا تحت أمر مقدور، والمسؤول حاضر يسمع السؤال.

وكذلك معاتبة الله تعالى لموسى إنما كانت في أمر مقدور له؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها[٢].

ولقد سبق تقرير جواز الاستغاثة بالحي الحاضر على ما يقدر عليه.

● **الوجه الثاني:**

أنه قد جاء في بعض ألفاظ الرواية: فهتفوا: يا موسى يا موسى ادع لنا ربك أن ينجينا مما نحن فيه فنؤمن بك ونتبعك ونطيعك[٣].

---

(١) رواه الحاكم ٢/ ٤٤٣ وصححه وقال الذهبي: اسناده على شرط البخاري ومسلم. ورواه ابن ابي شيبة في مصنفه ٦/ ٣٣٤.

(٢) انظر: صيانة الانسان للسهسواني ٢٢٦

(٣) أوردها شيخ الإسلام في الصارم المسلول ص ٤١٢ من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن عبدالله بن الحارث بن نوفل. ولم أعثر عليها، والله تعالى أعلم.

وهذا فيه تصريح بأنهم طلبوا منه الدعاء.

ومثل هذا ما جاء في قوله تعالى - عن فرعون وقومه - : ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٣].

● **الوجه الثالث:**

أن قولهم إن الاستغاثة بموسى عليه الصلاة والسلام هي من باب المجاز، معناه أن هؤلاء القوم استغاثوا بالله تعالى حقيقة، لكنهم طلبوها من موسى مجازا.

وهذا ينافي ما دلت عليه الرواية من أن الله تعالى نفى عنهم استغاثتهم به؛ حيث قال: **(وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم)**.

وفي هذا قلب للدليل عليهم، حيث لم يجعل استغاثتهم بموسى عليه الصلاة والسلام استغاثة به.

إلا أن يقولوا - أي المبتدعة - إن استغاثة القوم كانت عن اعتقاد استقلال موسى بالخلق والإيجاد، وهذا ما ينفي صلاحية الدليل للدعوى.

الشبهة الرابعة:

استدلالهم بعرض جبريل عليه الصلاة والسلام على إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يغيثه لما ألقاه قومه في النار، حيث قال لإبراهيم: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أما إليك فلا.

قالوا : فلو كانت الاستغاثة شركا لم يعرضها على إبراهيم عليه الصلاة والسلام[١].

والجواب على ذلك من وجهين :

● **الوجه الأول :**

أن هذه القصة يذكرها بعض السلف، وليست في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ[٢].

ومع ذلك فهذه اللفظة لا إشكال فيها عند أهل السنة، بل قد ورد ما يؤيدها كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «(حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣][٣].

ولئن صح الاستدلال بها، فإنها لمن أعظم الأدلة على ما عليه أهل السنة من الاستغاثة بالله وحده دون من سواه.

● **الوجه الثاني :**

أن ما ذكروه هنا ليس مما نحن فيه، فإن جبريل عليه الصلاة والسلام عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه[٤].

---

(١) انظر: مصباح الأنام للحداد ص ٣٠ - مكتبة الحقيقة - استنبول.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١٠/١٧/٤٥.

(٣) رواه البخاري في التفسير - باب: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ الآية - رقم ٤٥٦٣.

(٤) انظر: كشف الشبهات (مع شرح الشيخ ابن عثيمين) ص ١٣٠.

وقد تقدم أن الاستغاثة بالحي الحاضر ما يقدر عليه ليست من الشرك في شيء .

الشبهة الخامسة:

استدلالهم بقول هاجر عليها السلام زوج نبي الله إبراهيم ﷺ حين كانت تسعى بين الصفا والمروة بعد أن انقضى الماء والطعام عنها وعن ابنها باحثة عن فرجٍ، فسمعت صوتا فقالت : (أغث إن كان عندك خير)[١]، وفي لفظ : (قد أسمعت إن كان عندك غواث)[٢].

فقالوا : هذا استغاثة منها بغائب لم تره، وهو دليل على الاستغاثة بالأموات والغائبين.

يقول داود بن جرجيس : (فلو كان طلب الغوث من غير الله شركا لما جاز لها استعماله، ولما ذكره النبي ﷺ لأصحابه، ولـلما نقله الصحابة من بعده، ولما ذكره المحدثون، ولا سيما البخاري الذي أجمعت الأمة على أن ما بعد كتاب الله أصح من كتابه، فإن هذا الغائب الذي طلبت منه الغوث - وإن كان في الحقيقة هو ملك - لكن في حال غيبته محتمل أن يكون شيطانا، ومحتمل أن يكون جنيا، ومحتمل أن يكون ملكا ومحتمل أن يكون إنسانا، والمانعون لا يجيزون الاستغاثة بالغائب مطلقا، لا بنبي مرسل، ولا ملك مقرب، كالميت

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء - باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ - رقم ٣٣٦٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء - باب قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ - رقم ٣٣٦٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

كما صرحوا في مواضع، فلو يعلم النبي ﷺ ذلك محذورا لوجب التنبيه عليه، خصوصاً إذا كان شركا أكبر مخرجا من الملة)[١].

والجواب على ذلك من وجهين:

● **الوجه الأول:**

أن الدليل مقلوب عليهم لو تأملوه، فأم إسماعيل عليها وعلى زوجها وابنها الصلاة والسلام لم تستغث بأحد قبل سماعها لهذا الصوت الذي هو بمثابة الحاضر لها، بل إنها لما فني الماء قامت لتحس هل من أحد، ثم صارت تتردد بين السعي بين الصفا والمروة لترى هل من أحد قادم وبين الرجوع إلى ابنها لتنظر ما فعل، كما جاء في الرواية: (قالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا، قال: فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا، فلما بلغت الوادي سعت وأتت المروة ففعلت ذلك أشواطا، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل - تعني الصبي - فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ[٢] للموت، فلم تقرها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتمت سبعا، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل ..).

فلو كانت ممن يدعو الغائبين ويستغيث بهم، لـِمَ لم تفعل ذلك من حين فني الماء عنها ورأت ابنها ينازع الموت إلا قليلا؟

---

(١) صلح الإخوان ص ٥١.
(٢) نشغَ: شهق حتى كاد يغشى عليه. (القاموس المحيط ص ١٠١٩).

هل تراها نادت إبراهيم الخليل - وهو من المنزلة عند ربه في أعلاها وأسماها - واستغاثت به؟

هل تراها نادت باسم الأنبياء السابقين تستغيث وتستنجد لما حل بها من كرب وشدة؟

كيف، وهي التي رضيت بالبقاء في هذا المكان الغريب الذي لا أنيس فيه ولا جليس، ولا ماء ولا زرع، مع طفلها الرضيع الذي لا يعرف تقديرا لفارق الحال بين الشدة والرخاء، رضيت بذلك لما علمت أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ما فعل ذلك إلا استجابة لأمر الله تعالى، فنطقت بقلب المؤمنة التي تعلق قلبها بالله تعالى، وفوضت كل أمرها إليه وحده: (إذاً لن يضيعنا).

إن هذه القصة لهي أكبر دليل على ما كان عليه الأنبياء وآل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من توحيد لله تعالى، وتعلق به وحده، واستجابة لأمره، ومسارعة في مرضاته، وتقديم كل ذلك على رغبات النفس ودوافع الهوى وتخذيلات الشيطان.

فيا للفهم ما أسقمه! حين يأتي إلى دلائل التوحيد وموارد الإخلاص فيجعلها سبيلا إلى تقرير الشرك ووسائله.

والحاصل من هذا الوجه: أن هذه القصة دالة دلالة واضحة أن هاجر عليها السلام لم تلتجئ إلى غائب ولم تدع نبيا، وإنما كان التجاؤها إلى الله تعالى وحده، مع بذل السبب الذي شرعه الله تعالى من السعي في دفع البلاء، فلما سمعت ذلك الصوت خاطبته مخاطبة الحاضر، كما يوضحه الوجه التالي.

● **الوجه الثاني:**

أن نداء هاجر عليها السلام للذي سمعت صوته خرج مخرج نداء الحاضر، وهذا لا يدخل في كلامنا هنا لما سبق من تقرير أن الاستغاثة بالحي الحاضر على ما يقدر عليه هو من الأسباب التي دلت الدلائل الشرعية والعقلية على مشروعيتها.

ومما يوضح ذلك من كلامها محادثتها له بأنها سمعته، وبتقييدها ندائها له بما إذا كان عنده غوث أو خير.

فقد جاء في لفظ: (فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث)، وفي لفظ - عند البيهقي في الكبرى - : (قد سمعت فقل تجب أو يأتي منك خير)[١].

ثم إنهالم تخاطبه حتى تأكدت من سماعها لصوته، كما في جاء في الرواية: (فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضا)[٢]. فهذه المناداة منها ليست نداء غائب بحال، ولو كانت ممن يستغيث بالغائبين لكان الأولى استغاثتها بزوجها الذي تعرف مكانته عند ربه تبارك وتعالى.

الشبهة السادسة:

استدلالهم بالأحاديث الدالة على أن المرء إذا كان في صحراء أو أرض ليس فيها أنيس وأراد عونا فليناد: (يا عباد الله أعينوني)، وما

---

(١) السنن الكبرى ٥/ ١٠١.

(٢) في رواية البخاري رقم ٣٣٦٤.

كان بهذا المعنى[١].

ويذكرون في ذلك :

ما جاء عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه عن نبي الله ﷺ قال : **(إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد أحدكم عونا وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل : يا عباد الله أغيثوني يا عباد الله أغيثوني، فإن لله عبادا لا نراهم)**[٢].

وما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : **(إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما سقط من ورق الشجر فإذا أصابت أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد أعينوني يا عباد الله)**.

وما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوا يا عباد الله احبسوا، فإن لله حاضرا في الأرض سيحبسه)**.

والجواب من وجوه :

● **الوجه الأول :**

الكلام على الروايات السابقة :

أما حديث عتبة رضي الله عنه فقد رواه الطبراني في «معجمه الكبير» قال :

---

(١) صلح الإخوان لابن جرجيس ص ٥٢، البراهين الساطعة للقضاعي ص ٤٤٦، الصواعق الإلهية لسليمان بن عبدالوهاب ص ٩٤، شواهد الحق للنبهاني ص ١٧٣، مفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ص ١٤٧. وانظر: الرد على شبهات المستغيثين بغير الله لابن عيسى ص ٨٢، الصراع بين الإسلام والوثنية لعبدالله القصيمي ٢/٣٢٩.

(٢) المعجم الكبير ١٧/١١٧ - رقم ٢٩٠.

حدثنا الحسين بن إسحاق التستري ثنا أحمد بن يحيى الصوفي ثنا عبد الرحمن بن سهل حدثني أبي عن عبد الله بن عيسى عن زيد بن علي عن عتبة بن غزوان، وذكر الحديث.

وهذا الإسناد فيه انقطاع بين زيد وعتبة رضي الله عنه .

قال الهيثمي في مجمع الزوائد : (رواه الطبراني ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم، إلا أن زيد بن علي لم يدرك عتبة)[١].

وقال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار : (أخرجه الطبراني بسند منقطع)[٢].

وأيضاً : قد ذكر الشيخ صالح آل الشيخ في كتابه «هذه مفاهيمنا»[٣] أن السند المذكور في المطبوع من المعجم الكبير فيه تصحيف، وذلك بمقارنته بنسخة مخطوطة عنده «وهي نسخة مصورة عن مكتبة أحمد الثالث (٩/ ٢٧/ ١)، وفيها أن الراوي عن أحمد بن يحيى الصوفي هو عبدالرحمن بن شريك عن أبيه.

وعليه فالسند - أيضا - معلل من هذه الجهة.

فعبدالرحمن بن شريك، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب : (قال أبو حاتم : واهي الحديث. وذكره بن حبان في الثقات وقال : ربما أخطأ)[٤].

---

(١) مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٢

(٢) ذكره ابن علان في الفتوحات الربانية (شرح الأذكار) ٥/ ١٥٠

(٣) تهذيب التهذيب، ص ٤٨ (في الهامش).

(٤) تهذيب التهذيب ٦/ ١٧٦.

أما أبوه شريك بن عبدالله رحمه الله فعلى جلالته وإمامته، إلا أنه تكلم فيه من جهة سوء حفظه وكثرة أخطائه.

قال في التقريب: (صدوق، يخطئ كثيراً، تغير حفظه منذ ولي قضاء الكوفة، وكان عادلا فاضلا، شديداً على أهل البدع)[١].

فالحديث إذاً ضعيف لا يحتج به[٢].

وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما فقد رواه البزار، كما في كشف الأستار: قال البزار: حدثنا موسى بن إسحاق ثنا منجاب بن الحارث ثنا حاتم بن إسماعيل عن أسامة بن زيد عن أبان بن صالح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر الحديث[٣].

وقد رواه ابن أبي شيبة في مصنفه من طريق أبي خالد الأحمر عن أسامة بنحوه موقوفا على ابن عباس رضي الله عنهما[٤].

ورواه البيهقي في شعب الإيمان، من طريق جعفر بن عون: حدثنا أسامة بن زيد، وذكره موقوفاً - أيضا - على ابن عباس رضي الله عنهما[٥].

فهذه مخالفة من أبي خالد الأحمر وجعفر بن عون لحاتم بن إسماعيل في رفع الحديث.

فلعل الصحيح منه وقفه على ابن عباس رضي الله عنهما، والله أعلم.

---

(١) تقريب التهذيب ص ٢٦٦.
(٢) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني - رقم ٦٥٦.
(٣) كشف الأستار ٤/ ٣٣-٣٤.
(٤) المصنف لابن أبي شيبة ٦/ ٩١ (ما يدعو به الرجل إذا ضلت منه الضالة).
(٥) شعب الإيمان ١/ ١٣٨.

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله عن رواية حاتم بن إسماعيل : (خالفه جعفر بن عون، فقال : ثنا أسامة بن زيد . . . فذكره موقوفا على ابن عباس. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

وجعفر بن عون أوثق من حاتم بن إسماعيل، فإنهما وإن كانا من رجال الشيخين، فالأول منهما لم يجرح بشيء، بخلاف الآخر، فقد قال فيه النسائي : ليس بالقوي، وقال غيره : فيه غفلة. ولذلك قال فيه الحافظ : صحيح الكتاب صدوق يهم.

وقال في جعفر : صدوق.

ولذلك فالحديث عندي معلول بالمخالفة)[1].

قلت : وقد تقدم أن المخالفة واقعة أيضا في رواية أبي خالد عند ابن أبي شيبة.

وأبو خالد، قال عنه الحافظ في التقريب : صدوق يخطئ[2].

ثم إن أسامة بن زيد الليثي الراوي عن أبان بن صالح، وإن وثقه ابن معين، وقال ابن المديني : ليس به بأس، إلا أنه قد ضعفه آخرون.

قال الإمام الذهبي في «ميزان الاعتدال» : (: قال أحمد ليس بشئ. فراجعه ابنه عبدالله فيه، فقال : إذا تدبرت حديثه تعرف فيه النكرة.

وقال يحيى بن معين : ثقة.

وكان يحيى القطان يضعفه.

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ٢/ ١١٢.

(٢) التقريب ص ٢٥٠.

وقال النسائي : ليس بالقوي.

وقال ابن عدي : ليس به بأس.

وقال ابن الجوزي : اختلفت الرواية عن ابن معين فقال مرة : ثقة صالح. وقال مرة : ليس به بأس. وقال مرة : ترك حديثه بآخره. والصحيح أن هذا القول الأخير ليحيى بن سعيد وقد روى عباس وأحمد بن أبي مريم عن يحيى ثقة زاد ابن أبي مريم عنه حُجة.

وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به فقد كان يحيى القطان يضعفه)[١].

فالحديث لا يخلو إسناده من قادح، وخاصة أن أسامة تفرد به، وقد تقدم لك من كلام الأئمة ما فيه.

وعلى فرض صحته سيتبين بالوجه التالي أن معناه ليس مما نحن فيه هنا من الاستغاثة بالأموات والغائبين.

وأما حديث ابن مسعود ﷺ، فقد رواه أبو يعلى قال : حدثنا الحسن بن عمر بن شقيق حدثنا معروف بن حسان عن سعيد عن قتادة عن ابن بريدة عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (**إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله احبسوا، يا عباد الله احبسوا، فإن لله حاضرا في الأرض سيحبسه**)[٢].

ورواه الطبراني في الكبير من طريق إبراهيم بن نائلة الأصبهاني ثنا

(١) ميزان الاعتدال ١/ ٣٢٣. وانظر: تهذيب التهذيب ١/ ١٨٣.

(٢) مسند أبي يعلى ٩/ ١٧٧، ومن طريقه رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة - رقم ٥٠٨.

الحسن بن عمر بن شقيق به[١].

وهذا الإسناد معلل بأمور :

١ـ معروف بن حسان :

قال أبو حاتم : مجهول[٢].

وقال ابن عدي : منكر الحديث[٣].

٢ـ سعيد بن أبي عروبة : إمام ثقة، وهو أثبت الناس في حديث قتادة، قاله ابن معين[٤]، وأبو حاتم[٥] إلا أنه قد اختلط في آخره.

قال النسائي : من سمع منه بعد الاختلاط فليس بشيء[٦].

وقال يحيى بن معين : اختلط بعد هزيمة إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن فمن سمع منه سنة اثنتين وأربعين - أي بعد المائة - فهو صحيح السماع وسماع من سمع من بعد ذلك فليس بشيء[٧].

وهنا لا يعلم أن كان معروف روى منه قبل الاختلاط أو بعده[٨].

---

(١) المعجم الكبير ١٠/ ٢١٩.
(٢) الجرح والتعديل ٨/ ٣٢٢.
(٣) الكامل في ضعفاء الرجال ٦/ ٣٢٥.
(٤) انظر تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٧
(٥) انظر طبقات الحفاظ ١/ ٨٥
(٦) الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ١/ ٣١٤.
(٧) الكامل لابن عدي ٣/ ٣٩٤
(٨) ذكر الشيخ صالح آل الشيخ في كتابه (هذه مفاهيمنا ص ٥٢) أن معروفاً من الصغار، وعليه يكون قد روى عن سعيد بعد الاختلاط.

ثم إنه - أي سعيد - قد ذكر الحافظ أنه كثير التدليس[(١)]، وقد عنعن السند هنا.

٣- انقطاع السند بين ابن بريدة وابن مسعود رضي الله عنه .

قال الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار - عن الحديث - : (حديث غريب أخرجه ابن السني، وأخرجه الطبراني، وفي السند انقطاع بين ابن بريدة وابن مسعود)[(٢)].

وبناء على ذلك فالحديث ضعيف لا يحتج به[(٣)].

● **الوجه الثاني:**

على فرض صحة جميع الروايات السابقة فليس فيها دلالة على جواز الاستغاثة بالأموات والغائبين، بل هي إلى الدلالة على المنع من ذلك أقرب.

فالذي فيها أن النداء واقع على حاضر قريب يسمع ذلك النداء وإن لم يره المنادي، وهذا ما يدل عليه قوله: (**فإن لله حاضرا في الأرض سيحبسه**)، وقوله: (**إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة**)، وهذا يدل على أن النداء موجه إلى أولئك الحاضرين الذين يسمعون نداءه.

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله : (ومع أن هذا الحديث ضعيف - «يعني حديث عتبة» - كالذي قبله - «يعني حديث ابن مسعود» -، فليس فيه دليل على جواز الاستغاثة بالموتى من الأولياء

(١) تقريب التهذيب ص ٢٣٩.
(٢) ذكره ابن علان في الفتوحات الربانية (شرح الأذكار) ٥/ ١٥٠.
(٣) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني - رقم ٦٥٥.

والصالحين، لأنهما صريحان بأن المقصود بـ «عباد الله» فيهما خلق من غير البشر، بدليل قوله في الحديث الأول : «**فإن لله حاضرا سيحبسه عليهم**»، وقوله في هذا الحديث : «**فإن لله عبادا لا نراهم**»، وهذا الوصف إنما ينطبق على الملائكة أو الجن، لأنهم الذين لا نراهم عادة)[١].

قلت : ثم إنه لم يحدد في الأحاديث شخص بعينه، مما فيه الدلالة الواضحة على أن النداء سيسمعه خلق الله أولئك الذين يملئون أرض الله تعالى.

فلو كان النداء لشخص بعينه لأمكن المبتدعة أن يدّعوا وقوع النداء عليه وهو غائب لإمكان مناداته من كل جانب، ولكن الأمر لا كما يظنون.

● **الوجه الثالث :**

لو كان دعاء الموتى والغائبين سببا موافقا للشريعة، لكانت الدلالة إليه والحث عليه أولى من غيره ؛ إذ أن البلوى به أعم من حاجة الذين تنقطع بهم الأسفار ويضلون في الأرض الفلاة.

فكيف يكون من النبي ﷺ - وهو أرحم الناس بأُمته، وأحرصهم على كل ما هو خير لهم في الدين والدنيا - إغفالٌ عن حث أُمته على سؤال الموتى من الأنبياء والصالحين، وهذا يعمهم جميعاً، ثم هو يدلهم على ما يقع للأفراد منهم في قطع من الأرض !

---

(١) المرجع السابق ٢/ ١١٠-١١١.

أليس الأولى أن يكون ما تقوم دواعي الحاجة إليه وما هو متعلق بعموم الأُمة أحرى وأجدر أن يبيّن ويُدعى إليه ؟

ولكن، ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ [آل عمران: ٧٩].

فنبينا ﷺ قد قطع للشرك كل دابر، وسد كل باب إليه، وحمى جنابه بأمتن الحصون، فلذلك لم يقل مرة : إذا ضل أحدكم أو أصابه ضر فليأتني في قبري، أو ليدعني من مكان بعيد.

كلا، ولن يجد المبتدعة - ولو امتد لهم من أعمارهم آلافُ سنين - من ذلك ما تقر لهم به عين، أو ينعم به فؤاد، إلا أن يستنير القلب بنور التوحيد، وتستقي النفس من نبع الرسالة أعذب الورد وأزكاه.

أسأل الله تعالى أن يهدي ضال المسلمين ويردهم إليه ردا جميلا.

الشبهة السابعة:

استدلالهم بحديث : (**إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور**)، **وما كان في معناه**[١] .

والجواب :

أن هذا الحديث موضوع، لم يرو في شيء من كتب السنة.

وقد ذكره العجلوني في كشف الخفاء بلفظ : (**إذا تحيرتم في**

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية عنهم. انظر: الاستغاثة ٢/ ٤٨٢، اقتضاء الصراط المستقم ٢/ ١٩٦.

الأمور فاستعينوا من أصحاب القبور)، وقال: كذا في الأربعين لابن كمال باشا[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وما يرويه بعض الناس من أنه قال: (**إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأهل القبور**) أو نحو هذا، فهو كلام موضوع مكذوب باتفاق العلماء)[٢].

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها - أي مما أوقع عباد القبور في الافتتان بها - أحاديث مكذوبة مختلقة وضعها أشباه عباد الأصنام من المقابرية على رسول الله ﷺ تناقض دينه وما جاء به كحديث «**إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور**»، وحديث «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه»، وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام، وضعها المشركون، وراجت على أشباههم من الجهال الضلال، والله بعث رسوله ﷺ يقتل من حسن ظنه بالأحجار، وجنب أُمته الفتنة بالقبور بكل طريق)[٣].

الشبهة الثامنة:

الاستدلال بحديث «**إن لله عز وجل خلقاً خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله**»[٤].

---

(١) كشف الخفاء ١/ ٨٨.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ١٩٦.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٢١٥

(٤) انظر: مفاهيم يجب أن تصحح ص ٩٧.

والجواب على ذلك من وجهين:

• الوجه الأول:

عدم صحة الحديث.

فقد رواه الطبراني في الكبير، قال: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ثنا أحمد بن طارق الوابشي ثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر . . . وذكر الحديث مرفوعاً.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (فيه شخص ضعفه الجمهور، وأحمد بن طارق الرواي عنه لم أعرفه)[1].

قلت: والرجل الذي ضعفه الجمهور هو عبدالرحمن بن زيد بن أسلم.

جاء في تهذيب التهذيب: (قال الإمام أحمد: ضعيف.

وقال ابن معين: ليس حديثه بشيء.

وقال البخاري وأبو حاتم: ضعفه علي بن المديني جدا.

وقال أبو داود: أولاد زيد بن أسلم كلهم ضعيف، وأمثلهم عبدالله.

وقال أبو زرعة: ضعيف.

وقال أبو حاتم: ليس بقوي في الحديث، كان في نفسه صالحا، وفي الحديث واهيا.

---

(١) مجمع الزوائد ٨/ ١٩٢.

وقال ابن حبان: كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل، وإسناد الموقوف فاستحق الترك.

وقال ابن سعد: كان كثير الحديث ضعيفا جدا.

وقال ابن خزيمة: ليس هو ممن يحتج أهل العلم بحديثه لسوء حفظه، هو رجل صناعته العبادة والتقشف، وليس هو من أحلاس الحديث.

وقال الساجي: وهو منكر الحديث.

وقال الطحاوي: حديثه عند أهل العلم بالحديث في النهاية من الضعف.

وقال ابن الجوزي: أجمعوا على ضعفه)[١].

وقال الحاكم - في كتابه المدخل إلى الصحيح -: عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه[٢].

وروى الحديث ابن عدي في الكامل في ترجمة عبدالله بن إبراهيم ابن أبي عمرو الغفاري من طريقه عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم[٣].

فالحديث ضيف لا يحتج به.

---

(١) انظر في قول الأئمة فيه: تهذيب التهذيب لابن حجر ٣/ ٣٦٣.

(٢) المدخل إلى الصحيح ١/ ١٩٩.

(٣) الكامل في ضعفاء الرجال ٤/ ١٩٠.

● **الوجه الثاني:**

أنه مع ضعف الحديث فليس هو مما نحن فيه، فهو في قضاء حوائج الناس، والترغيب في ذلك، وهذا له أدلته الثابتة عن النبي ﷺ من قوله وفعله.

أما سؤال الأموات والاستغاثة بهم فهذا ما لا يدل عليه حتى تعارض به النصوص المحكمة في النهي عن ذلك.

الشبهة التاسعة:

خلطهم بين مفهومي الاستغاثة والتوسل.

فقد جعلوا الاستغاثة بمعنى التوسل، وبذلك جعلوا الحكم في الاستغاثة هو عين الحكم في التوسل، ثم يستدلون على جواز التوسل إما بما لا يصح الاستدلال به، أو بما هو دال على التوسل المشروع، ويجعلون ذلك دليلا على جواز الاستغاثة بالأموات، وطلب الحوائج منهم.

وقد تقدم كلام السبكي وابن حجر المكي والقسطلاني في تقرير التسوية بين الاستغاثة والتوسل في المعنى[١].

وقد نقل أحمد دحلان هذا المعنى عن ابن حجر المكي مقررا له[٢].

---

(١) انظر ص ٣٩١ الحاشية (١).
(٢) الدرر السنية ص ١٧.

الجواب من وجهين:

● **الوجه الأول:**

أن هذا مخالف للغة العرب، فإن ما تفهمه العرب من الاستغاثة هو طلب الغوث من المستغاث به، فيكون هو الفاعل للإغاثة.

وأما التوسل فسيأتي تفصيل الكلام عليه في بابه من هذا البحث - إن شاء الله تعالى -، ولكن المراد هنا تحرير ما خلطوه من مفاهيم.

فالتوسل: هو سؤال للمتوسل إليه بالمتوسل به، والتوسل إلى الله تعالى بأحد من خلقه هو جعل ذلك الأحد سببا في إجابة الدعاء.

أما الاستغاثة بأحد من الخلق فهو سؤال له نفسه، وطلب منه أن يقضي المطلوب بالسؤال، ومما يوضح ذلك:

١- أن فعل الإغاثة من المغيث فعل حقيقي، والإسناد فيه إذا صحت نسبته إليه إسناد حقيقي - على ما سبق تقريره في الرد على شبهة المجاز العقلي -، فإذا أغثت شخصا من غرق أو حرق أو نحو ذلك فإنك تقول: أغثته، ولا تقول توسلت له عند من يغيثه.

وبالنظر إلى المستغيث، فهو طالبٌ للإغاثة منك، لا متوسلا بك إلى غيرك في ذلك.

فالاستغاثة لها جانبان: جانب المستغيث، وجانب المغيث، وليس فيها دلالة على واسطة بينهما.

٢- أنه لو كانت الاستغاثة تسمى توسلا لجاز أن يتوسل بالكافر إذا كان حيا قادرا على حصول المطلوب؛ إذ أن الاستغاثة به جائزة، فلو

غرق مسلم في يمّ فله الاستغاثة بمن حوله ولو كان كافرا.

فهل يقول المبتدعة إن هذه الاستغاثة تسمى توسلا باعتبار أن هذا المغيث ما هو إلا سبب لحصول الإغاثة ؟!

والحاصل أن الاستغاثة هي طلب الغوث من المستغاث، وليست سؤالا به وبجاهه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله موضحا هذا الخلط الذي أحدثه المبتدعة : (ولم يقل أحد إن التوسل بنبي هو استغاثة به، بل العامة الذين يتوسلون فى أدعيتهم بأمور كقول أحدهم : أتوسل إليك بحق الشيخ فلان، أو بحرمته، أو أتوسل إليك باللوح والقلم، أو بالكعبة، أو غير ذلك مما يقولونه في أدعيتهم، يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور، فإن المستغيث بالنبي طالب منه وسائل له، والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يسأل وإنما يطلب به، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به ... وقول القائل : إن من توسل إلى الله بنبي فقال : أتوسل إليك برسولك، فقد استغاث برسوله حقيقة في لغة العرب وجميع الأمم قد كذب عليهم، فما يعرف هذا في لغة أحد من بني آدم، بل الجميع يعلمون أن المستغاث به مسئول مدعو، ويفرقون بين المسئول والمسئول به، سواء استغاث بالخالق أو بالمخلوق، فإنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على التصرف فيه)[1].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/ ١٠٥. وانظر في توضيح ذلك: الكشف المبدي لتمويه أبي الحسن السبكي لمحمد بن حسين الفقيه ص ٢٦٠.

● **الوجه الثاني:**

أن العبرة في الأحكام هو بالمعاني الصحيحة المتصورة عنها، أما تغيير الأسماء وتزيين الألقاب فلا يغير من حقيقة الأمر شيئا.

فتسمية المبتدعة الاستغاثة توسلا ما هو إلا من باب تسمية الشيء بغير اسمه الدال على معناه ليساغ.

وهذه سنة مطردة لكل مبطل، فلا يعرض باطله بما هو عليه على الحقيقة، وإنما يلجأ إلى زخرفته بالألقاب، وتزيينه بجميل الخطاب، لتصغى إليه الأفئدة، وتركن إليه الأسماع، وليكون محفوظا من إنكار المنكرين.

فما هذا بجديد أمر، ولا وليد ساعة، فقد سمى المشركون السابقون شركهم وعبادتهم غير الله تعالى تقربا إلى الله تعالى، وطلبا للشفاعة عنده كما قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ولقد سمى المنافقون نفاقهم المشين إحسانا وتوفيقاً، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٢]، فما أجمل العبارة! وما أبعدها عن المراد!

يقول الإمام أبو بكر بن العربي المالكي رحمه الله: (إن الأحكام تتعلق

بمسميات الأسماء لا بألقابها ولا بالتسمية)[١].

فالحكم على الاستغاثة بالأموات والغائبين مستندُه المعنى الصحيح المأخوذ من دلالة الشرع ووضع اللغة، أما ما يصيب الأفهام من تشوش وغبش فلا التفات إليه هنا، وإن فرحت به نفوس لا تكاد تحصى كثرة.

الشبهة العاشرة:

ما يروونه من القصص والحكايات في وقوع حصول المطلوب بسبب استغاثتهم بالأنبياء والأولياء - بل والفسقة والملحدين ـ، والالتجاء إليهم في قبورهم.

وهذا مما لا يحصيه عنهم كتاب، وكل يوم تستجد لهم فيه أحوال، حتى صار هذا الأمر هو ديدن كثير منهم في عموم شؤون حياتهم، فصاروا يتنقلون بين القبور، ففي كل يوم لهم فيه قصة وقبر، فما دام المطلوب تحقق فثم استغاثة، سواء كان القبر لولي أو ليهودي أو نصراني - كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ـ، وهكذا صار الدين يبنى على التجارب والحكايات!

والجواب على ذلك من وجوه:

- **الوجه الأول:**

أن مبنى الدين على مصادره الأساسية التي جعلها الله تعالى شرعة لعباده، وهي ما أنزله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ المتضمن أبلغ

---

(١) نقلاً عن فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٥٨.

البينات وأظهر الحجج وأوضح الدلائل، فلا يحتاجون في عبادتهم لربهم سبحانه إلى شيء بعده، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال النبي ﷺ: (**قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**)[١].

فليس لنا أن نترك النصوص الصريحة في النهي عن دعاء الموتى والاستغاثة بهم، بل والصلاة عند قبورهم إلى هذه القصص التي لا خطام لها ولا زمام.

نعم، لا ننكر القصص الموافقة للشريعة، فهي محل اعتبار وادكار ولا شك، ولكن الكلام هنا على تلك التي تعارض بها نصوص الشرع المتعلقة بأصوله التي يبنى عليها.

- **الوجه الثاني:**

أن حصول المطلوب بعد الاستغاثة بالأموات لا يعني بالضرورة أن تكون تلك الاستغاثة سببا في حصوله، بل قد يكون تعلق بالداعي من أسباب الاضطرار والافتقار ما يكون سببا أن يعطى مطلوبه، والله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب[٢].

ثم هب أن تلك الاستغاثة كانت سببا، فهل كل سبب يحصل به المطلوب يكون مشروعا؟

---

(١) رواه أحمد في المسند ١٢٦/٤، وابن ماجه في المقدمة - باب سنة الخلفاء الراشدين المهديين - رقم ٤٤.

(٢) كما في حديث ابن مسعود المتقدم ص ٤٦٠.

وقد تقدم بيان ذلك في المبحث السابق[١].

مع أن عامة المذكور من المنافع كذب يتناقله أولئك القوم، وإن صدق مرة فإنهم يتبعونه بالكذب مرات، وإذا وقع لأحدهم مرة تناسوا ما لم يقع مرات كثيرة[٢].

مع أن هذا المطلوب الذي يقع لا يكون إلا في الأمور الحقيرة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ومن رحمة الله تعالى أن الدعاء المتضمن شركا، كدعاء غيره أن يفعل، أو دعائه أن يدعو، ونحو ذلك، لا يحصل غرض صاحبه، ولا يورث حصول الغرض شبهة إلا في الأمور الحقيرة، فأما الأمور العظيمة كإنزال الغيث عند القحوط، أو كشف العذاب النازل، فلا ينفع فيه هذا الشرك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧][٣].

● **الوجه الثالث:**

لو صح الاحتجاج بحصول المطلوب على صحة العمل، لكان ما يحصل للمشركين من تحقق بعض مطالبهم باستغاثتهم بآلهتهم دليلا لهم

---

(١) انظر ص ٤٥٩-٤٦٠.
(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ٢/ ٢٠٩.
(٣) المرجع السابق. ٢/ ٢٢٤-٢٢٥.

على ما هم عليه.

فإنه قد يقع لهم من المطالب الدنيوية بعد استغاثتهم ما يرونه دليلا على صدق الطريق التي سلكوها، وصحة السبب الذي طرقوه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في جواب مجمل عن مثل هذه الشبهة : (أما المجمل : فالنقض، فإن اليهود والنصارى عندهم من الحكايات والقياسات من هذا النمط كثير، بل المشركون الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ كانوا يدعون عند أوثانهم فيستجاب لهم أحيانا، كما قد يستجاب لهؤلاء أحيانا، وفي وقتنا هذا عند النصارى من هذا طائفة، فإن كان هذا وحده دليلا على أن يرضى ذلك ويحبه فليطرد الدليل، وذلك كفر متناقض، ثم إنك تجد كثيرا من هؤلاء الذين يستغيثون عند قبر أو غيره، كل منهم قد اتخذ وثنا وأحسن الظن به وأساء الظن بآخر، وكل منهم يزعم أن وثنه يستجاب عنده ولا يستجاب عند غيره، فمن المحال إصابتهم جميعا، وموافقة بعضهم دون بعض تحكم، وترجيح بلا مرجح، والتدين بدينهم جميعا جمع بين الأضداد، فإن أكثر هؤلاء إنما يكون تأثرهم - فيما يزعمون - بقدر إقبالهم على وثنهم وانصرافهم عن غيره، وموافقتهم جميعا فيما يثبتونه دون ما ينفونه يضعف التأثير على زعمهم، فإن الواحد إذا أحسن الظن بالإجابة عند هذا وهذا لم يكن تأثره مثل تأثر من حسن الظن بواحد دون آخر، وهذا كله من خصائص الأوثان، ثم قد استجيب لبلعم بن باعوراء في قوم موسى المؤمنين، وسلبه الله الإيمان، والمشركون قد يستسقون فيسقون، ويستنصرون فينصرون)[1].

---

(١) المرجع السابق ٢/٢٠٨.

فما كل من تحصل له طلب بسبب يفعله، أو حالة يوافقها حصول المطلوب يكون ذلك دليلا على صحة ما هو عليه من حال، فعطاء الدنيا قد عمه الله تعالى لجميع خلقه، بل يقول الله تعالى: ﴿وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزّخرُف: ٣٥].

وكم افتتن كثير من الناس بمثل ذلك! ولكن من عرف مصادر الحق وتبعها فلا يضل ولا يشقى بإذن الله تعالى، وهو من أمره في ثبات وإن رأى مخالفيه يتقلبون في متع ما تحصل لهم من مطالبٍ ركنوا في تحصيلها إلى سيرة أهل الجاهلية الأولى.

الشبهة الحادية عشرة:

استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البَقَرَة: ٤٥]، على جواز الاستعانة بغير الله تعالى.

فقالوا: هذا أمر بالاستعانة بالأعراض، ولم يقل استعينوا بالله. وجعلوا ذلك دليلا على بطلان قول من ينكر الاستغاثة بالأموات والاستعانة بهم[١].

والجواب على ذلك:

أن هذا الاستدلال ما هو إلا تسويد للصحف ليقال ما أكثر الحجج وأوسع الاحتجاج، وإلا فالدليل الذي ذكروه ليس مما نحن فيه هنا في شيء.

---

(١) انظر: صلح الأخوان لابن جرجيس ص ١٣٨، البراهين للقضاعي ص ٣٨٣، شواهد الحق ص ٤٤٤، ٤٥١، المفاهيم للمالكي ص ١٧٧.

فهل فهموا منه : أن ننادي الصلاة والصبر، ونطلب منهما حوائجنا ونستغيث بهما، كما يستغاث بالأموات ويدعون ؟

إذاً، أي طريق سيجدي في النقاش ؟!

إن الصلاة والصبر لمن أعظم الأسباب التي يحبها الله تعالى والتي تقرب العبد إلى ربه، فلذلك جاء الأمر بهذا السبب الذي أخبر الله سبحانه أنه يرضاه ويحبه من عبده.

فهل يستوي سببٌ أخبر الله تعالى بمحبته له مع ما أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب لمحاربته ؟

ثم إن المبتدعة هنا كأنهم فرحوا بأن المأمور بالاستعانة به عرض من الأعراض، وحسبوا أن في ذلك إلزاماً لخصمهم بجواز الاستغاثة بالأموات.

وليكن ذلك، فمن قال إن العبرة في جواز الاستعانة هو العرضية من عدمها ؟

فما دامت الاستعانة تعلقت بمعنى صحيح لم يخالف الشرع فلا محذور إذاً، بل يكون الأمر من أفضل القربات إذا كان السبب مأموراً به.

فهنا أمران :

الأول : صحة السبب أن يكون سببا.

الثاني : أن يكون السبب مشروعا، أو أنه لا يخالف الأدلة الشرعية.

وكلا الأمرين مجتمعان في الاستعانة بالصبر والصلاة، أما الاستعانة بالأموات أو بالغائبين فإن كلا الأمرين مفقودان فيهم.

وأيضاً : ألست ترى أنك قد تستعين بفعل يقوم بغيرك، ما دام الإمكان قائماً، فما المانع من الاستعانة بفعل يقوم بنفسك أنت ؟

فهل في استعانتك بقوتك أو بقوة غيرك، أو بذكائك أو بذكاء غيرك معنى يلزم منه أن تجوز الاستعانة بالأموات والغائبين ؟

وأيضاً : إذا صح هذا في الاستعانة فإنه لا يصح في الاستغاثة ؛ لأن الاستغاثة متضمنة للطلب والنداء، بخلاف الاستعانة، فإنه لا يلزم أن تكون دائما بنداء وطلب، كاستعانة الأعمى بعصاه، واستعانة الكاتب بيده وبالقلم ... وهكذا.

فالاستعانة بالصبر والصلاة ليس فيها أي دلالة لا بالمطابقة ولا باللزوم ولا بالتضمن على جواز الاستغاثة بالأموات، ودعائهم مع الله تعالى.

الشبهة الثانية عشرة:

أن نفي الاستغاثة بالصالحين في قبورهم نفي للكرامات التي يجريها الله تعالى لهم، والكرامة باقية لهم بعد مماتهم كما كانت في حياتهم.

فالاستغاثة بهم مبنية على بقاء الكرامة في حقهم(١).

---

(١) انظر: سعادة الدارين للسمنودي ١/ ١٩٢، ٢٢٧، ٢٤٤، مصباح الأنام للحداد ص ٢٣، المنحة الوهبية لداود بن جرجيس ص ٣٢.

والجواب على ذلك من وجهين:

● **الوجه الأول:**

أنه لا تلازم بين بقاء الكرامة لهم بعد مماتهم وبين الاستغاثة بهم حتى يقال إن نفي الاستغاثة نفي للكرامة.

فالكرامة لا ينفيها أهل السنة عن عباد الله الصالحين، سواء كان ذلك في حياتهم كما يجريه الله تعالى على أيديهم من خوارق، أو بعد مماتهم كحفظ الله تعالى لقبورهم، أو أن يظهر منها ما يدل على نعيم أصحابها ونحو ذلك.

وليس في هذا أي دليل على مشروعية الاستغاثة بأصحابها؛ إذ لو كان الأمر كذلك فما الحكمة من النهي عن اتخاذ القبور مساجد؟ ولماذا لم يسارع أصحاب النبي ﷺ إلى قبره وإلى قبر صاحبيه - وهم أحق الناس بالكرامة - بالاستغاثات والتوسلات، رغم قيام الداعي لذلك من الفتن والابتلاءات التي نزلت بهم؟

أتراهم جهلوا هذا الدليل فعرفه غيرهم؟

أم تراهم عرفوه ثم تجاهلوه؟

لا هذا ولا ذاك، ولكنهم لم تختلط في أذهانهم المعاني، بل إنهم أثبتوا ما يجعله الله تعالى لعباده الصالحين من كرامة في حياتهم وبعد مماتهم، دون أن يجعلوا إثبات ذلك لازما للاستغاثة بهم في قبورهم.

ولا شك أنهم أكمل الأُمة فهماً لمسائل التوحيد والإيمان، فلينعم نفسا، وليقر عينا من سلك سبيلهم واقتفى أثرهم.

إذاً، فاللازم الذي أحدثه المبتدعة بين مسألتي الكرامة والاستغاثة لازم باطل، ليس عليه أي دليل.

وما أكثر اللوازم التي يضعونها في هذا الباب، فيقولون: إن نفي الاستغاثة بالأنبياء والصالحين في قبورهم فيه تنقص لهم، ومنافاة لمحبتهم، واعتقاد نقص منزلتهم بعد موتهم ... وهكذا،

وما أسهل تلك الإلزامات لكل من يريد طرق بابها لتزيين ما هو عليه، فقد قال قوم شعيب عليه الصلاة والسلام للمؤمنين به: ﴿...لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف: ٩٠]، وقد قال فرعون عن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿...إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦]، وقد قال النصارى: إن القول ببشرية عيسى عليه الصلاة والسلام تنقص له. وقد قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ [القصص: ٥٧].

فليس العبرة بما يوضع من إلزامات لم يقم عليها أي دليل، بله الدليل مخالف لها كل المخالفة، ولكن العبرة بأن الحق أحق أن يتبع.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وكذلك ما يذكر من الكرامات وخوارق العادات التي توجد عند قبور الأنبياء والصالحين، مثل نزول الأنوار والملائكة عندها، وتوقي الشياطين والبهائم لها، واندفاع النار عنها وعمن جاورها، وشفاعة بعضهم في جيرانه من الموتى، واستحباب الاندفان عند بعضهم، وحصول الأنس والسكينة عندها، ونزول عذاب بمن استهان بها، فجنس هذا حق، ليس مما نحن فيه، وما في قبور الأنبياء والصالحين من كرامة الله ورحمته، وما لها عند الله

من الحرمة والكرامة فوق ما يتوهمه أكثر الخلق، لكن ليس هذا موضع تفصيل ذلك، وكل هذا لا يقتضي استحباب الصلاة، أو قصد الدعاء والنسك عندها ؛ لما في قصد العبادات عندها من المفاسد التي حذر منها الشارع)[1].

● **الوجه الثاني :**

أن كثيرا مما يدعيه المبتدعة كرامة ليس هو كذلك، بل هو من تزيين الشياطين، وتلبيسهم على الناس، ليزينوا لهم عبادة صاحب القبر، والالتجاء إليه في جميع الملمات، وليستمتع بذلك أولياؤهم من الإنس فيأكلوا أموال الناس بالباطل.

فقد يدعو الناس صاحب قبر، فيرد عليهم، ويخاطبهم، بل ويخرج إليهم فيرونه، وقد يمشي معهم لقضاء حاجتهم، ويفعل لهم من الأمور ما لايشكون معه أنه هو صاحب القبر، وأن هذه المنافع حصلت لهم بدعائه والاستغاثة به.

وما علموا أن هذا من تلاعب الشياطين ببني آدم، ليوقعوهم بما يوجب الخلود في النار - عافانا الله تعالى منها برحمته -.[2]

فليس كل خارق للعادة يسمى كرامة ؛ إذ الكرامة لا يجريها الله تعالى إلا لعباده الصالحين، ﴿...ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فُصِّلَت: ١٨].

وما أكثر ما لبس الشياطين وأولياؤهم على الناس بالخوارق، تزيينا

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٢٥٥-٢٥٦.

(٢) انظر المرجع السابق ٢/ ٢٦٨.

للشرك وأسبابه، وصدا عن سبيل الله تعالى.

وبسبب ذلك وجد من الناس من يدعو أمواتاً لا يعرف من هم، بل يدعو من عرف بالزندقة والإلحاد والفسوق، بل يدعو من هو على دين اليهودية أو النصرانية !!

فحاصل الجواب : أن ههنا أمران لا بد من تحريرهما :

الأمر الأول : أن يفرق بين ما هو كرامة حقا وبين ما هو خوارق شيطانية يضل بها كثير من الناس.

الأمر الثاني : أن لا تلازم بين إثبات الكرامة وجواز الاستغاثة بالأموات والغائبين.

الشبهة الثالثة عشرة:

قولهم : إن المشركين السابقين كانوا يعبدون أصناما لا تسمع ولا تجيب، ولا كرامة لها عند الله تعالى، فلا يصح أن يقاس على فعلهم من يدعو الصالحين الذين هم أحياء في قبورهم، وأعطاهم الله تعالى الشفاعة(١).

والجواب على ذلك من وجوه :

● **الوجه الأول :**

أن هذا إقرار من المبتدعة بأن ما كان يصرفه المشركون لآلهتهم من

---

(١) انظر: صلح الأخوان لابن جرجيس ١٣٦، البراهين للقضاعي ٣٨٧، التوسل لابن مرزوق ٣٧، كشف الارتياب للعاملي ٢٩٣-٢٩٤. وانظر: الشرك في القديم والحديث لمحمد زكريا ص١٢٥٩.

الدعاء والاستغاثات هو شرك بنفسه ؛ حيث توجهوا به إلى تلك الأصنام التي لا تسمع ولا تعي، وصار اعتقاد الربوبية فيهم أمرا زائدا على ذلك ؛ إذ لو كان اعتقاد الربوبية هو محل الشرك، وإذا زال زال معه الشرك لكانت هذه الشبهة منهم تحصيل حاصل، ولم يكن في الجواب عنها لهم كبير معنى.

وإذ قد حصل الإقرار منهم بذلك، فالكلام إذاً في كون دعاء غير الله تعالى والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ضلال وشرك، سواء كان المدعو جمادا، أو كان من الأموات الصالحين أو غيرهم[1].

وهذا ما تقدم بيانه في الكلام على معنى العبادة وحقيقة شرك المشركين.

● **الوجه الثاني:**

عدم التسليم بأن المشركين ما كانوا يعبدون إلا الأصنام التي صنعوها بأيديهم، وهي أحجار لا تسمع ولا تعي.

بل قد حكى الله تعالى عبادتهم للملائكة والأنبياء والصالحين والجن، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧].

وقد جاء تفسيرها عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بذلك هم الملائكة

(١) انظر: الصراع بين الإسلام والوثنية للقصيمي ٢/ ١٦٦.

وعيسى وأمه وعزير عليهم السلام[١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم)[٢].

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فقال المشركون: الملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله، فقال لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها. قال: فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] عيسى وعزير والملائكة[٣].

ومن دلائل ذلك أيضا: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ

---

(١) تقدم تخريجه ص ٣٦٢، الحاشية (٢).

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٦٢، الحاشية (١).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤١٦ وصححه ووافقه الذهبي.

يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١٧-١٨].

قال أهل التفسير: المراد بهم المعبودون من الملائكة والإنس والجن[١].

ففي هذا دلالة بيّنة على سقوط هذه الدعوى التي تمسك بها المبتدعة.

● **الوجه الثالث:**

أن تلك الأصنام التي كان يعبدها المشركون لم تكن إلا دلائل على معبودات يرجوها المشركون ويرغبون إليها، سواء كانت تلك المعبودات أناسا صالحين يرجون شفاعتهم عند الله، أو كانت رمزا إلى شيء من الأجرام السماوية.

وقد تقدم قول الشهرستاني - في كتابه الملل والنحل - في بيان ذلك حيث يقول: (وبالجملة وضع الأصنام حيث قدر إنما هو على معبود غائب، حتى يكون الصنم المعمول على هيئته وشكله وصورته نائبا منابه، وقائما مقامه)[٢].

فالمشركون (لم يكونوا يعبدون الأحجار والأشجار، فيذبحون لها وينذرون لها، ويدعونها ويستغيثونها ويستشفعون بها، وهم يعلمون أنها أحجار وأشجار مجردة عن كل معنى، وعن كل قصد، فإن هذا ظاهر البطلان، ولكنهم عبدوها رامزين بها إلى معبودات أخرى أعظم

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ١٠/١٨/١٨٩.
(٢) الملل والنحل ٢/٦١١.

وأرقى، فقد كانوا يصنعون تماثيل الأنبياء والصالحين فيعبدونها وهم يريدون عبادة أصحابها، ويتوجهون إليها وهم يتوجهون إلى الأنبياء والصالحين أنفسهم، كما يعبد النصارى صورة المسيح، وصورة العذراء، وصور القديسين، وهم يريدون بلا شك عبادة نفس المسيح ونفس مريم ونفس القديسين، لا عبادة صورهم التي عملوها بأيديهم، والتي يحطمونها متى شاءوا بأيديهم أيضا، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام عندما ذكرت له كنيسة بأرض الحبشة، وذكر له ما فيها من الصور، قال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**»[١]، فإن القوم يصورون صور الصالحين في معابدهم فيتوجهون إليها بالعبادة، وبأنواع الضراعات والاستغاثات، وهم لا يعنون سوى التوجه إلى أصحاب الصور)[٢].

الشبهة الرابعة عشرة:

استدلالهم بكثرة الواقعين في الاستغاثات من الأُمة، وجعلهم هذا إجماعا منها، والأُمة لا تجتمع على ضلالة[٣].

---

(١) رواه البخاري في الصلاة - باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية... - رقم ٤٢٧، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة - باب النهي عن بناء المساجد على القبور... - رقم ٥٢٨ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) الصراع بين الإسلام والوثنية ٢/ ١٦٩-١٧٠

(٣) الدرر السنية ص ٣١، الصواعق الإلهية لسليمان بن عبدالوهاب ص ٣٢، شواهد الحق للنبهاني ص ١٦٠-١٧١. وانظر: صيانة الإنسان للسهسواني ص ٣٠٣، الصراع بين الإسلام والوثنية للقصيمي ٢/ ٤٩٥.

والجواب على ذلك من وجوه:

● **الوجه الأول:**

أن الأمر بلزوم الجماعة، والتمسك بطريقة السواد الأعظم لمن أعظم ما يدعو إليه أهل السُنة، ويأخذون الناس إلى سبيله، ولذلك سموا أهل السُنة والجماعة.

ولكن، ما الجماعة التي أمرنا بلزومها؟

إن من أُمِرْنا بلزوم جماعتهم هم من اختارهم الله تعالى واصطفاهم أن يكونوا مبلغين عن نبيه ﷺ خاتم الرسالات، وأفضل الشرائع، فكانوا باختيار الله تعالى لهم أفقه الناس لدينه، وأعلمهم بما أُنزل على رسوله ﷺ.

ولذلك أخبر النبي ﷺ أن الهداية والنجاة في اتباع سبيلهم، وهذا فرع عن صدق اتباعهم له عليه الصلاة والسلام، فقد جاء في بعض طرق حديث الافتراق وصف الفرقة الناجية بقوله ﷺ: (**ما أنا عليه وأصحابي**)[1].

ومن كان هذا شأنهم، فلا شك أن الخير كل الخير في التمسك بما كانوا عليه.

وهم رضوان الله عليهم لم يعرف عنهم شيء من هذه الاستغاثات التي أحدثها المبتدعة، ولو كان خيراً لكانوا أسبق الأمة إليه، ولكنهم علموا وفقهوا من نبيهم ﷺ نهيه عن ذلك كله، فكانوا على العهد الذي

---

(١) رواه الترمذي في الإيمان - باب ما جاء في افتراق هذه الأُمة - رقم ٢٦٤١ وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٤٥ رقم ٥٣٤٣.

تركهم عليه أن قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥].

فما أسعد أهل السُنة بهذا الدليل! وما أقر أعينهم بهذه الحُجة!

فالحق هو في اتباع جماعة الحق والهدى، ولئن قل بهم زمان أو مكان، فالنجاة في اتباع طريقهم ولو قل السالكون، كما دل عليه حديث حذيفة رضي الله عنه، وفيه: قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: **(فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)**[1].

● **الوجه الثاني:**

ليس معيار الحق هو الكثرة أو القلة، بل مرد ذلك إلى الآيات البينات، والحُجج الظاهرات، التي أقام الله تعالى بها الحُجة على عباده، فلم يكن لأحد من الناس حُجة على ربه تبارك وتعالى، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاء: ١٦٥].

فالحق أبلج لا تغيب حُجته بإعراض كثير من الناس عنه.

ولقد أخبر الله تعالى عن كثرة الناس الكاثرة التي أعرضت عن الإيمان والتوحيد، رغم ظهور حُجته وتمام بيانه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يُوسُف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾

---

(١) تقدم تخريجه ص ٢٤٠.

[الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿...وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿...وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم: ٨]، وقال تعالى: ﴿...وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

فالكثرة حين تفقد معنى الحق فلا يعبأ بها ولا يلتفت إليه.

فليكن المستغيثون بالأموات يملئون جنبات الأرض، فماذا كان؟ وبأي شيء يفاخر المبتدعة في ذلك؟

أتترك الآيات البينات، والنصوص الواضحات، من أجل تلك الكثرة التي غاب عن كثير من أهلها معانٍ ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ من الأمر بحماية التوحيد، وصرف العبادة وتوجّه الوجوه للذي فطر السماوات والأرض وحده لا شريك له؟

يقول الفضيل بن عياض رحمه الله: (الزم طرق الهدى، ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين)[1].

هذا محصل ما يستدل به المبتدعة على تقرير الاستغاثة بالأموات والغائبين، يظهر لك فيه الإعراض عن الدلائل الصريحة في المسألة، والتمسك بمشتبهات إذا حققتها لم تجدها إلا نقلا ضعيفاً أو موضوعا أو لا دليل فيه على المراد.

وما ذاك إلا لغلبة الاستغاثة بالأموات على قلوبهم حتى أشربتها، فعميت عن كل الدلائل الصريحة عنها، وركنت فيها إلى أوهى من بيت

(١) نقلاً عن صيانة الإنسان للسهسواني ص ٣٠٨، وقد أشار إليه ابن القيم في المدارج ٢/ ٥ دون تعيين نسبة.

العنكبوت، فصارت متعلقة بمخلوق مثلها، تلجأ إليها في كل ما دق وجل من مطالبها، ورأت في ذلك مهجة حياتها، ففرحت بها، وغابت عنها معالم التوحيد، ولذة المناجاة للواحد الأحد، واعتاضت بالمبتدع عن جميل ما شرعه الله تعالى وأبان حجته.

وما أجمل ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (إنما اشتغلت قلوب طوائف من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة، إما من الأدعية، وإما من الأشعار، وإما من السماعات، ونحو ذلك ؛ لإعراضهم عن المشروع أو بعضه - أعني لإعراض قلوبهم - وإن قاموا بصورة المشروع، وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه عاقلا لما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح، مهتما بها كل الاهتمام، أغنته عن كل ما يتوهم فيه خيرا من جنسها.

ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتدبره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدى وشفاء القلوب والبركة والمنفعة مالا يجده في شيء من الكلام، لا منظومه ولا منثوره.

ومن اعتاد الدعاء المشروع في أوقاته، كالأسحار وأدبار الصلوات والسجود ونحو ذلك، أغناه عن كل دعاء مبتدع في ذاته، أو في بعض صفاته.

فعلى العاقل أن يجتهد في اتباع السنة في كل شيء من ذلك، ويعتاض عن كل ما يظن من البدع أنه خير بنوعه من السنن، فإنه من يتحرى الخير يعطه، ومن يتوقى الشر يوقه)[(١)].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٢٦٩-٢٧٠.



الفصل الثاني

الذبح والنذر لغير الله

- **المبحث الأول:** مذهب أهل السنة في الذبح والنذر لغير الله.
- **المبحث الثاني:** مذهب المبتدعة في الذبح والنذر لغير الله.
- **المبحث الثالث:** شبهات المبتدعة في تجويز الذبح والنذر لغير الله.



المبحث الأول

مذهب أهل السنة والجماعة في النذر والذبح لغير الله تعالى

أولاً: النذر

النذر: أن يوجب العبد على نفسه ما ليس بواجب تبرعا[١].

والناذر يعقد نذره تقربا للمنذور له[٢]؛ ولذلك فإن المؤمنين لا يعقدون ذلك إلا لله تعالى تحقيقا للتوحيد، كما أخبر الله تعالى عن امرأة عمران في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

وقال تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿...فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦].

ولقد امتدح الله تبارك وتعالى الموفين بنذورهم، وهذا مقتضٍ لتحقيقهم العبادة التي صرفوها لربهم تعالى وحده، فقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: (أي يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر)[٣].

---

(١) النهاية لابن الأثير ٥/ ٣٩، المفردات للراغب ص٧٩٧، لسان العرب لابن منظور ٥/ ٢٠٠.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم ١/ ٢١٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٨٠.

ولقد سمى الله تعالى العبادات التي تكون في الحج نذورا، فقد قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٩].

قال الإمام سفيان الثوري رحمه الله: (نذور الحج، فكل من دخل في الحج فعليه من العمل فيه الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، وعرفة، ومزدلفة، ورمي الجمار على ما أمروا به)[١].

ولم يأت عن أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم أنه نذر لغير الله تعالى؛ لما هو متقرر عندهم من أن النذر عبادة يتقرب بها الناذر للمنذور له، والعبادات حق خالص لله تعالى.

ولقد نفى النبي ﷺ كل نذر إلا ما يبتغى به وجه الله تعالى، كما جاء في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: (**لا نذر إلا فيما ابتغي به وجه الله تعالى**)[٢].

ولقد بين الله تعالى ما كان عليه أهل الجاهلية من الشرك، محذرا اتباع سبيلهم، ومن ذلك ما كانوا عليه من النذر لغير الله تعالى، واحترامهم لتلك النذور، وجعلهم إياها أشد حرمة مما ينذرونه لله تعالى.

ومن أدلة ذلك: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ

---

(١) المرجع السابق ٣/ ٢٤١.

(٢) رواه أبو داود في الأيمان والنذور - باب اليمين في قطيعة الرحم - رقم ٣٢٧٣، وأحمد ٣/ ٢٢٨.

لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (أن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة، جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان، حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد، ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمر الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا هذا فقير، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه لله، فقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦])[1].

فالآية دالة على أن المشركين كان من أفعالهم الشركية ما يجعلونه لآلهتهم من الحرث والأنعام، مشاركينها رب الأرباب تعالى في ذلك.

فما نذر لغير الله تعالى يكون داخلا في هذا المعنى.

ومن أفعالهم أيضا تسييب السوائب لآلهتهم، كما قال تعالى : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

قال سعيد بن المسيب رحمه الله : (البحيرة : التي يمنع درها للطواغيت

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٥/ ٨/ ٤١.

فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . . . والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثني بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي)[١].

فهذه دلائل صريحة في أن النذر عبادة لا ينبغي صرفها إلا لله تعالى، ومن نذر لغير الله فقد شابه أهل الجاهلية والشرك.

هذا، ولقد تعددت أقوال أهل السُنة في بيان أن النذر عبادة لا تكون إلا لله تعالى، وأن صرفها لغير الله تعالى شرك.

واشتد منهم النكير على الناذرين لغير الله تعالى سواء كان المنذور له نبيا أو أدنى من ذلك، مبينين أن هذا مشابه لما كان يفعله أهل الجاهلية لأصنامهم، وما ينذر للكنائس والرهبان.

وفي بيان ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشائخ وغيرهم، أو لقبورهم، أو المقيمين عند قبورهم، فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى، سواء كان النذر نفقة، أو ذهبا، أو غير ذلك، وهو شبيه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام)[٢].

---

(١) رواه البخاري في التفسير - باب ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ...﴾ - رقم ٤٦٢٣.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/ ٥٠٤.

وقال أيضا : (والنذر للمخلوقات أعظم من الحلف بها، فمن نذر لمخلوق لم ينعقد نذره، ولا وفاء عليه باتفاق العلماء، مثل من ينذر لميت من الأنبياء والمشائخ وغيرهم، كمن ينذر للشيخ جاكير، وأبي الوفاء، أو المنتظر، أو الست نفيسة، أو للشيخ رسلان، أو غير هؤلاء، وكذلك من نذر لغير هؤلاء زيتا أو شمعا أو ستورا أو نقدا ذهبا أو دراهم أو غير ذلك، فكل هذه النذور محرمة باتفاق المسلمين ولا يجب بل ولا يجوز الوفاء به باتفاق المسلمين، وإنما يوفى بالنذر إذا كان لله عز وجل وكان طاعة، فإن النذر لا يجوز إلا إذا كان عبادة، ولا يجوز أن يعبد الله إلا بما شرع، فمن نذر لغير الله فهو مشرك أعظم من شرك الحلف بغير الله، وهو كالسجود لغير الله)[١].

ويبين رحمه الله أن هذا محل اتفاق بين العلماء فيقول : (وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله، لا لنبي ولا لغير نبي، وأن هذا النذر شرك لا يوفى به)[٢].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله (فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت، ويقولون : إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر، أي تقبل العبادة من دون الله تعالى ؛ فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له)[٣].

ويقول الحافظ أبو العباس الأذرعي رحمه الله : (وأما النذر للمشاهد

---

(١) المرجع السابق ٣٣/ ١٢٣.
(٢) المرجع السابق ١/ ٢٨٦. وانظر: منهاج السنة ٢/ ٤٤٠.
(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٢١٢).

التي بنيت على قبر ولي أو شيخ، أو على اسم من حلها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأنبياء والصالحين، فإن قصد الناذر بذلك وهو الغالب أو الواقع من قصود العاقد في تعظيم البقعة والمشهد والزاوية، أو تعظيم من دفن بها، أو نسبت إليه، أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطل غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات لأنفسها، ويرون أنها مما يدفع به البلاء، ويستجلب به النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل إنه جلس إليها، أو استند إليها عبد صالح، وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت، ويقولون: القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر. يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، وقدوم غائب، وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما باطل مطلقا، من ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء، فإن الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبركا وتعظيما، ظانا أن ذلك قربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه)[(١)].

وقال الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي رحمه الله «في شرح درر البحار»: (النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب، أو مريض، أو حاجة ضرورية، فيأتي إلى بعض الصلحاء، ويجعل على رأسه سترة، ويقول: يا سيدي فلان، إن رد الله غائبي،

---

(١) نقلاً عن «تيسير العزيز الحميد» لسليمان بن عبدالله ص ٢٠٥. وقد عزاه إلى شرحه على منهاج النووي.

أو عوفي مريضي، أو قضيت حاجتي، فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء ومن الشمع والزيت كذا، فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه منها :

أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز ؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها : أن المنذور له ميت، والميت لا يملك.

ومنها : أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر.

. . . إلى أن قال : إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها، وينقل إلى ضرائح الأولياء تقربا إليهم حرام بإجماع المسلمين)[١].

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي - في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء - : (فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان أو فلان فهو لغير الله، فيكون باطلا، وفي التنزيل : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقوله : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢] أي صلاتي وذبحي لله، كما فسر به قوله : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، وفي الحديث : (لا نذر في معصية الله)، رواه أبو داود وغيره، والنذر لغير الله إشراك مع الله . . . فالنذر لغير الله كالذبح لغيره)[٢].

---

(١) انظر: البحر الرائق لابن نجيم ٢/ ٢٩٨.
(٢) سيف الله على من كذب على أولياء الله ص ٦٢-٦٤ بتصرف.

وقال الإمام البركوي رحمه الله مبينا ما عليه القبورية من مشابهة لأهل الجاهلية في صرف النذر للمشاهد والقبور: (ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع الأماكن في قلوبهم، فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي بين شجر وحجر، وحائط وعين، ويقولون: إن هذا الشجر وهذا الحجر وهذه العين يقبل النذر.

فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له)[1].

وقد عقد الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بابا في كتاب التوحيد عنوانه: (باب من الشرك النذر لغير الله)، وقال في المسألة الثانية منه: (إذا ثبت كونه - أي النذر - عبادة لله، فصرفه إلى غيره شرك)[2].

وقال الإمام الصنعاني رحمه الله: (وأما النذور المعروفة في هذه الأزمنة على القبور والمشاهد والأموات، فلا كلام في تحريمها؛ لأن الناذر يعتقد في صاحب القبر أنه ينفع ويضر، ويجلب الخير ويدفع الشر، ويعافي الأليم، ويشفي السقيم، وهذا هو الذي كان يفعله عباد الأوثان بعينه، فيحرم كما يحرم النذر على الوثن، ويحرم قبضه؛ لأنه تقرير على الشرك، ويجب النهي عنه، وإبانة أنه من أعظم المحرمات، وأنه الذي كان يفعله عباد الأصنام، لكن طال الأمد حتى صار المعروف منكرا، والمنكر معروفا، وصارت تعقد اللواءات لقباض النذور على الأموات، ويجعل للقادمين إلى محل الميت الضيافات، وينحر في بابه النحائر من الأنعام، وهذا هو بعينه الذي كان عليه عباد الأصنام، فإنا

(١) زيارة القبور ص ٥٢.
(٢) كتاب التوحيد - ضمن مجموعة التوحيد - ١/ ٢١٧.

لله وإنا إليه راجعون)[١].

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله : (وكذلك النحر للأموات عبادة لهم، والنذر لهم بجزء من المال عبادة لهم، والتعظيم عبادة لهم، كما أن النحر للنسك، وإخراج صدقة المال، والخضوع والاستكانة عبادة لله عز وجل بلا خلاف، ومن زعم أن ثمة فرق بين الأمرين فليهده إلينا، ومن قال : إنه لم يقصد بدعاء الأموات والنحر لهم والنذر لهم عبادتهم، فقل له : فلأي مقتضى صنعت هذا الصنع ؟ فإن دعاءك للميت عند نزول أمر بك لا يكون إلا لشيء في قلبك عبر عنه لسانك ...، وهكذا إن كنت تنحر لله، وتنذر لله، فلأي معنى جعلت ذلك للميت وحملته إلى قبره ؟)[٢].

وقال الإمام الألوسي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال : (ومن أولئك عبدة القبور الناذرون لها، المعتقدون للنفع والضر ممن الله أعلم بحاله فيها، وهم اليوم أكثر من الدود)[٣].

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن رحمه الله مستدلا بقوله تعالى : ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقوله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧] على كون النذر عبادة لا يصح صرفها لغير الله

---

(١) سبل السلام ٤/ ٢١٢.
(٢) الدر النضيد ص ٣٥-٣٦.
(٣) روح المعاني ١٣/ ٦٧.

تعالى : (فوصف خواص عباده بالوفاء بالنذر، وأثنى عليهم بذلك، وفي الآية الأخرى الوعد بالإثابة والجزاء، فثبت أنه عبادة يحبها الرب ويرضاها، أي الوفاء به، وما كان كذلك فيجب إخلاصه لله، لأن صرف العبادة لغير الله شرك)[1].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : (فإن النذر عبادة، مدح الله الموفين به، وأمر النبي ﷺ بالوفاء بنذر الطاعة، وأمر سبحانه بالاستغاثة به في كل شدة ومشقة، فهذه إخلاصها إيمان وتوحيد، وصرفها لغير الله شرك وتنديد)[2].

فالحاصل : أن النذر عبادة من العبادات، فلا يجوز صرفه لغير الله تعالى، وأن ما يفعله كثير ممن تعلق بالقبور من النذور لأهلها هو ما كان يفعله أهل الجاهلية الأولى.

وحق كل ما ينذر له مع الله تعالى من الأشجار والأحجار ونحوها أن تزال وتكسر، تأسيا بأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، كما قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعال - : (وكل ما ينذر له، أو يعظم من الأحجار أو الأشجار، ونحوها، يجب أن يزال ؛ لأنه يحصل للناس به ضرر عظيم في دينهم، كما كسر الخليل عليه السلام الأصنام، وكما حرق موسى عليه السلام العجل، وكما كسر رسول الله ﷺ الأصنام وحرقها لما فتح مكة)[3].

(١) منهاج التأسيس ٢٤٠)
(٢) القول السديد ص ٥٧ (ضمن كتاب التوحيد).
(٣) مختصر الفتاوى المصرية ٥٥١.

هذا، ولا بد من التنبيه هنا إلى أن ما تقدم من حكم هو في النذر المصروف لغير الله تعالى.

أما ما ينذر لله تعالى، لكن يكون لمقصد فيه معصية له تعالى، فهذا ليس بشرك، بل هو معصية، متعرض صاحبها للوعيد، ولا يجوز الوفاء به؛ لقول النبي ﷺ: (**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**)[1].

ومن ذلك ما يفعله بعض الجهلة من صرف نذورهم التي ينذرونها لله تعالى في مصارف لا يرضاها، كجعلهم مصرفها على السدنة والمجاورين عند القبور؛ وذلك لما فيه من الإعانة على العكوف عند القبور، وأعمال الجاهلية.

يقول الشيخ عبد اللطيف عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: (إذا نذر لله، وجعل مصرفه على السدنة والمجاورين عند القبور، فهو نذر معصية لا يجوز، ويجب صرفه في القرب الشرعية، كالحجاج والمعتكفين في المساجد، وقد ذكر هذا غير واحد، والمنع منه لما فيه من الإعانة على العكوف عند القبور، الذي هو من أكبر الوسائل والذرائع إلى عبادتها ودعائها، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢])[2].

ويقول صاحب كتاب «التوضيح عن توحيد الخلاق» في بيان الفارق بين النذرين: (والنذر غير الجائز قسمان:

---

(١) رواه البخاري في الأيمان والنذور - باب النذر في الطاعة - رقم ٦٦٩٦.
(٢) منهاج التأسيس ٢٤٢).

أحدهما : نذر فعل معصية، كشرب الخمر، وقتل معصوم، وصوم يوم عيد، فيحرم الوفاء به . . .

الثاني : النذر لغير الله، كالنذر لإبراهيم الخليل ﷺ أو محمد النبي الأمي ﷺ، أو ابن عباس رضي الله عنهما، أو عبد القادر، أو الخضر . . .، فلا خلاف بين من يعتد به من علماء المسلمين أنه من الشرك الاعتقادي؛ لأن الناذر لم ينذر هذا النذر الذي لغير الله إلا لاعتقاده في المنذور له أنه يضر وينفع ويعطي ويمنع، إما بطبعه، وإما بقوة سببية فيه، ويجلب الخير والبركة، ويدفع الشر والعسرة، والدليل على اعتقاد هؤلاء الناذرين وشركهم حكيهم وقولهم إنهم قد وقعوا في شدائد عظيمة، فنذروا نذرا لفلان وفلان، أصحاب القبور من الأنبياء والمشايخ، وللغار الفلاني، والشجرة الفلانية، فانكشفت شدائدهم، واستراحت خواطرهم، فقد قام في نفوسهم أن هذه النذور هي السبب في حصول مطلوبهم، ودفع مرهوبهم.

ومن تأمل القرآن وسُنة المبعوث به ﷺ، ونظر أحوال السلف الصالح، علم أن هذا النذر نظير ما جعله المشركون لآلهتهم في قوله تعالى : ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦][1].

ثانيا : الذبح

وأما الذبح لغير الله تعالى، فهو - أيضا - من أعمال الشرك التي كان عليها أهل الجاهلية.

والمقصود به هنا ما يذبح قربة وتنسكا، أما ما يذبح توسعا للنفس،

---

(١) التوضيح عن توحيد الخلاق ٣٨٢-٣٨٣).

وإكراما للضيف، وهو ما يسمى الذبح للحم، فليس الكلام عليه هنا، وهذا محل الكلام عليه كتب الفروع، وهو مما أباحه الله تعالى إذا استوفى شروط الذكاة، وكان مما ذكر اسم الله تعالى عليه[١].

فالذبح على وجه التنسك والقربة عبادة لا ينبغي صرفها إلا لله تعالى.

والدلائل على أن الذبح عبادة، وأن صرفها لغير الله تعالى شرك كثيرة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

والنسك في الآية بمعنى الذبح[٢].

فالآية دالة على أن الذبح لله تعالى وحده هو الطريق المستقيم، والدين القويم الذي عليه أنبياء الله تعالى ورسله، بخلاف ما كان عليه أهل الجاهلية من صلاتهم لغير الله، وذبحهم لغير الله تعالى.

يقول الإمام ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: «قلْ» يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم ١٣/ ١٤١، روضة الطالبين للنووي ٣/ ٢٠٥، اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ٢/ ٦٤، الموافقات للشاطبي ٢/ ٢١٠، تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبدالله ص ١٩٢، الشرك ومظاهره للميلي ٣٦٥، القول المفيد لابن عثيمين ١/ ٢١٥.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ٥/ ٨/ ١١٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/ ٩٩، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٢٢٢.

والأصنام، الذين يسألونك أن تتَّبع أهواءهم على الباطل من عبادة الآلهة والأوثان : ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ يقول : وذبحي، ﴿وَمَحْيَايَ﴾ يقول : وحياتي، ﴿وَمَمَاتِي﴾ يقول : ووفاتي، ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يعني أن ذلك كله له خالصا دون ما أشركتم به أيها المشركون من الأوثان، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في شيْءٍ من ذلك من خلقه، ولا لشيء منهم فيه نصيب ؛ لأنه لا ينبغي أن يكون ذلك إلا له خالصا ؛ ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ يقول : وبذلك أمرني ربي، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ يقول: وأنا أوّل من أقرّ وأذعن وخضع من هذه الأمة لربه، بأن ذلك كذلك)[1].

٢- قوله تعالى : ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢]، ففي هذه الآية يأمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بإخلاص صلاته ونحره لربه وحده.

روى ابن جرير بسنده عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في هذه الآية : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ١-٢] يقول : إن ناسا كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، فإذا أعطيناك الكوثر يا محمد، فلا تكن صلاتك ونحرك إلّا لي.

ثم قال ابن جرير بعد ذكر الأقوال في معنى النحر في الآية : (وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال : معنى ذلك : فاجعل صلاتَك كلَّها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكرا له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كُفْء له، وخصك به، من إعطائه إياك الكوثر.

وإنما قلت : ذلك أولى الأقوال بالصواب في ذلك ؛ لأن الله جلّ

(١) جامع البيان ٥/ ٨/ ١١١-١١٢).

ثناؤه أخبر نبيه ﷺ بما أكرمه به من عطيته وكرامته، وإنعامه عليه بالكوثر، ثم أتبع ذلك قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، فكان معلوما بذلك أنه خصه بالصلاة له، والنحر على الشكر له على ما أعلمه من النعمة التي أنعمها عليه، بإعطائه إياه الكوثر، فلم يكن لخصوص بعض الصلاة بذلك دون بعض، وبعض النحر دون بعض وجه ؛ إذ كان حثا على الشكر على النِّعم.

فتأويل الكلام إذن : ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ إنعاما منا عليك به، وتكرمة منا لك، فأخلص لربك العبادة، وأفرد له صلاتك ونُسُكَك، خلافا لما يفعله من كفر به، وعبد غيره، ونحر للأوثان)[١].

ولقد كان النبي ﷺ أكمل الناس تحقيقا لهذا الإخلاص الذي أمره الله تعالى به، فلم يكن شيء من ذبحه مصروفا إلى غير الله تعالى، لا لنبي ولا غيره.

وعلى ذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم، فلم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح لأحد من المخلوقين، بل لم يكونوا يذبحون له عليه الصلاة والسلام، وهم يعلمون أنه ﷺ أكرم الخلق على الله تعالى، وأحبهم إليه ؛ وذلك لكمال علمهم بما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ، وتحقيقهم للمقصد الأسمى الذي خلق الجن والأنس من أجله وهو تحقيق التوحيد الخالص لله عز وجل.

فمن ذبح لغير الله تعالى فقد شاقق الرسول ﷺ، واتبع غير سبيل المؤمنين، وكان حظه مشابهة أبي جهل وأبي لهب وسائر الطائفة

---

(١) جامع البيان ١٥/ ٣٠/ ٣٢٧-٣٢٨.

الجاهلية الممقوتة عربا وعجما.

٣- ما ورد من النهي عن الذبح لغير الله تعالى، وتعليق الوعيد الشديد على ذلك، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: قلنا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أخبرنا بشيء أسره إليك رسول الله ﷺ فقال: ما أسر إليّ شيئا كتمه الناس، ولكني سمعته يقول: «**لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثا، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير المنار**»(١).

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث: (وأما لذبح لغير الله، فالمراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى، كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما، أو للكعبة ونحو ذلك، فكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة، سواء كان الذابح مسلما أو نصرانيا أو يهوديا، نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له كان ذلك كفرا، فان كان الذابح مسلما قبل ذلك صار بالذبح مرتدا)(٢).

ومن ذلك ما جاء عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: دخل رجل الجنة في ذباب ودخل النار رجل في ذباب، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب. قال: ليس عندي شيء. فقالوا

---

(١) رواه مسلم في الأضاحي - باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله - رقم ١٩٧٨، والنسائي في الضحايا - باب من ذبح لغير الله عز وجل - رقم ٤٤٢٢.
(٢) شرح النووي لصحيح مسلم ١٣/ ١٤١.

له : قرب ولو ذبابا. فقرب ذبابا فخلوا سبيله، قال : فدخل النار. وقالوا للآخر : قرب ولو ذبابا. قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل. قال : فضربوا عنقه، فدخل الجنة(١).

٤- ما ذمه الله تعالى من أعمال الشرك التي كان عليه أهل الجاهلية، ومن ذلك ذبحهم لغير الله تعالى.

كما في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وقد جاء في معنى الآية أنهم كانوا يذبحون لله تعالى، ويذبحون لآلهتهم، فما ذبحوه للآلهة فإنهم يأكلون منه وإن لم يذكروا اسم الله تعالى عليه، أما ما ذبحوه لله تعالى فلا يأكلونه حتى يذكروا معه أسماء الآلهة.

نقل هذا المعنى ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - رحمهم الله تعالى -.(٢)

ولقد نهى النبي ﷺ عن سُنة أهل الجاهلية في الذبائح.

ومن ذلك نهيه ﷺ عن الفرع الذي كان يفعله أهل الجاهلية لآلهتهم بأن يذبحوا أول النتاج لآلهتهم رجاء البركة فيه.

فقد قال ﷺ : (لا فرع ولا عتيرة)(٣).

---

(١) رواه أحمد في الزهد ص ١٥-١٦، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٤٧٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٤٨٥، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٠٣.
(٢) جامع البيان ٥/ ٨/ ٤٣. وانظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠١.
(٣) رواه البخاري في العقيقة - باب الفرع - رقم ٥٤٧٣، ومسلم في الأضاحي - باب الفرع والعتيرة - رقم ١٩٧٦.

قال الإمام الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ : الفرع أول نتاج كان ينتج لهم كانوا يذبحونه لطواغيتهم، والعتيرة في رجب[١].

ومن ذلك ما رواه أبو داود عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله ﷺ : (**لا عقر في الإسلام**)[٢].

قال أبو داود - بعد الرواية مباشرة - : قال عبد الرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة .

وقال ابن الأثير في النهاية : (كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى، أي ينحرونها، ويقولون : إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته، فنكافؤه بمثل صنيعه بعد وفاته)[٣].

وقد نهى الله تعالى عن أكل ما أهل لغير الله به، وما ذبح على النصب، وهذا ما كان يفعله أهل الجاهلية في ذبائحهم، حيث كانوا يهلون لغير الله تعالى، أي يذكرون أسماء آلهتهم على ذبائحهم، ويذبحون على النصب، وهي حجارة حول الكعبة، وقد كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب[٤].

فهذه الأمور التي تصنع في الذبائح، كلها من أعمال الجاهلية التي كان أهلها غارقين في الشرك والضلال.

---

(١) بعد رواية البخاري السابقة. وانظر: فتح الباري ٩/ ٥٩٧.
(٢) رواه أبو داود في الجنائز - باب كراهية الذبح عند القبر - رقم ٣٢٢٢.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٢٧١.
(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٩.

فمن ذبح شيئا لغير الله تعالى، متقربا به إليه فقد شابه أهل الجاهلية بفعله، وصدق عليه حكمهم، حتى ولو ذكر اسم الله تعالى على ذبيحته، ما دامت الذبيحة قد أهلّها لغير الله تعالى ؛ إذ كان كمن يصلي لصاحب القبر ويستفتح بالتكبير.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد بيان معنى ما ذبح على النصب : (فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح[1] عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله)[2]

ويقول الشيخ صديق حسن خان رحمه الله : (وقد ورد في الحديث «**ملعون من ذبح لغير الله**»، أي سواء سمى الله عند ذبحه أو لم يسم ؛ لأن ما اشتهر من الحيوان على اسم غيره سبحانه وتعالى، ورفع الصوت به باسم الفلاني، فلا ينفع بعد ذلك ذكر اسمه تعالى عند ذبحه ؛ لأن هذا الحيوان قد انتسب إلى ذلك الغير، وحدث فيه من الخبث ما زاد على خبث الميتة، فإنها لم يذكر عليها اسم غير الله، وهذا الحيوان قد عين ووجه لغير خالقه، ثم ذبح له، وهو الشرك بعينه، وحين سرى هذا الخبث وأثر فيه فلا يحل أكله بحال وإن ذكر اسم الله عليه، كما لو ذبح الكلب أو الخنزير - مثلا - على اسمه لا يحل)[3].

---

(١) هكذا في التفسير، ولعل الكلمة : «فالذبح» وهي متعلقة بما بعدها، فتحرفت إلى «في الذبح» فأوهمت التعلق بما قبلها، والله أعلم.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٣.

(٣) الدين الخالص ٢/ ٥٩-٦٠، وانظر ٢/ ٦٠-٦٣.

٥- ما جاء من النهي عن الذبح لله تعالى بمكان تعظم فيه شعائر أهل الجاهلية، مما يدل من باب أولى على التشديد في الذبح لغير الله تعالى.

ومن ذلك ما روى ثابت بن الضحاك ﷺ قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلا ببوانة، فأتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة، فقال النبي ﷺ: (**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**) قالوا: لا. قال: (**هل كان فيها عيد من أعيادهم؟**) قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: (**أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**)[1].

فإذا كانت مشابهة المشركين في ظاهر الحال في الذبح في الأماكن التي يذبحون فيها لأوثانهم منهيا عنه، هذا مع أن الذبح لم يكن إلا لله تعالى، فكيف بمن وافق المشركين في الذبح نفسه، فأهل ذبيحته لغير الله.؟

لا شك أنه أشد في النهي، وأعظم في الوعيد.

هذا، والنقول عن أئمة أهل السُنة متضافرة في تقرير أن الذبح عبادة لا ينبغي صرفها إلا لله تعالى، وقد تقدم طرف منها.

ومن ذلك قول قتادة رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾: (وإنا والله ما نعلمه كان شرك قط إلا بإحدى ثلاث: أن يدعو مع الله إلها آخر، أو يسجد لغير الله، أو يسمي الذبائح

---

(١) رواه أبو داود في الأيمان والنذور - باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر - رقم ٣٣١٣.

لغير الله)[١].

ويقول ابن عطية رحمه الله في تفسيره قول الله عز وجل: «وما أهل لغير الله به»: (ما ذبح لغير الله تعالى، وقصد به صنم أو بشر من الناس كما كانت العرب تفعل، وكذلك النصارى، وعادة الذابح أن يسمي مقصوده ويصيح به، فذلك إهلاله)[٢].

وقال - أيضا -: (رأيت في أخبار الحسن بن أبي الحسن أنه سئل عن امرأة مترفة صنعت للعبها عرسا، فنحرت جزورا، فقال الحسن: لا يحل أكلها، فإنها إنما نحرت لصنم)[٣].

ويقول البربهاري رحمه الله: (ولا يخرج أحد من أهل القبلة من الإسلام حتى يرد آية من كتاب الله عز وجل، أو يرد شيئا من آثار رسول الله ﷺ، أو يصلي لغير الله، أو يذبح لغير الله، وإذا فعل شيئا من ذلك فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام)[٤].

ويقول النووي رحمه الله: (اعلم أن الذبح للمعبود وباسمه نازلة منزلة السجود له، وكل واحد منهما نوع من أنواع التعظيم والعبادة المخصوصة بالله تعالى الذي هو المستحق للعبادة، فمن ذبح لغيره من حيوان أو جماد كالصنم على وجه التعظيم والعبادة، لم تحل ذبيحته، وكان فعله كفرا، كمن سجد لغيره سجدة عبادة)[٥].

---

(١) جامع البيان للطبري ١٨/٨/٥.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ١٥٠.
(٣) المحرر الوجيز ١/ ٢٤٠.
(٤) شرح السنة ص ٣١.
(٥) روضة الطالبين ٣/ ٢٠٥-٢٠٦.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في بيان أن ما ذبح لغير الله تعالى يحرم أكله وإن كان الذابح كتابيا ؛ لأن ذلك شرك بالله تعالى : (لو ذكى الكتابي في غير المحل المشروع لم تبح ذكاته، ولأن غاية الكتابي أن تكون ذكاته كالمسلم، والمسلم لو ذبح لغير الله، أو ذبح باسم غير الله لم يبح، وإن كان يكفر بذلك، فكذلك الذمي ؛ لأن قوله تعالى : ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥] سواء، وهم وإن كانوا يستحلون هذا ونحن لا نستحله، فليس كل ما استحلوه يحل لنا، ولأنه قد تعارض دليلان حاظر ومبيح[١]، فالحاظر أولى أن يقدم، ولأن الذبح لغير الله أو باسم غيره قد علمنا يقيناً أنه ليس من دين الأنبياء عليهم السلام فهو من الشرك الذي أحدثوه، فالمعنى الذي لأجله حلت ذبائحهم منتف في هذا والله تعالى أعلم)[٢].

ويقول - أيضا - مبينا أن الذبح عبادة من أجلِّ العبادات، وذلك في الكلام على قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢]: (أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين، وهما الصلاة و النسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار، وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عدته وأمره وفضله وخلفه . . . والمقصود أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به إلى الله، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب، لأن فعل ذلك و هو الصلاة و النحر سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله إياه من الكوثر والخير الكثير، فشكر المنعم عليه وعبادته أعظمها هاتان العبادتان . . . وقد امتثل النبي ﷺ

---

(١) يريد بذلك النهي عن أكل ما أهل لغير الله به، وإباحة طعام أهل الكتاب.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٠.

أمر ربه، فكان كثير الصلاة لربه كثير النحر، حتى نحر بيده في حجة الوداع ثلاثا و ستين بدنة، وكان ينحر في الأعياد و غيرها)[(١)].

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أوجها في تحريم ذبائح أهل الكتاب إذا كانت مما أهل به لغير الله تعالى، مبينا أن ذلك منهم شرك به تعالى.

ومما ذكره في ذلك: (الرابع: أن ما أهل به لغير الله لا يجوز أن تأتي شريعة بإباحته أصلا؛ فإنه بمنزلة عبادة غير الله، وكل ملة لا بد فيها من صلاة ونسك، ولم يشرع الله على لسان رسول من رسله أن يصلي لغيره ولا ينسك لغيره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

الخامس: أن ما أهل به لغير الله، تحريمه من باب تحريم الشرك، وتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير من باب تحريم الخبائث والمعاصي)[(٢)]

وقد تقدم من كلام الصنعاني والشوكاني - رحمهما الله تعالى - في النذر ما هو متضمن حكم الذبح لغير الله تعالى، وأنه من أعمال المشركين[(٣)].

ويقول الإمام الشوكاني - أيضا - : (قال بعض أهل العلم: إن إراقة دماء الأنعام عبادة؛ لأنها إما هدي أو أضحية أو نسك، وكذلك

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٦/ ٥٣١-٥٣٢)
(٢) أحكام أهل الذمة ١/ ٢٥٥)
(٣) انظر ص ٥٣٨-٥٣٩.

ما يذبح للبيع ؛ لأنه مكسب حلال، فإنه عبادة، ويتحصل من ذلك شكل وضعي، هو : إراقة دم الأنعام عبادة، وكل عبادة لا تكون إلا لله، فإراقة دم الأنعام لا تكون إلا لله، ودليل الكبرى قوله تعالى : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿...فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥](١).

ويقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن - بعد ذكره لحديث طارق بن شهاب المتقدم - : (فقف وتأمل حكمة الشريعة وسرها في إخلاص العبادة والتعظيم الذي لا ينبغي إلا لله، ولو بأحقر شيء كالذباب، فكيف بكرائم الأموال ! والله المستعان)(٢).

ويقول الشيخ صديق حسن خان رحمه الله : (فلا يجوز أن يذبح حيوان على اسم أحد كائنا من كان، وفي أي مكانة ومنزلة من الصلاح والفلاح كان، إلا على اسم الذي خلق ذلك الحيوان وهذا الإنسان، ومن خالف هذا، أو ذبحه على اسم غيره ولغيره فقد أشرك بالله، وصار ملعونا على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد كثر الذبح في هذا الزمان على أسماء سموها هؤلاء وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، فاستحوذ عليهم الشيطان، وذهب من أكثر الناس الإيمان، فإنا لله وإنا إليه راجعون)(٣).

---

(١) الدر النضيد ص ١٧-١٨.
(٢) منهاج التأسيس ٢٤٧.
(٣) الدين الخالص ٢/ ٨٨.

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في بيان أن صرف أي فرد من أفراد العبادة لغير الله تعالى شرك: (فإن نصوص الكتاب والسُنة صريحة في الأمر بالذبح لله وإخلاص ذلك لوجهه، كما هي صريحة بذلك في الصلاة، فقد قرن الله الذبح بالصلاة في عدة مواضع من كتابه، وإذا ثبت أن الذبح لله من أجل العبادات، وأكبر الطاعات، فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائرة الإسلام)(١).

والحاصل أن مسألة الذبح والنذر لغير الله تعالى من المسائل الواضحة الدلالات، ومذهب أهل السنة والجماعة فيها هو صريح ما دل عليه الكتاب والسنة.

فالذبح والنذر لغير الله تعالى من أعمال الشرك التي كان عليها أهل الجاهلية، والتي زينها الشيطان لكثير ممن صدهم عن معالم الرسالة، وغلبت عليهم أهواؤهم، فصار الذبح للأموات والنذر لهم هجيراهم عند كل حاجة يطلبونها، أو منفعة يرومونها، أو ضرر يرقبون زواله.

فنسأل الله تعالى الهدى والتقى، والإخلاص له في القول والعمل.

❁❁❁❁❁

---

(١) القول السديد - ضمن كتاب التوحيد - ص ٥١.

المبحث الثاني

مذهب المبتدعة في الذبح والنذر لغير الله تعالى

لقد تقدم في المبحث السابق بيان أن النذر والذبح من العبادات التي لا ينبغي صرفها لغير الله تعالى.

وقدمت الأدلة الصريحة في تقرير هذا المعنى، وكذلك ما يؤيدها من كلام أهل العلم.

ورغم ما في هذا المعنى من وضوح، وما في أدلته من صراحة، إلا أن المبتدعة عموا عن ذلك، فصاروا يقررون جواز صرف النذور والذبائح لغير الله تعالى، من الأنبياء والصالحين وغيرهم.

حتى صار كثير من الناس ممن اغتروا بتلك التقريرات يسارعون في ذلك الأمر، فلا يكاد يخلوا قبر معظم عندهم من تلك النذورات والنحائر التي لا تكاد تحصى كثرة، وصارت الأموال إلى غير مصارفها التي شرعها الله تعالى.

فالمبتدعة قد قرروا جواز النذر والذبح لغير الله تعالى، جاعلين ذلك سبيلا إلى قضاء الحوائج، ودفع الكرب، مسبغينه لباس الاحترام والتقدير للأنبياء والصالحين لتصغى إليه الأفئدة، وترضاه الأنفس، وتلين له الأسماع.

وينكرون أشد الإنكار أن يكون ذلك من الشرك في شيء.

ومن أمثلة ذلك تقرير السمنودي لذلك في كتابه «سعادة الدارين»،

حيث عقد باباً يبين فيه جواز الذبائح والنذورات للأنبياء والصالحين متكلفا جعل ذلك من باب إهداء الثواب لهم وشكر الله تعالى على إيجادهم، مقرراً أنه لا شيء من ذلك يوجب التكفير إلا إذا نُوي به العبادة[١].

ويستنكر علوي الحداد على الشيخ محمد بن عبدالوهاب بمنعه النذر للأكابر، فيقول: (وأما نص النجدي بمنع النذر مطلقا للأكابر، فمن افترائه على كتب الشريعة، وجهله المركب)[٢].

وينفي داود بن جرجيس - فيما ذكره عنه الشيخ عبدالله أبا بطين في رده عليه - أن يكون الذبح والنذر للأموات والغائبين من الشرك[٣].

ويعقد القضاعي في كتابه «البراهين الساطعة» فصلا في توضيح بطلان القول بأن الذبح والنذر للميت شرك[٤].

ويعقد محمد الفقي في كتابه «التوسل والزيارة» مبحثا يقرر فيه أن النذر للأنبياء والأولياء وغيرهم، من القرب التي يدعو إليها الدين[٥].

فالحاصل، أنهم قرروا تلك النذورات والنحائر التي يفعلها كثير من العوام عند قبور الصالحين، معتذرين لذلك باعتذارات باردة، بأن ذلك من باب إهداء الثواب للميت - كما سيأتي في شبهاتهم -، وهم

---

(١) سعادة الدارين ٢/ ٣٧-٥٦.
(٢) مصباح الأنام ٦٨ مكتبة الحقيقة - استنبول.
(٣) مقدمة تأسيس التقديس ص ١٩.
(٤) البراهين الساطعة ص ٤٥٦.
(٥) التوسل والزيارة ٢٤٢.

يدركون الحال التي يكون بها الناذرون من توجه ورغبة إلى المنذور إليه، مما يدل على حقيقة الباعث على تلك النذور والذبائح، معيدين بذلك الصورة التي كان عليها أهل الجاهلية الأولى[١].

ولقد آل الأمر بسبب ذلك إلى تعلق كثير من الناس بالأموات، واللجأ إليهم، واعتقاد أن النذور لهم وإسالة دماء النحائر على قبورهم من أعظم الأسباب في حصول المطلوب، ودفع المكروب، واستجلاب البركات.

يقول الشيخ مبارك الميلي ﵀ في تصوير هذه الحال التي أضحى عليها كثير من العوام: (وقد أصبح الناس في جاهليتهم الحاضرة ينذرون لمن يعتقدون فيه من الأحياء والأموات والمزارات الأموال والثياب والحيوانات والشموع والبخور والأطعمة وسائر التمولات، ويعتقدون أن نذرهم سبب يقربهم من رضى المنذور له، وأن لذلك المنذور له دخلا في حصول غرضهم، فإن حصل مطلوبهم ازدادوا تعلقا بمن نذروا له، واشتدت خشيتهم منه، وبذلوا أقصى طاقتهم في الاحتفال بالوفاء له، ولم يستسيغوا لأنفسهم التقصير أو التأخير كما استساغته جاهلية العرب في تعويض الغنم بالظباء؛ فالعرب مع أصنامهم أقل هيبة من هؤلاء مع الأولياء، وإن تساوى الفريقان في حق من ألّهوه أكثر من اعتبار حق الإله الحق؛ ذلك أن جاهليتنا على شدة اهتمامها بحق أوليائها، منها من لا يبالي مع ذلك بالصلاة أو بالزكاة، أو بهما معا ...)[٢].

---

(١) وانظر الوهابية في الميزان ١٣١، والوهابية دعاوى وردود للطبسي ١٩٧.

(٢) رسالة الشرك ومظاهره ص ٣٩٧-٣٩٨.

فانظر إلى أي شيء آل ما قرره المبتدعة من تجويزهم الذبح والنذر لغير الله تعالى، والذي قد يبدأ بإنكار وصف الشرك عليه، ثم هو بعد ذلك من القربات وأعظم أسباب البركات، والله تعالى المستعان.



المبحث الثالث

شبهات المبتدعة في تجويز الذبح والنذر لغير الله تعالى

يمكن إجمال شبهاتهم فيما يلي:

الشبهة الأولى:

أن الذابحين والناذرين لغير الله تعالى لا يعتقدون في المذبوح والمنذور لهم الخالقية التي لا تكون إلا لله تعالى، وعليه فلا يكون - عندهم - ما فعلوه شركاً يخرجهم عن دائرة التوحيد[١].

والجواب:

أن هذه الشبهة يستصحبونها في تقرير كل مخالفة واقعة في توحيد العبادة، وهي مبنية على أن العبادة لا تكون إلا باعتقاد الخالقية في المعبود، وأنه مستقل بالنفع والضر، وبالتالي فالذبح والنذر ما داما خاليين عن هذا القيد فلا يكونان عبادة، وعليه فلا يكون صرفهما لغير الله تعالى شركا.

وقد تقدم الكلام مستوفى على هذا القيد الذي جعلوه في تعريف العبادة، وبيان أن العبادة أوسع منه، بما هو مبطل لهذه الشبهة هنا.

ثم إن الناظر إلى حال الناذرين يجد فيهم ما يدل بوضوح على اعتقاد تصرف المنذور له في النفع والضر، بما هو مكذب لهذه

---

(١) انظر: البراهين الساطعة للقضاعي ص ٤٥٦، التوسل والزيارة للفقي ٢٤٢.

الدعوى.

يقول الشيخ محمود شكري الألوسي رحمه الله في بيان ذلك : (والدليل على اعتقادهم هذا : قولهم : وقعنا في شدة فنذرنا لفلان فانكشفت شدتنا، ويقول بعضهم : هاجت علينا الأمواج فندبت الشيخ فلان، ونذرت له الشيء الفلاني فسلمت سفينتنا، وتراهم إذا هم لم يفوا، وحصلت لهم بعض الآلام، قيل للناذر أوف بنذرك وإلا يفعل بك الشيخ كذا وكذا، فيسارع بالوفاء ولو أنه يستدين في ذمته، ولو كان مديونا أو مضطرا، وربما يموت وهو مديون، كل ذلك خوفا من المنذور له، وطلبا لرضاه.

وهل هذا إلا من سوء اعتقاده، وقلة دينه وكساده، وغاية جوابه إذا عذلته أن يقول لك : مقصودي يشفعون لي. والله لا تخطر الشفاعة على قلبه، ولا يعرف إلا أن ذلك المنذور له هو القاضي لحاجته، والمهيء لبغيته)[1].

الشبهة الثانية :

شبهة إهداء الثواب.

وهم بذلك يحملون كل ما يقع من ذبح ونذر لغير الله تعالى على معنى إهداء ثواب ذلك إلى الميت، شأنه شأن الوقف الذي يوقف له، والصدقة التي تجرى له.

ويقولون : وإن كان الناذر يقول : نذرت لفلان، وذبحت لفلان.

---

(١) فتح المنان - تتمة منهاج التأسيس - ٤١٨.

فإن في قوله مجازا، ومراده : أني نذرت لله، وذبحت لله، على أن يكون ثوابه لفلان[١].

ويستدلون لذلك بفعل النبي ﷺ حين ذبح ﷺ عن نفسه وعن أهل بيته وعن أُمته[٢].

وكذلك ما ورد عن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله إن أُم سعد ماتت فأي الصدقة أفضل؟ قال : «الماء»، قال : فحفر بئرا، وقال : هذه لأُم سعد[٣].

والجواب من وجوه :

- **الوجه الأول :**

أن في شبهتهم هذه مداخلة بين المعاني، وخلط بين المفاهيم، فليس الكلام هنا عن إهداء الثواب للميت، فهذا أمر - سواء كان بنذر أو بغير نذر - ليس هو مراد أهل السُنة في إنكارهم للنذر والذبح لغير الله تعالى.

---

(١) انظر: الردود الشاملة لمحمد إبراهيم سالم ٢٤٣، الوهابية في الميزان لجعفر السبحاني ١٣١، الوهابية دعاوى وردود لنجم الدين الطبسي ١٩٨.

(٢) كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ الأضحى بالمصلى، فلما قضى خطبته نزل من منبره وأتي بكبش فذبحه رسول الله ﷺ بيده وقال: بسم الله والله أكبر هذا عني وعمن لم يضح من أمتي.
رواه أبو داود في الضحايا - باب في الشاة يضحى بها عن جماعة - رقم ٢٨١٠، والترمذي في الأضاحي - باب العقيقة بشاة - رقم ١٥٢١، وابن ماجه في الأضاحي - باب أضاحي رسول الله ﷺ - رقم ٣١٢١.

(٣) رواه أبو داود في الزكاة - باب في فضل سقي الماء - رقم ١٦٨١.

بل الكلام على من يصرف نذره وذبحه لغير الله تعالى كما كان يفعله أهل الجاهلية، بأن يجعلوا لمعبوديهم نصيبا من الحرث والنعم تقربا وتنسكا.

فمن عقد نذرا أو نحر نحرا، فهو يعلم مراد نفسه من ذلك، فإن صرف ذلك لأحد من المخلوقين، فقد صرف عبادة من العبادات إليه، فوجب البيان له أن ذلك شرك بالله تعال ؛ إذ العبادة حق خالص لله لا يجوز إشراك أحد معه فيها.

ونحن نعلم من ظاهر الحال الفارق بين من ينذر للميت ويذبح له، وهو متعلق القلب به، ناظر إليه في تحصيل مطلوبه أو دفع مكروبه، وبين من يهدي للميت ثوابا وهو ينظر أنه محسن إليه، متقرب إلى الله تعالى بوصله له، على ما سيأتي بيانه في الوجه الثاني.

● **الوجه الثاني:**

أن هذا الذي ذكروه لا يتطابق مع واقع الحال.

فالناظر في حال الناذرين لغير الله تعالى من أهل القبور، والناحرين لهم النحائر يرى في فعلهم الرغبة والرجاء أن يكون ذلك المصروف له النذر أو الذبح سببا في حصول مطلوب لهم، أو دفع ضرر حل بهم، مما هو في حقيقته تقدمة بين يدي طلبهم، ولذلك قد يكون منهم من يصاب بنازلة، أو يمسه الضر في البحر فينادي الولي الفلاني مستغيثا به في النجاء، عاقدا له النذر بكذا وكذا إن هو نجي مما هو فيه.

فهل يقال في هذه الحال إن ظاهرها دال على مقصد إهداء الثواب للميت ؟

فقياسهم ذلك بإهداء الثواب للميت، وإجراء الصدقة عنه قياس مع الفارق، فالذي يوقف لميته وقفا، أو يتصدق عنه بأي صدقة وهو يرجو له فيها الثواب من عند ربه سبحانه وتعالى، هل تراه يترقب بفؤاده لذلك الميت في حصول مطلب من مطالبه، أو يدفع عنه شدة نازلة به؟

كلا، بل هو ناظر إلى ما لميته عليه من حق، وما يكون سببا لوصله بعد موته، ورغبة في نفعه في دار انقطع فيها العمل.

فما تقدم من استدلالهم بقول سعد بن عبادة رضي الله عنه: «هذه لأم سعد»، ليس من النذر للميت في شيء، ولا يصح أن يشبه هذا الفعل الذي هو من أفضل القربات، وأعظم الصلات بما هو شرك برب البريات سبحانه وتعالى.

فقول سعد رضي الله عنه هو إهداء ثواب تلك الصدقة لوالدته، وهذا ما دلت الشريعة على فضله، كما قال النبي صلى ﷺ: **(إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)**[1].

فهل يقال: إن سعدا رضي الله عنه أراد بذلك التقرب لوالدته، أو رغب إليها في تحقيق مطلوب ودفع مكروب؟

إذاً، فهذا القياس الذي ذكروه ما هو إلا لتقرير تلك الذبائح والنذورات التي تصرف لأصحاب القبور دون النظر إلى ما يدل عليه ظاهر الحال من القرائن الحافة به.

---

(١) تقدم تخريجه ص ٤٤٧، الحاشية (١).

يقول الشيخ محمود الألوسي ﷺ «في تفسيره» - مشيرا إلى الفرق بين النذر بمعنى إهداء الثواب للميت، وبين النذر للميت نفسه رغبا ورهبا - : (وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] الخ، إشارة إلى ذم الغالين في أولياء الله تعالى، حيث يستغيثون بهم في الشدة غافلين عن الله تعالى، وينذرون لهم النذور، والعقلاء منهم يقولون: إنهم وسائلنا إلى الله تعالى، وإنما ننذر لله عز وجل ونجعل ثوابه للولي، ولا يخفى أنهم في دعواهم الأولى أشبه الناس بعبدة الأصنام القائلين إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، ودعواهم الثانية لا بأس بها لو لم يطلبوا منهم بذلك شفاء مريضهم، أو رد غائبهم أو نحو ذلك، والظاهر من حالهم الطلب، ويرشد إلى ذلك أنه لو قيل: انذروا لله تعالى واجعلوا ثوابه لوالديكم، فإنهم أحوج من أولئك الأولياء لم يفعلوا، ورأيت كثيراً منهم يسجد على أعتاب حجر قبور الأولياء، ومنهم من يثبت التصرف لهم جميعاً في قبورهم، لكنهم متفاوتون فيه حسب تفاوت مراتبهم، والعلماء منهم يحصرون التصرف في القبور في أربعة أو خمسة، وإذا طولبوا بالدليل قالوا: ثبت ذلك بالكشف. قاتلهم الله تعالى ما أجهلهم وأكثر افتراءهم، ومنهم من يزعم أنهم يخرجون من القبور ويتشكلون بأشكال مختلفة، وعلماؤهم يقولون: إنما تظهر أرواحهم متشكلة وتطوف حيث شاءت، وربما تشكلت بصورة أسد أو غزال أو نحوه. وكل ذلك باطل لا أصل له في الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة، وقد أفسد هؤلاء على الناس دينهم، وصاروا ضحكة لأهل الأديان المنسوخة من اليهود والنصارى، وكذا لأهل النحل والدهرية، نسأل الله

تعالى العفو والعافية)[١].

الشبهة الثالثة:

أن الذابحين للأموات يذكرون اسم الله تعالى على الذبيحة، وهذا كاف في صحتها ومشروعيتها[٢].

والجواب:

أن الأعمال بالنيات، كما قال النبي ﷺ: (**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**)[٣].

والله عز وجل أعلم بحقيقة ما يعمله العباد ظاهرا وباطنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٠].

فمن كانت ذبيحته لربه تبارك وتعالى، متقربا إليه بها، ولم يشرك غيره معه، فهي النسك المقبول عند الله تعالى.

أما من كانت ذبيحته لأحد من الخلق قربة له، ورغبا ورهبا إليه، فهي من الشرك الذي كان عليه أهل الجاهلية، حتى ولو أظهر ذكر اسم الله تعالى عليها ليصبغ عليها معنى الشرعية، فإن العبرة بالحقائق.

فالصلاة لأهل القبور تسمى شركا ولو استفتحها صاحبها بالتكبير.

---

(١) روح المعاني ١٨/ ١٢.

(٢) انظر: براءة الأشعريين من عقائد المخالفين لأبي حامد بن مرزوق ١/ ١٥٩.

(٣) رواه البخاري - كتاب بدء الوحي - باب بدء الوحي - رقم ١، ومسلم في الإمارة - باب قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنية» - رقم ١٩٠٧.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الكلام على قوله تعالى ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٣] : (ظاهره أنه ما ذبح لغير الله سواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه النصراني للحم وقال فيه بسم المسيح ونحوه...

فلو ذبح لغير الله متقرباً به إليه لحرم وإن قال فيه بسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبائحهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان)[١] .

وقد تقدم كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله في بيان ذلك حيث يقول : (فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله)[٢] .

ويقول الصنعاني رحمه الله مبينا حقيقة ما عليه الذابحون لغير الله تعالى : (فإن قال : إنما نحرت لله، وذكرت اسم الله عليه، فقل : إن كان النحر لله فلأي شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال : نعم. فقل له : هذا النحر لغير الله تعالى، بل أشركت مع الله تعالى غيره، وإن لم ترد تعظيمه فهل أردت توسيخ باب المشهد، وتنجيس الداخلين إليه؟

أنت تعلم يقينا أنك ما أردت ذلك أصلا، ولا أردت إلا الأول، ولا خرجت من بيتك إلا قصدا له)[٣] .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٤-٦٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣.
(٣) تطهير الاعتقاد ص ٣٣-٣٤.

وقد ذكر الميلي رحمه الله في كلامه عن الزردة - وهي كما عرفها : طعام يتخذ على ذبائح من بهيمة الأنعام عند مزارات من يعتقد صلاحهم - أن الذابحين لها قد يذكرون اسم الله تعالى، إلا أن الذبيحة في حقيقتها مراد بها ذلك الصالح عندهم، ولذلك فإنها في حقيقتها ذبح لغير الله تعالى، مستدلا بحديث «**إنما الأعمال بالنيات**»، وحديث : «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»(١).

ثم ينكر على من يجري حكم الذبيحة على الجواز بما ظهر من التسمية مبينا القرائن الدالة على حقيقة حال تلك الذبيحة، فيقول : (وقد يقول الجامدون والمغرضون : إنا نحكم بالظواهر، والله يتولى السرائر، وقد ظهر من حال الذابح أنه ذكر اسم الله، فلا نبحث عن نيته الباطنة.

فنقول لهم :

أولا : أن المفتي لا يقتصر دائما على الظواهر، ففي الأيمان والطلاق مسائل تنبني على النية والقصد، ويختلف حكمها باختلاف النية مع اتحاد اللفظ . . .

وثانيا : إن من السرائر ما تحف به قرائن تجعل الحكم للنية، ولا تقبل معه الظواهر.

وذبائح الزردة من هذا القبيل ؛ فإن كل من خالط العامة يجزم بأن

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب - باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه - رقم ٢٥٦٤، وابن ماجه في الزهد - باب القناعة - رقم ٤١٤٣.

قصدهم بها التقرب لصاحب المزار، ويكشف عن ذلك أشياء :

أحدها : أنهم يضيفون الزردة إلى صاحب المزار، فيقولون : زردة سيدي فلان، أو طعام سيدي عبد القادر مثلا.

ثانيها : أنهم يفعلونها عند قبره وفي جواره، ولا يرضون لها مكانا آخر.

ثالثها : أنهم إن نزل المطر إثرها نسبوه إلى سر المذبوح له، وقوي اعتقادهم به، وتعويلهم عليه.

رابعها : أنهم إن نُهوا عن فعلها في المكان الخاص، غضبوا، ورموا الناهي بضعف الدين أو بالإلحاد، وقد يجاوزون الجهر بالسوء من القول إلى مد الأيدي بالإذاية.

خامسها : أنهم لو تركوها فأصيبوا بمصيبة نكسوا على رؤوسهم، وقالوا : إن وليهم غضب عليهم لتقصيرهم في جانبه.

فهذه دلائل من أحوال الناس وأفعالهم وأقوالهم التي لم يلقنها لهم المكابرون المتسترون وراء التأويل، تريك أن ذبائح الزردة مما ذبح على النصب، وأهل به لغير الله، وإن ذكر عليها اسمه)[١].

قلت : وليس في الفتوى وبيان الحكم المستدل عليه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ تعد على علم البواطن، بل هو بيان لما يجب أن يكون عليه الظاهر والباطن مجتمعين، وأن الظاهر ما لم يصدر عن باطن صحيح فليس بمقبول، وليس هو بمسعف فساد ذلك الباطن.

---

(١) رسالة الشرك ومظاهره ٣٨٠-٣٨١.

فمن صلى الصلاة التي ملؤها التكبير والتسبيح وأنواع الذكر، لكن مراده منها طلب دنيوي، أو صرفها لغير الله تعالى فهي مردودة عليه، وعاقبتها وبال وخسران مبين.

وكذلك من ذبح لغير الله تعالى، ولكن أظهر ذكر اسم الله تعالى على ذبيحته، فهذا لا يصحح ذبحه، وبيان حكم ذلك ليس فيه تجن على علم البواطن التي لا يعلمها إلا الله تعالى، بل هو بيان وذكرى لمن كان له قلب أن يحذر ذلك، وأن يصلح باطنه وظاهره.

الشبهة الرابعة:

وهي شبهة متعلقة بنفي أن يكون النذر والذبح لغير الله تعالى شركاً، بل هو محرم دون الشرك.

وهي ما يذكرونه مما يفهم من كلام بعض أهل العلم أن النذر لغير الله تعالى نذر معصية لا يجوز الوفاء به، وكذلك الذبح لغير الله تعالى، هو محرم لا يصل إلى حد الشرك.

وفي ذلك يقول سليمان بن عبد الوهاب منكرا أن النذر والذبح لغير الله تعالى شركا: (من أين لكم أن المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إذا دعا غائبا أو ميتا، أو نذر له، أو ذبح لغير الله، أن هذا هو الشرك الأكبر الذي من فعله حبط عمله، وحل ماله ودمه... فإن أهل العلم ذكروا في كل مذهب من مذاهب[1] الأقوال والأفعال التي يكون بها المسلم مرتداً، ولم يقولوا من نذر لغير الله فهو

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب: «المذاهب».

مرتد ولم يقولوا من طلب من غير الله فهو مرتد، ولم يقولوا من ذبح لغير الله فهو مرتد)[١].

ويقول ابن عفالق: (فأجمعت الأُمة على أن الذبح والنذر لغير الله حرام، ومن فعلها فهو عاص لله ورسوله . . . والذي منع العلماء من تكفيرهم أنهم لم يفعلوا ذلك باعاتقاد أنها أنداد لله)[٢].

الجواب على هذه الشبهة من أربعة أوجه:

● **الوجه الأول:**

أن هذه الشبهة تتضمن إبطال ما سبق من شبه المجيزين للذبح والنذر لغير الله تعالى، وفيها ردٌّ لذلك التعذير الذي يسوغ به أعمال الناذرين والذابحين لأهل القبور.

إذ أن ذلك التعذير قائم على أن أولئك الناذرين لم يقم فيهم ما يوجب الذم لفعلهم، فإذا قام بهم ما يوجب الذم - ولو على سبيل المحرم دون الشرك - فلا عبرة به، ولا يقوم أبدا لتصحيح تلك الأفعال.

ومن عجيب أمر المبتدعة في ذلك أن يأتي من يبيح الذبح والنذر لغير الله تعالى، ليرد على من يقول بأنه من أعمال الشرك، فيستدل عليه بقول من يقول بأن ذلك لا يصل إلى حد الشرك، بل هو من المحرمات

---

(١) الصواعق الإلهية ص ٣١-٣٢.

(٢) جواب ابن عفالق على رسالة بن معمر - مخطوط ق ٦٠. (نقلاً عن «دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب» لـ د. عبدالعزيز آل عبداللطيف ص ١٩٧.

التي لا تخرج من الملة.

وهو من حيث شعر أو لم يشعر قد أتى بالرد على نفسه، وأبطل ما أجهد نفسه فيه ليعذّر لمن لا يريد أن تلحقهم بأفعالهم ملامة !

● **الوجه الثاني:**

ما تقدم في المبحث الأول من كلام جمع من أهل العلم بما هو واضح المعنى في أن النذر لغير الله تعال والذبح لغيره من أعمال الشرك التي كان عليها أهل الجاهلية.

● **الوجه الثالث:**

ما ذكره الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في جوابه لابن سحيم في قوله إن الذبح والنذر لغير الله تعالى حرام وليس بشرك، قال: (فدليلك قولهم إن النذر لغير الله حرام بالإجماع، فاستدللت بقولهم حرام على أنه ليس بشرك، فإن كان هذا قدر عقلك فكيف تدعي المعرفة؟ يا ويلك ! ما تصنع بقول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، فهذا يدل على أن الشرك حرام ليس بكفر؟ يا هذا الجاهل الجهل المركب، ما تصنع بقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣] إلى قوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، هل يدل هذا التحريم على أنه لا يكفر صاحبه؟ يا ويلك ! في أي كتاب وجدته إذا قيل لك هذا حرام إنه ليس بكفر؟ فقولك: إن ظاهر كلامهم أنه ليس بكفر كذب وافتراء على أهل العلم، بل يقال: ذكر أنه حرام، وأما كونه كفر فيحتاج إلى دليل آخر، والدليل

عليه أنه صرح في (الإقناع) أن النذر عبادة، ومعلوم أن «لا إله إلا الله» معناها : لا يعبد إلا الله. فإذا كان النذر عبادة، وجعلتها لغيره كيف لا يكون شركاً ؟

وأيضاً مسألة الوسائط تدل على ذلك والناس يشهدون أن هؤلاء الناذرين يجعلونهم وسائط وهم مقرون بذلك . . .)[١].

ويقول رحمه الله - جوابا لمن سأله عن قول شيخ الإسلام إن الذبح للجن منهي عنه، مما قد يفهم منه أنه دون الشرك - : (قوله : الذبح للجن منهي عنه، فاعرف قاعدة أهملها أهل زمانك، وهي : أن لفظ التحريم و الكراهة، وقوله : "لا ينبغي"، ألفاظ عامة تستعمل في المكفِّرات، والمحرّمات التي هي دون الكفر، وفي كراهة التنزيه التي هي دون الحرام . . . .

إذا فهمت هذا فهم صرحوا أن الذبح للجن ردة تخرج، وقالوا : الذبيحة حرام ولو سُمِّي عليها ؛ قالوا لأنها يجتمع فيها مانعان، الأول : أنها مما أهِلَّ به لغير الله، والثاني : أنها ذبيحة مرتدّ والمرتدّ لا تحل ذبيحته وإن ذبحها للأكل وسمّى عليها)[٢].

• **الوجه الثالث :**

مَا سبق التنبيه عليه في المبحث الأول من ضرورة التفريق بين ما هو شرك وما هو معصية دون الشرك في النذور، إذ أن النذر يطلق ويراد به محل صرف النذر لا أن النذر نفسه متوجه به إلى صاحب المحل،

---

(١) مؤلفات الشيخ - الرسائل الشخصية - الرسالة ٣٤ - ١/ ٢٣٢.
(٢) مؤلفات الشيخ - الفتاوى - المسألة ١٤ - ١/ ٦٧.

فهذا المحل إن كان فيه معاونة على الإثم، وتحقيقا للباطل فصرف النذور إليه معصية بالاتفاق.

ومن ذلك ما يطلق من النذورات للمجاورين للقبور، العاكفين عندها، فهذا داع إلى أزر تلك البقاع، والترغيب فيما يذاع عندها من منكرات.

أما النذر لأهل القبور قربة لهم فهذا شرك بالله تعالى؛ إذ أنه صريح في صرف العبادة لغير الله تعالى.

يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن رحمه الله : (كلام العلماء صريح في المنع من صرف النذور لرفع القبور وتشييدها، والبناء عليها، وفرشها، وسترها، وإيقاد السرج عليها، وجعل السدنة لها، لما في ذلك من مضاهاة اليهود والنصارى والمشركين، وما تفعله عند أوثانها وأصنامها، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء فيما نعلم.

وأما النذر لها فهو نذر معصية باتفاق العلماء، والمعصية تصدق على العبادة للمنذور له، ومعلوم أن إخراجه على وجه القربة والتعظيم لأهل القبور عبادة لهم وشرك، وتقرب إلى غير الله، وشرع لم يأذن به الله، ولم تأت به شريعة، ولم يكن من هدي السلف والقرون المفضلة، ولو قصد به المجاورين والعاكفين عند القبور، فهو غير جائز أيضا؛ لأن العكوف عند القبور وسدانتها أصل عبادة الأصنام)[١].

❁❁❁❁❁

(١) منهاج التأسيس ص ١٠٦.



الفصل الثالث

الركوع والسجود لغير الله

- تمهيد :
- المبحث الأول : أحوال الركوع والسجود، والنهي عن صرفهما لغير الله، وأدلة ذلك.
- المبحث الثاني : شبهات المبتدعة في صرف الركوع والسجود لغير الله.



تمهيد

ليس لأحد من الخلق خيار في أن يكون مملوكا أو لا يكون، أو يكون مدبَّرا أو لا يكون، بل إن أجلى صفاته وأظهر أحواله ذله وافتقاره إلى خالقه تبارك وتعالى، ما له غنى عن رحمته طرفة عين، ولا انفكاك له عن عبوديته برقة خيال.

فربه تعالى الخالق، وهو المخلوق الضعيف بين يديه، وربه تعالى الغني، وهو الفقير المحتاج إليه.

تلك الحقيقة التي لا تغيب رؤاها، ولا تحجب سماها، أن الله تعالى له الخلق والأمر، وله العزة والقهر، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وليس لأحد في العالمين - كائنا من كان - حركة ولا سكون إلا بإذن ربه ومولاه، وليس بخارج أبدا عن حكم العبودية القهرية التي لا تنفك عنه وصفا، فكلٌ يسجد له ويركع بحكم تلك العبودية طوعا وكرها: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل: ٤٨-٤٩]، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: ٩٣-٩٤].

وفي جانب التكليف، واحتمال الأمانة الكبرى، ما أسعد الإنسان حين يكون مستشعرا لتلك الحقيقة التي تملأ الآفاق وضوحا وجلاء،

وتنطق بها كل فطرة سليمة، ويستنير بها كل عقل لم تدنسه الشبهات، ولم تنقلب في تصوراته الموازين.

ولما كان الركوع والسجود من أظهر صور التذلل والخضوع، صارا في التكليف عبادة من أجل العبادات، تتطابق فيها المعاني، فيتفق المعنى القائم بالساجدين طوعا واختيارا مع المعنى الذي يقتضي ذلك، وهو عبوديتهم وافتقارهم لربهم سبحانه وتعالى عبودية وافتقارا لازمين لهم، لا انفكاك لهم عنهما.

إن العزة والرفعة التي ينشدها كل إنسان لا تكون أبدا إلا بتطابق تلك المعاني، فكلما كان العبد أشد تعظيما لربه، وأشد خضوعا وانكسارا بين يديه تفتحت له أبواب مشرعة إلى أفق فسيح في العزة والعلو والرفعة.

وأي عزة فوق أن يقصر العبد ذله وخضوعه وعبادته لمن هو أهل ذلك، ربه ومولاه تبارك وتعالى، ويكون بذلك مستغنيا بالخالق عن خلقه، مستعزا ومستقويا ومستنصرا بمن له ملكوت كل شيء، وإليه يرجع كل شيء.

ألا ما أتعس الإنسان حين تغيب عنه تلك الحقائق، وتحجب كف الهوى والجهل عنه ضياء شمس تملأ الآفاق من حوله، فيسير متخبطا باحثا عن عزة يكون له بها منعة، ورفعة يرى لنفسه فيها سمواً، فإذا هو غارق في أوحال الذل والامتهان، حين يكون عبدا لمخلوق مثله، وإذا للظهور انحناء وركوع، وللجباه سجود وخضوع لمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

بل قد يزيد في البعد مهاو سحيقة حين يسجد لحيوان لا يفقه، أو لجمادات لا تعي.

ألا ما أتعسها من حياة ! وما أسفلها وأحقرها من ذلة !

وهل تغيب تلك الحقائق البينة في عبودية المخلوقات لباريها، حتى تصل نفوسٌ إلى هذه المهاوي السحيقة المهلكة ؟

كلا، بل هي من الظهور والجلاء بالمحل الأرفع، بيد أن النفوس قد يكون فيها من الجهل والهوى وغلبة الشقوة ما يعميها عن نور يملأ الخافقين، ويبكمها عن نداء حق أصغت له السموات والأرض، وخشعت له الجبال والوديان.

وما أجمل الحياة ! وما أسعد النفوس حين تكون جباهها طاهرة من سجود لغير الله تعالى، وتتطهر في الوقت نفسه بكثرة التزام الأرض سجودا بين يدي خالقها وباريها تعالى وتقدس ! كما أوصى أصدق الناس قيلا ﷺ أحد أصحابه ﷺ : **(أعنّي على نفسك بكثرة السجود)**[١].

إن السجود لله تعالى والركوع له وحده تحقيقا للعبودية هو من لب دعوات المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وأساس من أسس تعاليمهم، كما أن الركوع والسجود عبادة لغيره تبارك وتعالى مناقض لدعوتهم، وموافق لأحوال أعدائهم.

---

(١) رواه مسلم في الصلاة - باب فضل السجود والحث عليه - رقم ٤٨٩، وأبو داود في الصلاة - باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل - رقم ١٣٢٠، والنسائي في التطبيق - باب فضل السجود - رقم ١١٣٨.

ومن نظر في سير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم يدرك ما هم عليه من كمال توحيد لله عز وجل، والتزام خضوع وانكسار بين يديه، ودوام ركوع وسجود له، حتى صار السجود وصفا لا ينفك عنهم، كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾ [الحجر: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] الآية.

فالركوع والسجود حق للواحد المعبود، ومن خالف في ذلك فقد خالف في المسلمات، وناقش في الثوابت، وتصدى لمعارضة الآيات البينات، والدلائل الصريحات.

وما ضل الناس وتاهوا في الغي إلا لما خلطوا بين حقوق الخالق والمخلوق، فصرفوا من مظاهر التذلل والخضوع والانقياد للمخلوق ما لا ينبغي إلا لله تعالى.

ومن ذلك: الركوع والسجود، فجعلوا للمخلوق فيهما حظا ونصيبا تعبدا وذلا، ورغبة ورهبة، وتقدمة بين يدي طلب الحاجات، وكشف الكربات، وجعلوا ذلك من وسائل القرب التي يرجون بها عند الله تعالى الشفاعة والزلفى! فتحقق فيهم ما أخبر الله تعالى عن الأخسرين أعمالا: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٤].

وتلك هي سيرة أهل الجاهلية الذين عبدوا أهل القبور وسجدوا لهم، وسجدوا للشمس والقمر، والشجر والحجر، تعود سيرتهم كلما

غابت عن الناس معالم الرسالات، وغلبت عليهم الجهالة والخرافات، وعظموا المخلوق في نفوسهم كما يعظمون الله تعالى، بل أشد.

فأي شيء سيحظى به الساجدون لغير الله تعالى، ولو كان المسجود لهم خيرة الناس، وأفضل العالمين؟ سوى اللحوق بركب الجاهلين، والبعد عن سبيل المرسلين، والسعي إلى سراب بقيعة ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النُّور: ٣٩].

غير أنه لا بد من التفريق بين سجود هو العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى، وصرفه لغيره هو الشرك الذي لا يغفره الله تعالى، وبين السجود الذي هو تحية وإكرام للمسجود له، والذي هو داخل في دائرة ما يمحى ويثبت من التشريعات التي يقضيها الله تعالى بعلمه وكمال حكمته، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله تعالى -.

ومن هنا كان لا بد من ذكر الأحوال التي يكون عليها السجود، حتى لا يداخل بين المفاهيم، ويعارض بين الآيات المحكمات، وحتى يعلم المرء في حكمه على الأشياء في أي فلك يدور.





المبحث الأول

أحوال الركوع والسجود والنهي عن صرفهما لغير الله تعالى

لقد تقدم في التمهيد تقرير أن الركوع والسجود حق خالص لله تعالى لا يجوز أن يشرك معه غيره بهما.

وتقدمت الإشارة إلى ضرورة التعرف على الفرق بين الركوع والسجود اللذين هما حق خالص للواحد الأحد وهما ما كانا على وجه العبادة، وبين ما كان من ركوع وسجود على وجه التحية والتكريم.

وضرورة ذلك التفريق هو لفهم النصوص الشرعية على وجهها، وعدم معارضة بعضها ببعض.

ذلك أنه قد دلت النصوص على وجوب إفراد الله تعالى بالركوع والسجود، وأن المشركين هم الذين يسجدون لغيره تبارك وتعالى.

ومع ذلك فقد دلت نصوص أخرى على وقوع السجود لغير الله تعالى بأمر منه سبحانه وتعالى وتشريع.

وليس بين تلك النصوص تعارض؛ وذلك لاختلاف مواردها، فالسجود المنهي عن صرفه لغير الله تعالى ليس هو السجود المثبت لغيره تعالى أمرا أو شرعا، فما نهي عنه إنما هو ما كان بمعنى العبادة التي هي من خصائص الألوهية التي هي للخالق وحده لا يشاركه فيها أحد من المخلوقين، وهذا المعنى لم يشرعه الله تعالى ولم يأمر به أبدا أن يصرف لغيره.

أما السجود المصروف للمخلوق بأمر الله تعالى وشرعه فهو ليس من معاني العبادة، بل هو للتكريم والتشريف والتحية على ما سبقت الإشارة إليه في التمهيد، وما سيظهر بمزيد بيان في هذا المبحث، وسوف أقتصر في الكلام على السجود؛ إذ أن تقرير ذلك يدخل فيه حكم الركوع من باب الأولى.

ولكن قبل هذا أقول: إن التفريق بين أحوال السجود إنما مرجعه الدلائل البينة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وقوفا عند حدودهما، وتسليما للمعاني الصريحة التي دلا عليها؛ ذلك لئلا يأتي من يصنف الأحوال ويقسمها على حسب ما يمليه الهوى، فيتكلم عن السجود الذي تدل جميع القرائن على كونه عبادة للمسجود له بأنه من باب التحية والاحترام فلا يصل إلى حد الإشراك بالله تعالى، فيرى الجباه تمرغ على عتبات القبور تذللا وخضوعا، ورغبا ورهبا، مع التضرع بين يدي أصحابها - أي القبور - استغاثة واستنجادا ودعاء، فيقول بعدها: هذا من باب الاحترام الذي كان سائغا في شرع من قبلنا.

إذاً، لن يجدي الكلام بعد هذا بتفصيل تلك الأحوال، وبيان دلائلها وطبيعة كل واحدة منها، إذا كانت الأحكام لا تتعلق بالتصور الصحيح لما عليه الشيء في نفسه.

فلا بد من تصور صحيح مبني على الدليل لكل حالة، ولا بد ثانيا من الربط بين ذلك التصور المنطلق من الأدلة وبين الحكم على حالة السجود موضوع البحث.

إذا عرف هذا، فالسجود قد يكون عبادة محضة، وهذه مختصة بالله تعالى لا ينبغي صرفها لغيره تعالى، وقد يكون سجود تشريف تكريم أو تحية، وهذه قد يسوغ وقوعها للمخلوق بحسب ما يشرعه الله تعالى[١]، وإليك بيان ذلك :

أحوال السجود :

أولا : سجود العبادة :

وهو ما تضمن غاية التذلل والخضوع ؛ إذ أن ذلك هو معنى العبادة كما تقدم.

وهذا السجود عبادة محضة لا ينبغي صرفه لغير الله تعالى، ومن صرف شيئا منه لغير الله تبارك وتعالى فقد أشرك.

ودلائل هذا السجود، وأنه من أجل العبادات، وأن من صرفه لغير الله فقد أشرك به غيره كثيرة جدا، ومن ذلك :

١- أنه الحق الموافق لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الخالق والمخلوق، فلما كان الله تعالى هو الذي خلق الكائنات، وهو القائم على شؤونها، لا تنفك طرفة عين عن افتقارها إليها، فإن النتيجة الحتمية، واللازم الذي لا اشتباه فيه أن تكون تلك الكائنات خاضعة متذللة لربها ومولاها بجميع أنواع التذلل والخضوع، ومن ذلك الركوع والسجود، وأن لا يكون ذلك إلا له وحده ؛ إذ لم يشركه أحد في خلقها وتدبير أمورها.

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/ ٣٦١.

ولذلك جاء الإخبار بأن كل ما في السموات والأرض يسجد لله تبارك وتعالى طوعا وكرها ؛ ذلك أن كل من في السموات والأرض آتي الرحمن عبدا، كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾ [الرّعد: ١٥]، وقال سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾ [النحل: ٤٨-٤٩]، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، وقال تعالى : ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرّحمن: ٦].

والتنصيص على هذه المخلوقات في سجودها لله تعالى هو - والله أعلم - لأنها مما عبد من دون الله تعالى، وسجد لها الناس، فأخبر تعالى أنها تسجد له لأنها مخلوقة مربوبة له، وهذا تنبيه إلى أن الذي خلقها وأوجدها، والتي هي تخضع له غاية الخضوع أحق أن يسجد له، وأن تصرف له سائر أنواع العبادة[1].

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له حين غربت الشمس : (أتدري أين تذهب؟) قلت : الله ورسوله أعلم. قال : **(فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، يقال لها : ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى** ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٣.

لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨](١).

ومن تأمل كتاب الله تعالى يجد مجيء تقرير السجود لله تعالى وحده بالترتيب بين المقدمات والنتائج من الحجج البينة والأدلة الصريحة على إثبات الطريق المستقيم في ذلك، ورد طريقة المشركين الذين وضعوا الجباه سجدا لغير الله.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]، ويقول سبحانه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل: ٢٥].

ومن ذلك - لمن تأمله - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الانشقاق: ٢١].

فالسجود لله تعالى وحده تعبدا هو مقتضى المعنى الحق الظاهر لكل فطرة سليمة من أن الله تعالى هو وحده الخالق المدبر الذي خضع له كل شيء.

٢- أن الله تعالى قد أمر عباده بالسجود له وحده، ونهاهم عن السجود لغيره؛ إذ أن ذلك من الحق الذي كتبه عليهم تجاهه، كما قال

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق - باب صفة الشمس والقمر - رقم ٣١٩٩، ومسلم في الإيمان - باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان - رقم ١٥٩.

النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه : **(هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله.؟) قلت : الله ورسوله أعلم. قال : (فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا)**[١].

والنصوص الدالة على هذا المعنى كثيرة جدا، كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحج: ٧٧]، وقال تعالى : ﴿...لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت: ٣٧].

قال الشيخ صديق حسن خان رحمه الله عند كلامه عن هذه الآية : (قال بعض أهل العلم في تفسير هذه الآية : إن من أراد أن يكون عبدًا لله خالصا، فلا يسجد إلا له سبحانه، ولا يسجد للشمس والقمر. نبه بهما على غيرهما من المخلوق العلوي والسفلي، من الأحجار والأشجار والضرائح ونحوها بالأولى)[٢].

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ الذي جعله محل الأسوة والاقتداء بكثرة السجود له، فقال سبحانه : ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقال سبحانه : ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۝١٩﴾ [العلق: ١٩].

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير - باب اسم الفرس والحمار - رقم ٢٨٥٦، ومسلم في الإيمان - باب الدليل على أن من مات على الإيمان دخل الجنة - رقم ٣٠.
(٢) الدين الخالص ٢/ ٥٣.

وقد أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، وجعلها عمود الإسلام، وجعل من أظهر أعمالها وأجلها الركوع والسجود له، ولذلك فقد عبر بهما عنها كما في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿...مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: ١١٣].

ويوضح هذا المعنى ما جاء في سبب نزول الآية الأخيرة وهو ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد والناس ينتظرون الصلاة، فقال: **(أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم)**، ثم نزلت عليه **«ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله» إلى «يسجدون»**[1].

٣- أن الله تعالى أثنى على عباده المؤمنين وجعل من أخص أوصافهم كثرة سجودهم لربهم تبارك وتعالى.

كما قال تعالى - واصفا عباده المرسلين -: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

وأثنى الله تعالى على ملائكته بسجودهم له، فقال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) رواه أحمد في المسند ١/٣٩٦، وابن حبان في صحيحه (واللفظ له) ٤/٣٩٧، والنسائي في الكبرى ٦/٣١٣، والطبراني في الكبير ١٠/١٣١.

﴿ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال تعالى - مثنيا على نبيه ﷺ والذين آمنوا معه - : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى - ذاكرا جملة من صفات عباده المؤمنين - : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٤].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزُّمَر: ٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢].

فعباد الله المتقون هم أهل السجود له، المتضرعون إليه، المنكسرون بين يديه، فاستحقوا ذلك الثناء الإلهي تفضلا وتكرما منه سبحانه، وهو أهل الفضل والعطاء.

ولذلك كان نبينا ﷺ - وهو أكمل الناس توحيدا لربه - كثير القيام والركوع والسجود، تقر بذلك عينه، وترتاح به نفسه، كما كان ينادي بلالا رضي الله عنه : **(يا بلال، أقم الصلاة أرحنا بها)**(١).

(١) رواه أبو داود في الأدب - باب في صلاة العتمة - رقم ٤٩٨٥، وأحمد ٥/ ٣٦٤ عن رجل من أسلم.

وكان ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، يغتنم ظلمته ساجدا بين يدي ربه.

قالت عائشة رضي الله عنها: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: (**اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**)(١).

هكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام مع السجود، خشوعا وخضوعا وتضرعا بين يدي الله تعالى؛ ليكون القلب معلقا بالله تعالى وحده، فلا تذل النفوس ولا تخضع الجباه إلا لباريها عز وجل.

وبذلك كان ﷺ - وهو بأبي هو وأُمي الناصح المشفق على أُمته - يأمر أصحابه، ويحثهم عليه؛ لتكون الأُمة ربانية عزيزة، لا تخضع ولا تذل إلا لمن أسبغ عليها نعمه ظاهرة وباطنة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**)(٢).

---

(١) رواه مسلم في الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود - رقم ٤٨٦، وأبو داود في الصلاة - باب في الدعاء في الركوع والسجود - رقم ٨٧٩، والترمذي في الدعوات - باب ما جاء في عقد التسبيح باليد - رقم ٣٤٩٣، والنسائي في التطبيق - باب نصب القدمين في السجود - رقم ١١٠٠.

(٢) رواه مسلم في الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود - رقم ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة - باب في الدعاء في الركوع والسجود - رقم ٨٧٥، والنسائي في التطبيق - باب أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل - رقم ١١٣٧.

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: (سل). فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: (**أو غير ذلك؟**). قلت: هو ذاك. قال: (**فأعني على نفسك بكثرة السجود**)(١).

وعن معدان بن أبي طلحة اليعمري قال: لقيت ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو قال: قلت: بأحب الأعمال إلى الله، فسكت، ثم سألته فسكت، ثم سألته الثالثة، فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: (**عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة**)، قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء رضي الله عنه فسألته، فقال لي مثل ما قال لي ثوبان)(٢).

ولفضل السجود وعظيم منزلته عند الله تعالى، فإن من استحق العذاب من المسلمين في النار تطهيرا له من ذنوبه فعذب، فإن النار لا تأكل مواضع السجود منه، كما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: (**تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود**)(٣).

---

(١) تقدم تخريجه ص ٥٨١.

(٢) رواه مسلم في الصلاة - باب فضل السجود والحث عليه - رقم ٤٨٨، والترمذي في الصلاة - باب ما جاء في كثرة الركوع والسجود وفضله - رقم ٣٨٨، والنسائي في التطبيق - باب ثواب من سجد لله عز وجل سجدة - رقم ١١٣٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها - باب ما جاء في كثرة السجود. - رقم ١٤٢٣.

(٣) رواه البخاري في التوحيد - باب قول الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾. - رقم ٧٤٣٨، ومسلم في الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية - رقم ١٨٢.

٤- ذم الله تعالى للمشركين بسجودهم لغيره، وذمه لهم أيضا باستكبارهم عن السجود له سبحانه.

قال تعالى عن أهل سبأ الذين وقف عليهم هدهد سليمان ﷺ: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: ٢٢-٢٤].

وقال تعالى - مبينا استكبار المشركين عن السجود له -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الانشقاق: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢-٤٣].

فهذا عقاب لهم بنقيض ما كانوا عليه في الدنيا من استكبارهم وامتناعهم عن السجود لله تعالى.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: (ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب عز وجل فسجد له المؤمنون ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً

كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه عكس السجود، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون)[١].

وهذا نتيجة استكبارهم عن التوحيد الخالص، الذي أرسل الله تعالى به رسله، وأنزله به كتبه، كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥].

وما زادهم ذلك الاستكبار إلا ذلة وصغارا عاشوه في دنياهم، وهو يوم القيامة أشد ما يكون عليهم وبالا وخسارا.

ومن نظر في حال الناس يجد التلازم المطرد بين عزتهم في الدنيا والآخرة وخضوعهم لله تبارك وتعالى، فكلما ازدادوا خضوعا وتذللا بين يدي الله تعالى ازدادوا بذلك عزة ورفعة في الدنيا والآخرة.

وفي المقابل كلما استكبروا عن أمر الله تعالى، وأعرضوا عن السجود والتذلل له كان ذلك سببا في تذللهم للخلق، وسجودهم بين أيديهم، فلما أعرضوا عن الركوع والسجود لله تعالى صاروا يسجدون للأحجار والأشجار والبهائم، حتى أضحى السجود عندهم لغير الله تعالى من أهون ما يكون على نفوسهم، ويفعلونه عند أدنى مطلب من مطالب دنياهم، ثم إذا منتهاه ذلة في الدنيا، وخسران مبين في الآخرة.

(فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبدا لذلك المراد المحبوب، إما المال، وإما الجاه، وإما الصور، وإما ما

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٣١.

يتخذه إلها من دون الله، كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أربابا، أو غير ذلك مما عبد من دون الله)[١].

وإذا تأملت في قصة طلب قريش للمسلمين الذين هاجروا إلى أرض الحبشة يظهر لك من هذا المعنى ما هو مثال لتلك الحقيقة المطردة في جميع الأحوال.

فعن أبي موسى ﷺ قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن ننطلق إلى أرض النجاشي، فبلغ ذلك قريشا، فبعثوا إلى عمرو بن العاص وعمارة ابن الوليد، وجمعوا للنجاشي هدايا، فقدمنا وقدموا على النجاشي، فأتوه بهدية فقبلها، وسجدوا له، ثم قال عمرو بن العاص : إن قوما منا رغبوا عن ديننا، وهم في أرضك. فقال لهم النجاشي : في أرضي؟ قال : نعم. قال فبعث إلينا، فقال لنا جعفر : لا يتكلم منكم أحد، أنا خطيبكم اليوم. فانتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه، وعمرو بن العاص عن يمينه، وعمارة عن يساره، والقسيسون من الرهبان جلوس سماطين، فقال له عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك. فلما انتهينا إليه زبرنا من عنده من القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك. فقال جعفر : لا نسجد إلا لله. فقال له النجاشي : وما ذاك؟ قال : إن الله بعث فينا رسوله، وهو الرسول الذي بشر به عيسى برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر ... القصة. وفيها إكرام

---

(١) العبودية (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/١٩٧).

النجاشي للصحابة رضوان الله عليهم، وطرده لوفد قريش من بلده[١].

فالسجود لغير الله تعالى من أعمال الشرك التي أخبر الله تعالى بها محذرا من اتباع سبيل أصحابها، كما أن إفراد السجود لله تعالى وحده هو من صفات أهل التوحيد الخالص الذين حظوا بالرضى والثناء من ذي الجبروت والكبرياء.

٥- سد كل ذريعة موهمة للسجود لغير الله تعالى، حتى ولو كان السجود في أصله لله تعالى، فكيف بمن يسجد صراحة لغير الله تعالى ؟

ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : **(إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ولا تحينوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرني شيطان)**[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الشرك دقه وجله، وحقيره وكبيره، حتى أنه قد تواتر عنه أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها بألفاظ متنوعة، تارة يقول : **(لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها)**[٣]، وتارة ينهى

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٣٨، وابن أبي شيبة ٧٣٥٠. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده - رقم ٣٢٧٣، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها - باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها - رقم ٨٢٩.

(٣) رواه البخاري في مواقيت الصلاة - باب الصلاة بعد الفجر حتى ترتفع الشمس - رقم ٥٨٣، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها - باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها - رقم ٨٢٨ عن عبداللع بن عمر رضي الله عنهما.

عن الصلاة بعد طلوع الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس، وتارة يذكر أن الشمس إذا طلعت طلعت بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ونهى عن الصلاة في هذا الوقت لما فيه من مشابهة المشركين في كونهم يسجدون للشمس في هذا الوقت، وأن الشيطان يقارن الشمس حينئذ ليكون السجود له، فكيف بما هو أظهر شركا ومشابهة للمشركين من هذا ؟)[١].

والحاصل أن هذا السجود المتعلق بالعبادة حق خالص لله تعالى، لم يبح الله تعالى صرفه لغيره في زمن من الأزمان، ولا في شريعة من شرائعه، ولم يأت عن أحد من الأنبياء وأتباعهم الصادقين أنهم صرفوه لغير الله تعالى ؛ إذ أن إفراد الله تعالى به هو من لب دعوتهم، وأسس رسالتهم، وصرفه لغيره مناقض أشد المناقضة لها.

قال الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ عند شرحه لحديث «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد** ..» : (كان رسول الله ﷺ يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأُمم السابقة قبله، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم، واتخذوها قبلة ومسجدا، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها، وذلك الشرك الأكبر، فكان النبي ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه، وأنه مما لا يرضاه، خشية عليهم امتثال طريقتهم)[٢].

ويقول القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ : (وكذلك نكفر بكل فعل أجمع

---

(١) زيارة القبور ٥٨-٥٩، مجموع اللفتاوى ٢٧/ ٩٦.
(٢) التمهيد ٥/ ٤٥.

المسلمون أنه لا يصدر إلا من كافر وإن كان صاحبه مصرحا بالإسلام مع فعله ذلك الفعل كالسجود للصنم وللشمس والقمر والصليب والنار...)[١].

وتقدم قول الإمام النووي رحمه الله في حكم الذبح لغير الله تعالى وتشبيهه له بالسجود لغير الله، حيث يقول: (اعلم أن الذبح للمعبود وباسمه نازلة منزلة السجود له، وكل واحد منهما نوع من أنواع التعظيم والعبادة المخصوصة بالله تعالى الذي هو المستحق للعبادة، فمن ذبح لغيره من حيوان أو جماد كالصنم على وجه التعظيم والعبادة، لم تحل ذبيحته، وكان فعله كفرا، كمن سجد لغيره سجدة عبادة)[٢].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (وبالجملة فالقيام والقعود والركوع والسجود حق للواحد المعبود خالق السموات والأرض وما كان حقا خالصا لله لم يكن لغيره فيه نصيب)[٣].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (ومن أنواع الشرك: سجود المريد للشيخ، فإنه شرك من الساجد والمسجود له، والعجب أنهم يقولون: ليس هذا سجود، وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراما وتواضعا. فيقال لهؤلاء: ولو سميتموه ما سميتموه، فحقيقة السجود وضع الرأس لمن يسجد له، وكذلك السجود للصنم وللشمس وللنجم وللحجر، كله وضع الرأس قدامه)[٤].

---

(١) الشفا ٢/ ٢٧٨.
(٢) روضة الطالبين ٣/ ٢٠٥-٢٠٦.
(٣) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٩٣.
(٤) مدارج السالكين ١/ ٣٤٤.

ويقول الإمام المقريزي رحمه الله : (وبالجملة فالعبادة المذكورة في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ هي السجود والتوكل والإنابة والتقوى والخشية والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعا وتعبدا والدعاء، كل ذلك محض حق الله تعالى)[1].

فهذه أمثلة واضحة بينة من أقوال علماء الأُمة في حكم هذا السجود، وفيها الدلالة على أن هذا الحكم هو محل اتفاق بينهم.

ثانيا : سجود التشريف والتكريم والتحية :

وواضح من عنوان هذه الحالة أن السجود فيها لا يراد به العبادة، بل هو دال على تكريم وتشريف للمسجود له أو تحية له.

وهذا النوع من السجود داخل تحت سنة المحو والإثبات التي جعلها الله تعالى بين الشرائع حكمة منه ورحمة، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾﴾ [الرّعد: ٣٨].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (أما الخضوع والقنوت بالقلوب والإعتراف بالربوبية والعبودية فهذا لا يكون على الإطلاق إلا لله سبحانه وتعالى وحده وهو في غيره ممتنع باطل.

وأما السجود فشريعة من الشرائع، إذ أمرنا الله تعالى أن نسجد له، ولو أمرنا أن نسجد لأحد من خلقه غيره لسجدنا لذلك الغير طاعة لله

(١) تجريد التوحيد ٢٢.

عز وجل ؛ إذ أحب أن نعظم من سجدنا له، ولو لم يفرض علينا السجود لم يجب البتة فعله، فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة له وقربة يتقربون بها إليه، وهو لآدم تشريف وتكريم وتعظيم، وسجود أخوة يوسف له تحية وسلام، ألا ترى أن يوسف لو سجد لأبويه تحية لم يكره له ؟)[١].

وهذا السجود منهي عنه أشد النهي في شرعنا، فيحرم على كل أحد أن يسجد لمخلوق مهما كان بهذا القصد الحاصل في هذا السجود، أما سجود العبادة فهو شرك، وقد تقدم الكلام عليه.

ومما يدل على تحريم هذا السجود :

١- عموم النهي عن السجود لغير الله تعالى، وقد تقدم طرف من ذلك في الحالة الأولى، ولم يخصص معنى من المعاني بالجواز.

٢- ما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل حائطا من حوائط الأنصار، فإذا فيه جملان يضربان ويرعدان، فاقترب رسول الله ﷺ منهما، فوضعا جرانهما بالأرض، فقال من معه : سجد له. فقال رسول الله ﷺ : **(ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد، ولو كان أحد ينبغي أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لما عظم الله عليها من حقه)**[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٦٠.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه ٩/ ٤٧٠. ورواه الترمذي مختصرا في الرضاع - باب ما جاء في حق الزوج على المرأة - رقم ١١٥٩. وحسّن إسناده الألباني في «إرواء الغليل» ٧/ ٥٤.

٣- ما رواه أنس ﷺ قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وإن الجمل استصعب عليهم، فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: (قوموا)، فقاموا، فدخل الحائط والجمل في ناحية، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا نبي الله إنه قد صار مثل الكلب وإنا نخاف عليك صولته، فقال: (ليس عليَّ منه بأس)، فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خر ساجدا بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط، حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ! ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك. فقال: **(لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، والذي نفسي بيده لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد ثم استقبلته فلحسته ما أدت حقه)**[1].

٤- ما رواه عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: لما قدم معاذ بن جبل ﷺ من الشام سجد لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **(ما هذا؟)** قال: يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك. قال: **(فلا تفعل، فإني لو أمرت**

(١) رواه أحمد في المسند ٣/ ١٥٨، والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ٣٦٣، والبزار - كما في مجمع الزوائد ٩/ ٤ وقال: ورجاله رجال الصحيح غير حفص بن أخي أنس، وهو ثقة) -. وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» ٢/ ٦٧٥: (رواه أحمد بإسناد جيد، ورواته ثقات مشهورون، والبزار بنحوه).

شيئا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها حتى لو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه)(١).

٥- ما رواه قيس بن سعد رضي الله عنه قال: أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت: رسول الله أحق أن يسجد له. قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك. قال: **(أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟)** قال: قلت: لا. قال: **(فلا تفعلوا، لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن؛ لما جعل الله لهم عليهن من الحق)**(٢).

وحديث نهي النبي ﷺ أن يسجد أحد لأحد، وأنه لو كان آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمر المرأة أن تسجد لزوجها قد جاء عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول الإمام الترمذي رحمه الله - بعد ذكره حديث أبي هريرة رضي الله عنه : (وفي الباب عن معاذ بن جبل، وسراقة بن مالك بن جعشم، وعائشة، وابن عباس، وعبد الله بن أبي أوفى، وطلق بن علي، وأُم سلمة،

---

(١) رواه ابن ماجه في النكاح - باب حق الزوج على المرأة - رقم ١٨٥٣، وابن حبان في صحيحه ٩/ ٤٧٩، والبيهقي في الكبرى ٧/ ٢٩٢. وحسّن إسناده الألباني في إرواء الغليل ٧/ ٥٦.

(٢) رواه أبو داود في النكاح - باب في حق الزوج على المرأة - رقم ٢١٤٠، والدارمي في الصلاة - باب النهي أن يسجد لأحد - رقم ١٤٦٣، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٠٤، وصححه ووافقه الذهبي.

وأنس، وابن عمر)[١].

فإذا كان النبي ﷺ قد نهى أن يسجد له من باب التكريم والتعظيم، فإن غيره من باب أولى ؛ إذ أنه ﷺ سيد ولد آدم، وأكرم الخلق على الله تبارك وتعالى.

ولذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أنهم سجدوا هذا السجود لأحد من المخلوقين كائنا من كان.

وعلى ذلك كان التابعون لهم بإحسان، ولقد كان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله ورضي عنه - قد وكّل أعواناً يمنعون الداخل من تقبيل الأرض، ويؤدبهم إذا قبل أحد الأرض[٢].

وهذا النوع من السجود هو الذي حمل عليه سجود الملائكة عليهم السلام لآدم عليه السلام، فلم يكن سجودهم له عبادة له ؛ إذ لا يلزم من كل سجود أن يكون عبادة للمسجود له، بل كان سجودهم له طاعة لربهم، وامتثالا لأمره، حيث أمرهم بذلك.

وهو لآدم عليه السلام تشريف وتكريم.

وكذلك سجود يعقوب عليه السلام وأولاده ليوسف عليه السلام، هو سجود تحية لا سجود عباده، وحاشا أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام أن يصرف أحدهم شيئا من العبادة لغير الله تعالى.

وهذه التحية بهذه الصورة كانت مما هو مباح في شريعتهم، ولكنه

---

(١) انظر كلامه بعد روايته لحديث أبي هريرة المتقدم، وهو في السنن ٣/ ٤٦٥ رقم ١١٥٩.

(٢) ذكره ابن تيمية. انظر: مجموع الفتاوى ٢٧/ ٩٣.

منسوخ في الشريعة التي جاء بها نبينا ﷺ.

روى الإمام ابن جرير رحمه الله عن جمع من الأئمة: ابن إسحاق وقتادة وسفيان وابن جريج والضحاك وعبدالرحمن بن زيد أن السجود الذي وقع من يعقوب وولده عليهم السلام كان من باب التحية والتشريف التي كانت من عادة الناس آنذاك(١).

ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: (وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره)(٢).

إذاً فالسجود الذي سجده الملائكة لآدم، وسجده يعقوب وولده ليوسف عليهم السلام لم يكن سجود عبادة، وليس فيه أي دلالة لذلك، بل دلالته الواضحة الصريحة أنه ليس بمتضمن غاية التذلل والخضوع، وليس فيه رغبة ورهبة ودعاء للمسجود له، بل هو لم يفعل إلا بإذن الله تعالى، وتحقيقا لأمره تعالى.

على أنه قد جاء عن بعض أهل العلم تخريجات لهذا السجود الواقع من الملائكة وآل يعقوب.

فمنهم من قال: إن الملائكة لم يكن سجودها إلا لله تعالى، وإنما كان آدم عليه السلام قبلة لذلك السجود.

ومنهم من قال: إن ذلك السجود لم يكن انحناء ووضعاً للجبهة

(١) جامع البيان للطبري ٨/ ١٣/ ٦٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٣٨.

على الأرض، وإنما هو بمعنى الخضوع، فالملائكة سجدت لآدم أي خضعت له[1].

ومنهم من قال: إن سجود يعقوب وولده عليهم السلام كان لله تعالى شكرا له على ما أنعم به، ويوسف عليه السلام إنما كان سببا لذلك السجود.

وفي ذلك يقول ابن منظور في «لسان العرب»: (وفيه وجه آخر لأَهل العربية، وهو أَن يجعل اللام في قوله عز وجل: ﴿وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يُوسُف: ١٠٠]، وفي قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يُوسُف: ٤] لام من أَجل، المعنى: وخروا من أَجله سجداً لله شكراً لما أنعم الله عليهم؛ حيث جمع شملهم، وتاب عليهم، وغفر ذنبهم، وأعز جانبهم، ووسع بيوسف عليه السلام.

وهذا كقولك: فعلت ذلك لعيون الناس أي من أَجل عيونهم، وقال العجاج:

تَسْمَعُ لِلجَرْعِ إذا استُحِيرَا   للماء في أَجوافها خَرِيرَا

أَراد: تسمع للماء في أَجوافها خريراً من أَجل الجرع)[2].

وعلى كلٍّ، فظاهر النصوص دال على أنه سجود حقيقي مصروف لآدم من قبل الملائكة، وليوسف من أبويه وأخوته عليهم الصلاة

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٠١، تفسير ابن كثير ١/ ٨٣.

(٢) لسان العرب ٣/ ٢٠٤. وانظر في أقوال أهل العلم في معنى هذا السجود: «أحكام السجود في الفقه الإسلامي» رسالة ماجستير أعدها (في قسم الشريعة - جامعة الإمام): صالح بن عبدالعزيز الغليقة ص ٢٥-٣٥.

والسلام جميعا.

ومهما يكن من شيء فليس في هذا السجود أي معنى من معاني العبادة صرف لغير الله تعالى.

يقول القرطبي رحمه الله في سجود الملائكة: (واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبَادةٍ)[١].

ويقول أيضا - في السجود ليوسف عليه السلام - : (وأجمع المفسّرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة)[٢].

ويقول ابن عطية رحمه الله في تفسير سورة يوسف: (واختلف في هذا السجود، فقيل: كان كالمعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض، وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه، مما كان سيرة تحياتهم للملوك في ذلك الزمان، وأجمع المفسرون أن ذلك السجود - على أي هيئة كان - فإنما كان تحية لا عبادة)[٣].

ويقول محمد رشيد رضا رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾: (وهو سجود لا نعرف صفته، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجود عبادة؛ إذ لا يعبد إلا الله تعالى، والسجود في اللغة: التطامن والخضوع والانقياد، وأعظم مظاهره الخرور نحو الأرض للأذقان، ووضع الجبهة على التراب، وكان عند القدماء من تحية الناس للملوك والعظماء، ومنه سجود يعقوب وأولاده ليوسف

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٠١.
(٢) المرجع السابق ٩/ ١٧٤.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٨١.

عليهم السلام)[١].

فهذا السجود شريعة شرعها الله تعالى في زمن دون زمن، ولا يلزم من كل سجود أن يكون عبادة ؛ إذ من المعلوم ضرورة أن الله تعالى لم يشرع لأي أحد أن يعبد غيره مهما كان، في أي زمن من الأزمان.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (فكيف يقال يلزم من السجود لشيء عبادته، وقد قال النبي ﷺ «**ولو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ؛ لعظم حقه عليها**»، ومعلوم أنه لم يقل : لو كنت آمرا أحدا أن يعبد)[٢].

وبهذا يعلم أن لا تعارض بين النصوص[٣].

وإن مما ينبغي أن يعلم في هذا الباب أن هذا النوع من السجود له قرائنه الدالة عليه، كما أن سجود العبادة له ظواهر تدل عليه أيضا.

فلا يصح أن تنتزع تلك الدلائل عن الحكم ليبقى دائرا مع إرادة الساجد فقط، دون النظر في المسجود له وقرائن ذلك السجود.

فلا يصح أن يقال : إن السجود للشمس والقمر والأصنام ليس

---

(١) تفسير المنار - البقرة ١/ ٢٦٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٦٠.

(٣) وبذلك يعلم أيضا أن السؤال الذي قد يطرحه بعض من لم يفهم حقيقة العبادة، وهو: هل الأمر الإلهي يجعل الشرك غير شرك؟ [كما في كتاب التوحيد الشرك في القرآن الكريم - لجعفر السبحاني - ص ٤٧] - وهو يريد بذلك تقرير نفي الشرك عن السجود الحاصل عند القبور باعتبار أنه مشابه لسجود الملائكة لآدم عليهم السلام أو لسجود يعقوب وولده ليوسف عليهم السلام، وأن الحكم يجب أن لا يصل إلى حد الشرك - لا يعد اشتباها يوهم تعارض النصوص.

شركا بذاته ما لم ينظر إلى إرادة الساجد بذلك.

بل إن ذلك السجود هو سجود عبادة، وهو شرك بالله تعالى، بخلاف السجود الذي يدل ظاهره على أنه من التحية والتكريم كسجود الابن لأبيه، فهذا إن كان المراد به تعظيم الأب كتعظيم الله تعالى فهو شرك، وإن كان من باب الاحترام والتقدير فهو مما حرم في شريعتنا، ولم يبح أن يصرف للنبي ﷺ فضلا عن غيره.

ولئن كان الظاهر معتبرا في محل الاحتمال والاشتباه سدا للذريعة، فكيف بما هو صريح وواضح؟

ولقد تقدم نهي النبي ﷺ عن الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها لأنها تطلع بين قرني شيطان، هذا والصلاة لا يراد بها إلا الله تعالى، فكيف بمن سجد للشمس نفسها، أو للشيطان نفسه؟

ولقد ضل كثير من الناس، وجعلوا وجود نوع من السجود أبيح صرفه لغير الله تعالى في زمن من الأزمان مطية لهم في تحقيق مآرب أقرب ما تكون إلى سيرة أهل الجاهلية الأولى.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله في معرض كلامه عن سجود التكريم والتشريف: (وهذا السجود المنهيُّ عنه قد تخذه جُهّال المتصوّفة عادةً في سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال بزعمه يسجد للأقدام لجهله، سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه، ضلّ سَعْيُهم وخاب عملهم)[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٠٢.

ومن أمثلة ذلك ما عليه الساجدون لأهل القبور، فمن تأمل سجودهم وما فيه من غاية التذلل والخضوع، وما يجامع ذلك من رغبة ورهبة، ودعاء واستغاثة، وحج ونذر وذبح لها، بل واعتقاد التصرف والتدبير في هذا الكون[١]، فإنه لا يرتاب أن ذلك السجود من الشرك الذي جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بمحاربته.

وهذا هو مقتضى الدلائل الشرعية.

فمنها : أن النبي ﷺ قد نهى عن اتخاذ القبور مساجد[٢]، ودعا الله تعالى أن لا يجعل قبره وثنا يعبد[٣]، ومعلوم أن من أظهر أمارات تلك الوثنية التي قد تكون هو السجود لها.

وقد تقدم كلام الإمام ابن عبد البر رحمه الله حيث يقول : «كان رسول الله ﷺ يحذر أصحابه وسائر أُمته من سوء صنيع الأُمم السابقة قبله، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم، واتخذوها قبلة ومسجدا، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها، وذلك الشرك الأكبر، فكان النبي ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه، وأنه مما لا يرضاه، خشية عليهم امتثال طريقتهم)[٤].

---

(١) انظر ما ذكره عنهم الشيخ عبد اللطيف بن عبدالرحمن بن حسن في منهاج التأسيس ص ٥٠ وما بعدها.

(٢) تقدم تخريجه ص ٣٨٤، الحاشية (١).

(٣) رواه أحمد ٢/٢٤٦، وابن سعد في الطبقات، والحميدي في المسند برقم ١٠٢٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» ص ٢٧٧.
ورواه مالك في الموطأ ١/١٧٢ مرسلاً عن عطاء بن يسار، ووصله ابن عبدالبر في التمهيد ٥/٤٢-٤٣ عن عطاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٤) التمهيد ٥/٤٥.

ومنها : أن السجود لأهل القبور من الأمور التي كان عليها أهل الجاهلية، وقد تقدم في مباحث تعريف العبادة والشرك أن مبدأ الشرك هو الغلو في قبور الصالحين، ولا شك أن السجود من الغلو فيها.

ومنها : ما تقدم من حديث قيس بن سعد ﷺ حين قال له النبي ﷺ : (**أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟**) قال : قلت : لا[١].

وهذا فيه دلالة لما هو متقرر عندهم أن هذا السجود الذي فعله ليس مما يصرف لأهل القبور.

قال الطيبي رحمه الله : (أي اسجدوا للحي الذي لا يموت ولمن ملكه لا يزول، فإنك إنما تسجد لي الآن مهابة وإجلالا، فإذا صرت رهين رمس امتنعت عنه)[٢].

والحاصل : أن السجود لغير الله تعالى منهي عنه بكل حال، ولكن يختلف حكمه من حيث كونه شركا أو لا باعتبار ما تقدم من تفصيل أحواله، على أن تحديد الحال ليس مرجعه الهوى، وإنما الدلائل البينة التي لا خفاء فيها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

❁❁❁❁❁

---

(١) تقدم تخريجه ص ٦٠٤ الحاشية (٢).

(٢) نقلاً عن عون المعبود ٦/ ١٢٦.

المبحث الثاني

شبهات المبتدعة في صرف الركوع والسجود لغير الله

لما كانت أدلة النهي عن صرف الركوع والسجود لغير الله تعالى من الصراحة والوضوح بمكان ظاهر لكل من له أدنى نظر فيها ؛ فإنه لا يكاد يوجد عند المبتدعة صراحة في الدعوة إلى ذلك أو تقريره، وبالتالي فلم يحتاجوا إلى حشد شبه تجعلهم يتشبثون به، بل هم في الجملة ينصون على النهي عن السجود لغير الله تعالى، وأن ذلك لا ينبغي أن يكون إلا لله تعالى.

هذا من الناحية التنظيرية في تقريرهم لمسائل الاعتقاد.

أما من الناحية العملية فيوجد عند عوامهم صرفٌ للسجود لغير الله تعالى كالسجود للمشايخ والأموات من الأولياء، مستمسكين في ذلك بما هو أوهى من بيوت العنكبوت، كما ستأتي الإشارة إليه إن شاء الله تعالى، وإن كان البحث موضوعه في التنظيرات التي يقرر بها المبتدعة المخالفات في توحيد العبادة ؛ إذ أن أفعال العوام بحر لا ساحل له، فكل يوم لهم في عالم الخرافة راية ورواية.

ولكن ثمة شبه في الناحية التنظيرية يجد فيها المبتدعة إعذارا لما عليه الساجدون لغير الله تعالى، بل هي في حقيقتها نفي تام أن يكون السجود بنفسه عبادة مهما كان المسجود له.

وهذه الشبه - وهي شبهتان - وإن كان قد تقدم الكلام على شيء

منها، إلا إنها في باب السجود لغير الله تعالى لها ظهور صريح باعتبار السجود من أصرح الأمثلة التي تقرر بها هذه الشبه.

وهاتان الشبهتان هما:

١- **شبهة أن العبادة لا تكون عبادة إلا باعتقاد الخالقية في المعبود، وأن الشرك لا يكون إلا باعتقاد غير الله تعالى خالقا مدبرا مستقلا بالفعل.**

٢- **شبهة الإرجاء.**

إضافة إلى ما أشرت إليه مما يتمسكون به من الناحية العملية وهو تسمية الشيء بغير اسمه، فيسمون السجود احتراما وتقديرا لئلا يلحقهم بصرفه لمشايخهم ملامة.

الشبهة الأولى:

أن العبادة لا تكون عبادة إلا باعتقاد الخالقية في المعبود، وأن الشرك لا يسمى شركا إلا إذا اعتقد خالقا غير الله تعالى.

والجواب على هذه الشبهة قد مر معنا عند الكلام على شبهات المبتدعة في معنى العبادة، وشبهاتهم أيضا في معنى الشرك.

ومسألة السجود من أظهر المسائل التي يمثل بها في معنى العبادة والشرك.

والمبتدعة - بناء على تعريفهم للعبادة - لا يرون أن مجرد السجود يعتبر عبادة مصروفة للمعبود ما لم يكن هناك اعتقاد بأن ذلك المسجود له متصرف في الكون، وأنه مستقل بالتأثير من دون الله تعالى، وعليه

فإنه لا يعتبر شركا بذاته إلا بصدوره عن ذلك الاعتقاد.

وهذا مصادمة ظاهرة للدلائل الصريحة - النقلية والعقلية - من أن السجود لغير الله تعالى إذا كان دالا على العبادة لغير الله تعالى يعتبر شركا.

ودلالته على العبادة ليس بالتصور الذي يفرضه المبتدعة، إذ لو كان كذلك لما كان لدلالته الظاهرة أي اعتبار، ولكان كل ساجد لغير الله تعالى يجب أن يسأل قبل أن يحكم على فعله : هل سجوده مصاحب لاعتقاد الربوبية في ذلك المسجود له أم لا ؟

فإن كان الجواب بالإثبات كان الحكم بالشرك وإلا فلا.

وبناء على ذلك فإن حقيقة سجود المشركين السابقين لآلهتهم لا يعد شركا، وذلك لأنهم لم يكونوا يعتقدون في آلهتهم إلا أنهم وسائط يقربونهم إلى الله تعالى زلفى، وقد سبق تقرير ذلك بذكر تنوع دلائل القرآن في إثبات هذا المعنى.

وبناء على هذا المفهوم أيضا فلا يصح أن يطلق الحكم العام على السجود للأصنام وللشمس والقمر والأشجار والأحجار ونحو ذلك مما أجمعت الأُمة على أن من فعله كان مشركا ؛ إذ أنه من المحتمل أن يكون صادرا عمن يرى حرمة لبعض المخلوقات أو البقاع لعظيم انتفاع الناس بها، توجب تلك الحرمة أن يسجد لها احتراما دون أن يكون منه اعتقاد أنها الخالق المتصرف.

ولا أرى من المبتدعة إلا نكارة لمثل هذه الأمثلة المضروبة مما يدل على تضارب في المفاهيم ن وخلط بين المعاني ؛ إذ أن تلك

الأمثلة ما هي إلا لوازم واضحة لمفهوم العبادة والشرك الذي يقررونه.

نعم، لقد تقدم أن السجود له أحوال يختلف الحكم عليه باختلافها - وهو منهي عنه في كل حال في شريعتنا ـ، ولكن هذا لا يعني أنه صورة مجردة لا تدل على شيء، بل إن ظاهره له دلالة تفيد حكما شرعيا مستقى من كتاب الله تعالى وسُنة نبيه ﷺ.

فمن سجد للشمس والقمر فلا يسعفه أن يدعي أنه أراد الاحترام والتقدير لهذه المخلوقات العظيمة المسخرة، بل فعله هذا شرك بالله تعالى، ومخالفة صريحة لشرع الله تعالى بقوله : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٧].

وعلى مفهوم المبتدعة للعبادة فلا تكون الآية دالة دلالة صريحة على النهي عن الشرك ؛ إذ الأمر محتمل لغيره.

وإن المرء ليعجب حتى لا يكاد ينتهي منه عجب أن يأتي من يقرر مفهوم العبادة مطّرحا كل صورة من صورها أن تكون دالة عليها، فتتشابه عنده أعمال الشرك والتوحيد، ويراها صورا متطابقة لا يفرق بينها إلا اعتقاد الخالقية في المعبود، فيشتبه عنده السجود للصنم بالسجود للكعبة، ويظن أنهما سجودان لغير الله تعالى، لولا أن الثاني قرر بشرعة ربانية وفاعلها لا يعتقد الخالقية في البيت العتيق، فصار بذلك توحيدا خالصا.

أما الثاني عنده فهو شرك باعتبار أن أصحابه كانوا يعتقدون الخالقية والربوبية في تلك الأصنام.

يقول صاحب كتاب «التوحيد والشرك في القرآن الكريم» : (إن جميع المسلمين يطوفون في مناسك الحج بالبيت الذي لا يكون إلا حجرا وطينا، ويسعون بين الصفا والمروة، وقد أمر القرآن الكريم بذلك حيث قال : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحج: ٢٩]، ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، فهل ترى يكون الطواف بالتراب والحجر والجبل عبادة لهذه الأشياء ؟

ولو كان مطلق الخضوع عبادة لزم أن تكون جميع هذه الأعمال ضربا من الشرك المجاز المسموح به، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

إن المسلمين يستلمون الحجر الأسود - في الحج -، واستلام الحجر الأسود من مستحبات الحج، وهذا العمل يشبه من حيث الصورة - لا من حيث الواقعية - أعمال المشركين تجاه أصنامهم، في حين أن هذا العمل يعد في صورة شركا، وفي أخرى لا يعد شركا، بل يكون معدودا من أعمال الموحدين المؤمنين، وهذا يؤيد ما ذكرناه آنفا من أن الملاك هو النيات والضمائر لا الصور والظواهر، وإلا فهذه الأعمال بصورها الظاهرية لا تفترق عن أعمال الوثنيين)[١].

قلت : هب أن المشركين يعتقدون الربوبية في أوثانهم، وأنها مستقلة بالنفع والضر، أتراهم حين ينزعون ذلك الاعتقاد ويطرحونه، ويصرحون بأن فعلهم ذلك لا يريدون به إلا وجه الله تعالى، وأنهم لا يريدون من طوافهم بأصنامهم وسجودهم لها وسائر طقوسهم التي

(١) التوحيد في القرآن الكريم. لجعفر السبحاني ص ٤٣.

يقومون بها تجاههم إلا القربة والزلفى إلى الله تعالى، أترى تلك الأعمال الظاهرة في الشرك والوثنية تنقلب توحيدا خالصا بتلك النية التي صرحوا بها ؟!

فإن كان النفي فهو الإبطال لقوله.

وإن كان الإثبات، فما أبعد الحُجة إذا احتاج النهار إلى دليل !

والحاصل أنه بمثل هذا المفهوم للعبادة لا يكون لصورة السجود أي اعتبار ما لم يكن هناك اعتقاد محدد يعتقد في ذلك المسجود له، وإلا فمهما يكن فلا يكون عبادة له، وليس ثمة شرك بذلك.

ولا أظن مسلما يشك في كفر من سجد للأصنام والأوثان، معتبرا أن ذلك شرك بالله تعالى مهما كانت الدعوى التي يصرخ بها صاحبها، وإلا فبشّر من يسجد لتماثيل الزعماء زعما للمحبة والإعظام والتقدير أو حتى للمجاملة بأن لا خوف عليه من شرك أو خروج عن الملة !!

الشبهة الثانية:

شبهة الإرجاء، وهي جعل الإيمان هو التصديق فقط، وإخراج العمل عن مسمى الإيمان، باعتبار العرف اللغوي للإيمان، فما دام أنه في اللغة بمعنى التصديق فلا يتعدى هذا المفهوم إلى غيره، وبنوا على ذلك إخراج الأعمال أن تكون مؤثرة في ذلك الإيمان.

وهذه الشبهة وإن كان بينها وبين سابقتها أوجه مشابهة، إلا أن الكلام في رد الشبهة السابقة على بيان ضلال المبتدعة في فهمهم للتوحيد والشرك، حتى قصرت أفهامهم عن طبيعة الأمور الشركية.

ولعل شبهة الإرجاء تعتبر كالأصل لها، إذ التعريف الذي قرره المبتدعة للعبادة هو نتيجة حتمية لفكرة الإرجاء.

ومسألة السجود لغير الله تعالى في الفكر الإرجائي هي من المسائل التي توضح ما عليه أصحاب ذلك الفكر من تخبط وحيرة.

فهم ما بين النصوص الصريحة والإجماع الدالَّين على النهي عن السجود لغير الله تعالى، وأن السجود لغيره شرك مشابه لما كان عليه أهل الجاهلية، وبين كونه عملا من الأعمال التي في أصولهم لا تؤثر على الإيمان.

ولذلك فلقد صرح بعضهم في كلامه على الأعمال الشركية الظاهرة والصريحة كسبِّ الله تعالى، والسجود للأصنام بأنها أمارات للكفر، وليست هي في حقيقتها كفر.

جاء في شرح المواقف: (قال: «قلنا هو دليل عدم التصديق» أي سجوده لها يدل بظاهره على أنه ليس بمصدق، ونحن نحكم بالظاهر، ولذلك حكمنا بعدم إيمانه، لا لأن عدم السجود لغير الله داخل في حقيقة الإيمان «حتى لو علم أنه لم يسجد لها على سبيل التعظيم واعتقاد الإلهية» بل سجد لها وقلبه مطمئن بالتصديق «لم يحكم بكفره فيما بينه وبين الله» وإن أجري عليه حكم الكافر في الظاهر)[1].

ويقول البغدادي في «أصول الدين»: (والسجود للشمس أو للصنم وما جرى مجرى ذلك من علامات الكفر، وإن لم يكن في نفسه كفرا

(١) شرح المواقف ٣/ ٢٥٠-٢٥١.

إذا لم يضامه عقد القلب على الكفر، ومن فعل شيئا من ذلك أجرينا عليه حكم الكفر، وإن لم نعلم كفره ظاهرا)[١].

ويقول الكشميري - في هذا المعنى - : (هاهنا إشكال يرد على الفقهاء والمتكلمين، وهو أن بعض أفعال الكفر قد توجد من المصدق كالسجود للصنم والاستخفاف بالمصحف فإن قلنا إنه كافر ناقض قولنا : إن الإيمان هو التصديق، ومعلوم أنه بهذه الأفعال لم ينسلخ عن التصديق، فكيف يحكم عليه بالكفر ؟ وإن قلنا إنه مسلم فذلك خلاف الإجماع، وأجاب الكستلي تبعا للجرجاني : إنه كافر قضاء ومسلم ديانة)[٢].

وهذا التخريج وإن لم يصرح به عمومهم إلا أنه لازم لهم، إلا أن يروا عدم التكفير بذلك ظاهرا وباطنا، وهذا ما هربوا منه بمثل هذا التخريج.

ولقد ألزم الإمام أحمد رحمه الله الجهم وأتباعه بعدم تكفيرهم لمن شد الزنار وصلى للصليب لاعتبار أن ذلك لا يدخل في معنى التصديق، فقال : (فيلزمه أن يقول إذا أقرّ، ثم شد الزنار في وسطه، وصلى للصليب، وأتى الكنائس والبيع، وعمل الكبائر كلها، إلا أنه في ذلك مقر بالله، فيلزمه أن يكون عنده مؤمنا وهذه الأشياء من أشنع ما يلزمهم)[٣].

---

(١) أصول الدين ص ٢٦٦.
(٢) فيض الباري ١/ ٥٠.
(٣) نقلا عن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٧/ ٤٠١.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقا على هذا الإلزام الذي ألزمهم به الإمام أحمد : (قلت : هذا الذي ذكره الإمام أحمد من أحسن ما احتج الناس به عليهم، جمع في ذلك جملا يقول غيره بعضها، وهذا الإلزام لا محيد لهم عنه، ولهذا لما عرف متكلمهم مثل جهم ومن وافقه أنه لازم التزموه، وقالوا : لو فعل ما فعل من الأفعال الظاهرة لم يكن بذلك كافرا في الباطن، لكن يكون دليلا على الكفر في أحكام الدنيا، فإذا احتج عليهم بنصوص تقتضي أنه يكون كافرا في الآخرة، قالوا : فهذه النصوص تدل على أنه في الباطن ليس معه من معرفة الله شيء، فإنها عندهم شيء واحد، فخالفوا صريح المعقول وصريح الشرع، وهذا القول مع فساده عقلا وشرعا، ومع كونه عند التحقيق لا يثبت إيمانا، فإنهم جعلوا الإيمان شيئا واحدا لا حقيقة له كما قالت الجهمية ومن وافقهم ... ومن كان موافقا لقول جهم في الإيمان بسبب انتصار أبي الحسن لقوله في الإيمان، يبقى تارة يقول بقول السلف والأئمة، وتارة يقول بقول المتكلمين الموافقين لجهم، حتى في مسألة سب الله ورسوله ﷺ، رأيت طائفة من الحنبليين والشافعيين والمالكيين إذا تكلموا بكلام الأئمة، قالوا : إن هذا كفر باطنا وظاهرا. وإذا تكلموا بكلام أولئك قالوا : هذا كفر في الظاهر، وهو في الباطن يجوز أن يكون مؤمنا تام الإيمان)[١].

وتصور هذا التضارب والخلط يكفي جواباً على رد هذه الشبهة التي يقررها المرجئة فيما يتعلق بالأعمال الظاهرة، ومنها السجود لغير الله تعالى.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٤٠١-٤٠٣ باختصار.

أما الشبهة الثالثة:

وهي تسمية السجود بغير اسمه فهي حيلة العوام تبريرا لسجودهم لمشايخهم، ووضعهم رؤوسهم عند أرجلهم، ويسمونه تحية واحتراما للمشايخ، ونحو ذلك.

والجواب:

إن العبرة في الأشياء حقائقها، والدلائل الصريحة التي تظهر منها، أما الأسماء والألقاب فما أكثرها، بل وما ألطفها وأجملها، ولو ردت الأحكام إلى ما تصاغ به من ألقاب لما ألفيت كل باطل إلا وعليه هالة من الألفاظ المزخرفة والمنمقة، وبمثل ذلك قرر أهل الباطل باطلهم، وأغروا الأسماع التي هي في الحقيقة بادي الرأي.

فإنك ما ترى باطلا يقرره أصحابه إلا بزينة من القول، وحلاوة من طرف اللسان.

ولقد سمى المشركون شركهم الصريح تقربا إلى الله وزلفى إليه.

ولقد سمى المنافقون نفاقهم إرادة للتوفيق والإحسان.

ولقد ادعى فرعون أن محاربته موسى عليه الصلاة والسلام إنما هي حرص على الدين وحفاظ على المجتمع من الفساد كما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦].

وقال تعالى عنه: ﴿...قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: ٢٩].

فالدعوى أسهل ما تكون جمعا وعرضا، ولكن:

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء

فالسجود لغير الله تعالى قد دلت الأدلة الصريحة على النهي عنه، وأنه قد يكون شركا بحسب حاله الدالة عليه، كما سبق بيانه في المبحث السابق.

ثم إنه منهي عنه في جميع أحواله، فأي حُجة تبقى لمستمسك بها في هذا الباب، سوى الهوى الذي يعمي ويصم.

وللإمام ابن القيم رحمه الله كلام في هذا المعنى لطيف، إذ يقول: (فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية الذين أساس مشيختهم على الشرك والبدعة، فأرادوا من مريديهم أن يتعبدوا لهم، فزينوا لهم حلق رؤوسهم لهم كما زينوا لهم السجود لهم وسموه بغير اسمه وقالوا هو وضع الرأس بين يدي الشيخ، ولعمر الله إن السجود لله هو وضع الرأس بين يديه سبحانه، وزينوا لهم أن ينذروا لهم، ويتوبوا لهم، ويحلفوا بأسمائهم، وهذا هو اتخاذهم أربابا وآلهة من دون الله، قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠]، وأشرف العبودية عبودية الصلاة وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة، فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها وهو السجود، وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوع، فإذا لقي بعضهم بعضا ركع له كما

يركع المصلي لربه سواء، وأخذ الجبابرة منهم القيام، فيقوم الأحرار والعبيد على رؤوسهم عبودية لهم وهم جلوس، وقد نهى رسول الله عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل، فتعاطيها مخالفة صريحة له)[١].

وإن استدلوا على أن هذا من باب الاحترام، وهو جائز بدليل سجود الملائكة لآدم عليهم السلام، وسجود يعقوب وولده ليوسف عليهم السلام، فهذه مخالفة صريحة؛ إذ النصوص دالة في شريعتنا على النهي عن السجود لغير الله تعالى مهما كان سبب السجود، ومهما كان المسجود له.

فهذا مما هو معلوم ضرورة.

أما كون السجود يكون عبادة أو احتراما فقد سبق بيانه في ذكر أحوال السجود، والله المستعان .



---

(١) زاد المعاد ٤/ ١٦٠.

فهرس موضوعات

(المجلد الأول)



